الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهي مَعْلَمَة أندلسيّة تحيط بكلّ ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي

وفقه الله لما يرضاه

الجزء الثاني

١٣٥٥ هـ الطبعة الأولى ١٩٣٦ م

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس

وفروعها بالأقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

من نبغ فى طليطلة

من الحكماء والفقهاء والأدباء

احمد بن محمد بن داود التجيبى ، يكنى أبا القاسم ، توفى سنة ٣٨٣ . وأحمد ابن سهل بن محسن الأنصاري المقرىء، المكنى بأبى جعفر، المعروف بابن الحداد . له رحلة إلى المشرق ، توفى فى شهر رمضان سنة ٣٨٩ . واحمد بن محمد بن الحسن المعافرى ، توفى سنة ٣٩٣ ، أوفى السنة التى بعدها . واحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموى ، يعرف بابن ميمون ، يكنى أبا جعفر ، صاحب أبى اسحق بن شنظير، ونظيره فى الجمع والاكثار والملازمة معاً ، والسماع جميعاً ، رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ مع صاحبه أبى اسحق ، فحج معه ، وسمع بمكة ، والمدينة ، ووادى القرى ، ومَدْين ، والقلزُم ، وغيرها ، ثم عاد إلى طليطلة واستوطنها ، ورحل الناس إليه بها ، والتزم الرباط بالفهمين[1] منها ، وكانت له أخلاق كريمة ، وآداب حسنة ، مع الفضل والزهد والورع ، وجمع كثيراً من الكتب ، وكان أكثرها بخط يده . قال ابن بشكوال : وكانت منتخبة ، مضبوطة ، صحاحاً ، أمهات ، لايدع فيها شبهة مهملة . وكانت كتبه وكتب صاحبه ابراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة ، وتوفى يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة ٤٠٠ ودفن بحومة باب شاقره[2] بربض طليطلة ، وصلى عليه صاحبه أبو اسحق بن شنظير وكانت ولادته سنة ٣٥٣ .

وأبو عمر احمد بن محمد بن وسيم ، كان فقيهاً متفنناً ، شاعراً لغوياً نحوياً ، غزا مع محمد بن تمام إلى مكّادة ، فلما انهزموا هرب إلى قرطبة ، فاتبعه أهل طليطله فى

---

(١) تقدم ذكر هذه القصبة التى نزل فيها بنو فهم فنسبت إليهم وهى من أعمال طليطلة

(٢) وهو الباب الذى يقول له الاسبان Visagra

ولاية واضح ، وظفروا به فصلبوه ، فقال حينئذ : كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ! وجعل يقرأ سورة ياسين حتى سقط من الخشبة . قال ابن حيان فى تاريخه : صلب ابن وسيم في رجب سنة ٤٠١

واحمد بن محمد بن فتحون الأموى ، كان نبيلا ، توفى سنة ٤٠٧ . واحمد بن خلف ابن احمد المعافرى ، يكنى أبا عمر ، و يعرف بابن القلاباجّه ، روي عن عبدوس ابن محمد ، وعن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وكان من أهل العلم والدين ، يستظهر موطأ مالك . واحمد بن سعيد بن كوثر الأنصارى ، يكنى أبا عمر ، كان فقيهاً متفننا ، كريم النفس ، أخذ عن علماء طليطلة ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة . حدّث عبد الله ابن سعيد بن أبى عون قال : كنت آتى إليه من قلعة رباح وغيرى من الشرق ، وكنا نيفًا على أربعين تلميذاً ، فكنا ندخل فى داره فى شهر نونبر ودجنبر و ينير[1] فى مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفى وسطه كانون فى طول قامة الانسان مملوء فحماً ، يأخذ دفئه كل من فى المجلس . فاذا فرغ الحزب أمسكهم جميعاً ، وقدّمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان ، بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبان فى السمن أو الزبد . فكان ذلك منه كرما وجوداً وفخراً ، ولم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة . وولى أحكام طليطله مع يعيش بن محمد ، ثم استثقله ودبّر على قتله ، فذُكر أن الداخل عليه ليقتله ألفاه وهو يقرأ فى المصحف ، فشعر أنه يريد قتله ، فقال له : قد علمتُ الذى تريد ، فاصنع ماأمرت . فقتله ، وأشيع فى الناس أنه مرض ومات . وذكر ابن حيان غير هذا ، وهو أنه مات معتقلا بشنترين مسموما سنة ٤٠٣ رحمه الله

واحمد بن عبد الله بن شاكر الأموى ، يكنى أبا جعفر ، كان معلما بالقرآن ، توفى سنة ٤٢٤ . واحمد بن يحى بن حارث الأموى ، يكنى أبا عمر ، وكان ميله إلى الحديث والزهد والرقائق ، وكان ثقة . وأحمد بن ابراهيم بن هشام التيمى أبو عمر ، كان معظما عند الخاصة والعامة ، توفى فى سنة ٤٣٠ . واحمد بن حيّة ، كان فاضلا متواضعا حافظا

(١) Novembre, Décembre et Janvier

توفى فى شعبان سنة ٤٣٩ . واحمد بن عبد الله بن محمد التجيبى ، المعروف بابن المشّاط يكنى أبا جعفر ، كان ثقة زاهداً ، غلبت عليه العبادة . وأحمد بن محمد بن يوسف بن بدر الصدفى ، أبو عمر ، كان زاهداً عابداً ، توفى فى ذى القعدة سنة ٤٤١ . واحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف التجيبى أبو جعفر ، يعرف بابن ارفع رأسه ، كان رأسا فى الفقه ، وشاعراً مطبوعا ، بصيراً بالحديث ، وكانت له حلقة فى الجامع ، وتوفي ليلة عاشوراء سنة ٤٤٣ . واحمد بن سعيد بن احمد بن الحديدى التجيبى ، يكنى أبا عباس له رحلة إلى المشرق ، حج فيها ، وله أخلاق كريمة ، توفى سنة ٤٤٦ . واحمد ابن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد بن وثيق بن عثمان التغلبى ، قاضى طليطلة ، يكنى أبا الوليد ، استقضاه المأمون بن ذى النون ، وكان مجتهداً فى قضائه صليبا فى الحق ، صارماً فى أموره كلها ، متبركا بالصالحين ، توفى قاضيا لخمس بقين من رمضان سنة ٤٤٩

واحمد بن يوسف بن حمّاد الصدفى ، أبو بكر ، يعرف بابن العوّاد ، كان معلما بالقرآن ، حسن الضبط ، ورعا ؛ توفى سنة ٤٤٩ . واحمد بن يحيى بن احمد بن سُميق ابن محمد بن عمر بن واصل بن حرب بن اليسر بن محمد بن على ، قال ابن بشكوال : كذا ذكر نسبه رحمه الله ، وذكر أن أصلهم من دمشق من اقليم الغدّير (؟) يكنى أبا عمر ، من أهل قرطبة ، سكن طليطلة وتوفى بها فى حدود الخمسين وار بعمائة .

وكان خروجه عن قرطبة فى أثناء الفتنة ، فولاه أبو عمر بن الحذّاء قاضى طلطيله أحكام القضاء بطلبيرة ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، وعني بالحديث ، وكان مشاركاً فى عدة علوم ، وكان متهجدا بالقرآن ، له منه حزب بالليل ، وحزب بالنهار . وكان ملتزماً لداره ، لا يخرج منها إلا للصلاة أو لحاجة . وكان يختلف إلى غلّة له بحومة المترب ، يعمرها بالعمل ليعيش منها

واحمد بن محمد بن عمر الصدفى ، المعروف بابن أبى جنادة ، المكنى بأبى عمر ، كان من أهل العلم والعمل ، صواماً قواماً ، منقبضاً عن الناس ، فارًّا بدينه ، ملازماً لثغور المسلمين ، توفي فى شوال سنة ٤٥٠ ، وصلى عليه تمام بن عفيف ، وحضر جنازته

المأمون بن ذى النون ملك طليطلة . واحمد بن مغيث بن احمد بن مغيث الصدفى ، المكنى بأبى جعفر ، من جلة علماء طليطلة ، بلغ الرئاسة فى العلم والحديث وعلله ، واللغة ، والنحو ، والتفسير ، والفرائض ، والحساب ، وعقد الشروط . له فيها كتاب سماه المقنع ، وكان كلفا بجمع المال ، توفى فى صفر سنة ٤٥٩ .

واحمد بن محمد بن مغيث الصدفى ، له رحلة إلى المشرق ، وكان يحفظ صحيح البخارى ، ويعرف رجاله ، وكان يفضل الفقر على الغنى ، مات فى منسلخ رمضان سنة ٤٥٩ (١) ، وصلى عليه القاضى أبو زيد الحشاء . واحمد بن سعيد بن غالب الأموى المكنى أبا جعفر ، المعروف بابن اللورانكى ، كان فقيها فى المسائل مشاركاً فى الحديث والتفسير ، أديبا ، فرضيا ، لغوياً ، توفى فى شوال سنة ٤٦٩ وصلى عليه عبد الرحمن ابن مغيث .

وأحمد بن محمد بن أيوب بن عدل ، المكنى أبا جعفر ، كان متولياً الصلاة والخطبة بجامع طليطلة ، وكان من أهل الصلاح والعفاف ، توفى فى ربيع الآخر سنة ٤٧٨ ، أى بعد سقوط طليطلة ، لأنها سقطت فى محرم ، وقيل فى صفر من تلك السنة . وأحمد بن يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصارى ، أبو عمر ، كان ثقة بصيراً بالحديث والتفسير ، عالماً بالفرائض ، رحل إلى المشرق وحج ، ثم تولى القضاء بطليطلة ثم صُرف عنه ، وتوفى بقرطبة سنة ٤٨٠ . قال ابن بشكوال : انه وجد على قبره بمقبرة أم سلَمة انه توفى فى شعبان سنة ٤٧٩ . واحمد ابن بشر الأموى ، وكان نبيلا وقوراً

(١) وجدت كتابة كوفية محفوظة اليوم فى المتحف الأثرى بمجريط كانت على قبر محمد بن احمد بن محمد بن مغيث وقد نقلناها فى محل آخر بمناسبة ما وجد فى أرباض طليطلة من قبور المسلمين ، وصورتها : بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . هذا قبر محمد بن احمد بن محمد بن مغيث كان يشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . توفى رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة . ونظن أن صاحب هذا القبر هو ابن المترجم .

عاقلا ، انتقل من طليطلة الى سرقسطة و بقى بها إلى أن توفى سنة ٤٨٥ . واحمد ابن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصارى ، أبو جعفر ، لقى كثيرا من الشيوخ وأخذ عنهم وكان بصيراً بالمسائل ، مولعاً بحفظ الآثار ، وتقييد الأخبار ، وله كتاب فى تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها ، وقد نقل عنه ابن شكوال أكثر التراجم التى سبقت ونحن هنا نقلناها تلخيصاً عن ابن بشكوال ، وتوفي بطليطلة فى أيام النصارى سنة ٤٨٩ . واحمد بن ابراهيم بن قزمان المكنى أبا بكر ، أخذ عن أبى بكر بن الغرّاب، وأبى عمرو السفاقسى،وحدّث عنه أبوحسن بن الالبيرى ، وابراهيم ابن اسحق الاموى المعروف بابن أبى زرد ، كنيته ابو اسحق ، توفى فى رمضان سنة ٣٨٢ . وابراهيم بن محمد ابن اشبيح الفهمى ، كان متفنناً عارفاً باللغة والعربية والفرائض والحساب ، وشوور فى الأحكام ، وتوفى فى شعبان سنة ٤٤٨ ، وصلى عليه احمد بن مغيث ، وحضر جنازته المأمون بن ذى النون ، وأبواسحق ابراهيم بن محمد بن أبى عمرو ، كان صالحاً ، وقوراً عاقلا ، توفى فى صفر سنة ٤٥١ ، نقل ذلك ابن شكوال عن ابن مطاهر ، وأبو اسحق ابراهيم بن محمد بن حسين بن شنظير الأموى ، صاحب أبى جعفر بن ميمون الذى سبق ذكره ، وكانا معاً كفرسى رهان فى العناية الكاملة بالعلم والبحث عن الروايات. أخذا العلم معاً عن مشيخة طليطلة ، ثم رحلا الى قرطبة ، فأخذا عن مشيختها ، وسمعا بسائر بلاد الأندلس ، ثم رحلا إلى المشرق ، فسمعا معاً ، وكانا لا يفترقان . وكان السماع عليهما معاً ، وكانت أجازتهما بخطهما لمن سألهما ذلك معاً . وكان لهما حلقة فى المسجد الجامع . ورحل الناس اليهما من الآفاق ، ولما توفى احمد بن محمد بن ميمون ، انفرد ابو اسحق بن شنظير بالمجلس ، وكان فاضلا ناسكاً ، صواماً ، قواماً ، ورعاً ، كثير التلاوة لكتاب الله ، ما رؤى أزهد منه فى الدنيا ، ولا أوقر مجلساً . كان لا يذكر فى مجلسه شىء من أمور الدنيا إلا العلم ، ولم يكن يجرأ أحد أن يضحك بين يديه

قال ابن مطاهر : انه توفى سنة ٤٠١ ، ودفن بربض طليطلة . ونقل ابن شكوال عن أبى إسحق ابراهيم بن وثيق أنه سمع أبااسحق ابراهيم بن شنظير يقول : ولدتُ

سنة ٣٥٢ ، سنة غزاة الحكم أمير المؤمنين . وكانت وفاته ليلة الخميس من سنة ٤٠٢ وقال : هذا أصح من الذى ذكره ابن مطاهر . وأيضاً أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن شنظير الأموى ، كان من أهل العلم والدين ، اختصر المدونة ، والمستخرجة ، وكان يحفظها ظاهراً ، ويلقى المسائل من غير أن يمسك كتاباً ، قال ابن بشكوال : وكان قد شرب « البلاذر » انتهى .

قلت : ورد فى ترجمة أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى المؤرخ الشهير بالبلاذرى أنه تناول بغير قصد كية من حب البلاذر ، أثرت فى فكره تأثيراً عظيما ، حتى كانت تقع له نوبات جنون ، إلى أن مات . وهو صاحب تاريخ فتوح البلدان ، من أجلّ التواريخ قدراً .

وأبو اسحق إبراهيم بن محمد بن وثيق ، أخذ عن أبى إسحق بن شنظير ، وصاحبه أبى جعفر بن ميمون ، وكان ثقة . وإسماعيل بن إبراهيم بن اسماعيل بن أبى الحارث التجيبى ، وكان رجلا صالحاً ، توفى سنة ٤٤٤ . وأبو إبراهيم اسحق بن محمد بن مسلمة الفهرى ، أخذ عن علماء الأندلس ، ورحل إلى المشرق ، وكان مشاوَراً فى بلده ، وتوفى فى رجب سنة ٤٦٩ عن تسعين سنة . وأغلب بن عبد الله المقرى ، كان قارئاً بحرف نافع .

وتمام بن عفيف بن تمام الصدفى الواعظ الزاهد ، يكنى أبا محمد ، أخذ عن أبى اسحق بن شنظير ، وعن صاحبه ابى جعفر بن ميمون ، وعن عبدوس بن محمد ، وشهر بالزهد والورع ، وكان يعظ الناس ، توفى فى ذى القعدة سنة ٤٥١ ، ذكره ابن مطاهر . وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن أحمد التجيبى ، من أهل قرطبة ، من ساكنى ربض الرصافة بها ، استوطن طليطلة ، وأخذ فيها عن أبى محمد بن عباس الخطيب ، وأبى محمد الشنتجالى . وكان ثقة فاضلا ، قتل فى داره بطليطلة ظلماً ليلة عيد الأضحى سنة ٤٧٥ ، ومولده سنة ٣٩٣ . وجماهر بن عبد الرحمن بن جماهر الحَجْرى ، يكنى أبابكر ، أخذ عن علماء الاندلس ، ثم رحل الى المشرق حاجاً سنة ٤٥٢ ، فلقى بمكة كريمة المروزية

وسعد بن على الزنجانى ، ولقى بمصر أبا عبد الله القضاعى ، وسمع منه تواليفه . ولقى بالاسكندرية أباعلي حسين بن معافى ، ولقى شيوخاً كثيرين . وكان حافظاً للفقه على مذهب مالك ، عارفاً بالفتوى وعقد الشروط . وكان حسن الخلق متواضعاً ، معظماً عند الناس وكان قصير القامة جداً. وتوفى لاثنتى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ ، وهو ابن ثمانين سنة ، وصلى عليه يحيي بن سعيد بن الحديدى ، وازدحم الناس جداً حول نعشه .

وأبو على الحسين بن أبى العافية الجنجيالى ، قدم طليطلة مرابطاً ، وكان شيخاً صالحا ، توفى سنة ٣٨٣ . وخلف بن صالح بن عمران بن صالح التميمى ، أبو عمر[1] ، كان من أهل الحديث ، توفى ليلة الاثنين لسبع خلون من عشر ذي الحجة سنة ٣٧٨ . وأبو بكر خلف بن اسحق ، ولد سنة ٣٠٠ ، وتوفى سنة ٣٨٠. وأبو بكر خلف بن بقى التجيبى ، تولى أحكام السوق ببلده ، وكان يجلس لها بالجامع ثم عزل عنها وكان صليبا في الحق . وأبو بكر خلف بن احمد بن خلف الأنصارى المعروف بالرحوى ، رحل إلى المشرق ، وكان عارفاً بالأحكام ، ناهضاً ، وقضى أكثر دهره صائما ، وكان مع ذلك كثير الصدقات ، وكان له حظ من قيام الليل ، ودعى إلى قضاء طليطلة فأبى ، وهرب من ذلك ، وتوفى سنة ٤٢٠ .

وأبو القاسم خلف بن ابراهيم بن محمد القيسى المقرىء الطليطلى ، سكن دانية وأخذ عن أبى عمرو المقرى ، وعن أبى الوليد الباجى ، وتوفى يوم الاثنين عقب ربيع

---

(١) وجدت كتابة فى طليطلة نصها بعد البسملة : « هذا قبر محمد بن عبد الله بن عمران توفى رحمة الله عليه ورضوانه ليلة الاحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول سنة احدى وتسعين وثلاثمائة فرحم الله من ترحم عليه ودعا له وصلى الله على محمد »

روى لاوى بروفنسال أن المستشرق الاسبانى قديرة Codera الذى هو من أصل عربى قال إن هذا الرجل هو من عائلة خلف بن صالح بن عمران التميمى المتوفى سنة ٣٧٨ ، وعبد الله بن محمد ابن صالح بن عمران التميمى المتوفى سنة ٣٨٤ وكلاهما قد ترجمه ابن بشكوال فى الصلة . بل نظن أن محمد بن عبد الله بن عمران هذا هو ابن أبى محمد عبدالله ابن محمد بن صالح بن عمران التميمي، الذى سيأتى ذكره بين المترجمين من علماء طليطلة

الأول سنة ٤٧٧ . وأبو القاسم خلف بن سعيد بن محمد بن خير الزاهد الطليطلى ، سكن قرطبة ،قرأ القرآن على أبى عبدالله المغامى (نسبة إلى مغام ، من قرى طليطلة ، وقد سبق ذكرها)وتأدب به ، وأخذأيضاً عن أبى بكر عبد الصمد بن سعدون الركانى وكان رجلا صالحا ورعا ، متقللا من الدنيا ، يتبرك به الناس ، كثير التواضع ، وكان صاحب صلاة الفريضة بالمسجد الأعظم بقرطبة . قال ابن بشكوال : توفى رحمه الله يوم الاثنين ، ودفن عشى الثلاثا ، منتصف ذى القعدة سنة ٥١٥ ، ودفن بالربض ، وصلى عليه القاضى أبو القاسم بن حمدين ، وكانت جنازته فى غاية من الحفل ، ما انصرفنا منها الا مع المغرب ، لكثرة من شهدها من الناس .

وأبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن أبى سعد بن يزيد بن أبى يزيد بن سليمان بن ابى جعفر التجيبى ، كان مقرئا اخذ عن عبدوس بن محمد ، وعن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وكان من أهل الصلاح ، توفى فى رمضان سنة ٤٣١ . وأيضا أبو الربيع سليمان بن عمر بن محمد الأموى ، يعرف بابن صهبيّة ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وعن الصاحبين : ابن شنظير وابن ميمون ، وكانت له رحلة الى المشرق ، وكان يقرىء القرآن بجامع طليطلة . وكان ابن يعيش يستخلفه على القضاء فيها ، وكان مع هذا شاعراً ، نحوياً ، خطاطاً . وأيضاً ابو الربيع سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ ، من أهل قرطبة ، لكنه مات فى طليطلة ، فى الار بعين وار بعمائة . وكان بارع الخط ، افنى عمره فى كتابة المصاحف . وأيضاً أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن هلال القيسى ، كان رجلا صالحاً زاهداً ، فرّق جميع ماله ، وانقطع الى الله عز وجل، وكان مشاركا فى الحديث والتفسير ، ولزم الثغور ، وتوفى بحصن عرماج . وذكروا ان النصارى يزورون قبره و يتبركون به . وأبو عثمان سعيد بن أحمد بن سعيد بن كوثر الانصارى ، وكانت فتيا طليطلة تدور عليه وعلى محمد بن يعيش . وكان من أهل الفطنة والدهاء والثروة ، توفى فى نحو الار بعمائة . وأبو عثمان سعيد بن رزين ابن خلف الأموى ، يعرف بابن دحية ، ذكره ابو بكر بن أبيض فى شيوخه وأثنى عليه .

وأبو الطيّب سعيد بن احمد بن يحيى بن سعيد بن الحديدى التجيبى ، روى عن أبيه وعن محمد الخشنى ، وجمع كتباً لا تحصى ، وكان معظما عند الخاصة والعامة ، ورحل الى المشرق حاجاً ، وسمع بمكة وبمصر ، وبالقيروان . وكان أهل المشرق يقولون : ما مرّ علينا مثله . قال ابن مطاهر : توفى يوم الاثنين لخمس خلون من ربيع الأول سنة ٤٢٨ . وابراهيم بن يحيى بن ابراهيم بن سعيد ، يعرف بابن الأمين ، كُنيتهُ أبو اسحق ، سكن قرطبة ، وأصله من طليطلة ، وكان من جلّة المحدثين ، ومن كبار الادباء ، توفى بلبلة فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ ، قال ابن بشكوال : وأخذت عنه وأخذ عنى . واثنى عليه وعلى دينه وعلمه .

وخلف بن يحيى بن غيث الفهري ، من أهل طليطلة ، سكن قرطبة ، وتوفى بها سنة ٤٠٥ ، وكان شيخاً فاضلا عالماً ، ونقل ابن بشكوال عن قاسم الخزرجى انه توفى فى منتصف صفر ، ثم قال : وقرأت بخط ابنه محمد بن خلف : توفى والدى رضى الله عنه ليلة السبت ، والاذان قد اندفع بالعشاء الآخرة ، لاربع خلون من صفر سنة ٤٠٥ . وأبو الربيع سليمان بن سماعة بن مروان بن سماعة بن محمد بن الفرج بن عبد الله ، نقل ابن بشكوال عن أبى على الغسانى من خط يده انه قال بحقه : هو شيخ من أهل الأدب ، اجتمعتُ به ببطَلْيوس و بقرطبة . وأبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموى ، روى عن الصاحبين : ابن شنظير وابن ميمون ، وكان فاضلا ، ثقة ، عفيفاً ، كثير الصلاة والصيام ، نابذاً للدنيا . مات فى رمضان سنة ٤٤٨ [1]

(١) يذهب المستشرق قديرة إلى أن الكتابة التى وجدت فى طليطلة سنة ١٨٨٨ فى أثناء تسوية طريق المقبرة وهى محفوظة فى المتحف الأثرى بتلك البلدة ونصها بعد البسملة : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور هذا قبر الفقيه أبى عثمان سعيد بن جعفر توفى رحمه الله يوم السبت لعشر بقين لشهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة » هى على قبر أبى عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموى الطليطلى الذى ترجمه ابن بشكوال فى الصلة ولكن فى كتاب ابن بشكوال يعين تاريخ وفاة هذا الرجل رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وليس ثلاثا وأربعين

وأبو عثمان سعيد بن عيسى الأصفر ، كان عالما بالعربية ، مشاركا فى المنطق ، كاتباً للأخبار ، توفى فى نحو الستين وأربعمائة .

وأبو طيب سعيد بن يحيى بن سعيد بن الحديدى التجيبى ، كان من أهل العلم والذكاء ، ولاه المأمون بن ذى النون قضاء طليطلة ، فحسنت سيرته ، وكان ثقة متحرياً مبلوّ السداد ، ولم يزل قاضيا حتى توفى المأمون ، فامتحن أبو الطيب هذا وقتل أبوه ، وسجن هو بسجن « وَبْذَة » فمكث فيه إلى أن توفى في شوال سنة ٤٩٢ ، وذكر ابن مطاهر انه عهد قبل موته أن يدفن بكبلة ، وأن يكتب فى حجر يوضع على قبره. (إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فامتثل ذلك . وأبو القاسم سلمة بن سليمان المُكَتِّب، وكان شيخاً فاضلا

وأبو محمد سرواس بن حمّود الصنهاجى ، كان معلما للقرآن ، توفى فى ربيع الأول سنة ٣٩١ . وصاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد[1] التغلبى ، يكنى أبا القاسم أصله من قرطبة ، روى عن أبى محمد بن حزم ، والفتح ابن القاسم ، وأبي الوليد الوقشى واستقضاه المأمون يحيى بن ذى النون بطليطلة ، وكان متحريا فى أموره . واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق ، وبالشهادة على الخط ، وقضى بذلك ، وكانت

وأربعمائة . قلنا ان توجيه هذا الفرق سهل فقد يجوز ان يكون ابن بشكوال اخطأ فى تعيين السنة كما انه يجوز ان يكون وقع سهو من أحد نساخ كتاب الصلة فبدلا من أن يكتب ثلاث واربعين كتب ثمان وأربعين وهذا يقع كثيراً . والأصح هو التاريخ المزبور على الحجر كما لا يخفى

(١) القاضى صاعد بن أحمد الطليطلى الأندلسى هو من أعظم من أنجبته طليطلة بل الأندلس كلها وهو من الحكماء الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة على نسق القاضى ابن رشد ومن كتابه « طبقات الأمم » فى تاريخ العلوم والعلماء والامم التى عنيت بالعلم والمدنية يستدل على علو طبقته وقد نقلناعنه فى هذا الكتاب بعض شذرات فى القسم الجغرافى وأخرى فى تراجم علماء الاندلس ولكننا لم نطلع من تآليفه إلا على هذا الكتاب

ولادته بالمرّية سنة ٤٢٠ ، وتوفى بطليطلة ، وهو قاضيها ، فى شوال سنة ٤٦٢ ، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدى . وأبو الحسن صادق بن خلف بن صادق بن كتيل الانصارى ، من أهل طليطلة ، سكن برغش[1] ، وكان رحل إلى المشرق ، فحج ودخل بيت المقدس ، وأخذ عن نصر بن ابراهيم المقدسى ، وأخذ عن أبى الخطاب العلاء ابن حزم ، وذلك فى البحر فى انصرافهما من الشرق الى الاندلس ، وكتب بخطه علما كثيراً ، وكان فاضلا . ديّنا ، عفيفا ، متواضعا ، توفى بعد سنة ٤٧٠ . وأبومحمد عبد الله بن عبد الله بن ثابت بن عبد الله الأموى ، حدّث عنه الصاحبان بطليطلة ، وقالا انه ولد سنة ٣٠٦ ، وتوفى سنة ٣٨٢ . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن صالح ابن عمران التميمى ، حدث عنه الصاحبان أيضا ، وقالا كان صاحبنا فى السماع ، وتوفى سنة ٣٨٤ .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهينى الطليطلى ، سكن قرطبة ، وسمع فيها من قاسم بن اصبغ ، وصحب القاضى منذر بن سعيد ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢ ، وكانت رحلته وسماعه مع أبى جعفر بن عون الله ، وأبى عبد الله ابن مفرّج ، فلقوا جلّة العلماء بالمشرق ، ولما رجعوا إلى الأندلس رغب الناس إليه أن يحدّث فقال : لا أحدّث مادام صاحباى أبو جعفر بن عون الله ، وأبو عبد الله بن مفرّج حيين ، فلما ماتا جلس للسماع ، وأخذ عنه العلماء الكبار : أبو الوليد بن الفرضى والقاضى أبو المطرّف بن فطيس ، وأبو عمر بن عبد البرّ ، وأبو عمر بن الحذّاء ، والخولانى ، وغيرهم .

---

(١) برغش هذه المشار اليها هنا ليست فيما يترجح مدينة برغش التى كانت قاعدة قشتالة بل هى قرية من قرى طليطلة وقد ضبطها ياقوت فى المعجم بعين مهملة والشين معجمة فقال : قرية بقرب طليطلة بالاندلس قال ابن بشكوال : سكنها صادق بن خلف ابن صادق بن كتيل الانصارى الطليطلى له رحلة إلى المشرق وسمع وروى ، ومات بعد سنة ٤٧٠

قال ابن الحذّاء : كان أبو محمد هذا شيخاً فاضلا ، رفيع القدر ، عالى الذكر ، عالما بالأدب واللغة ومعانى الشعر ، ذاكراً للأخبار ، حسن الايراد لها ، وقوراً ، وما رأيت أضبط لكتبه وروايته منه : وقال الخولاني : كان شيخاً ذكياً ، حافظا لغوياً ، رحل إلى المشرق ، وسمع جلّة العلماء بمكة و بمصر و بالشام ، وأسنّ ونيّف على الثمانين بثلاثة أعوام ، وصحبه الذهن إلى أن مات . قال ابن الحذّاء : ولد سنة ٣١٠ ، وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٥ ، زاد ابن حيّان : ودفن بمقبرة مُتعة ، وصلى عليه القاضى أبو العباس بن ذكوان . وكان السلطان قد تخيّر أبا محمد بن أسد هذا لقراءة الكتب الواردة عليه بالفتوح بالمسجد الأعظم بقرطبة ، لفصاحته ، وجهارة صوته ، وحسن ايراده ، فتولى ذلك مدة ، إلى أن ضعف ، وثقل بدنه ، فاستعفى السلطان من ذلك فاعفاه ، ونصب سواه ، فكان يقول : ما ولّيت لبنى أمية قط ولاية غير قراءة كتب الفتوح على المنبر ، فكنت أتحمل الكلفة دون رزق ، ومنذ أعفيت منها كسلت ، وخامرنى ذل العزلة . وكان حاضر الجواب ، حارّ النادرة ، وأخباره كثيرة . وكان يستحسن الاستخارة بالمصحف .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن نصر بن أبيض بن محبوب بن ثابت الأموى النحوى ، من طليطلة ، سكن قرطبة ، أخذ عن جلّة العلماء ، وكان أديباً حافظا ، نبيلا ، أخذ الناس عنه ، وجمع كتابا فى الرد على محمد بن عبد الله بن مسرّة ، أكثر فيه من الحديث والشواهد ، وأخذ عنه الصاحبان ابن شنظير وابن ميمون ، وقالا إن مولده فى شعبان سنة ٣٢٩ ، وسُكناه بزقاق دُحين ، وصلاته بمسجد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وتوفى سنة ٣٩٩ أو سنة ٤٠٠ . وأبو محمد عبد الله بن أحمد ابن عثمان ، المعروف بابن القشّارى ، من طليطلة ، وخطيب جامعها ، كان ثقة ديّنا ورعا ، قليل التصنع . وكان الغالب عليه الرأى ، وكان مشاوَراً فى الأحكام ، وكان يعقد الوثائق بدون أجرة ، وكان من الشعراء . توفى ليلة السبت لليلتين خلتا من شعبان سنة ٤١٧ ، وصلى عليه أبو الطيب بن الحديدى .

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن زُنين بن عاصم بن عبد الملك بن إدريس بن بهلول بن أزرق بن عبد الله بن محمد الصدفى ، روى ببلده عن أبيه ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن أبى عبد الله بن عيشون وغيرهم ، وبقرطبة عن أبى جعفر بن عون الله ، وأبى عبد الله بن مفرّج ، وخلف بن قاسم وغيرهم ، وكتب بمدينة الفرج عن أبى بكر بن يُنّق ، وأبى عمر الزاهد ، وأبى زكريا بن مسرّة ، ورحل إلى المشرق مع أبيه سنة ٣٨١ ، فحج وسمع بمكة وبمصر وبالقيروان ثم عاد إلى طليطلة بلده ، فأخذ عنه أهلها ، ورحل الناس إليه من البلدان . وكان فاضلا عابداً زاهداً ، آمراً بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، يتولى ذلك بنفسه ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وله فى هذا المعنى كتاب . وكان مع تواضعه مهابا مطاعا ، يُجلّه جميع الناس ، ولا يختلف اثنان فى فضله ، وكان مواظبا على الصلاة بالمسجد الجامع ، ومن جملة أوصافه أنه كان يتولى شغل كرمه بيده ، وكان كثير الصدقات ، وتوفى سنة ٤٢٤ ، وما رؤى على جنازة بطليطلة ما رؤى على جنازته من ازدحام الناس لأجل التبرك به . وأبو محمد عبد الله بن بكر بن قاسم القضاعى ، روى عن كثير من الشيوخ ، ورحل إلى المشرق حاجاً سنة ٤٠٧ ، وسمع بمكة وبمصر وبالقيروان ، وكان فاضلا ورعا عفيفا سليم الصدر ، منقبضا عن الناس ، توفى سنة ٤٣١ . وعبد الله بن سعيد بن أبى عوف العاملى الرباحى ، انتقل من قلعة رباح إلى قرطبة ، واستوطنها ، ورحل حاجا ، وكان ورعا ، مداوما على صلاة الجماعة ، أول من يدخل المسجد لصلاة الصبح ، وآخر من يخرج منه بعد صلاة العشاء . وكان فى رمضان يرابط فى حصن وَلْمِش ، توفى سنة ٤٣٢ .

وعبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى ، المعروف بالشارق ، يكنى أبا محمد ، أخذ عن القاضى بقرطبة ، يونس بن عبد الله ، وعن أبى عمر الطَّلَمنكى ، وعن أبى عمر بن سُميق ، وأبى محمد الشنتجالى وغيرهم ، وحج وسمع فى المشرق من أبى اسحق الشيرازى ورجع إلى الأندلس واستوطن طليطلة ، وانقطع إلى الله تعالى . ورفض الدنيا بلا أهل

ولا ولد ، إلى أن مات سنة ٤٥٦ ، واحتفل الناس بجنازته . وكان مع زهده وتنسكه حصيف العقل ، نقى القريحة ، جيد الادراك ، ولا عجب فى صفاء ذهن من رضى من الطعام باليسير ، وكان في آخر أمره عزم على الحج ثانى مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد ابن الحشا وقال له : قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هى نافلة ، والذى أنت فيه الآن آكد . فمنعه من الخروج حرصاً على وجوده في طليطلة معلماً مهذباً للناس .
وأبو محمد عبد الله بن سليمان المعافرى ، يعرف بابن المؤذن كان من أهل العلم والخير غالباً عليه الحديث والأدب والقراءة ، وكان ملازماً بيته ، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة أو لباديته. وكان صرورةً لم يتزوج قط ، وتوفى سنة ٤٦٠ . وأبو محمد عبد الله بن محمد ابن جماهر الحَجْرى ، روي عن أبى عبد الله بن الفخار، ورحل حاجاً، فروى عن الجلة من العلماء ، وكان له حظ وافر من الحساب والفرائض ، وتوفى سنة ٤٦٣ . وأبو بكر عبد الله بن على بن أبى الأزهر الغافقى الطليطلى ، سكن المرية ، وحج ، ولقى أباذر الهروى ، وأبا بكر المطوعى، وكان من أهل العلم ، أخذ الناس عنه ، ومات سنة ٤٦٣. وعبد الله بن محمد بن عمر ، يعرف بابن الأديب ، كنيته أبو محمد ، روى عن الصاحبين ابن شنظير وابن ميمون ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن محمد الخشنى ، وغيرهم ، وعاش طويلا ، ومات بعد الثمانين والاربعمائة .

وعبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبى ، يعرف بابن العمال كنيته أبو محمد ، روى عن أبى عمر بن عبد البر ، وعن ابن شق الليل ، وابن ارفع رأسه ، وأخذ عن ابيه فرج بن غزلون ، وعن القاضى أبى زيد الحشا ، وكان شاعراً مفلقاً ، ومع الأدب حافظاً للحديث متقناً للتفسير ، له مجلس حفل ، يقرأ فيه التفسير ، وعاش طويلا . واستقضى بطلبيرة بعد أبى الوليد الوقشى ، وتوفي سنة ٤٨٧ وقد نيف على الثمانين . وأبو محمد عبد الله بن يحيى التجيبى ، من أهل إقليش ، يعرف بابن الوحشى ، قرأ بطليطلة وأخذ عن أبى عبد الله المغامى ، وعن أبى بكر بن جماهر ، وكان من أهل الفضل

والنبل والذكاء . اختصر كتاب مُشكل القرآن لابن فورك ، وتوفى سنة ٥٠٢ وهو قاض ببلده إقليش .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين بن عاصم بن ادريس ابن بهلول بن أزراق بن عبد الله بن محمد الصدفى ، روى عن أبى المطرّف بن مدراج وأبى العباس بن تميم ، وغيرهما ، ورحل إلى الشرق سنة ٣٨١ ، ولقى بمكة أبا القاسم السقطى وأبا الطاهر العجيفى ، ولقى بمصر أبا الطيّب بن غلبون ، وأبا اسحق التمّار ، وغيرهما ، ولقى بالقيروان أبا محمد ابن أبي زيد ، وأبا جعفر بن دحمون . وغيرهما . وكان له عناية كاملة بالحديث ، وكان فى غاية الورع ، تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق فيعظ الناس بها ، وله تواليف ، منها كتاب عشرة النساء فى عدة أجزاء . وكتاب المناسك وكتاب الأمراض . ولد سنة ٣٢٧ ، ومات سنة ٤٠٣ وله ٧٩ سنة . وأبو بكر عبد الرحمن بن منخّل المعافرى ، سكن طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ابن غلبون المقرىء ، وحدث عنه حاتم بن محمد ،قرأ عليه بطليطلة سنة ٤١٨ . وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن خالص الأموى له رحلة إلى المشرق ، وكان من أهل الخير والصلاح ، حدث عنه جماهر بن عبد الرحمن وغيره .

وأبو محمد عبد الرحمن [1] بن محمد بن عباس بن جوشن بن ابراهيم بن شعيب ابن خالد الأنصارى ، يعرف بابن الحصّار ، صاحب الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بطليطلة ، روى عن علماء من أهل بلده ، ومن أهل ثغورها ، والقادمين عليها ، وسمع أيضاً بقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، وحج وهو حديث السن ، وعنى بالرواية والجمع ، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية ، وكان ثقة صدوقا ، وأخذ عنه حاتم ابن محمد وأبو وليد الوقشى ، وجماهر بن عبدالرحمن ، وأبو عمر بن سُميق وأبو الحسن ابن الالبيرى ، وغيرهم من المشاهير . وفى آخر عمره ضعف عن امامة الجامع فلزم داره ، وتوفى سنة ٤٣٨ ، رواه أبو حسن الألبيرى . وأبو محمد عبد الرحمن بن

(١) ورد ذكرهذا فى الصلة وفي بغية الملتمس أيضاً

محمد بن أسد ، روى عن الصاحبين فى بلده طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان عالما ، فاضلا ، جواداً ، متواضعاً ، توفى فى شعبان سنة ٤٤٢ . وأبو أحمد عبد الرحمن ابن أحمد بن خلف ، المعروف بابن الحوّات ، له رحلة إلى المشرق ، حج فيها ، ولقى أبا بكر المطوّعى ، وكان اماماً . قال الحُميدى إنه كان يتكلم فى الفقه والاعتقادات بالحجة القوية ، وله تواليف ، وكان من كبار الأدباء . وتوفى قريباً من سنة ٤٥٠ ، وقيل إنه توفى بالمرّية فى المحرم سنة ٤٤٨ ، وقد أربى على الخمسين . وأبو محمد عبد الرحمن ابن أحمد بن زكريا ، يعرف بابن زاها ، سمع من عبدوس بن محمد ، ومن الخشنى ، وكان نبيلاً فصيحاً ، أنيس المجلس ، كثير المثُل والحكايات ، توفى فى صفر سنة ٤٤٩. وعبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن أبى جوشق ، يكنى أبا المطرّف ، روى عن عبدوس ابن محمد ، وعن الخشني وغيرهما فى بلده ، ثم سمع بقرطبة من خلف بن القاسم ، وأبى زيد ابن العطار ، وأبى مطرف القنازعى ، وابن نبات وغيرهم . وكان معتنياً بجمع الآثار ، وكتب بخطه علماً كثيراً . وكان من الثقات . وتوفى بعد سنة ٤٥٠ .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ، يعرف بابن البيرولة ، سمع من الخشنى وأبى بكر بن زهر ، وأبى محمد بن ذنين ، والتبريزى ، وابن سُميق وكان من أهل النباهة والفصاحة [1] ، واعظا ، متواضعا ، حسن الخلق ، سالم الصدر ، توفى فى أول ربيع الأول سنة ٤٦٥ ، وصلى عليه يحيى بن الحديدى . وعبد الرحمن بن لب بن

(١) وجدت فى طليطلة كتابة بالخط الكوفى بأعلى قوس كان مبنياً من فوقه فلم ينكشف إلا فى أثناء ترميم وقع فى كنيسة صغيرة فى محلة « سنتا أورسوله » وقد ترجم هذه الكتابة المستشرق قديرة وقد نقلها لاوى بروفنسال إلى مجموعته ونصها بعد البسملة : « قام هذا البلاط بحمد الله وعونه على يدى صاحبي الاحباس الأمينين عبد الرحمن ابن محمد بن البيرولة وقاسم بن كهلان فى شهر رجب سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فرحم الله المحبس عليه والساعى فى شأنه والمصلى فيه والقارىء له آمين رب العالمين فصلى الله على محمد خاتم النبيين وسلم » هذا الرجل ترجمه ابن بشكوال والضبى وذكرا

أبى عيسى ابن مطرف ابن ذى النون ، يكنى أبا محمد ، روى عن أبى عمر الطلمنكى ، وروى عنه ابو حسن الالبيرى المقرىء .

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الحشّا ، قاضى طليطله ، أصله من قرطبة ، سمع بالمشرق من أبى ذر الهروى ، وأبى الحسن محمد بن على بن صخر ، وأحمد بن على الكسائى ، وعبد الحق بن هارون الصقلى ، وروى بمصر عن أبى القاسم عبد الملك القمّى وغيره ، وبالقيروان عن أبى عمران الفاسى وغيره ، وروى بقرطبة عن القاضي يونس بن عبد الله ، وعن القنازعى ، وأخذ بدانيه عن أبى عمر بن عبد البر ، وأبى عمر المقرى وغيرهما . وكان من أهل العلم والفهم ، سرى البيت عالى الشأن ، استقضاه المأمون يحيى بن ذى النون بطليطلة ، بعد أبى الوليد بن صاعد ، فى الخمسين والأربعمائة ، وحمده أهل طليطلة فى قضائه ، ثم صُرف عن قضائها فى الستين ، وسار إلى طرطوشة ، واستُقضى بها ، ثم صُرف عن قضاء طرطوشة ، فاستُقضى بدانية ، إلى أن توفى بها سنة ٤٧٣ ، ذكر تاريخ وفاته ابن مدير . وعبد الرحمن بن قاسم بن ماشاء الله المرادى ، كنيته أبو القاسم ، كان حافظا للمسائل والرأى ، طاهراً وقوراً ، توفى فى رجب من سنة ست وسبعين وأربعمائة . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن سلمة الأنصارى ، روى عن أبى محمد بن الخطيب ، وأبى عمر الطلمنكى ، وحماد الزاهد ، وأبى بكر بن زهر وغيرهم ، وكان حافظا للمسائل ، دربا بالفتوى ، وقوراً ، وسيما ، حسن الهيئة ، قليل التصنع ، مواظباً على الصلاة فى الجامع ، وكان ثقة فى روايته ، وكان الرأى غالبا عليه . وامتُحن فى آخر عمره مع أهل بلده ، بحسب عبارة ابن بشكوال ، وسار إلى بَطَلْيوس فتوفى بها فجأة ، عقب صفر من سنة ٤٧٨ ، وظاهر من هنا أنه خرج من طليطلة

أنه توفى سنة ٤٦٥ وقال ابن بشكوال إن له كتاباً يشتمل على تراجم فقهاء طليطلة وقد أخذ صاحب « الصلة » عنه وقال لاوى بروفنسال إن البيرولة لفظة اسبانيولة تكتب بالاسبانى هكذا « Alberola »

يوم استولى عليها الاسبانيول ، لأنهم فتحوها فى المحرم ، أو فى صفر سنة ٤٧٨ كما لايخفى . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن عبد الله بن أسد الجهنى ، سكن طليطلة ، روى عن ابن يعيش ، وابن مغيث ، وغيرهما ، وحج ، وأخذ بمكة عن أبى ذر الأموي ، وغيره ، وكان ثقة ، وشوور فى الأحكام ، وكان متواضعا توفى فى بلده ، فى الثمانين والأربعمائة ، أى بعد استيلاء الاسبانيول .

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله التجيبى ، المعروف بابن المشاط أخذ عن علماء طليطلة وغيرهم ، وكان حافظاً ذكياً وأديباً لغوياً ، شاعراً محسناً . سكن مدة باشبيلية ، وتولى بهـا الأحكام ، ثم صُرف عنها ، وقصـد مالقة ، إلى أن توفى بها ليلة الجمعة لسبع ليـال من رمضان سنة الخمسمائة ، وشهد جنازته جمع عظيم . وأبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الأموى ، من أهل طليطلة سكن قرطبة ، المعروف بابن عفيف ، وهو جده لأمه ، سمع من علماء طليطلة وغيرهم . وكان شيخاً فاضلا عفيفاً ، مشهور العدالة ، وكان يعظ الناس ، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، قال ابن بشكوال : كان كثير الوهم فى الأسانيد ، عفا الله عنه ، توفى يوم الجمعة ودفن إثر صلاة العصر من يوم السبت الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢١ ودفن بمقبرة ابن عباس ، وصلى عليه القاضى أبو عبد الله بن الحاج . وأبو مروان عبد الملك محمد بن شق الليل ، سمع بطليطلة بلده من الصاحبين ، وكان زاهداً ورعا ، توفى فى ربيع الآخرة سنة عشر وأربعمائة ، وأبو بكر عبد الصمد بن سعدون الصدفى المعروف بالركّانى أخذ عن علماء طليطلة بلده ، ثم رحل إلى المشرق وحج ، وتوفى بعد سنة ٤٧٥ . وأبو حفص عمر بن سهل بن مسعود اللخمى المقرىء ، روى ببلده طليطلة عن علمائها ، ورحل إلى المشرق ، ولقى كثيراً من العلماء ، وكان إماما فى كتاب الله ، حافظا للحديث الشريف ، ولأسماء الرجال وأنسابهم خفيف الحال ، قانعاً راضياً ، توفى بعد سنة ٤٤٢ وحدّث عنه ابن البيرولُه . وأبو حفص عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن الشرّانى الرعينى ، كان مفتيا . توفى فى رجب سنة تسع وأربعين بعد الأربعمائة .

وأبو حفص عمر بن عمر بن يونس بن كُريب الأصبحى ، أصله من سرقسطة ، روى عن الجلّة ، مثل القاضى أبي الحزم خلف بن هشام العبدرى ، والقاضى أبى عبد الله ابن الحذّاء ، والقاضى عبد الرحمن بن جحاف ، وأبى عمر الطلمنكى ، وأبى بكر بن زهر وغيرهم ، وكان فاضلا ثقة ، وأسنّ ، وتوفى بطليطلة سنة ست وسبعين واربعمائة ، وأبو بكر عثمان بن عيسى بن يوسف التجيبى ، يعرف بابن ارفع رأسه ، كان عالما فاضلا ، رأسا فى مذهب مالك ، تولى قضاء طلبيرة . وأبو بكر عثمان بن محمد المعافرى المعروف بابن الحوت ، المتوفى سنة ٤٤٩ . قال ابن بشكوال : وكان من خيار المسلمين وفضلائهم . وأبو الحسن على بن فرَجون الانصارى النحوى ، كان شيخا لغويا نحوياً شاعراً ، جواداً ، لا يمسك شيئاً ، مؤثراً على نفسه ، رقيق القلب ، اذا سمع القرآن خشع و بكى . وأبو الحسن على بن أبى القاسم بن عبد الله بن على المقرى ، من سرقسطة سكن طليطلة ، روى بالمشرق عن أبى ذر الهروى ، وأبى الحسن بن صخر ، وأخذ عن القاضى الماوردى كتابه فى التفسير ، وكان رجلا صالحا ؛ قدم الى قرطبة فى آخر عمره ، وأقام فيها سبعة أشهر فى الفندق الذى نزل فيه منقبضا ، لم يتعرض للقاء أحد ، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة ٤٧٢ . وأبو الحسن على بن سعيد بن احمد بن يحيى بن الحديدى التجيبى ، كان فقيها فى المسائل بصيراً بالفتيا ، توفى فى شوال سنة ٤٧٤ .

وأبو الاصبغ عيسى بن حجاج بن احمد بن حجاج بن فرقد الانصارى ؛ أصله من طليطلة ؛ وسكن قرطبة ، حدّث عنه الصاحبان ؛ وقالا : مولده سنة ٣١٨ ، وله رحلة الى المشرق . وأبو الاصبغ عيسى بن على بن سعيد الأموى ، روى عن أبيه ، وعن أبى زيد العطّار ، والخشنى ، وتوفى سنة ٤٣٥ ، وله رحلة إلى المشرق . وأبو الاصبغ عيسى بن فرج بن أبى العباس التجيبى ، المغامى أخذ عنه ابنه ابو عبدالله المغامى وتوفى في مستهل جمادى الأولى عام أربع وخمسين واربعمائة . وأبو عبيدة عامر بن ابراهيم بن عامر بن عمروس الحَجْرى من أهل قرطبة سكن طليطلة روى عنه ابو الحسن ابن الابيري المقرىء ، كان حليما وقوراً خادماً للعلم ، وأخذ عنه أبو المطرّف

ابن البيروله . وقال : كان شيخاً فاضلا حاسباً كاتباً . إمام مسجد ابن ذُنى القاضى بالحزام [1] من طليطلة سمع الناس منه ومات بعد سنة ٤٣٣ . وأبو الاصبغ عسلون ابن احمد بن عسلون، حدّث عنه الصاحبان . وقالا : كان رجلا صالحاً مستوراً . جالسناه وصحبناه ، ولزم الانقباض ، ولم تزل أحواله صالحة إلى أن توفي . وكان مولده عام ٣٢٠

وأبو النصر فتح بن إبراهيم الأموى ، يعرف بابن القشّاوى ، رحل إلى المشرق ، وسمع بالقيروان ، و بمصر ، و بمكة المكرمة . وكان شيخاً صالحا ، فاضلا ، مجاهدا ، صوّاما قوّاماً متصدقاً . بنى بطليطلة مسجدين أحدهما بالجبل البارد ، والآخر بالدباغين وكان يلزم الصلاة فى المسجد الجامع . و بنى حصن « وقّش » ، وحصن «مكّادة» ، فى زمن المنصور بن أبى عامر . توفى أول ليلة من رجب سنة ٤٠٣ ، وكانت وفاته ليلة الجمعة ، ودفن نهار الجمعة بعد صلاة العصر ، وصلى عليه عبد الله بن ماطور . وفرج بن غزلون بن العسّال اليحصبى الطليطلى ، روى عن شيوخها ، وحدث عنه ابنه أبو محمد عبدالله بن فرج الواعظ . وأبو الحسن فرج بن أبى الحكم بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم اليحصبى ، وكان من العلماء المعدودين ، وكان حفيل المجلس ، توفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ٤٤٨ ، وحبس داره على طلبة السنّة . وفرج بن غزلون بن خالد الأنصارى ، حدّث عن فتح بن إبراهيم وغيره ، وكان حسن الخط . وفرج مولى سيد بن أحمد بن محمد الغافقى ، يكنى أبا سعيد ، رحل إلى المشرق ، وفى حجه لقى أبا ذر الهروى ، وأجاز له ، وكان رجلا صالحا ثقة . قال ابن بشكوال : أخبرنا عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله العدل ، وأثنى عليه وغيره من شيوخنا ، وتوفى بعد سنة ست وسبعين وأربعمائة . وأبو سعيد الفرج بن أبى الفرج بن يعلى التجيبى ، تولى أحكام القضاء بطليطلة ، وكان ديّنا فاضلا ، عالما عاقلا ، حسن السيرة فى قضائه ، محبباً إلى الناس ، معظما عندهم . توفى سنة ٤٧٠ فى شهر رجب . وأبو نصر فتحون بن محمدبن عبد الوارث بن فتحون التجيبى ، حدّث عنه الصاحبان

---

(١) من أحياء طليطلة ، مر ذكره فى بعض الصكوك

توفى ليلة الثلاثاء لست خلون من ربيع الأول سنة ٣٩٣ ، وصلى عليه ابن سائق .
وأبو نصر فتحون بن عبد الرحمن بن فتحون القيسى ، روى عن علماء بلده ، وكان رجلا معدّلا حسن الأخلاق ، توفى سنة ٤٦٤ فى رجب . وفيرُّه بن خلف بن فيرُّه اليحصبى ، من أهل طليطلة كان من أهل المعرفة بالقراءات ، حسَن الصوت ، تولى الصلاة والخطبة بجامع طليطلة . وكان يكنى بأبى جديده ، فأشار عليه ابن يعيش بأن يتكنى بغيرها ، فأبى وقال : الكنية القديمة أولى بنا .

وأبو محمد قاسم بن محمد بن عبد الله الأموى ، يعرف بابن طالَ ليلُه ، روى عن الحسن بن رشيق ، وابن زياد اللؤلؤى ، وتميم بن محمد ، وحدّث عنه أبو عبد الله ابن عبد السلام الحافظ ، وغيره ، توفى بعد سنة سبع وأربعمائة .

وأبو محمد قاسم بن محمد بن سليمان الهلالى القيسى ، روى عن الصاحبين ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن أبى عمر الطلمنكى ، ويونس بن عبد الله القاضى ، ومحمد بن نبات ، وابن الفرضى ، وابن العطار ، وابن الهندى ، وجماعة كثيرة من علماء الأندلس . ورحل إلى الشرق للحج ، وأخذ عن أبى ذر الهروى وغيره . وكان عظيم الاجتهاد فى العلم ، مع الصلاح والانقباض ، وكانت جل كتبه بخط يده ، وكان ثقة فى روايته ، حسن الخط ، وكانت له حلقة فى الجامع ، يعظ فيها الناس ، ولم يكن يذكر عنه من أمر الدنيا شىء . وكان سيفاً على أهل الأهواء ، صليباً فى الحق وروى بعضهم أنه كانت به سلاسة بول لاتفارقه ، فاذا جلس فى الجامع ارتفع ذلك عنه إلى أن ينقضى مجلسه ، فاذا تقوض المجلس ؛ وعاد إلى منزله ، عاد إليه المرض وكانت وفاته سنة ٤٥٨ فى رجب

وأبو محمد قاسم بن عبد الله بن ينَّج ، له رواية عن أبى جعفر بن مغيث وغيره . كان من أهل العلم والفهم ، توفى بقرطبة فى رمضان سنة ٤٩٨ ، ودفن بالربض .
وأبو عبد الله محمد بن تمام بن عبد الله بن تمام ، روى عن أبيه تمام بن عبد الله وغيره ، ورحل إلى المشرق مع أبى عبد الله بن عابد ، وكان عالماً متفنناً ، شاعراً ، حسن الخط ،

مهيباً ، إلا أنه كان جشماً فى الأكل . وقتله أهل طليطلة سنة أربعمائة ، أو إحدى وار بعمائة . وأبو عبد الله محمد بن يبقى بن يوسف بن ارمليوث بن عبدرى الصيدلاني سكن بجّانة ، وأصله من طليطلة . له رحلة إلى المشرق ، سمع فيها من العلماء ، ثم فى طريقه إلى الأندلس أسرته الروم ، ثم تخلص وسكن المرية . وأبو عبد الله محمد [1] ابن ابراهيم بن أبى عمرو المعافرى ، روى بطليطلة عن ابن عيشون وغيره ، وله رحلة سمع فيها من أبى قتيبة سلم ابن الفضل ، ومن أبى بكر بن خروف ، وتوفى فى نحو الاربعمائة . وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن مسعود القيسى ، روى عن أبى عبدالله بن الفخّار ، وابن القشّارى ، وكان من أهل العناية بالعلم والفقه ، مشاوراً فى الأحكام ، كتب لقضاة طليطلة . وتوفى في رمضان سنة ٤٦٦ . وأبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن حفص ابن الشرّانى ، وكان يروى عن صهره محمد بن مغيث ، وعن أبى بكر بن زهر . وكان الغالب عليه الورع . وترك الرئاسة ولزم الانقباض عن الناس ، لا يخرج من بيته إلا لما لابد له منه ، ولا ينبسط مع أحد فى الكلام ، وكان مع ذلك إذا قصده قاصد يحسن لقاءه ، توفى سنة ٤٧١ فى صفر . وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن سليمان بن هلال القيسى ، روى عن أبيه ، وعن أبى عمر الطلمنكى وغيرهما ، وكان له حظ من الفقه والأدب توفى سنة ٤٧٢ فى جمادى الآخرة . وأبو عبدالله محمد بن أحمد ابن حزم الأنصارى ، من طليطلة ، تولى قضاء طلبيره ، وتوفى سنة ٤٧٨ ، أى سنة سقوط طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق . وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن أبى العباس بن اسحق التجيبى المغامى [2] المقرى ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وعن أبى

---

(١) فى التكملة لابن الأبار يروى ترجمة أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن يحيي بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن محمد المعافرى ويقول : إنه رحل إلى المشرق وروى عن أبى قتيبة سلم بن الفضل وأبى بكر محمد بن خروف وإنه حدث عنه أبو عبد الله بن عبد السلام الطليطلى وإنه حدث عنه ايضاً الصاحبان وقالا إنه توفى سنة ٣٩٩ وزاد ابن بشكوال فى رجب وذكره فى زيادته ولم يستوف خبره

(٢) الذي يتأمل في انتساب هؤلاء العلماء المنسوبين إلى طليطلة يرى أكثرهم يقال له

محمد مكى بن أبى طالب المقرى ، وعن أبى الربيع سليمان بن ابراهيم . وكان اماماً فى القراءات ، ومن أهل الصلاح توفى فى اشبيلية فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٨٥ ، وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة .

وأبو بكر محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جاهر الحَجْرى ، روى ببلده طليطلة عن عمه أبى بكر جاهر بن عبد الرحمن ، وأبى محمد قاسم بن هلال ، وأبى بكر ابن العواد وغيرهم ، ورحل إلى المشرق مع عمه أبى بكر سنة ٤٥٢ ، وأدى الفريضة وسمع بمكة من أبى معشر الطبرى وكريمة المروذيّة وغيرهما ، و بمصر من أبى عبدالله القضاعى وأبى نصر الشيرازى وغيرهما ، و بالاسكندرية من أبى على بن معافى . قال ابن بشكوال : كان معتنياً بالجمع والاكثار والرواية عن الشيوخ ، لا كبير علم عنده . وقال : توفى بمدينة طليطلة ، أعادها الله ، فى أيام النصارى ، دمّرهم الله ، سنة ٤٨٨ ، انتهى ، أى بعد سقوط طليطلة بعشر سنوات .

وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن قاسم البكرى ، روى ببلده عن أبى بكر جاهر ابن عبد الرحمن ، وأبى الحسن بن الالبيرى ، وابن ما شاء الله وغيرهم ، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأخذ بمكة و بالاسكندرية ، وقدم قرطبة فى شعبان سنة ٤٨١ ، وسكن باجه وغيرها من بلاد الغرب ، وتوفى بباجة .

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن مزاحم الأنصارى الخزرجى ، أصله من اشبونة ، سكن طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان النهاية فى علم العربية ، ومن تآليفه كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات أخذ عنه أبو الحسن العبسى المقرىء وابن مطاهر توفى سنة ٥٠٢ فى بدايتها .

وأبو عبد الله محمد بن على بن محمد الطليطلى ، يعرف بابن الديوطى ، سمع من

التجيبى والاموى والانصارى مما يدل على أن عرب طليطلة كان أكثرهم من بنى أمية ومن الانصار الاوس أو الخزرج ومن تجيب . وأما المغامى فمغامة قرية تقدم وصفها من قرى طليطلة

أبى الوليد الباجى وقاسم بن هلال وغيرهما ، و بعد أن استولى الاسبانيول على طليطلة خرج إلى بر العدوة ، فسكن فاس ثم سبتة ، وولى خطابة الموضعين . وكان ضريراً صالحاً ، وتوفى وهو خطيب سبتة سنة ٥٠٣ فى محرم .

وأبو عامر محمد بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم (١) ، من أهل طليطلة سكن قرطبة ، روى عن علماء طليطلة ، وأجاز له أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن ، والقاضى أبو الوليد الباجى ، وأبو العباس العذرى ، وأبو الوليد الوقشى وكانت عنده جملة كثيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، وكان ذاكراً لأخبارهم وازمانهم ، فكان يحتاج اليه بسببها . قال ابن بشكوال فى الصلة : ترك بعضهم التحديث عنه لأشياء اضطرب فيها من روايته ، شاهدتها منه مع غيرى ، وتوقفنا عن الرواية عنه ، وكنت قد أخذت عنه كثيراً ، ثم زهدت فيه لأشياء أوجبت ذلك غفر الله له ، وتوفى رحمه الله عشىّ يوم الجمعة ، ودفن بعد صلاة العصر من يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٢٣ ، ودفن بالربض ، وصلّى عليه أبو جعفر ابن حمدين .

وأبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث ابن سليمان بن الأسود بن سفيان التيمى البغدادى ، سكن طليطلة ، وهو من بيت علم وأدب ، خرج إلى القيروان فى أيام المعز بن باديس فدعاه إلى دولة بنى العباس فاستجاب لذلك ، ثم وقعت الفتن هناك ، فخرج إلى الأندلس ، واتى ملوكها وحظى عندهم بأدبه وعلمه واستقر بطليطلة ، فى كنف المأمون بن ذى النون ، وتوفى بها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٥٥ قال ابن بشكوال : وذُكر أن أبا

---

(١) نقلنا هذه الترجمة عن كتاب الصلة لأبى القاسم خلف بن بشكوال ووجدنا هذا الرجل مترجماً أيضا فى بغية الملتمس لأحمد بن عميرة الضبىّ يقول فيه : محمد بن احمد بن اسماعيل أبو عامر القاضى الطليطلى فقيه عارف مشهور يروى عن أبى المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن البيروله وأبى بكر جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر ومحمد بن خلف المعروف بابن السقاط ويروى عنه أبو الحسن بن النعمة

الفضل هذا كان يتهم بالكذب ، عفا الله عنه . وأبو عمران موسى بن عبد الرحمن يعرف بالزاهد ، من أهل الثغر ، قدم طليطلة مجاهداً ، كانت له رحلة إلى المشرق حدّث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا : قُتل فى ربيع الآخر سنة ٣٧٨ ، وموسى بن قاسم بن خضر كان الغالب عليه قراءة الآثار ، وكان فاضلا أصيب فى إحدى الغزوات سنة ٤٤٣ .

وموسى بن عبد الرحمن يعرف بابن جوشن كان فاضلا له أخلاق حسان ، وآداب لطيفة ، حسن اللقاء لا يمرّ بأحد إلا سلم عليه ، توفى سنة ٤٤٨ ، ذكره ابن مطاهر . وأبو عبد الرحمن معاوية بن مُنتيل بن معاوية ، رحل إلى المشرق وحج ، وحدّث عنه الصاحبان فى طليطلة وقالا : انه توفى سنة ٣٧٥ فى جمادى الآخرة . وأبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان التجيبى يعرف بابن البالية رحل إلى المشرق وانصرف وكان زاهدا فاضلا ورعا ، منقبضا عن الناس ، بهىّ المنظر دُعى ليتولى الاحباس فرفض واعتذر . ذكره ابن طاهر .

وأبو بكر مفرج بن خلف بن مغيث الهاشمى المعروف بابن الحصّار . كان فقيهاً عارفاً بالفتوى ، يعقدها باختصار و إيعاب لفقهها ؛ وتأثل منها مالا عظيما ؛ وكان ممتحما بالسنة مبغضاً لأهل البدع . وأبو القاسم محسن بن يوسف روى عن مشيخة بلده طليطلة ؛ وحدث عنه الصاحبان وقالا : توفى سنة ٣٧٤

وأبو القاسم محبوب بن محبوب بن محمد الخشنى ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وعن الصاحبين ، وكان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية بصيراً بالحديث وعلله ، فهما ذكيا ، وكان فهمه أكثر من حفظه ، مع صلاح وفضل ، ومات سنة ٤٤٦ فى المحرم . ومفرج الخرّاز ، يكنى أبا الخليل ، كان من الفقهاء العُبّاد الزُهّاد ، روى عن أبى عمر بن عبد البر وغيره ، وكان صائما مدة ستين سنة ، وسكن بناحية طليطلة ، وتوفى عند السبعين وأربعمائة ، ذكره ابن مدير ، وأبو سعيد ميمون بن بدر القروى ذكره ابن بشكوال فى الغرباء ، وهو من أهل بغداد ، قدم الأندلس ، وسكن طليطلة

مرابطا بها ، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين الزاهد ، وقال هذا فى خبره إنه ولد سنة ٣١٣ وأبو القاسم نعم الخلف بن يوسف ، حدّث عن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج ، وعن محمد بن فتح الحجارى ، وحدّث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا إنه توفى سنة ثلاث أو أربع وتسعين وثلاثمائة . ووهب بن ابراهيم بن وهب القيسي ، وكان خيّراً فاضلا ثقة ، ورحل إلى المشرق ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٤٥٣ ، ودفن يوم الأضحى .

وأبو الوليد هشام بن ابراهيم بن هشام التميمى ، وكان له حظ وافر من الأدب ، وشوور فى الأحكام ، وكان فارسا شجاعا استشهد سنة تسع عشر وأربعمائة .

وأبو الوليد هشام بن عمر بن محمد بن اصبغ الأموى ، المعروف بابن الخنشى ، كان نبيلا ، ورحل إلى المشرق حاجا ، والقى بها جماعة من العلماء ، وعاد إلى الاندلس بكتب كثيرة ، وكان من أهل الخير والانقباض والثروة . وأبو الوليد هشام بن محمد ابن سليمان بن اسحق بن هلال القيسى السايح ، روى عن عبدوس بن محمد ، وعن محمد الخشنى ، وعن تمام بن عيشون ، وعبد الرحمن بن ذنين من مشيخة طليطلة ، وروى بقرطبة عن القاضى يونس بن عبد الله ، وعبدالوارث بن سفيان ، وابن نبات وابن العطار ، وابن الهندى ، وغيرهم ، ورحل إلى المشرق حاجا ، فلقى بمكة أبا يعقوب ابن الدخيل وأبا الحسن بن جهضم ، وأبا القاسم السقطى ، وسمع بالقيروان من أبى حسن القابسى وأبى عمران الفاسى ، وكان زاهدا ، فاضلا ، متبتلا منقطعا عن الدنيا صواماً قواماً ، حسن الخط ، جيدالضبط ، كتب بخطه علما كثيراً، وكان يصوم رمضان فى الفهمين [1] ويصنع فى عيد الفطر طعاما كثيرا لأهل الحصن ولمن هناك من المرابطين ، وينفق المال الكثير ، وكان يرابط بنفسه فى الثغور ، ويلبس الخشن من الثياب ، وتوفي فى العشرين والاربعمائة ، وهشام بن محمد بن حفص الرعينى المعروف ابن الشرّانى قرأ على ابن يعيش وكان يجله ويكرمه ، وكان حافظا لمذهب مالك عاقلا

(١) تقدم ذكر قرية الفهمين أو الفهميين وهى من قرى طليطلة

حسن السمت وتوفى بطليطلة وصلى عليه ابن الفخار .

وهشام بن قاسم الأموى ، ويكنى أبا الوليد ، قرأ على محمد بن يعيش ، وعُنى بالعلم وكان متمولا . وأبو الوليد هشام بن محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى ، قرأ على يوسف بن أصبغ ، وامتحن فى آخر عمره ، ومات مقتولا سنة ٤٣٤ فى آخر ذى الحجة . وأيضا أبو الوليد هشام بن محمد بن مسلمة الفهرى ، له رحلة إلى المشرق ، استفاد فيها علماً ، وكان مشاوراً فى الأحكام ووقعت عليه محنة عظيمة ، وتوفى سنة ٤٦٩ فى صفر . وأيضا أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن هشام الكتانى المعروف بالوقّشى ، أخذ العلم عن أبى عمر الطلمنكى ، وأبى محمد بن عباس الخطيب ، وأبى عمر السفاقسى ، وأبى عمر بن الحذّاء ، وأبى محمد الشنتجالى ، وغيرهم ، قال القاضى صاعد[1] بن أحمد : أبو الوليد الوقشى أحد رجال الكمال فى وقته ، باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم ، وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة ، ومعاني الاشعار ، وعلم العروض وصناعة البلاغة ، وهو شاعر مجيد متقدم ، حافظ للسنن ، ولأسماء نَقَلَة الأخبار ، بصير بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، واقف على كثير من فتاوى فقهاء الامصار نافذ فى علم الشروط والفرائض ، متحقق بعلم الحساب والهندسة ، مشرف على جميع

---

(١) الذى قرأناه من كلام القاضى أبى القاسم صاعد بن احمد الطليطلى الاندلسى المتوفى سنة ٤٦٤ فى كتابه « طبقات الامم بشأن أبى الوليد الوقشى هو هذا بحرفه : ومنهم أبو الوليد هشام بن احمد بن خالد الكتانى المعروف بابن الوقشى من أهل طليطلة أحد المتفننين فى العلوم المتوسعين فى ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ فى علم النحو واللغة والشعر والخطابة والأحكام بعلم الفقه والاثر والكلام وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله شاعر عالم بالانساب والاخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم لقيته بطليطلة سنة ثمان وثلاثين واربعمائة وقد تقلد القضاء بين أهل طلبيرة من ثغور طليطلة قاعدة الأمير المأمون يحيى بن الظافر اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون . انتهى هذا نقلا عن طبقات الامم النسخة المطبوعة بمصر

آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب ، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب ، يجمع ذلك إلى آداب الأخلاق ، وحسن المعاشرة ، وصدق اللهجة . اهـ .

قال أبو بكر عبد الباقى بن محمد الحجارى : وكان شيخنا أبو محمد الريولى يقول: وكان من العلوم بحيث يُقضى له فى كل علم بالجميع ، توفى بدانية يوم الاثنين ، ودفن يوم الثلثا لليلة بقيت لجمادى الآخرة من سنة ٤٨٩ ، وقد نيّف على الثمانين . ويظهر أنه ممن رحل عن طليطلة بعد استيلاء النصارى عليها .

ويحيى بن عبد الله بن ثابت الفهرى النحوى ، المكنى بأبى بكر ، كان من علماء العربية والفقه ، وكان لسناً شاعراً ، وتوفى سنة ٤٣٦ في صفر . وأبو بكر يحيى ابن محمد بن يحيى الأموى ، كان أديباً شاعراً ، حسن الخط ، وقورا ، حسن السمت توفى في الواحدة والستين والار بعمائة .

وأبو بكر يحيى بن سعيد بن أحمد بن يحيى بن الحديدى ، سمع من علماء طليطلة ، وكان نبيلا ، فصيحاً ، فطناً ، مقدما فى الشورى ، كانت له مكانة عظيمة عند المأمون يحيى بن ذى النون ، الذى لم يكن يقطع فى شىء إلا بمشورته ، ودخل مع المأمون قرطبة لما ملكها ، وكان مستولياً على أمره ، فلما توفى المأمون استثقله حفيده القادر بالله ، حتى قتل بقصره يوم الجمعة فى المحرم سنة ٤٦٨ اهـ . ملخصا عن ابن بشكوال والقادر ابن ذى النون هو الذى بحمقه وسوء تدبيره أضاع طليطلة ، وكان السبب فى هذا الخرق الذى عجز المسلمون عن سده ، حتى أدى إلى ضياع جميع الأندلس . وأبو عمر يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصارى ، أخذ عن الخشنى ، وابن ذنين ، وغيرهما واعتنى بالعلم إلى الغاية ، وكانت وفاته سنة ٤٣١ فى صفر[1] . وأبو عمر يوسف

(١) وجدت فى المكان المسمى برادوسان ايزيدور فى طليطلة كتابة محفوظة اليوم فى المتحف الأثرى بمجريط وهى ثمانية أسطر بالكوفى قد أصبح أكثرها طامسا ونصها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر يوسف بن الاصبغ بن الخضر توفى رحمة الله عليه عشى يوم السبت . . . . من جمادى . . . و . . . و . . . وأربعمائة

ابن عمر الجهنى ، يعرف بابن أبى ثلة ، كان عالما بالفرائض والآداب ، وعلم النجوم واستبحر فى ذلك وتوفى فى الخامسة والثلاثين والار بعمائة . وأبو عثمان سعيد بن عثمان البنا الشيخ الصالح المرابط بالفهمين من قرى طليطلة . و يوسف بن موسى بن يوسف الأسدى ، يعرف بابن البابش أخذ عن ابن مغيث وشوور فى الأحكام وولد ببلدة وَلْمُشْ ودفن بها سنة ٤٧٥ فى ذى القعدة

وأبو عبد الله يوسف بن محمد بن بكير الـكنانى ، سمع من أبيه القاضى محمد بن بكير ، كان عالما بالفقه والحديث والفرائض ، رحل إلى الشرق وحج ، ثم رجع إلى الأندلس ، وتولى قضاء قلعة رباح ، فحسنت سيرته ، وكان حسن الرأى والهيئة ، مات سنه ٤٧٥ فى ذى الحجة .

وأبو الوليد يونس بن محمد من أهل قرطبة ، سكن طليطلة . وأبو الوليد أيضاً يونس بن أحمد بن يونس الأزدى ، يعرف بابن شوقه ، روى عن أبى محمد بن هلال وجماهر بن عبد الرحمن ، وأبى عمر بن عبد البر ، وأبى عمر بن سُميق القاضى ، وغيرهم كان فاضلا ، باراً باخوانه ، من أحسن الناس خلقاً ، وأكثرهم بشاشة ، لايخرج من منزله إلا لأمر مؤكد ، وكان الغالب عليه من الحديث ما فيه الزهد والرقائق . وهو من أهل طليطلة ، لـكنه مات فى مجريط سـنة ٤٧٤ ، فى ربيع الأول . وأبو الوليد أيضا يونس بن محمد بن تمام الأنصارى ، كان فقيها مفتيا ، صالحا ، منقبضا عن الناس ، توفى فى جمادى الآخرة سنة ٤٧٨ ، أى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل .

وأبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى ، له رحلة إلى المشرق ، وكانت له عناية كثيرة بالعلم ، وكان فقيها . تولى الأحكام ببلده طليطلة ، ثم صار إليه تدبير الرئاسة فيه . ونفع الله به أهل موضعه . ثم خُلع عن ذلك وسار إلى قلعة أيوب ، وتوفى بها سنة ٤١٨ ، على رواية ابن مطاهر ، أو فى التى بعدها على رواية ابن حيّان .

وفاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامى ، أخت الفقيه يوسف بن يحيى المغامى ، من

احدى قرى طليطلة ، كانت عالمة ، فاضلة ، فقيهة ، استوطنت قرطبة ، وبها توفيت سنة ٣١٩ ودفنت بالربض ، ولم يُرَ على نعش امرأة قط ما رؤى على نعشها ، وصلى عليها محمد بن أبى زيد . ومحمد بن أحمد بن عدل الفقيه المحدث ، قرأ كتاب مسلم على أبى محمد الشنتجالى بطليطلة . ومحمد بن أحمد بن محمد بن غالب ، يروى أيضا عن الشنتجالى .

وأبو عبد الله محمد بن عيشون ، يعرف بابن السلاخ . قال ابن عميرة فى بغية الملتمس : غلب عليه الفقه ، وله فيه كتاب ، وهو من المشهورين . وأبو عبد الله محمد ابن الفرج بن عبد الولى الأنصارى ، رحل إلى الشرق ، وسمع بالقيروان ، وبمصر ، وبمكة ، وكان رجلا صالحا ، ثقة ، ضابطاً ، كانت وفاته بعد الخمسين وأربعمائة . وأبو عبد الله محمد بن موسى بن مغلّس . قال ابن عميرة فى بغية الملتمس : فقيه موثّق متفنن محدّث . وأحمد بن سهل بن الحداد ، قال ابن عميرة : فقيه مقرىء توفى سنة ٣٨٧ . وإسماعيل بن أمية ، كان محدثاً ، ومات سنة ٣٠٣ . واسحق بن ابراهيم بن مسرة ، مات بطليطلة ، لثمان بقين من رجب سنة ٣٥٢ ، قاله ابن عميرة . وإسحق ابن إبراهيم ، غير الأول ، قال ابن عميرة : فقيه ، توفى بطليطلة سنة ٣٦٤ ، قاله ابن عميرة أيضاً . وإسحق بن ذقابا ، بالذال ، وقيل بالزاى محدّث ، ولِىَ القضاء بطليطلة ومات بها سنة ٣٠٣ .

وزكريا بن عيسى بن عبد الواحد ، توفى ببلده طليطلة ، سنة ٢٩٤ ، عن بغية الملتمس . وسليمان بن هارون الرعينى ، أبو أيوب من محدثى طليطلة مات سنة ٢٧٩ عن بغية الملتمس أيضاً .

وسعيد بن أبى هند ، من قدماء الأندلسيين ، أصله من طليطلة ، وسكن قرطبة وقيل في اسمه : عبد الوهاب ، يروى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، ذكره محمد بن حارث الخشنى فى كتابه ، وزعم أن مالكا كان يقول لأهل الأندلس ، إذا قدموا عليه : مافعل حكيمكم ابن أبى هند ؟ توفى سعيد المذكور فى أيام

عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس . وقد ترجم صاحب بغية الملتمس شخصا يقال له عبد الرحمن بن محمد بن عباس ، ويكنى أبا محمد ، غير الأول ، وقال إنه صاحب الصلاة بجامع طليطلة ، وإنه فقيه مشهور ، وذكر مشايخه ، مثل أبى غالب ابن تمام ، ومحمد بن خليفة البلوى ، وعبد الله بن عبد الوارث ، وخطاب بن سلمة ابن بُترى ، وغيرهم ، ولكن لم يذكر سنة وفاته ، وأبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف ، المعروف بابن عفيف ، قال فى بغية الملتمس : فقيه فاضل ، يروى عنه ابن النعمة ، وابو عبد الله بن سعادة ، كتب إليه سنة ٥١٤ ، وهو يروى عن جماهر . بن عبد الرحمن بن جماهر . وأبو هند عبد الرحمن بن هند الأصبحى ، روى عن مالك بن انس ومات ببلده طليطلة بعد المائتين .

وكليب بن محمد بن عبد الكريم ، كنيته أبو حفص ، وقيل أبو جعفر ، طليطلى ، رحل إلى مكة فأقام بها مدة ، ثم رجع إلى مصر فمات بها سنة ٣٠٠ . وكان فقيهاً محدثاً ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وعيسى بن محمد بن دينار ، سمع من محمد بن احمد العتبى ، مات بالأندلس ، فى ايام الامير عبد الله بن محمد الأموى ترجمه ايضا ابن عميرة فى بغية الملتمس . ثم ترجم رجلا آخر اسمه عيسى بن دينار ابن وافد الغافقى صحب عبدالرحمن بن القاسم العتقى صاحب مالك ابن أنس وكان اماماً في الفقه على مذهب مالك وعلى طريقة عالية من الزهد والعبادة . ويقال إنه صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة وكان يعجبه ترك الرأى والاخذ بالحديث توفى سنة ٢١٢ وعلى بن محمد بن مغاور ، فقيه طليطلى ، يروى عن أبى على الصدفى . وعلى بن عيسى ابن عبيد الطليطلى صاحب المختصر في الفقه ، فقيه مشهور ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس ، وعبدوس بن محمد بن عبدوس ، يكنى أبا الفرج ، فقيه محدث مشهور ، توفى سنة تسعين وثلاثمائة . وهشام بن حسين من علماء طليطلة ، رحل إلى مصر ، وسمع من عبدالرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبدالعزيز ، مات قريباً من سنة عشرين ومائتين . وأبو عمر يوسف بن يحيى الازدي المغامى ، قال ابن عميرة فى البغية : قال بعضهم : هو

من ولد أبى هريرة ، رحل إلى المشرق ، وسمع بمصر من يوسف بن يزيد القراطيسى وغيره ، وكانت له رحلة إلى مكة واليمن ، ومات بالقيروان سنة ٢٨٣ . وقيل ٢٨٥ .
وأبو الحسن بن فرجون ، وكان من الأدباء . وابن فصيل الطليطلى ، وكان من الشعراء .
وجودى بن عثمان النحوى العبسى ، من أهل موررور ، أصله من طليطلة ، رحل إلى المشرق ، فلقى الكسائى والفراء وغيرهما ، وهو أول من أدخل الى الأندلس كتاب الكسائى وله تأليف فى النحو يسمى « منبّه الحجارة » ترجمه ابن الأبّار ، وقال : كانت له حلقة ، وأدّب أولاد الخلفاء ، وظهر على من تقدمه ، توفى سنة ١٩٨ ، وصلى عليه الفرَج بن كنانة القاضى .

وجرير بن غالب الرعينى ، تولّى قضاء طليطلة أيام ثورتها على الأمير الحكم بن هشام ، وهى الثورة التى تقدم ذكرها ، وانتهت بقتل عدة مئات من أعيان طليطلة فى قصر البلدة ، وردت ترجمة جرير المذكور فى التكملة لابن الأبّار . وحريز بن سلمة الانصارى ، من أهل طليطلة ، سكن بطليوس ، وهو ابن عم القاضى أبى المطرّف بن سلمة ، كان من الفقهاء المشاوَرين . ومن الأدباء . ترجمه ابن الأبّار فى التكملة . وخلف ابن تمام ، يكنى أبا بكر ، من أهل قلعة عبد السلام ، من عمل طليطلة ، حدّث عنه أبو محمد بن ذُنين . وخليفة بن ابراهيم ، ابو بكر ، طليطلى ، حدّث عنه أبو الاصبغ عسلون بن احمد ، من شيوخ الصاحبين . ومحمد الاسدى ، المعروف بابن بُنْكَلِش من علماء طليطلة ، وصفه الصاحبان بالفقه والزهد . ومحمد بن حزم بن بكر التنوخى ، من طليطلة سكن قرطبة ، يعرف بابن المدينى ، صحب محمد بن مسرّة الجبلى قديماً ، واختص بمرافقته فى طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع ، ولما كان في المدينة المنورة كان يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، ليستدل على أمكنة سكناه ، وجلوسه . ويتبرك بذلك ، ومحمد بن يحيى بن آدم التنوخى ، من أهل طليطلة ، كتب إلى الصاحبين بمعلومات عن رجاله . ومحمد بن رضا بن احمد بن محمد ، من أهل طليطلة ، كان هو وأخوه احمد من أهل الرواية والعناية بالفقه ، وقد سمعا جميعاً المدونة

من خلف بن احمد المعروف بالرحوى فى سنة ٤٢٣ ، قال بن الأبّار : وقفت على ذلك . ومحمد بن قاسم بن محمد بن اسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشى المرواني ، من أهل قرطبة ، يعرف بالشبانسى ، سكن طليطلة ، وكان ممن ترك قرطبة بعد الفتنة فيها وصار فى طليطلة كاتباً للرسائل لأنه كان متقدماً فى البلاغة بارع الكتابة . قال بن الأبّار : وكان آخر من بقى من أكابر أهل صناعته ، توفى سنة ٤٤٧ ، ذكره ابن حيان . ومحمد ابن احمد بن سعدون ، يكنّى أبا بكر ، له رحلة إلى الشرق ، سمع فيها من أبى ذر الهروى ، حدّث عنه القاضى ابو عامر بن اسماعيل الطليطلى ، ترجمه بن الأبّار . ومحمد بن شدّاد ، يكنى أبا عبد الله ، و يعرف بابن الحداد ، يروى عن الحافظ ابن عبد السلام المعروف بابن شق الليل . وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعيد بن عيسى الكنانى من طليطلة ، سكن بلنسية ، روى عن أبى بكر احمد بن يوسف بن حمّاد سمع منه مختصر الطليطلى فى الفقه ، وروى عنه أبو الحسن بن هذيل المقرىء ، وكان فقيهاً أديباً ، أصولياً ، متكلما ، ووقعت عليه محنة في بلنسية من أبى احمد بن جحاف الأخيف فخرج إلى المرية وتوفى قبل الخمسمائة . ذكره ابن الأبّار .

وأبو عبيد الله محمد ابن احمد بن عبد الرحمن الانصارى المقرى من أهل طليطلة نزل مدينة فاس يعرف بابن قُرقاشش ، أخذ القراءات بطليطلة عن المغامى ، وأبى الحسن ابن الالبيرى وكان مقرئاً جليلا . له تأليف فى اختلاف القرّاء السبعة . أخذ عنه أبو اسحق الغرناطى فى مقدَمِه غرناطة واقرائه منها بمسجد حمزة سنة ٥١٢ . وابو محمد بن محمد ابن عبد الله الطليطلى ، روى عن عبد الله بن سعيد بن رافع الاندلسى ، وزياد بن عبد الرحمن القيروانى ، والحسن بن رشيق المصرى . وحدث عنه الصاحبان بطليطلة ونصر المصحفى النقّاط ، كان يقرىء القرآن ، و ينقّط المصاحف ، أخذ عنه محمد ابن عبد الجبّار الطليطلى ، فلما قرأ بمصر على ابراهيم النحاس أعجبته قراءته . ونصر بن سيد بونُه بن خلف الطائى ، له رحلة إلى المشرق حاجّا ، وسمع بدانية من الفقيه

أبى عبد الله بن الصايغ ، الذى أجاز له سنة ٤٦٦ .

ونجدة بن سليم بن نجدة الفهرى الضرير من أهل قلعة رباح ، سكن طليطلة ، يكنى أبا سهل ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وأبى محمد الشنتجالى ، وأبى محمد بن عباس الطليطلى وغيرهم ، وتصدّر بطليطلة لاقراء القرآن وتعليم العربية ، وتوفى بعد سنة ٤٧٥ ذكره ابن الأبّار . وأبو محمد عبد الله بن يونس ، كان من أهل العلم والعبادة والجهاد وتركِ الدنيا ، والتهجّد بالقرآن . وقد حج بيت الله ، وعاد إلى الأندلس ، ولحقته سعاية من قِبَل عامل طليطلة ، فى أيام المنصور بن أبى عامر ، فأسكنه قرطبة مدة سنتين ، ولـكن لم يمد يده الى شىء من نعمته ونشبه ، وكان ذا ثروة طائلة ، ولما أقام بقرطبة لم يلق فيها أحداً ، ولا طلب إلى سلطانه شفيعاً ، إلى أن صرفه مكرماً إلى وطنه ، وتوفى بعد قليل من تسريحه ، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسنُّه نحو الثمانين . وكان مع تقواه من أهل الأدب ، والبصر بالعربية ، ترجمه ابن الأبّار . وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بالاشهب ، حدّث عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف ترجمه ابن الأبّار أيضاً فى التكملة .

وعبد الله بن محمد بن على بن عبيد الله بن سعيد بن محمد بن ذي النون الحَجْرى (بسكون الجيم بعد فتح الحاء) من حَجْر ذى رُعين ، أصله من طليطلة ، سكن المرية وهم فى الأصل من بنى ذى النون ، أمراء طليطلة ، كما كان يقول . ولما تحولوا من طليطلة نزلوا حصناً اسمه قَنْجَايَر بينه وبين المرية ثلاثون ميلا على الجادّة إلى مالقة . سمع صحيح مسلم من أبى عبد الله بن زغيبة ، وروى عن أبى القاسم بن ورد ، وأبى الحجاج بن يسعون ، وأبى عبد الله ابن أبى أحد عشر ، وأبى محمد الرشاطى وغيرهم ، وذلك فى المرية . ثم رحل إلى قرطبة ، فروى عن أبى القاسم بن بقىّ ، وأبى الحسن ابن مُغيث ، وأبى بكر بن العربى وغيرهم ، ولقى باشبيلية شُريح بن محمد ، وقرأ عليه صحيح البخارى فى رمضان سنة ٥٣٤ ، وكان شُريح بطول العمر قد انفرد بعلو الاسناد فى صحيح البخارى لسماعه إياه من أبيه وأبى عبد الله بن منظور ، عن أبى ذر (الهروى)

فكان الناس يرحلون اليه بسببه ، وكان قد عيّن لقراءته شهر رمضان، فيكثر الازدحام عليه فى هذا الشهر من كل سنة ، قال ابن الأبّار فى التكملة : ان عبد الله المذكور كان الغاية فى الصلاح والورع والعدالة ، وكان أبو القاسم بن حبيش يقول : انه لم يخرج على قوس المرية أفضل منه . قال ابن الأبّار : وأشبه أبا القاسم ابن بشكوال فى اكثاره وتولى الصلاة والخطبة بجامع المرية ، ودعى إلى القضاء فأبى . ولما تغلّب العدو على المرية أول مرة خرج إلى مرسية ، فدعى إلى ولايات أباها ، ثم خرج إلى مالقة ، ثم أجاز البحر قاصداً إلى فاس ، ثم عاد إلى سبتة وأقام يُقرىء القرآن ، و يُسمع الحديث و يرحل اليه الناس ، لعلو اسناده وحسن ضبطه ، وكان له خط حسن ، وكانت ولادته بقَنْجَايَر سنة ٥٠٥ ، وتوفى ليلة الأحد من صفر سنة ٥٩١ ، بسبتة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة ، ودفن بالموضع المعروف بالمنارة ، وكانت له جنازة مشهودة ، روى ذلك ابن الأبّار فى التكملة ، ونحن ننقله ملخصاً .

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أبى بكر محمد بن محمد بن مغيث الصدفى ، أخذ عن مشيخة بلده طليطلة ، وقدم بلنسية فى وجوه أهل طليطلة ، للعقد على ابنة المأمون بن ذى النون ، مع المظفّر عبد الملك بن المنصور ، عبد العزيز بن أبى عامر ، فسمع معهم من أبى عمر بن عبد البر سنة ٤٥١ ، وكان هذا الرجل من بيت شهير بالعلم والفقه فى طليطلة ، وهو الذى صلى على أبى جعفر احمد بن سعيد اللورانكى عند وفاته فى طليطلة سنة ٤٦٩ .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمى ، رحل إلى قرطبة ، فتعلم فيها الطب على أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى وكان مع تقدمه فى علم الطب فقيهاً أديباً متفنناً ، وله فى الطب كتاب الأدوية المفردة استعمله الناس ، وكتاب الوساد . وله فى الفلاحة مجموع مفيد ، وكان عارفاً بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة ولد سنة ٣٨٩ وتوفى منتصف يوم الجمعة ، لعشر بقين من رمضان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وأبو زيد عبد الرحمن بن سعيد الأنصارى ، لقى أبا الحسن بن الاليرى المقرى وأخذ عنه ، وحدّث عنه أبو بكر بن الخلوف ، بكتاب الاستذكار ، لمذاهب القراء السبعة المشهورين فى الأمصار ، لابن الأليرى المذكور ، قال ابن الأبّار : وقد تقدم ذكر محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الطليطلى المقرى ، وروايته عن أبى عبد الله المغامى ، ولعله ابن هذا . وعبد الجبار بن قيس بن عبد الرحمن بن قتيبة ابن مسلم الباهلى ، من أهل طليطلة ، وَلّى قضاءها من قِبَل الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل .

وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن يوسف الأنصارى من ولد سعد بن عبادة يعرف بابن اللونقة ، روى عن أبى عمر بن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهما وكان فقيهاً ورعاً ، وأخذ علم الطب عن أبى المطرّف بن واقد ، وكان خرج من طليطلة قبل تغلب الروم عليها ، وأقام بقرطبة ، ومات فيها سنة ثمان أو تسع وتسعين وأربعمائة . ترجمه ابن الأبّار . وأبو الحسن على بن احمد بن أبى بكر الكنانى ، يُعرف بابن حنين الطليطلى ، ثم القرطبى ، نزيل فاس ، سمع بقرطبة ، وبجيّان ، وحج سنة خمسمائة وبعدها مرتين ، ولقى أبا حامد الغزالى ، وصحبه ، وسمع منه أكثر الموطّأ وأقام ببيت المقدس تسعة أشهر ، يُقرىء القرآن ، وفى سنة ٥٠٣ كان فى مدينة فاس ، توفى سنة ٥٦٩ معمّراً ، لأنه ولد سنة ٤٧٦ ، ترجمه ابن الأبّار . وسعيد بن محمد ، المعروف بابن البغونش ، يكنى أبا عثمان ، قرأ بقرطبة علم العدد والهندسة ، وأخذ عن أبى محمد بن عبدون الجبلى ، وسليمان بن جُلجُل ، علم الطب . واتصل بأمير طليطلة الظافر اسماعيل بن ذى النون ، ثم انقبض عن الناس ، ومال إلى العبادة فى دولة ابنه المأمون يحيى بن ذى النون ، وتوفى فى رجب سنة ٤٤٤ ، عن خمس وسبعين سنة . وأبو عثمان سعيد بن عيسى بن أحمد بن لب الرُعينى ، يعرف بالأصفر ، وبالقُصيرى لولادته بقصير عطية ، ولد سنة ٣٨١ ، ورحل إلى قرطبة فى طلب العلم سنة ٣٩٩ ، وقرأ بقرطبة وبمالقة على أبى الحسن الزهراوى ، وعلى أبى عثمان نافع ، وكان

مقدماً فى علم العربية ، وتوفى سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وأبو اسحق ابراهيم بن محمد الأنصارى المقرىء الضرير ، يعرف بالمُجُنْقُونى ، سكن قرطبة ، وأصله من طليطلة كان من جلة أصحاب أبى عمر المقرىء ، وسمع الحديث على أبى بكر جماهر بن عبد الرحمن الحَجْرى ، وكان ثقة فاضلا عفيفاً منقبضاً ، وكان إمام مسجد طَرَفة بالمرية ، وكانت وفاته عقب شعبان سنة سبع عشرة وخمسمائة . وأبو بكر يحيى بن احمد من طليطلة ، نزل اشبيلية بعد تغلّب الروم على وطنه . قال ابن الأبّار : إنه كان يتقدم أدباء عصره تفننا فى الآداب ، وتصرفا فى النظم توفى سنة ٥٤٥ .

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام الأنصارى ، يعرف بابن شق الليل ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفى ، وأبا القاسم الطحّان ، وأبا محمد بن النحاس ، وغيرهم ، وكان قد قرأ على علماء طليطلة ، وكان غالبا عليه علم الحديث ، مع معرفة اسماء رجاله . وكان مليح الخط ، جيدالضبط ، شاعراً مجيداً ، لغوياً ، صالحاً فاضلا ، توفى بطلميرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، ترجمه ابن بشكوال ، وذكره المقّرى فى من رحل من أهل الأندلس إلى الشرق . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سهل الأموى الطليطلى ، المعروف بالنقّاش ، نزل مصر ، وقعد للاقراء بجامع عمرو بن العاص ، وأخذ عنه جماعة ، وتوفى بمصر سنة ٥٢٩ ، ورد ذكره فى نفح الطيب . وأبو زكريا يحيى بن سليمان ، قدم إلى الاسكندرية ، ثم رحل إلى الشام ، وأقام بحلب ، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء ، قال بعض من طالعه : ما رأيته مدح أحداً إلا وهجاه . عن نفح الطيب . وأبو محمد عبد الله ابن العسال الطليطلى ، له شعر قرأته فى صفحة ١٤٨ من الجزء الثانى من نفح الطيب وعبد الله بن المعلم الطليطلى . ومحمد بن خيرة العطار كان متقناً لعلم العدد والفرائض علم بذلك فى قرطبة ، ذكره القاضى صاعد ، ترجمه ابن الأبّار فى التكاملة . واحمد بن محمد بن الحسن الطليطلى ، من شيوخ الصاحبين .

وأبو جعفر احمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة ، قال القاضى

صاعد بن احمد عنه : أحد المتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب ، وله مشاركة فى علوم اللسان ، وحظٌّ صالح فى الشعر ، وهو من أقران القاضى أبى الوليد هشام بن احمد ابن هشام ، وأبى إسحق ابراهيم بن لب بن إدريس التجيبى ، المعروف بالقويدس . كان من أهل قلعة أيوب ، ثم أخرج عنها ، واستوطن طليطلة ، وتأدّب فيها ، وبرع فى علوم العدد والهندسة والفرائض ، وقعد للتعليم بذلك زماناً طويلا وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك ، وحركات النجوم ، وعنه أخذتُ كثيراً من ذلك ، وكان له مع ذلك نفوذ فى العربية ، وقد أدّب بها زماناً بطليطلة ، وتوفى رحمه الله ليلة الأربعاء ، لثلاث بقين من رجب سنة أربع وخمسين وار بعمائة . انتهى .

ثم ذكر القاضى صاعد بعض من عنى بالفلسفة من أهل الأندلس فقال : وفى زماننا هذا افراد من الاحداث منتدبون بعلم الفلسفة ، ذوو افهام صحيحة ، وهمم رفيعة قد أحرزوا من أجزائها ، فمنهم من سكان طليطله وجهاتها : أبو الحسن على بن خلف ابن احمر ، وأبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقّاش المعروف بولد الزرقيال ، وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجى ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التهلاكى ، وعيسى بن أحمد بن العالم ، وابراهيم بن سعيد السهلى الاسطرلابى . (ثم قال) : وأعلمهم بحركات النجوم ، وهيئة الأفلاك ، أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش ، المعروف بولد الزرقيال ، فانه أبصر أهل زماننا بارصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها ، وأعلمهم بعلم الازياج ، واستنباط الآلات النجومية اه .

ثم ذكر القاضى صاعد غير هذا من الحكماء وعلماء الفلك والرياضيين ، من أهل الأندلس ، ممن سنذكرهم عند الوصول إلى ذكر بلدانهم . ثم ذكر علماء الطب فقال مايلى : وكان بعد هؤلاء إلى وقتنا هذا جماعة من أشهرهم : أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، وكان من أهل طليطلة ، رحل إلى قرطبة بطلب العلم ، فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة ، وعن محمد بن عبدون الجبلى وسليمان بن جلجل ، وابن الشناعة ، ونظرائهم ، علم الطب . ثم انصرف إلى طليطلة ، واتصل بأميرها الظافر

اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن مطرّف بن ذى النون ، وحظى عنده وكان أحد مدبّرى دولته ، ولقيته فيها بعد ذلك ، في صدر دولة المأمون ذى المجد يحيى بن الظافر بن اسماعيل بن ذى النون ، وقد ترك قراءة العلم ، وأقبل على قراءة القرآن ، ولزوم داره ، والانقباض عن الناس ، فلقيت منه رجلا عاقلا ، جميل الذكر والمذهب ، حسن السيرة ، نظيف الثياب ، ذا كتب جليلة ، فى أنواع الفلسفة ، وضروب الحكمة . وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها ، والمنطق وضبط كثيراً منه . ثم أعرض عن ذلك ، وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها ، وتناولها بتصحيحه ومعاناته ، فحصل له بتلك العناية فهم كثير منها . ولم يكن له دربة فى علاج المرضى ، ولا طبيعة نافذة فى فهم الأمراض . وتوفى عند صلاة الصبح يوم الثلثاء أول رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وعمره خمس وسبعون سنة اه .

ثم ترحم القاضى صاعد الوزير أبا المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ابن يحيى بن وافد بن مهنّد اللخمى ، قال عنه : أحد أشراف أهل الأندلس وذوى السلف الصالح منهم ، والسالفة القديمة فيهم ، عُنِيَ عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ، ومطالعة كتب ارسطاطاليس ، وغيره من الفلاسفة ، وتمهّر فى علوم الأدوية المفردة ، حتى ضبط منها مالم يضبط أحد فى عصره . وألّف فيها كتابا جليلا لانظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسفوريدوس ، وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب . وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة ، وأخبرني عنه أنه عانى جمعه ، وحاول ترتيبه ، وتصحيح ماضمّنه من أسماء الأدوية وصفاتها ، وأودعه إياه من تفصيل قواها ، وتحديد درجاتها ، من عشرين سنة ، حتى كمل موافقا لغرضه ، مطابقا لبغيته . وله فى الطب منزع لطيف ، ومذهب نبيل . وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ، ما أمكن التداوى بالاغذية ، أو ما كان قريباً منها ، فاذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركّبها ، ماوصل إلى التداوي بمفردها . فان اضطر إلى المركّب لم يكثر التركيب . بل اقتصر على أقل مايمكن منه . وله نوادر

محفوظة ، وغرائب مشهورة ، فى الابراء من العلل الصعبة ، والأمراض المخوفة ، بأيسر العلاج وأقربه ، وهو فى وقتنا هذا حى مستوطن مدينة طليطلة وأخبرني أنه ولد فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة اهـ .

ثم ذكر القاضى صاعد علماء آخرين من بلده ، اشتهروا بالفلسفة والطب والفلك والهندسة فقال : ثم من احداث عصرنا ، ممن يعتنى بطلب الفلسفة : أبو الحسن عبدالرحمن ابن خلف بن عساكر ، اعتنى بكتب جالينوس عناية صالحة ، وقرأ كثيراً منها على أبى عثمان سعيد بن محمد بن بغونش ، واشتغل أيضاً بصناعة الهندسة والمنطق ، كانت له عبارة بالغة ، وطبع فاضل فى المعاناة ، ومنزع حسن فى الفلاح ، وهو مع ذلك صِنْعُ(١) اليدين ، متصرف فى ضروب من الأعمال اللطيفة ، والصناعات ، ساع فى نيلها ، وله من جودة القريحة ، وصحة الفهم ، مايمكنه من البلوغ إلى المراتب الراقية من الفلسفة ، إن أعانه جد ، وساعده حال .

وأما صناعة أحكام النجوم فلم تزل نافقة بالاندلس قديماً وحديثاً ، واشتهر بتقلدها جماعة فى كل عصر إلى وقتنا هذا . فكان من مشاهيرهم فى زماننا هذا ، وزمان بنى أمية : أبو بكر يحيى بن أحمد ، المعروف بابن الخياط ، كان أحد تلاميذ أبى القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى فى علم العدد والهندسة . ثم مال إلى أحكام النجوم ، فبرع فيها ، واشتهر فى علمها ، وخدم بها سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى زمان الفتنة ، وغيره من الأمراء . وكان آخر من خدم بذلك معتنياً بصناعة الطب دقيق العلاج ، وكان حصيفاً ، حليما ، دمثا ، حسن السيرة ، كريم المذهب ، توفى بطليطلة سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وقد قارب ثمانين سنة اهـ .

(ثم قال) : ومنهم من أحداث عصرنا أبو مروان عبيد الله بن خلف ، أحد المتحققين بعلم الأحكام ، والمشرفين على كتب الأوائل ، فلا أعلم أحداً فى الأندلس فى وقتنا هذا ولا قبله ، وقف من أسرار هذه الصناعة وغرائبها على ماوقف عليه .

(١) ضع اليدين بكسر الصاد وسكون النون ويجوز بتحريك الصاد والنون

وله فى التسييرات ، ومطارح الشعاعات ، وتعليل بعض أصول الصناعة ، رسالة فاضلة ، لم يتقدمه أحد إليها . كتب بها إلىّ من مدينة قونــكة اهـ .

هؤلاء هم علماء العرب المنسو بون إلى طليطلة ، من فقهاء ، ومحدثين ، وحكماء ، ومتكلمين ، وشعراء ، ومنشئين ، وأطباء ، ومهندسين ، وحكماء ور ياضيين ، ممن وقفنا على أخبارهم . ولا شك فى أنه ندّ منهم من لم نقف على خبره ، أو من وقع منا سهو عن تقييد ترجمته ، والاحاطة غير ممكنة ، كما لا يخفى . وان فاتنا شىء ووقفنا على فوته قيّدناه ليلحق بالطبعة الآتية إن شاء الله

فأما الذين ينسبون إلى طليطلة من كبار الرجال فى دور النصرانية ، فأشهرهم الـكردينال « بادرو غونزالز دو مندوزا »[١] الذى كان أكبر موقد لنار الحرب على غرناطة ، توفى سنة ١٤٩٥ . والـكردينال « شيمينيس دوسيزناروس[٢] » المتوفى سنة ١٥١٧ ، وهو صاحب ديوان التفتيش الشهير ، الذي كان يحرق بالنار المسلمين واليهود الذين يأبون التنصر ، أو يتنصرون ظاهراً ، ثم يأتى من يخبر عنهم بأنهم لا يزالون يدينون بدينهم سراً . والـكرادلة « رودريقو »[٣] ، و « فونسيكا »[٤] ، و «تينوريو»[٥] ، بانى قنطرة طليطلة الأخيرة . و «تافيرَه»[٦] ، و «لورانزانه»[٧] ، وكلهم كانوا رؤساء أساقفة أسبانية . وفى طليطلة مات الشاعر اغسطين كابانيا[٨] ، سنة ١٦٦٩ وولد فرنسيسكو روجاس زورلّا[٩] سنة ١٦٠٧

---

(١) Pedro Gonzalez de Mendoza

(٢) Ximénes de Cisneros (٣) Rodrigo

(٤) Fonseca (٥) Tenorio (٦) Tavera

(٧) Loranzana (٨) Cabanã (٩) Rojes - Zorrilla

طلبيرة Telavera

ومن الأعمال الشهيرة التى كانت مضافة إلى طليطلة فى زمان العرب طَلَبيرة[1]، وهى على مسافة ١٣٥ كيلومترا من مجريط . وسكانها اليوم أحد عشر ألف نسمة ، واقعة على ضفة نهر تاجه ، ولها جسر ٢٥ قوساً باق من القرن الخامس عشر ، وفيها باب رومانى قديم ، وأبراج عربية من زمن بنى أمية . وفى هذه البلدة هزم الانكليز جيش بونابرت فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩ . و يوجد ثلاث بلاد باسم طَلَبيرة فى أسبانية : طَلَبيرة على ضفة وادى يانه ، من عمل بطَلْيوس فى غرب الأندلس وهى قرية صغيرة ، وطلبيرة هذه ذات الشأن ، وكانت تعد من أعمال طليطلة . وطَلَبيرة بيجة على ٣٠ كيلومتراً من طلبيرة الكبرى .

قال ياقوت الحموى : طلبيرة بفتح أوله وثانيه ، وكسر الباء الموحدة ، ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ، وراء مهملة : مدينة بالأندلس ، من أعمال طليطلة ، كبيرة ، قديمة البناء ، على نهر تاجه بضم الجيم . وكانت حاجزاً بين المسلمين والافرنج ، إلى أن استولى الافرنج عليها فهى فى أيديهم الآن ، فيما أحسب . وكان قد استولى عليها الخراب ، فاستجدها عبدالرحمن الناصر الأموي ، ولطلبيرة حصون ونواح عدة اه .

و ينتسب إلى طلبيرة عدد كبير من أهل العلم ، مما يدل على عمرانها المظيم فى أيام العرب : منهم أبو الحسن عبد الرحمن بن سعيد بن شمّاخ ، روى ببلده عن أبى الوليد مرزوق بن فتح ، وروى عن أبى عبد الله المغامى ، وكان من أهل الذكاء والمعرفة ، توفى فى شوال سنة ٥٢٠ . وأبو الوليد عبدربه بن جهور القيسى ، روى عن أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد السلام الحافظ وغيره ، وروى عنه ابنه ابراهيم بن عبد ربه . وأبو القاسم عيسى بن ابراهيم بن عبدربه المذكور ، سكن شريش ، ورحل إلى الشرق ودخل بغداد ، وأخذ عن الحريرى صاحب المقامات ، وكان أديباً بارعا صالحاً ثقة ، مات باشبيلية وسط سنة ٥٢٧ .

(١) Telavera de la Reina

وأبو الحسن علي بن موسى بن ابراهيم بن حِزب الله ، من أهل طلبيرة سكن سرقسطة ، روى عن أبي عمر المديوني ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأدرك الجلّة من الرجال ، وحدث عنه أبو عمرو المقرى ، وأبو حفص بن كُريب ، وكان كثير الرواية ، غير أن العبادة غلبت عليه ، فامتنع عن الرواية إلّا يسيراً ، واعتزل الناس ، وكان يختم القرآن في ثلاث ليال . قال ابن بشكوال : ولم ألقَ مثله في الزهد والتبتل ، رحمه الله . وأبو نصر فتوح بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ، روى عنه أبو الوليد مرزوق بن فتح ، وقال : كان الغالب عليه الرأي .

وأبو عبد الله محمد بن فتوح بن علي بن وليد بن محمد بن علي الأنصاري ، روى عن أبي جعفر بن مغيث وثائقه ، وأخذ عن أبي عمر بن عبدالبرّ ، وأبي عمر بن سُميق ، وأبي عمر الطلمنكي ، وعن التبريزي . وكان عالماً بالرأي والوثائق ، تولّى أحكام القضاء بغرناطة وتوفي بمالقه ، أول يوم من صفر سنة ٤٩٨ . وأبو الوليد مرزوق بن فتح بن صالح القيسي ، روى عن أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الحافظ ، وعن أبي العباس بن فتوح وعن التبريزي ، والسفاقسي ، وعن أبي محمد الشنتجياني ، وأبي محمد بن عباس الخطيب ، ورحل إلى المشرق حاجا ، ولقي بمكة أبا ذر الهروي في موسم سنة ٤٢٨ ، وكان من أهل المعرفة والنباهة ، توفي في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وأبو الفتح نصر بن عامر بن أنس الأنصاري ، روى عن عبد الرحمن بن مدراج ، وروى عنه ابن عبد السلام الحافظ ، وأبو محمد بن خزرج . وقال هذا عنه : كان من أهل العلم ، ثقة ثبتاً ، مشهوراً بالعناية والسماع ، وذكر أنه أجاز له سنة ٤١٦ . وأبو العباس وليد بن محمد بن فتوح الأنصاري ، روى عن عبدوس بن محمد ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان يغلب عليه الرأي .

وأبو العباس احمد بن عمر المعافري المرسي ، أصله من طَلَبيرة ، يعرف بابن إفرند . وخلف المقرى مولى جعفر الفتى ، يكنى أبا القاسم ، له رحلة إلى المشرق ، سمع فيها بالقيروان من أبي محمد بن أبي زيد ، ولازمه سنين عدة ، وأقام بالمشرق

سبعة عشر عاماً ، وحج ثلاث حجج ، وقرأ القرآن بمصر على ابن غلبون المقرىء ، ودخل بغداد والبصرة والكوفة ، قال ابن بشكوال : قرأت خبره كله بخط أبى بكر المصحفى ، وذكر أنه لقيه بطلبيرة ، وقال : كان رجلا صالحاً متبتلا ، دائم الصيام ، عابداً ، يسكن المسجد ، ويحاول عجن خبزه بيده ، وكان قصيراً مفرط القصر ، وكان فقيهاً يقظاً ، وذكر أنه أخذ عنه سنة ثمان وأربعمائة . وأبو بكر خلف بن يوسف بن نصر المعروف بالمُغيلى ، أخذ عن أبى عبد الله بن عيشون مختصره فى الفقه ، وحدث عنه الصاحبان فى طليطلة ، وقالا : توفى فى شعبان سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

قشــــبرة

ومن أعمال طليطلة بلدة يقال لها قُشُبْرَة ، بضم أوله وثانيه ، وسكون الباء . قال ياقوت الحموى : وجدت بعض المغاربة كتبه بالواو (قشوبره) . وهى من إقليم شنتبلة ينسب إليها أبو الحسن على بن محمد بن احمد الأنصارى القُشُبْرى ، سمع الحديث بأصبهان من أبى الفتوح بن محمود بن خلف العجلى ، ومحمد بن زيد الكرانى ، وحدث فيما وراء النهر ببخارى وسمرقند ، وكان عالمًا بالهندسة ، وتوفى بسمرقند

أُقليش Aclés

ومن أعمال طليطلة أيام العرب أُقليش ، ذكرها ياقوت فى المعجم فقال : بضم الهمزة ، وسكون القاف ، وكسر اللام وياء ساكنة ، وشين معجمة : مدينة بالأندلس من أعمال شنت برية ، وهى اليوم للافرنج . وقال الحُميدى : اقليش بليدة من أعمال طليطلة ، ينسب إليها أبو العباس احمد بن القاسم المقرى الاقليشى ، وأبو العباس احمد بن معروف بن عيسى بن وكيل التجيبى الاقليشى . قال أحمد بن سِلفة [1]

(١) المراد بابن سلفة أبو طاهر السلفى الحافظ الشهير المحدث المنقطع النظير أحمد ابن محمد بن احمد بن محمد بن ابراهيم الاصبهانى الحروانى ، وحروان محلة بأصبهان . وسلفة بكسر المهملة لقب جده احمد ، ومعناه غليظ الشفة ، أخذ عن أبى عبد الله الثقفى واحمد بن عبد الغفار بن أشته . ومكى السلار ، وخلق كثير باصبهان . وحدث فى بلده

فى معجم السفر : كان من أهل المعرفة باللغات ، والأنحاء والعلوم الشرعية . ومن جملة أساتيذه أبو محمد بن السيد البطَلْيوسى ، وأبو الحسن بن سبيطة الدانى ، وأبو محمد القَلَنّى ، وله شعر ، وكان قد قدم علينا الاسكندرية سنة ٥٤٦ ، وقرأ علىّ كثيراً ، وتوجه إلى الحجاز ، و بلغنا أنه توفى بمكة . اه

وعبد الله بن يحيي التجيبى الاقليشى ، أبو محمد ، يعرف بابن الوحشى ، أخذ بطليطلة عن المغامى المقرىء القراءة ، وسمع بها الحديث ، وله كتاب حسن فى شرح الشهاب واختصر كتاب مشكل القرآن ، لابن فورك . وتولى أحكام بلده في آخر عمره وتوفى سنة اثنتين وخمسمائة . اه

قلنا : وممن ينسب إلى اقليش من العلماء خلف بن مسلمة بن عبد الغفور ، كان قاضيا فى أقليش يكنى أبا القاسم روى بقرطبة عن أبى عمر بن الهندى ، وأبى عبد الله

وهو ابن سبع عشرة سنة . ثم رحل إلى بغداد ، وتفقه فيها بالكيا الهراسى ، وأبى بكر الشاشى ، ثم طاف فى البلدان ، فسمع من علمائها فى زنجان وهمذان والرى والدينور وقزوين واذربيجان ، هذا من بلاد العجم ، وسمع بالحرمين والكوفة وبصرة والشام ومصر من بلاد العرب ، وأتقن مذهب الشافعى ، وبرع فى الأدب ، وجود القرآن بالروايات واستوطن الاسكندرية بضعاً وستين سنة ، مكبا على المطالعة والنسخ واقراء الحديث ، وإذا قرأت تراجم الأندلس فلا تكاد تجد راحلا من الأندلسيين إلى الشرق إلا وقد قيل عنه إنه سمع من أبى طاهر السلفى فى الاسكندرية . ومما لا جدال فيه أنه لم يوجد من قضى عمرا يساوى عمره فى خدمة الحديث حتى كانوا يقولون عنه إنه مسند الدنيا وقد جاء فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى أن أبا طاهر السلفى مكث نيفاً وثمانين سنة يسمع عليه ، قال الذهبى : ولا اعلم احداً مثله فى هذا . وقال ابن عساكر : سمع السلفى عن لا يحصى . قلت : وسمع منه عدد لا يحصى . وله كتاب ترجم فيه من لقيه . وأما من جهة سنه فيقول فى شذرات الذهب إنه جاوز المائة بلا ريب . وإنما النزاع فى مقدار الزيادة ، وتزوج بالاسكندرية امرأة ذات يسار ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وصارت له بالاسكندرية وجاهة . وبنى له العادل على بن اسحاق بن السلار أمير مصر مدرسة بالاسكندرية وكانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة بكرة خامس ربيع الآخر سنة ٥٧٦ .

ابن العطار ، وأخذ عنهما كتاب الوثائق من تأليفهما ، وجمع كتاباً فى الفقه سماه بالاستغناء ، وأبو القاسم خلف ابن مسعود بن أبى سرور ، روى بقرطبة عن شيوخها وحدث عنه القاضى محمد بن خلف بن السقاط . وأبو محمد عبد الله بن يحيى التجيبى المعروف بابن الوحشى ، الذي ذكره ياقوت فى المعجم كما تقدم . وأبو الربيع هشام بن سليمان المقرى ، له كتاب فى القراءات . وأبو العباس احمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمى المقرى الاقليشى سكن قرطبة[1] . وأبو العباس الاقليشى احمد ابن معد بن عيسى التجيبى الاندلسى الداني . قال الحنبلى فى شذرات الذهب . إنه مات سنة ٥٠٥ ، وسمع أبا الوليد ابن الدبّاغ ، وأخذ بمكة عن الكروخى ، وكان زاهداً عارفاً ، وله شعر في الزهد ، وتصانيف من جملتها كتاب النجم . انتهى .

وكان والده أبو بكر معد بن عيسى بن وكيل التجيبى ، نزيل دانية ، من العلماء أيضاً ، وقد حدّث عنه ابنه المذكور ، ذكر ذلك ابن الأبّار فى التكملة . وأبو المطرف عبد الرحمن بن خلف التجيبى ، روى عن أبى عثمان سعيد بن سالم الجريطى ، ورحل حاجاً سنة ٣٤٦ . و بهلول بن فتح من أهل اقليش ، له رحلة إلى المشرق حج فيها ، وكان رجلا صالحا . وأبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سليمان بن فتحون من أهل اقليش وقاضيها رحل إلى المشرق وحج ، وسمع بمكة ، من كريمة المروزية ، وسمع بمصر من أبى اسحق الحبّال ، وأبى نصر الشيرازى ، وأبى الحسن محمد بن مكى الازدى ، وكان سماعه منهم مع أبى عبدالله الحيدى سنة ٤٥٠ ، وكان خطيباً محسنا ، استقضى باقليش بلده ، ثم أعفى من القضاء ، ثم دعى إلى قضاء وَبذَي فأبى وعزم عليه فى ذلك وجاءه

---

(١) لأبى العباس هذا رحلة إلى المشرق دخل فيها بغداد ، وسمع من أبى القاسم عبيد الله بن محمد بن حبابة ، وأبى حفص الكتانى ، وسمع بمصر أبا الطيب بن غلبون ، وطاهر بن غلبون ، ورجع إلى الاندلس يقرأ بقرطبة فى مسجد الغازى . وألف كتابا فى معانى القراءات ، وحدث عنه أبو عمر بن عبد البر ، والخولانى ، والصاحبان ، وأبو عبد الله بن عبد السلام ، وكان رجلا صالحاً فاضلا ، وانتقل فى الفتنة من قرطبة إلى طليطلة ، وأقرأ الناس بها إلى أن توفى فى رجب سنة ٤١٠ ، عن سبع وأربعين سنة

أهل وَبَذَى لهذا الغرض ، و باتوا ليلتهم فى اقليش ، وتوفى أبو اسحق فى صبيحة تلك الليلة . وأبو اسحق ابراهيم بن ثابت بن أخطل من أهل أقليش ، سكن مصر ، وكان دخوله إليها بعد سنة ٣٩٠ واستوطنها ، وكان مقرئا ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين بعد الار بعمائة اه .

و ينسب إلى بعض قرى اقليش حلالة بن حسن الفهرى ، ذو الوزارتين ، يعرف بابن المديونى سكن سرقسطة وقونكة ، ثم سكن غرناطة ، وعلّم فيها النحو والأدب

قونكة

وغير بعيد عن طليطلة « مدينة قونكة Ceuenca » وهى مركز مقاطعة، وسكانها اليوم بضعة عشر الفا . وهى الآن قسمان : البلدة القديمة وهى جنينة على قمة شاهقة ، عليها حسن ، وأمامها وادى شقر[1] و إلى الشمال الغربى من المدينة تقع البلدة الجديدة وفى قونكة كنيسة قديمة من القرن السادس عشر ، فيها مقابر عائلة البرنس Albornoz و يسير الراكب من ارانجويش إلى قونكة شرقا مسافة ١٥٢ كيلو مترا ، وقد كان العرب عمروا قونكة ، وكانت تابعة لشنترية ، فأخذها منهم الأزفونش الثامن سنة ١١٧٧ . قال ياقوت فى المعجم . قونكة مدينة بالاندلس من أعمال شنترية ينسب إليها ابراهيم بن محمد بن خيرة أبو اسحق القونكى ، روى ببلدته عن قاضيها أبى عبدالله ابن محمد بن خلف بن السقاط ، وسكن قرطبة وأخذ بها عن أبى على العسالى وعن عبدالله بن كرج وكان حافظا للحديث ومات فى شوال سنة ٥١٧ . قاله ابن بشكوال

البسيطة Albacete

ومن المدن التى تقع فى الجانب الشرقى من طليطلة مدينة البسيطة وهى كاسمها فى بسيط من الأرض وسكانها اليوم خمسة عشر ألفا ، وهى قسمان : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والجديدة وهى فى أسفل القديمة ، و يمر بها الطريق الحديدى الذاهب من مجريط إلى القنت والسواحل الشرقية .

---

(١) Jucar

شنتجالة Chinchilla

وعلى مقربة من البسيطة . مدينة شنتجالة. وهى بلدة معروفة جداً فى أيام العرب وموقعها على مسافة ٢٩٨ كيلو متراً من مجريط ، ولها حصن مرتفع على رابية تعلو مائتى متر . وبجانب هذا الحصن كهوف كثيرة مسكونة . وشنتجاله هى ملتقى خطى الحديد: خط مرسية ، وخط قرطاجنة ، وقد ورد ذكرها فى مانقلناه عن جغرافيي العرب ، عند ما تكلموا على تقسيمات الأندلس. ولنذكر الآن ما قاله ياقوت فى معجمه :

شنتجالة بالأندلس . وبخط الاشترى : شنتجيل، بالياء . ينسب إليها سعيد بن سعيد الشنتجالى أبو عثمان . حدّث عن أبي المطرف بن مدرج وابن مفرج وغيرهما . وحدث عنه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن بنان . قال ابن بشكوال : وعبد الله بن سعيد بن لبّاج الأموى الشنتجالى المجاور بمكة ، وكان من أهل الدين والورع والزهد ، وأبو محمد رجل مشهور لقى كثيرا من المشايخ ، وأخذ عنهم وروى ، وصحب أبا ذر عبد الله بن أحمد الهروى الحافظ ، ولقى أبا سعيد السجزى ، وسمع منه صحيح مسلم ، ولقى أبا سعد الواعظ ، صاحب كتاب شرف المصطفى ، فسمعه منه ، وأبا الحسين يحيى بن نجاح ، صاحب كتاب سبل الخيرات ، وسمعه منه . وأقام بالحرم أربعين عاماً لم يقض فيه حاجة الانسان ، تعظيما له ، بل كان يخرج عنه إذا أراد ذلك ، ورجع إلى الأندلس فى سنة ٤٣٠ . وكانت رحلته سنة ٣٩١ ، وأقام بقرطبة إلى أن مات فى رجب سنة ٤٣٦ اهـ

قلنا : ويقال إن أبا محمد عبد الله بن لبّاج المذكور حج خمساً وثلاثين حجة

هذا وممن ينسب من العلماء إلى شنتجالة أبو الوليد يونس بن أبى سهولة بن فرج ابن بنّج اللخمى ، سكن دانية ، وتوفى بها سنة ٥١٤ . وأبو الحسن مفرّج بن فيرُّه الشنتجالى . وخديجة بنت أبى محمد عبد الله بن سعيد الشنتجالى ، وكانت من الفاضلات المحدّثات . وأما أبو الحسن مفرّج بن فيرُّه فكان قد أخذ عن أبى وليد الوقشى ، وأبى عبد الله بن خلصة السكفيف . وتوفى حول ٤٨٠

وبالقرب من شنجالة بلدة يقال لها ألبيرة Alpera يوجد بجانبها كهفان فيهما نقوش من العصر الجليدى ، من رسوم حيوانات ورجال .

وهناك أيضا قرية المنصة Almansa واصل هذه اللفظة « المصنع » وذلك أنه يوجد فيها بركة ماء كبيرة طولها ألفا متر ، فى عرض ألفين ، فى عمق ثمانين مترا ، وهذا المصنع مبنى على واد ، والسد يتخفض كلما ذهب صُعُدا . ويوجد فى قرية المصنع حصن من زمن العرب مشرف على تلك السهول . وقد مررت فى سياحتى إلى أسبانية بهذه الأمكنة كلها .

مكّادة

ومن أعمال طليطلة المعروفة فى أيام العرب « مكّادة » بفتح أوله وتشديد ثانيه وبعد الألف دال مهملة . قال ياقوت : مدينة بالأندلس من نواحى طليطلة هى الآن للافرنج (ياقوت توفى سنة ٦٢٦) قال ابن بشكوال : سعيد بن يمن بن محمد بن عدل ابن رضا بن صالح بن عبدالجبّار المرادى ، من أهل مكّادة ، يكنى أبا عثمان ، روى عن وهب بن مسرّة وعبدالرحمن بن عيسى وغيرهما وتوفى فى ذى القعدة سنة ٤٣٧ . وأخوه محمد بن يمن بن محمد بن عدل ، رحل إلى المشرق وروى عن الحسن بن رشيق وعمر بن المؤمل . وأبو محمد بن أبى زيد ، وكان رجلا صالحاً خطيباً بجامع مكّادة حدّث عنه جماعة ، ومات بعد سنة ٤٥٠ هـ .

وممن ينسب إلى مكّادة أبوعثمان سعيد بن عثمان ، وكان معتنياً بالحديث وسماعه وحدّث ، قال ابن بشكوال : ورأيت السماع عليه مقيداً في كتابه سنة ٤٢١ بطَلَمَنكة في جامعها .

قلعة عبد السلام

ومن أعمال طليطلة قلعة عبد السلام ، وإليها ينسب من أهل العلم أبو بكر خلف ابن تمام ، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين . وابراهيم بن سعيد بن سالم بن أبى عصام القلعى ،

يروى عن محمد بن القاسم بن مسمدة ، وعن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج وغيرهما روى عنه الصاحبان وقالا : قدم علينا طليطلة مجاهداً ، وتوفى فى التسعين وثلاثمائة . وأبو عمر يوسف بن عمر بن يوسف الأنصارى الخزرجى ، يعرف بابن الفخار ، يحدث عن مسعود بن سعيد بن عبد الرحمن ، حدث عنه أبو محمد بن ذنين

بالنسية Palencia

هذا ومن المدن المعدودة فى قشتالة بالنسية ، غير بلنسية الشرقية ، وهى مدينة ايبيرية قديمة ، استولى عليها الرومان بعد مقاومة شديدة . وفي القرن الثانى عشر صارت مقراً لملوك قشتالة ، وفى أيام شارلكان ثار أهلها فى جملة من ثار به فأثخن الامبراطور فيها النكاية ، وأسقطها عن عظمتها ، وفيها كنيسة عظيمة بديعة الصنعة ، هى الكنيسة الكبرى ، وفيها كنائس أخرى أيضاً ، وسكانها اليوم بضعة عشر ألفاً .

ليون Leon

ومدينة ليون وهى من المدن الشهيرة ، ولها مقاطعة يقال لها مقاطعة ليون ، ولكنها اليوم قد نزلت عن درجتها الأولى ، ولا يزيد سكانها على خمسة عشر ألفاً ، وهى من المدن القديمة التى استولى عليها الرومان ، وجعلوا فيها مركز قيادة عسكرية . ثم استولى عليها القوط ، ولبثت فى أيديهم إلى أن فتحها العرب سنة ٩٨٣ ، ثم استرجعها الاسبانيول ، وعظم أمرها فى القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر ، ثم انضمت إلى قشتالة مملكة واحدة ، وكنيستها الجامعة من أبدع محدثات الأسلوب القوطى فى البناء ، وأول حجر وضع فيها كان سنة ١٢٠٠ ، وفيها كنائس وأديار متعددة ، وآثار تدل على عظمتها السالفة . ثم مدينة

طلمنكة Salamanqua

فالعرب يلفظونها بالطاء ، وأما الأسبان فيلفظونها بالسين ، وهي بلدة متوسطة ، سكانها ٢٥ ألفا ، واقعة على نهر طورمس ، وهى مركز مقاطعة وأسقفية ، و إنما اشتهرت

من القديم بمدرستها الجامعة ، وهى فى بسيط من الأرض ، وهواؤها شديد الاختلاف أشبه بهواء برغش ، فنى الشتاء يشتد فيها البرد ، كما فى برغش وآبلة ، وفى الصيف حرّها لايطاق . وكان اسمها فى القديم سالامانتيكا . واستولى عليها أنيبال القرطاجنى سنة ٢١٧ قبل المسيح ، ثم كانت فى زمن الرومان تابعة لولاية لوز يطانية ، ولما جاء العرب وقعت عليها الوقائع الشداد بينهم و بين الأسبان ، لكونها واقعة على الطريق السلطانى الرومانى ، المؤدى من ماردة إلى أسترقه . وقد استردها الأسبان من أيدى العرب فى جملة ما استردوه من شمالى أسبانية ، وصارت قاعدة مملكة ليون ، وحصّنها الاذفونش السادس الذى استولى على طليطلة ، ولأجل أن يجعل الأذفونش فيها حامية كثيفة استجلب إليها كثيراً من الغرباء ، لا سيما من الافرنجة ، ولكن عظمة طَلَمَنْكة لم تبدأ حقا إلا بالمدرسة الجامعة التى بناها أذفونش التاسع سنة ١٢٣٠[١] ، وقد قارن النجاح هذه المدرسة ، فازدهرت ، وشاع ذكرها ، وصارت تعد من أكبر جامعات أوربة ، نظير جامعة باريز واكسفورد . وكان فيها سبعة آلاف طالب[٢] فى القرن السادس عشر ، وكانوا من جميع أقطار الأرض . جاء فى دليل بديكر أن هذه المدرسة كانت هى التى تنشر معارف العرب فى بقية أوربة .

---

(١) ويقال إنه كان يعيش من جامعة طلمنكة ٥٠ طباعا و ٨٠ كتبياً و١٨ الف تاجر وصانع

(٢) كانوا يبحثون عن أشهر المدرسين فى جامعات أوربة وينتدبونهم للتعليم فى جامعة طلمنكة وكذلك فى جامعة قلعة رباح التى كان فيها ٤٢ منبراً لتدريس اللاهوت والقانون وأربعة منابر للطب واثنان للتشريح والجراحة و ١٤ لتعليم اللغات والنحو والبيان وكانوا يقرأون التوراة باللاتينى والعبرى واليونانى والكلدانى . وكانوا يختارون من علماء اليهود من يدرس التوراة اليهودية . وكان عدد تلاميذ جامعة القلعة ثمانية الآف . وفى ذلك الوقت كان نبلاء اسبانية والمترفون فيها يتنافسون فى تشييد الجامعات العلمية فأنشئت عشرون جامعة فأكثر فى سرقسطة وآبلة وبلنسية وشنت ياقب ولوسّنة وطليطلة وغرناطة واشبيلية وبسطة واوريولة وطرّكونة وغيرها ، ولكن لم يطل الأمر



نهر تورمس وجسر روماني في طلمنكة .



من مباني طلمنكة

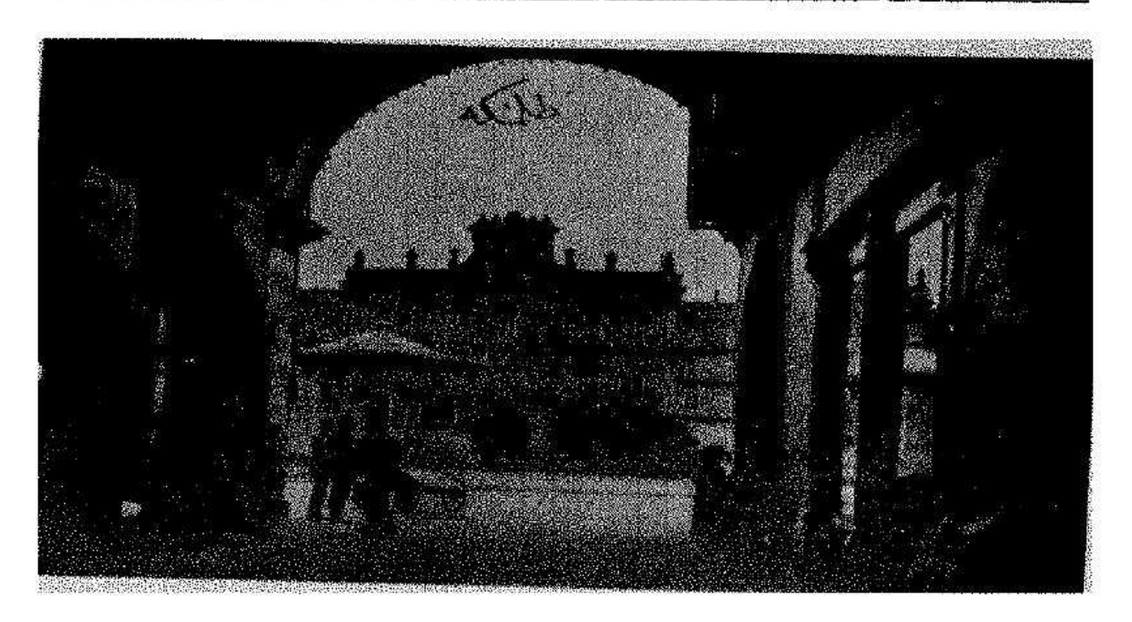
ولم تبدأ طلمنكة بالانحطاط إلا فى زمن فيليب الثانى عندما نقل كرسيه من طليطلة ، وجعل مركز الأسقفية فى بلد الوليد بدلا من طلمنكة . وأهم من ذلك أنه كان فيها عدد كبير من الموريسك ، أى بقايا العرب ، فلما أجبروهم على الجلاء سنة ١٦١٠ تناقص بذلك جداً عمران المدينة . وفى زمن بونابرت عند ما استولى الفرنسيس على أسبانية ، جعلوا طَلَمَنْـكة قاعدة حربية ، فهدموا كثيراً من حاراتها. وفى طَلَمَنْـكة ساحة عمومية مربعة ، هى من أجمل ساحات أسبانية ، وفيها جسر رومانى قديم ، وفيها كنائس متقنة كسائر كنائس أسبانية . وفيها خزانة كتب تشتمل على ثمانين ألف مجلد ، بينها مخطوطات نفيسة ، وهذه الخزانة خاصة بالمدرسة الجامعة ، إلا أن المدرسة ليست اليوم على شىء من أهميتها الماضية ، وعدد الطلبة فيها لايتجاوز ثلاثمائة . وكم فى طَلَمَنْـكة من أثر قديم ، و بناء فخم ، ودور مرخّمة ، وأحجار مخرّمة

وقد ذكر ياقوت الحموى طَلَمنكة فقال : بفتح أوله وثانيه ، و بعد الميم نون ساكنة ، وكاف : مدينة بالأندلس من أعمال الافرنج اختطّها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . خرج منها جماعة منهم أبو عمرو ، وقيل أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب بن يحيى بن محمد المعافرى المقرى الطَّلَمَنكى ، وكان من المجوّدين فى القراءة ، وله تصانيف فى القراءة روى الحديث وعمّر حتى جاوز التسعين ، يروى عنه محمد بن عبد الله الخولانى اه .

ثم قلت : وكان أبو عمر الطلمنكى من أشهر علماء الأندلس ، من أخذ عنه عد نفسه قد رزق حظا كبيراً ، وكثيراً ما يدور ذكره فى تراجم العلماء ، وقد سار على أثره ابنه أبو بكر عبدالله بن أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب المعافرى الطَّلَمَنكى [1]

حتى فترت الهمم وقلت الرغبة فى تحصيل العلم ولم تزل فى التقلص إلى هذا العصر الذى استأنفت فيه الأمة الاسبانية نشاطها مقتدية بغيرها من الامم

(١) ان المسلمين كانوا غلبوا على الجهات الشمالية كلها من اسبانية ، وندر أن توجد بلدة لم يستولوا عليها ، عدا صخرة بيلاى التى التجأ اليها بقية السيف من الاسبانيول ، ولم يزالوا يقلون حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون علجاً ، فلي المسلمون حصارهم فى الكهف



ميدان ميور بطلمنكة

زمورة Zamora

وعلى مسافة ستين كيلومتراً من طلمنكة ، مدينة زمورة ، مبنية فوق صخرة عالية يجري تحتها الوادى الجوفى ، وكانت من قديم الزمان قلعة منيعة تتصادم أمامها الجيوش وطالما وقعت عندها الملاحم ، بين العرب والافرنج ، ولا تزال آثار حصونها ماثلة ، وفيها كنائس مذكورة ، أبدع فيها الصناع ، ولها جسر أنيق المنظر على واديها وليست

الذى أحجروهم فيه ، وتركوهم قائلين : ثلاثون علجا ، ماذا يمكن أن يكون منهم ؟ فتركوهم احتقارا لشأنهم ، وانصرفوا عنهم ، وقد ارتفع العلمَ الاسلامى على جميع تلك البلاد ، وعم حكم العرب السهل والوعر . ولكن لم يلبث العرب أن وقع بعضهم فى بعض ، وتوالت الملاحم بين القيسية واليمنية . وأهم من ذلك ماوقع بين العرب والبربر وكان البربر قد ثاروا فى افريقية . وجرت بينهم وبين العرب وقائع يطول شرحها وملاحم يعجز القلم عن وصفها . وسنأتى على ذكرها فى التاريخ . وكان البربر فى أول الأمر قد ظهروا على العرب فى افريقية ، فجاء الخبر إلى بربر الاندلس ، بأن بربر العدوة

فى يومنا هذا من المدن المعدودة ، و ينسب اليها رئيس جمهورية اسبانية السابق ، الذى يقال له « قلعة زمورة » Alcala - Zamora ، الذى ترأس جمهورية اسبانية فى

ظهروا على عربها ، وأهل الطاعة فيها ، قال فى أخبار مجموعة : فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم وأخرجوا عرب استورقة والمدائن التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الاطراف كلها إلى وسط الاندلس . الا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فانهم كانوا أكثر من البربر . فلم يهج عليهم البربر ، فأخرج عليهم عبد الملك بن قطن جيوشاً فهزموها ، وقتلوا العرب فى الآفاق . فلما رأى ذلك وخاف أن يلقى ما لقى أهل طنجة ، وبلغه إعداد البربر له ، لم ير أعز له من الاستمداد بأهل الشام ، فبعث إليهم السفن فأدخلهم أرسالا ، فى سنة ثلاث وعشرين ومائة (إلى أن يقول عن البربر) . وحشدوا من جليقية واستورقة وماردة وقورية وطلبيرة ، فأقبلوا فى شىء لا يحصيه عدد حتى اجازوا نهرا يقال له تاجه ، يريدون عبد الملك بن قطن ، وأخرج اليهم عبد الملك ابنيه قطنا وأمية ، فى عرب الشام ، اصحاب بلج ، وعرب البلد (إلى أن يقول) : فالتقوا فى أرض طليطلة : على وادى سليط ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واقبل اهل الشام عليهم حنقين ، فنحهم الله اكتاف البربر ، فقتلوهم قتلا ذريعا ، افنوهم به . فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب اهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيوش فى ارض الاندلس ، فقتلوا البربر حتى اطفأوا جمرتهم ، (ثم ذكر فى اخبار مجموعة) كيف ان عبد الملك بن قطن عاد فاقتتل مع اهل الشام ، فظفروا به وقتلوه ، وصلبوه على رأس القنطرة بقرطبة فلما بلغ ابنيه الخبر حشدا من أقصى اربونة (ناربون فى فرنسة) وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فاذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى . وذكر المعركة الثانية ومعارك أخرى من جملتها معركة شقندة ، بين القيسية واليمانية وقال عنها إنها كانت وقيعة قاطعة للارحام وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة . وعقبها الجوع والقحط (قال) : فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علج يقال له بلاى ، قد ذكرناه فى أول كتابنا ، نخرج من الصخرة ، وغلب على كورة وستوريس (Asturies) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلا ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة . فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم بلاى ، وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى

السنوات الاخيرة بعد سقوط المسكية فيها . وقد كانت العرب استولت على زمورة ، ثم استرجعها الأسبان فى زمن الملك فرويلة بن أذفونش بن بطره ، أيام عبد الرحمن الداخل بسبب فتن العرب بعضهم مع بعض ، إلا ان عبد الرحمن الناصر استرجعها وأنزل بها المسلمين . ثم بعد وفاة الحكم المستنصر استرجع النصارى تلك المدن ، فزحف عليهم المنصور سنة ٣٧٨ ، وافتتح ليون وحاصر زمورة ، وأخذها عنوة ، وأوطن المسلمين زمورة سنة ٣٨٩ ، إلى أن كانت الفتنة فى قرطبة ، فرجعت إلى النصارى ، وكان عامل المنصور على زمورة أبو الاحوص معن بن عبدالعزيز التجيبى .

خلف الجبل ، إلى استورقه ، حتى استحكم الجوع ، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية ، ومارده ، فى سنة ست وثلاثين . انتهى ما قاله فى أخبار مجموعة فى هذا الصدد . وقال دوزى : إن ثورة الجلالقة وقعت سنة ٧٥١ ، فاخرجوا المسلمين من بلادهم ، وبايعوا اذفونش ملكا عليهم ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين ، وانكفأ البقية من هؤلاء إلى استورقة ، والذين كانوا قد أسلموا من أهل جليقية ، وكان إيمانهم لا يزال ضعيفاً ، رجعوا إلى الكنيسة بمجرد ما رأوا راية الصليب منتصرة . وهذا ما أشار اليه صاحب أخبار مجموعة بقوله : وتنصر كل مذبذب فى دينه . ثم اضطر البربر أيضاً أن ينزلوا إلى الجنوب ، وأخلوا افراغه وبورتو وقيزو ، وجميع الساحل إلى ما وراء مصب الوادى الجوفى ، ثم تقهقروا أيضا ولم يبق مسلمون فى استورقة وليون وزاموره وليدسمه Ledesma وطلمنكة ، وانكفأوا إلى قورية ، والى ماردة ، وبقيت لهم بقايا فى ضواحى ليون واستورقة . وأما من الجهة الشرقية فقد أخلوا سلدانية ، وسيمنقاس ، وشقوبية ، وآبلة ، واوقة Oca واوسمة Osma، وميراندة ، على وادى ابره ، وسنيسره Cenicero ، والبزانكو Alesanco ، ومن ذلك الوقت صارت المدن الثغرية بيد المسلمين والمسيحيين من جهة الغرب ذاهباً إلى الشرق ، قويمره ، على نهر منديق Mondego ، فقورية ، فطلبيرة فطليطلة ، فوادى الحجارة ، فتطيلة ، فبنبلونة ، قال دوزى : وكان سبب جلاء الاسلام عن تلك النواحى فتن المسلمين الداخلية ، ومجاعة سنة ٧٥٠ ، ولم يكن السبب سيف الاذفونش كما يزعم مؤرخو الاسبانيول .

أشتوريش وجلّيقية asturies et Galice

ان مقاطعة اشتوريش القديمة هي اليوم ولاية اوفيدو Oviedo و يقول لها العرب أو بيط وهذه الولاية عدد سكانها يناهز سبعمائة ألف ، واقعة إلى الغرب من بلاد الباشكونس ، وجبال قنتبرية ، إلى خليج بسقاية أوغشقونية Biscaye ou Gascogne وأما مدينة أو بيط فأصل اسمها أو بيطوم ، وسكانها ٢٥ ألفاً وفيها كرسي أسقفية ، ومدرسة جامعة .

وأصل بناء هذه المدينة ان الملك فرويلة الأول بنى هناك ديراً في القرن الثامن المسيح ، ثم جعل الاذفونش الثاني هناك مقرّه فتكونت بجانب هذا الدير بلدة ولم يقدر العرب ولا النورمنديون أن يستولوا على أو بيط . وموقع هذه البلدة هو على رابية مشرفة على نهر « نورَه » وأرضها منبسطة موصوفة بالخصب وفيها كنيسة جامعة تشتمل على كثير من بدائع التصاوير وليست بالكنيسة الوحيدة .

وغير بعيد عن او بيط مدينة جيجون وفيها ثلاثون ألف نسمة ، ولها مرسى عظيم على الخليج بناها الرومانيون . ولما جاء العرب استولوا عليها مدة قصيرة من سنة ٧١٥ الى سنة ٧٢٢ لأن الأمير بيلاى ، وهو أول أمير اسباني مستقل بعد مجيء العرب كما سيأتي الكلام عليه ، عاد فاسترجعها وصارت مركزاً لملوك اشتوريش وتعاقبت عليها من ذلك الوقت أدوار مختلفة . وقد استفادت جداً من مد السكة الحديدية اليها سنة ١٨٨٤ . وفيها مدرسة للتجارة والملاحة . وفي هذه المدرسة خزانة كتب فيها ٥٥٠٠ مجلد وعدد كبير من التصاوير . وفي ساحة جيجون تمثال لبيلاى البادىء بتحرير اسبانية . ومن مدن اشتوريش بلدة استورقة Astorga وهي رومانية كانت في القديم عامرة ومركزاً لجنوبي اشتوريش . وقد وصل اليها العرب وهدموا حصونها ولعل استورقة [1] هذه هي التي يسميها ياقوت باستوريس و يقول عنها : حصن من

(١) نازل المنصور بن أبي عامر أستورقة قاعدة غليسية فلكها وهلك صاحبها

أعمال وادى الحجارة بالاندلس ، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموى ، عمّره فى نحر العدو . ولا تزال أسوار استورقة ماثلة ، والحكومة تحافظ عليها خدمة للتاريخ . وحول استورقة جبال يسكنها جيل من الناس يقال لهم المغاراتوس Magaratos يظن انهم أقدم سلالة للامة الايبيرية وهم أهل جد ونشاط ذوو زراعة وصناعة ولكنهم على أشد ما يكون من المحافظة على عاداتهم القديمة ولهم أزياء خاصة بهم ، ولايتزوج بعضهم إلا من بعض . ثم مدينة لوغو Lugo وهى من زمن الرومانيين ، ولها سور لا يزال قائماً ، وعليه أبراج كثيرة ، وقد استولى على هذه البلدة العرب ، فيما استولوا عليه . وهناك بلدة يقال لها بيتنزوس Betanzos ، سكانها عشرة الآف ، واقعة على نهير بين كروم وأعناب ، وهى من البلاد التى استولى عليها العرب ، وفيها حصن باق من أيامهم .

كورونية Corigna

وهناك مدينة كورونية ، فيها أربعون الى خمسين الفا من السكان ، مركز لمقاطعة بهذا الاسم ، واقعة على لسان من الأرض ، بين جونين من البحر ، أحدهما إلى الشرق اسمه « الباهيه » ، والآخر إلى الغرب اسمه « اورزان » ، وكان للبلد

غرسية فتولى ابنه شانجة وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقية جميعاً فى طاعته وكانوا كالعمال له إلا برمند بن أرزون ومتند بن غندشلب قومس غليسية فانهما كانا أملك لأمرهما . على أن برمند Bermund بعث بنته إلى المنصور سنه ٣٨٣ وصيرها جارية له فأعتقها وتزوجها . ثم انتقض برمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحوارى من أقصى غليسية وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها فى سقف الزيادة التى أضافها الى المسجد الأعظم . ثم تطارح برمند بن ارزون فى السلم وانفذ ابنه بيلايو مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقية فوصل به الى قرطبة وعقد له فى السلم وانصرف الى أبيه وألح المنصور على أهل غومس وكانوا فى طرف جليقية بين زمورة وقشتيلة وقاعدتهم شنتمرية فافتتحها سنة ٨٥ انتهى عن ابن خلدون

حصون هى مهملة الان ، وهى مدينة ايبيرية قديمة . وكان يقال لها فى زمن الرومان « بريفانتيوم » ، ثم اطلق عليها اسم « كورنيوم » ، فى القرون الوسطى . وقد استولى عليها العرب فى ما استولوا عليه ، وصارت تابعة لقرطبة . ومن مرسى هذه البلدة ذهب اسطول فيليب الثانى سنه ١٥٨٨ ، المؤلف من ١٣٠ سفينة حربية ، عليها ثلاثون الف مقاتل ، لغزو انجلترة ، انتقاماً عن قتل مارية ستوارت ، ولكن الانجليز عادوا فأحرقوا كورونية سنة ١٥٩٨ ، وكذلك بقرب كورونية فى ٤ يونيو سنة ١٧٤٧ تغلب الاسطول الانكليزى على الاسطول الافرنسى ، ثم فى ٢٢ يوليو ١٨٠٥ أحرق الانكليز اسطولا افرنسياً اسبانيولياً متحداً .

والبلدة قسمان : أعلى وأسفل . فالقسم الأعلى هو القديم منها ، والقسم الأدنى هو الجديد . وكان فى الماضى حارة لصيادى السمك ، فاليوم صارت فيه مساكن المترفين ، وشوارعه على الطراز الجديد ، بخلاف القسم الأعلى الذى شوارعه ضيقة ، وبيوته قديمة . وفى تلك البلدة إلى الشمال الغربى ، على لسان داخل فى البحر ، فوق جندل كبير علوه ٥٦ متراً ؛ منارة للسفن من زمان الرومانيين .

وعلى مقربة من كورونية بلدة الفرّول Ferrol وهو المرسى الحربى الوحيد لاسبانية على الاقيانوس الاطلانتيكى ؛ وسكان هذا المرسى ٢٥ الفاً وفيه مسلحة ودار صنعة للمراكب ، ومدرسة بحرية .

ومدينة أورَنس Orense سكانها عشرة آلاف واقعة على ضفة نهر مينيو Mino وهى مركز مقاطعة ؛ وكانت فى زمان الرومانيين يقال لها أوريوم Aurium لوجود الذهب فى نواحيها ، مما يدل عليه اسمها ؛ وقد غزاها العرب سنة ٧١٦ ، ثم عاد الاذفونش الثالث فبناها ؛ وأحكم أسوارها سنة ٨٨٤ ؛ ولها جسر على نهر مينو بسبع أقواس

ثم مدينة فيغو Vigo وسكانها ثلاثون ألفاً ، وهى مرسى حربى وتجارى ، مبنية على منحدر رابية ، عليها حصن سان سابستيان . وقد وقعت فيها واقعة بحرية سنة ١٧٠٢ بين الانجليز والهولنديين من جهة ، والفرنسيس والاسبان من جهة

أخرى ، وفى هذه البلدة أيضاً حارة قديمة بشوارع ضيقة ، وحارة عصرية جديدة .

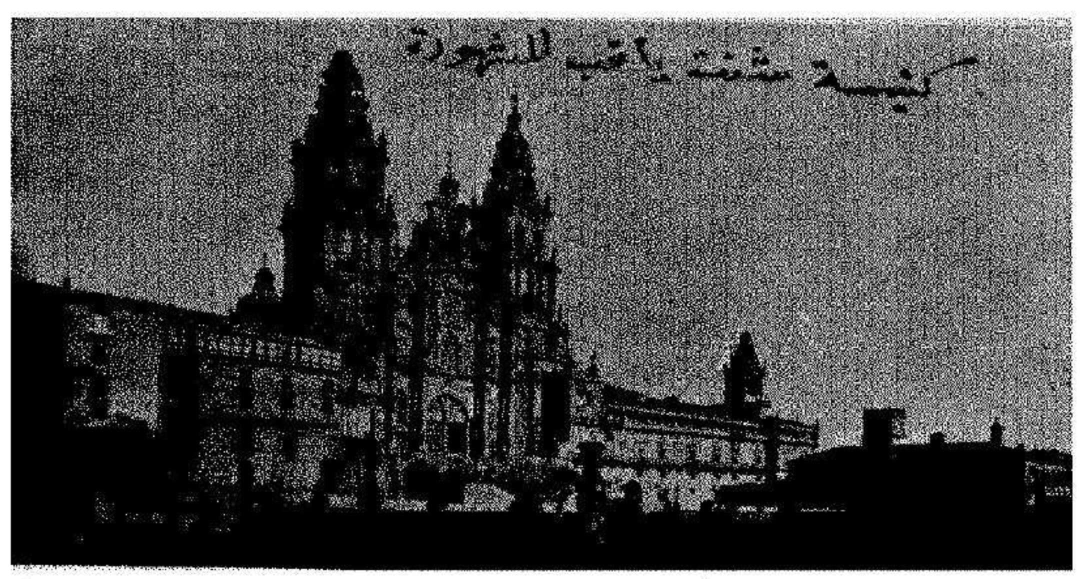
ثم مدينة بونت فيدرا Ponte Vedra وهى صغيرة سكانها عشره الآلاف ولها مرسى على البحر .

شنت ياقب Santiago de Campostela

وهى بلدة سكانها ١٥ ألف نسمة ، وكانت قاعدة مملكة جلّيقية . وكان لها الشأن الاول ، فنزلت عن معاليها السالفة ، ورجعت مركز مقاطعة ، وكرسى رئاسة أساقفة . وفيها مدرسة جامعة بناها المطران فونسيكا سنة ١٥٣٢ ، وهى قديماً وحديثاً مدينة اسبانية المقدسة ، يحج اليها الاحامس فى الدين الكاثوليكى من جميع اسبانية والبلدان المجاورة ، وذلك لأنه يوجد حكاية متواترة عند الاسبانيول بأن أحد الحواريين وهو يعقوب بن زَبَدَة ، قد ذهب الى اسبانية ، ونشر فيها العقيدة المسيحية ، وهذه الحكاية لها رَضْخ يرجع الى القرن الرابع للمسيح ، إلا أنها بدأت ترسخ فى أذهانهم فى القرن السابع ، ثم بمرور الأيام صارت هذه القصة تجر ذيولاً . منها : أن عظام الحوارىّ يعقوب كانت مدفونة فى ذلك المحل الذى استشهد فيه ، ولم يكن أحد يهتدى الى مكانها الى أن كشفها المطران تدمير الايرى Théodemir D'Iria فبنيت الكنيسة الحاضرة على القبر ، وأما لفظة كومبوستالاّ ، أى حقل النجمة ، فقد قالوا فيها انها جاءت من جهة ان المطران اهتدى الى القبر بنجمة ضاءت له وقد فنّد دليل بديكر هذا القول ، وذهب الى أن الاسم سابق لقصة الحوارىّ يعقوب ، وكيف كان الأمر فالاسبانيول يعدون القديس يعقوب ، دفين شنت ياقب ، بزعمهم ، حامى اسبانية وشفيعها ، وبه كانوا يستغيثون فى حروبهم مع المسلمين ، وطالما رأوه بزعمهم متقلداً سلاحه ، يقاتل فى صفوفهم ، وأول من بنى على هذا القبر هو الاذفونش الأول ، ولكن الكنيسة التى بناها هذا الاذفونش هدمها الغازي الكبير المنصور بن أبى عامر المعافرى سنة ٩٩٧ للمسيح ثم جددوا بناءها ، ومازالوا يزيدون فى شنت ياقب الاديار

والكنائس حتى أصبح فيها ٤٦ بيعة و ٢٨٨ مذبحاً و ١١٤ جرساً و ٣٦ رهبانية ، وفى هذا ما يكفى لاثبات قدسيتها التامة عند الاسبانيول ، وكونها لهم الحرم الأعظم .

وقد كان الابتداء ببناء الكنيسة العظمى سنة ١٠٧٨ ، وما زال الاساقفة يشتغلون ببنائها إلى سنة ١٢١١ ، ولها رتاج كبير ، على جانبه برجان ، ارتفاع الواحد منهما سبعون متراً وفى أعلى الحائط تمثال للقديس يعقوب . وداخل الكنيسة له منظر مؤثر بكثرة الاساطين والماشى والقباب ، والمذبح الأعظم واقع على القبر ، ويقال ان فيه خمسمائة كيلو جرام من الفضة ، وفى محراب يعلو المذبح تمثال ليعقوب الحوارىّ مزين بالفضة والذهب والحجارة الكريمة ، وينزلون إلى القبر بدرج أمام المذبح الأكبر ، وهناك مرقد يعقوب واثنين من رفاقه ، وفى هذه الكنيسة قبور لا تكاد تحصى لأعاظم الاسبانيول وملوكهم مثل فرديناند الثانى ، واذفونش التاسع ، ملك ليون ، وامرأة اذفونش السادس ، وأمرأة بطرس الغاشم وغيرهم . وفيها تصاوير وتهاويل وتماثيل لأشهر المصورين والنحاتين . ولا يسع الكاتب أن يصف جميع ما فى شنت ياقب من المعاهد الدينية ، والآثار الفنية لكثرتها ، وتنافس الملوك والأحبار فى البذل والانفاق عليها . أما غزوة المنصور بن أبى عامر لهذه البلدة فقد ذكر المقّرى فى نفح الطيب ما يلى : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب ، قاصية غليسية ، وأعظم مشهد للنصارى فى بلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلفون ، واليها يحجون ، من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر ، وكان أخصهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه، للزومه إياه ، وياقب بلسانهم : يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس ، فجعل يستقرى الارضين ، داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية . ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة ، التى كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها



كنيسة شنت ياقب المشهورة

ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، و بعد شقتها ، فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة ، يوم السبت است بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهى غزوته الثامنة والار بعون . ودخل على مدينة « قورية »[1] فلما وصل الى مدينة غليسية ، وافاه عدد عظيم من القوامس[2] المتمسكين بالطاعة فى رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم .

وكان المنصور تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس ، وجهز برجاله البحريين ، وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة ، والعدة والاسلحة ، استظهاراً على نفوذ العزيمة ، إلى أن خرج لموضع برتقال ، على نهر « دويرة » فدخل فى النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هناك من هذا الاسطول جسراً بقرب الحصن الذى هناك ، ووجه

(١) Goria .
(٢) جمع قومس وهو كونت أو كند كما كان العرب يقولون فى زمن الصليبيين

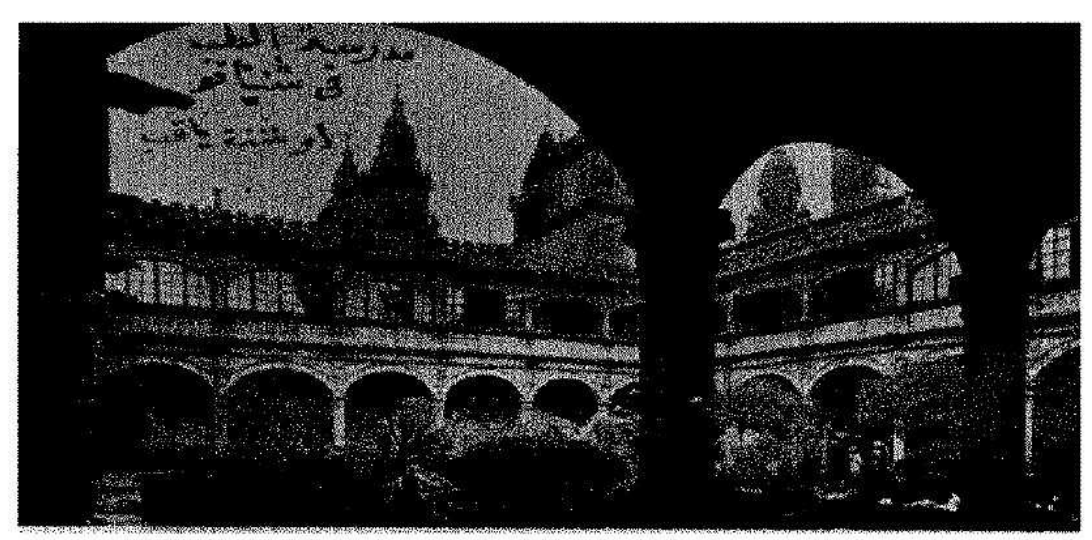
المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند ، فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب ، فقطع ارضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار ، وخلجان يمدها البحر الاخضر[١] ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ، ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعورة لا مسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد . لتوسعة شعابه ، وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادى «مُنْيُهْ»[٢] وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم إلى دير قشان[٣] ، و بسيط بَلَنْبُه على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بيلايه ، وغنموه وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط ، لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ اليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية[٤] ، المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً فى معبرين . أرشد الادلاء اليهما . ثم الى نهر آبلة ، ثم افضوا الى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر ، تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ، ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الاربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه و يدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما ، كأن لم تغن بالأمس .

(١) المراد بالبحر الأخضر الاوقيانوس الاطلانتيكى

(٢) لعلها Minho لأنه من أنهر ناحية شنت ياقب

(٣) نظنها محرفة أو مصحفة وان صحتها دير فنسان أو فيسانء

(٤) موراسيا إلى الشمال من أشبونة



مدرسة الطب فى شنت ياقب

وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط ، وانتهت الجيوش الى مدينة شنت ماانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ، ولا وراءها انتقال .

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب ، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله [١] ، فجعل

---

(١) قال أبو جعفر الوقشى البلنسى نزيل مالقة ، يحث على الجهاد فى الأندلس :

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى ... فأبصر شمل المشركين طريدا

وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا ؟

ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب ... يعيد عميد الكافرين عميدا

ويلقى على أفرنجهم عبء كلكل ... فيتركهم فوق الصعيد هجوداً

يغادرهم جرحى وقتلى مبرحاً ... ركوعاً على وجه الفلا وسجوداً

ويفتك من أيدى الطغاة نواعماً ... تبدلن من نظم الحجول قيوداً

وأقبلن فى خشن المسوح وطالما ... سحبن من الوشى الرقيق برودا

وغير منهن التراب ترائباً ... وخدد منهن الهجير خدودا

لحق لدمعى أن يفيض لأزرق ... تملكها دعج النواظر سودا

فى طريقه القصد على عمل برمند بن اردون، يستقريه عائثاً ، حتى وقع فى عمل القوامس المماهدين ، الذين فى عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بيليقية ، وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ، ومن حسن غناؤه من المسلمين ، ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى ، وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر ، وكساءين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونا ، وخمسة عشر مريشاً ، وسبعة انماط ديباج ، وثوبى ديباج رومى ، وفروىْ فنك .

ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً ، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ، ولم يجد بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونس يعقوب فأمر بالكف عنه . اهـ .

ويالهف نفسى من معاصم طفلة تجاور بالقد الأليم نهودا
ويا أسفى ما ان يزال مردداً على شمل أعياد أعيد بديدا
وآهاً بمد الصوت منتحباً على خلو ديار لو يكون مفيدا

وهى من قصيدة قالها الوقشى لأمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على مطلعها :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا وهامت به عذب الحمام برودا

وكان يوسف بن عبد المؤمن دخل الأندلس سنة ٥٦٦ وفى صحبته مائة ألف فارس من الموحدين ورجال المغرب وشرع يسترجع من بلاد المسلمين التى كان قد استولى عليها الافرنج وأغارت سراياه على طليطلة قاعدة ملكهم ثم أنه حاصرها فاجتمع الافرنج للدفاع عنها واشتد الغلاء فى عسكره فقفل إلى المغرب ولكنه لم يقم بعده مثله ومثل أبيه فى الجهاد ولكن جاءت فى أواخر دولة الموحدين واقعة العقاب التى لم تقم بعدها للاسلام فى الأندلس قائمة تحمد



الراهب الذى بقى يؤنس يعقوب الحوارى عندما وصل المنصور بن أبى عامر إلى شنت ياقب وفر جميع الرهبان

اراغون ونبارة

Aragon et Navarre

هاتان المملكتان هما متجاورتان ، يسقى كلا منهما نهر ابرُه ، وهذا النهر له منبعان أحدهما يقال له « هيجار Higar » ، يتفجر من جبل يقال له « كورد » Cardel عليه الثلج صيفاً وشتاء ، وتنحدر منه مياه إلى الوادى الجوفى ، منحدرة إلى الغرب ومن مياهه ما يتحدر إلى الشرق ، وهي مياه هيجار التى تجرى مسافة ١٦ كيلو متراً ، ثم تلتقى مع مياه ابرُه ، التى تنبع من غربى مكان يقال له « رينوزه » Reinosa وهذا الوادى يخرج من بحيرات صغيرة بين تلك الجبال المتفرعة من البرانس ، ثم يمد ابره عدة أنهار ، حتى يعدّل ماؤه ، عندما يصل إلى ميرانده ، بعشرين الف متر مكعب فى الثانية . وعندما يصل إلى لوكرونى ، بواحد وثلاثين الف متر مكعب . فاذا وصل الى تطيلة صار يصب ٤٥٢٠٠ متر مكعب فى الثانية . وهو يسقى عند تطيلة جانباً من بسيط اراغون الذى لولا ابرُه لكان أشبه بصحراء افريقية .

ولكن لايستفيد من مياه ابره وفروعه إلاحزء قليل من هذه الصحراء ، بحيث إن بعض أهالى الأماكن المأهولة من أطرافها هم فى عناء شديد من جهة الماء ، فقد صح فى أهلها المثل القائل : أياعطشى والماء يجرى . قيل إن عامل بلدة تاردياتنه Tardienta جمع أهالى بلدته ليوزع عليهم الماء الباقى فى الصهريج العمومى ، فكان نصيب العائلة الواحدة عشرة ليترات من الماء ، وهو ماء من كدورته يؤكل ولا يشرب

فلو كان هناك جداول من ابره لتحولت تلك الصحراء جناناً غناء . والسائح ترى البلاد هناك على طرفى نقيض ، فبينما صحراء « ڤيولاده » Violada هى كفيافى بنى أسد ، إذا ضواحى سرقسطة غير بعيدة عنها ، هى كغوطة دمشق . وقد شق الأسبانيول جدولين من أبرُه عند سرقسطة وتطيلة ، وسقوا بهما أراضى واسعة ، ولا يزالون يشقون منها جداول إلى يومنا هذا فى أراغون وكتلونية . وبالاجمال فلولا إبرُه لكانت الحياة متعذرة فى أكثر مملكة أراغون ، وفى قسم كبير من كتلونية

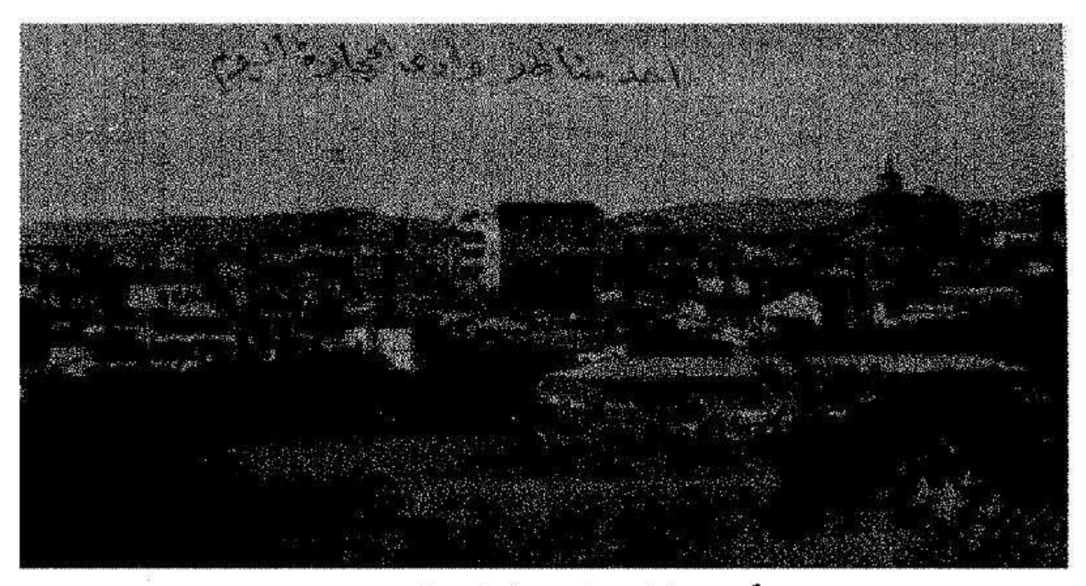
مملكة نبارة القديمة هى اليوم مقاطعة بهذا الاسم ، مساحتها ١٠٥٠٠ كيلومتر مربع ، وعدد سكانها ثلاثمائة وخمسة عشر الف نسمة . أما أراغون فهى عبارة عن مقاطعة سرقسطة ، ومساحتها ١٧٤٢٤ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٤٤٨٩٩٥ نسمة . ومقاطعة وشقة ، ومساحتها ١٥١٤٩ كيلو متراً مربعاً ، وأهلها ٢٤٨٢٥٧ نسمة . ومقاطعة ترول Teruel ، ومساحتها ١٤٨١٨ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٥٥٤٩١ نسمة.

و إذا توجه الراكب بالسكة الحديدية من مجريط قاصداً إلى سرقسطة ، فان أهم ما يمر به من البلاد هو القلعة المسماة بقلعة هينارس ، على مسافة ٣٤ كيلو متراً من مجريط . وهذه البلدة هى رومانية ، كانوا يقولون لها « كومبلوتوم » ، ولما جاء العرب استولوا عليها ، و بعد خروجهم من هناك اسّس الكردينال شيميناس رئيس أساقفة طليطلة فيها مدرسة جامعة ، تضاهى مدرسة طَلَمَنكة ، و بقيت فيها إلى سنة ١٨٣٦ فنقلوها إلى مجريط . و إلى هذه البلدة ينسب الكاتب الشهير سرفنتس Cervantes صاحب كتاب الدون كيشوط ، وعدد سكان البلدة اليوم اثنا عشر ألف نسمة . وفى هذه البلدة بقايا حصون عربية . وضواحى هذه البلدة ناضرة بهيجة .

وادى الحجارة Guadalajara [1]

ثم على مسافة ٥٧ كيلو متراً من مجريط تقع وادى الحجارة ، وسكانها اليوم بقدر سكان القلعة ، وهى مبنية على الضفة اليمنى من نهر هينارس . وفى هذه البلدة تزوج فيليب الثاني بالملكة إيزابلا ، من آل فالوا ، وفيها مات الكاردينال بادرو مندوزه ، وفيها مدفن الكونت طانديّلا ، أول قائد عسكرى لغرناطة بعد استيلاء الاسبانيول عليها .

(١) وتسمى مدينة الفرج . قال فى صبح الأعشى : مدينة الفرج بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم وهى مدينة شرق طليطلة وشرقيها مدينة سالم . قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادى الحجارة .



أحد مناظر وادى الحجارة اليوم

وقد كانت مدة بقاء العرب فى وادى الحجارة ٣٦٧ سنة . قال ياقوت الحموى فى المعجم : فَرَج بالتحريك والجيم ، مدينة بالأندلس تعرف بوادى الحجارة ، وهى بين الجوف والشرق من قرطبة ، ولها مدن بينها و بين طليطلة . ينسب إليها أيوب ابن الحسين بن محمد بن احمد بن عوف بن حُميد بن تميم ، يكنى أبا سليمان ، ويعرف بابن الطويل ، رحل إلى المشرق ، ثم استقضاه الحكم المستنصر ببلده ، وكان أديباً حكيما ، قدم قرطبة ، وروى عنه ابن الفرضى ، وتوفى سنة ٣٨٣ بوادى الحجارة ، ذكر ذلك ابن الفرضى . انتهى .

وقال ابن حوقل عن وادي الحجارة : مدينة كبيرة ، ثغر مشهور الحال ، مسور بحجارة ، وهى ذات أسواق ، وفنادق ، وحمامات ، وحاكم ، ومحلّف ، وبها تسكن ولاة الثغور ، كاحمد بن يعلى وغالب ، وعليها أكثر جهاد جليقية ، ومنها إلى شعراء القوارير ، وبها منهل تنزله الرفاق مرحلة ، ومنها إلى مدينة سالم مرحلة . انتهى .

وجاء في الانسيكلو بيدية الاسلامية : أن وادى الحجارة يقال لها أيضاً مدينة الفرَج ، نسبة إلى عائلة من البربر يقال لهم بنو فرَج كما روى اليعقوبى . وكان فتح العرب لهذه البلدة سنة ٧١٤ ، زحف اليها موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً ، و بقيت فى أيدى العرب إلى سنة ١٠٦٠ ، إذ استرجعها منهم الملك فرديناند القشتالى ولكن عاد العرب ففتحوها مرة ثانية ، و بقيت فى أيديهم إلى سنة ١٠٨١ ، فافتتحها ألفار يانس دومينيّة Alvar Ganez de Minaya من أبناء عم القمبيدور ، الملقب بالسيد ، ومن قواد الاذفونش السادس ، وكانت معدودة من القلاع العربية الحصينة وخرج منها كثير من أهل العلم ، كما يظهر من المكتبة العربية الاسبانية . أى مطبوعات قُديرة [1] ، والنسبة إلى هذه البلدة حجارى ، وهناك مؤرخ معروف اسمه الحجارى ، أصله من وادى الحجارة . ولما كانت في أيدى العرب كان قد بقى فيها عدد غير قليل من المسيحيين . انتهى .

من انتسب من العلماء إلى وادى الحجارة

منهم أبو بكر يحيى بن الفتح بن حنش الأنصارى الحجارى ، يروى عنه محمد بن عبدالرحيم . ومحمد بن عذرة الحجارى ، سمع من محمد بن وضّاح وغيره ، ومات بالاندلس سنة ٣١٣ . وأبو عبد الله محمد بن يونس الحجارى ، روى عن أبى عمر الطلمنكى ، وأبى محمد بن الأسلمى وغيرهما ، وكان مقدماً بالمعرفة والنحو واللغة ، وكتب الاشعار والأخبار ، واستأدبه المظفر بن الأفطس ، صاحب بطَلْيوس لنفسه ولبنيه ، وسكن بطليوس ، وتوفى بها سنة اثنتين او ثلاث وستين وأربعمائة . وأبو عثمان سعيد بن على ابن يعيش بن أحمد بن خلف الاموى ، حدث عنه ابن ابيض ، وكان من أهل السنة

(١) مستشرق اسبانيولى من عائلة عربية الأصل نشر عدة تآليف عربية طبعها فى مجريط وهو أستاذ أسين بلاسيوس المستشرق الاسبانيولى المشهور كما أخبرنيه هو بنفسه يوم تلاقيت معه فى خزانة كتب الاسكوريال سنة سياحتى إلى الأندلس .

والخير ، مولده سنة ٣١٦ ومحمد بن إبراهيم بن حيون الحجارى ، كان إماما فى الحديث حافظاً لعلله ، بصيراً بطرقه ، لم يكن فى الاندلس فى وقته أبصر به منه ، سمع من أبى عبد الله الخشنى ، وابن وضّاح ، وابن مسرّة .

ثم رحل إلى المشرق ، فتردد هنالك نحوا من خمس عشرة سنة ، سمع فيها بصنعاء من أبى يعقوب الدبرى وعبيد بن محمد الكشورى ، وسمع بمكة من على بن عبد العزيز وأبى مسلم الكشّى ، ومحمد بن على الصايغ ، وغيرهم ، وببغداد من جماعة ، منهم عبد الله بن احمد بن حنبل ، وروى عن القاضى أبى عبد الرحمن احمد بن حماد بن سفيان الكوفى ، لقيه بالمصّيصة سنة ٢٩٤ ، وسمع بمصر من عبد الله بن احمد بن عبد السلام الخفّاف ، وابراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، وسمع من ابن قتيبة بعض كتبه ، ورجع إلى الأندلس ، وأخذ عنه الكثيرون ، وكان من الشعراء وتوفى بقرطبة عقب ذى القعدة سنة ٣٠٥ [1] ومفرّج بن يونس بن مفرّج بن محمود بن فتح بن نصر بن هلال الحجارى المكتّب ، سكن قرطبة ، وكان يعلم بمسجد سرور ، وكان شيخاً صالحا . وأبو بكر محمد بن القاسم بن مسعده البكرى الحجارى ، المكنى أبا عبد الله ، سمع بقرطبة من الحسن بن سعد ، وحدّث عنه بالناسخ والمنسوخ ، وسمع من غيره بقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، سمع فيها من ابن الاعرابى بمكة ، ومن محمد ابن أيوب الصموت بمصر .

وأبو بكر محمد بن القاسم الكاتب ، يعرف باسكنهادة ، سكن قرطبه ، وهو من وادى الحجارة ، وارتحل إلى المشرق بعد الفتن التى جرت بقرطبة ، وحوّلت أحوالها فجال فى العراق والشام وحلب ، ثم عاد إلى الى الاندلس واستقر بدانية [2] ، وطاب

(١) هذه الترجمة منقولة عن بغية الملتمس وقد رأيتها فى نفح الطيب وإنما ثمة بالنفح زيادة وهى : قال خالد بن سعيد : لو كان الصدق لساناً لكان ابن حيون وكان يزن بالتشيع لشىء كان يظهر منه بحق معاوية رضى الله عنه

(٢) لمحمد بن قاسم المذكور شعر أورده المقرى فى النفح وهو قوله عند مادخل حلب

أين أقصى الغرب من أرض حلب ... أمل فى الغرب موصول التعب

مقامه بها . وأبو بكر عبد الباق بن محمد ابن سعيد الأنصارى ، المعروف بن برّال . ومحمد ابن ابراهيم بن اسحق الحجارى

وأبو عبد الله محمد بن يوسف ، الورّاق التاريخى الحجارى ، ألّف للخليفة الحكم المستنصر كتابا ضخماً فى ممالك أفريقية ومسالكها ، وألف أيضاً كتباً جمة فى أخبار ملوكها وحروبهم ، وفى أخبار تيهرت ، ووهران ، وسجلماسة ، ونكور الخ . قال أبو محمد بن حزم : ومحمد هذا أندلسى الأصل والفرع ، آباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه قرطبة ، وهجرته إليها ، و إن كانت نشأته بالقيروان .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن لب بن صالح بن ميمون بن حرب الأموى الحجارى المقرىء ، سكن قرطبة ، يعرف بالريوله ، ولد سنة ٣٤٤ ، وكان فى قرطبة إماماً لمسجد ابن حيويه ، وله رحلة إلى المشرق ، روى فيها عن أبى بحر الشيرازى ، وروى عن الحسن بن رشيق ، وكان من أهل الفضل والخير ، حسن الصوت ، مجرّداً للقرآن . وأبو بكر عبد الله بن محمد بن فتح ، روى عن أبيه محمد بن فتح ، كتاب جهاد النفس من تأليفه ، حدّث عنه أبو الفرج بن فتح السالمى ، من شيوخ المنذر بن المنذر الحجارى . وأبو محمد عبد الله بن محمد الأنصارى ، يعرف بابن بيبر ، سمع من أبى عيسى الليثى ، حدّث عنه بالموطأ ، وأبى عمرو أحمد بن ثابت التغلبى ، وغيرهما . روى عنه أبو عبدالله

حن من شوق إلى أوطانه ... من جفاه صبره لما اغترب
يا أحباى اسمعوا بعض الذى ... يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربة ... يرجع الرأس لديها كالذنب

واجتاز بدمشق فقال عفا الله عنه

دمشق جنة الدنيا حقيقاً ... ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد ... وصحبتهم تؤول إلى حروب

وقال بعد حلوله بدانية قافلا إلى الأندلس

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد ... وكم أبصرت عينى وكم سمعت أذنى
ولاقيت من دهرى وصرف خطوبه ... كما جدت النكباء فى معطف الغصن
فلا تسألونى عن فراق جهنم ... ولكن سلونى عن دخولى إلى عدن

ابن شق الليل الطليطلى ، ذكره ابن الدباغ ، وترجمه ابن الأبار فى التكملة . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى بن وليد النحوي ، يعرف بابن الأسلمى ، و يقال فيه أيضاً ابن الأسلميه . روى بوادى الحجارة عن أبى الحسن بن معاوية بن مصلح ، وأبى عبد الله ابن مسمدة ، وأبى عمر المديونى ، وأبى بكر بن ينّق ، وأبى عبد الله بن خلف بن سعيد الشوله ، وروى بقرطبة عن أبى جعفر بن عون الله . سمع منه صحيح البخارى ، وعن القاضى عبد الله بن مفرج ، وسمع بقلمة أيوب عن أبى محمد بن قاسم ، و بقلمة عبد السلام عن أبى عمر بن عمران الفخار ، وروى أيضاً عن أبى حفص عمر بن على الحجارى ، وأخذ عن أبى اسحق بن شنظير ، وأبى محمد بن ذنين ، من علماء طليطلة ، وأخذ عن أبى عمر الطلمنكى ، وأجاز له الحسن بن رشيق ، مع جاره أبى الحكم المنذر ابن المنذر الحجارى . قال ابن الأبّار عنه : أحد الأئمة المتفننين فى العلوم ، المتقدمين فى معرفة لسان العرب ، والاحاطة به ، المشار إليهم بالكمال ، مع النزاهة والاعتدال ، وله تواليف منها كتاب تفقيه الطالبين ، وكتاب الارشاد ، إلى اصابة الصواب فى الأشربة ، وتوفى بعد العشرين وار بعمائة ، وقيل أنه كان يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يوماً ، وكان عفيف النفس وقورا

وأبو محمد عبد الله بن محمد ، المعروف بابن الأثرم ، كان من أهل المعرفة بالنحو والأدب معلماً بذلك ، أخذ عنه أبو حاتم الحجارى وغيره ، ذكره ابن عُزير . وأبو محمد عبد الله بن على بن المنذر بن المنذر بن على بن يوسف الكنانى ، كان من أصحاب أبى العيش معمّر بن معدّل الحجارى ، وكان راوية فقيهاً ، له وقوف على النحو والأدب، ذكره ابن عُزير . وأبو الحسن اسماعيل بن عيسى بن محمد بن بق . واسماعيل ابن احمد الحجارى ، كان من أهل الفضل محدّثا . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرّف الحجارى ، المعروف بابن الموره . يروى عن أبى محمد الشنتجالى ، وكان محدثا ، قال ابن الأبار : وقفت على اجازته لبعض رواته فى سنة ٤٦٥ . ومحمد بن الدباغ أخذ عن ابراهيم بن حفص ، وصحب القاسم بن فتح ، وسَفِر بينه و بين أبى محمد بن حزم

فى مسائل وجوابات كانت بينهما . وكان أبرع أهل وقته فى النحو والأدب . ذكره ابن عزير . وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن بقاء الأنصارى ، من أهل بُلَغِى وسيأتى ذكرها . وكان يسكن فى وادى الحجارة ، و يقرىء فيها بالمسجد الجامع ، ولد فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٤٥٤ ، وأخذ القراءات عن أبى داود بن نجاح ، ورحل إلى الشرق حاجاً ، وقدم دمشق ، واقرأ بها القرآن بالسبع . وتوفى يوم الاربعاء عند صلاة العصر ، ودفن يوم الخميس ، عند صلاة الظهر ، الثانى من ذى الحجة سنة ٥١٢ ، ودفن فى مقبرة الصحابة ، بالقرب من قبر أبى الدرداء ، رضى الله عنه . قال ابن عساكر : وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه .

وأبو العيش معمّر بن عبد الله بن معدّل الباهلى ، أخذ عن ابراهيم بن حفص الحجارى ، وكان من كبار أصحابه ، عارفا بالعربية ، مع الفقه والحديث ، والمشاركة فى سائر العلوم ، حدّث عنه اسماعيل بن عيسى الحجارى ، وأبو بكر البلجانى وغيرهما وأبو عبد الله محمد بن عثمان بن حسين البكرى الحجارى ، روى بوادى الحجارة عن أبى بكر عبد الباقى بن برّال ، وأبى الربيع سليمان بن خلف الطحان ، وأجاز له أبو عبد الله بن الموره الحجارى ، وأبو الوليد الوقشى ، كتب إليه من بلنسية سنة٤٨٥ قال ابن الأبار : ورأيت السماع عليه فى سنة ٥١٩ . وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم ابن محمد بن النحوى ، كان عالما ، فاضلا ، صالحا ، كثير البكاءوالعبادة توفى سنة٥٤٣ فى قرطبة . وأبو الحسن على بن المنذر بن المنذر بن على الكنانى . روى عن أبى عمر الطَّلَمنكى ، وأبى عمر بن عبد البر ، وله رحلة إلى المشرق ، توفى في نحو الثمانين وأربعمائة . وابن أمينة الحجارى الفقيه الشافعى ، ذكره ابن حزم وأثنى عليه . وأبو الحسن سعيد بن محمد بن سعيد الجُمحى المقرىء المعروف بابن قوطه له رحلة قرأ فيها على جماعة ، وأخذ أيضاً عن أبى الوليد الباجى ، وأقرأ القرآن بوادى الحجارة ، وتوفى ببلدة طرسونة من الثغر سنة ثمان أو تسع وخمسمائة

وسعيد بن عمر ، من أهل وادى الحجارة ، روى عن وهب بن مسرّة ، وسمع

بقرطبـة من أبى بكر بن الأحمر ، وحـدّث عنه الصاحبان وقالا : توفى بالمشرق فى نيّف وثمانين وثلاثمائة وسعيد بن مسعدة الحجّارى المحدّث ، مات سنة ٢٧٣ . وقيل سنة ٢٨٨ ، ذكر ذلك بن عُميرة فى بغية الملتمس . وأبو محمد عبد العزيز بن احمد ابن لب الأنصارى ، روى عن وهب بن مسرة ، وابن الأحمر ، وأبى ميمونة ، ومحمد ابن فتح الحجارى ، وحدّث عنه الخولانى ، وأبو عبد الله بن عبد السلام الحافظ

وأبو القاسم عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، يعرف بابن غرسيّة ، روى بوادى الحجارة عن محمد بن فتح ، وعن محمد بن عبد الرحمن الزيادى ، وغيرهما ، حدّث عنه الصاحبان وقالا : كان رجلا صالحا ، وتوفى سنة احدى أو اثنتين وثمانين وثلاثمائة . وأبو بكر عبد الباقى ابن محمد بن سعيد بن أصبغ بن قُرّيال الأنصارى ، روى عن المنذر بن المنذر ، وأبى الوليد هشام الـكنانى ، وأبى محمد بن الفتح ، وأبى عمر الطّلَمنكى . قال ابن بشكوال : وكان نبيلا ، حافظا ، ذكياً ، أديباً ، شاعراً ، محسناً ، سكن فى آخر عمره بالمرية ، وأخبرنا عنه غير واحـد من شيوخنا ، وتوفى فى مستهل رمضان سنة ٥٠٢ ببلنسية ، وكان مولده سنة ٤١٦ .

وأبو الحـكم منذر بن منذر بن على بن يوسف الـكنانى ، روى بـلده عن أبى الحسن على بن معاوية بن مصلح ، وأبى بكر بن موسى ، واحمد بن خلف المديونى وعبدالله بن القاسم بن مسعدة ، وأبى سليمان أيوب بن حسين ، قاضى مدينة الفرج ، أى وادى الحجارة ، وروى أيضاً عن عبد الله بن قاسم بن محمد القلعى ، ورحل إلى المشرق فحج ، وأخذ عن أبى بكر احمد بن محمد الطرسوسى ، وأبى عبـد الله محمد ابن احمد الباخى ، وأخذ بمصر عن الحسن بن رشيق وغيره . وأخذ بالقيروان عن أبى محمد ابن أبى زيد ، وأبى الحسن القابسى ، وكان رجلا صالحا ، قديم الطلب للعلم ، كثير الـكتب ، موثوقاً فيما يرويه ، قال ابن بشكوال : وكان ينسب إلى غفلة كثيرة ، وتوفى سنة ٤٢٣ . وأبو بكر احمد بن موسى بن ينّق ، سمع من وهب بن مسرّه معظم ماعنده ، وكان رجلا صالحا ، ثقة ، احـدّث عنه الصاحبان ، وأبو محمد بن ذُنّين من

علماء طليطلة ، وقالوا : توفى فى ذى القعدة سنة ٣٧٩ ، وكان مولده سنة ٣٠٦ .
وأبو عمر احمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديونى الزاهد الراوية ، سمع ببلده وادى الحجارة من وهب بن مسرّة ، وسمع بطليطلة من عبد الرحمن بن مدراج ، ورحل إلى المشرق ، وروى عن أبى الفضل محمد بن ابراهيم الديبلى المكى ، والحسن ابن رشيق المصرى ، وأبى محمد بن الورد ، وأبى الحسن النيسابورى ، وأبى على الأفيوطى ، وأبى حفص الجرجيرى ، وحدث عنه أبو عمر الطلمنكى ، والمنذر بن المنذر الكنانى وأبو محمد بن أبيض . وكان زاهداً ، ثقة فيما يرويه ومن روايته عن وهب بن مسرّة قال : دخلت على محمد بن وضّاح بين المغرب والعشاء مودعاً ، فقلت له : أوصنى رحمك الله . فقال : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، و برّ الوالدين ، وحزبك من القرآن فلا تنسه ، وفرّ من الناس ، فان الحسد بين اثنين ، والنميمة بين اثنين ، والواحد من هذا سليم . وروى عن النيسابورى عن أبى عبد الرحمن النسائى قال : مانعلم فى عصر ابن المبارك رجلا أجل من ابن المبارك ، ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة، هذا ، وممن روى عن احمد بن فرتون المديونى الصاحبان : أبو اسحق بن شنظير ، وأبو جعفر بن ميمون ، وكذلك أبو محمد بن ذُنيّن ، وقالوا جميعاً : توفى سنة ٣٧٧ .
وقال أبو محمد : يوم الخميس فى المحرم ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة ، وصلى عليه أبو بكر احمد بن موسى .

وعلى بن معاوية بن مصلح ، يكنّى أبا الحسن ، رحل إلى المشرق وسمع بمكة من عمر بن احمد الجمحى ، وأبى الحسن الخزاعى ، وأبى اسحق الديبلى ، وأبى بكر الآجرّى وسمع بالمدينة من قاضيها عبد الملك المروانى ، وسمع بمصر من الحسن بن رشيق ، والحسن بن الخضر ، وأبى محمد بن الورد ، وغيرهم ، وسمع بالاسكندرية من أبى العباس بن سهل العطّار وغيره وسمع بقرطبة من أبي بكر القرشي ، واسماعيل بن بدر وغيرهما ، وسمع بطليطلة من ابن مدراج وغيره ، و بوادي الحجارة من وهب بن مسرّة ومحمد بن القاسم بن مسعدة ، وحدّث عنه الصاحبان وغيرهما ، وكان شيخاً فاضلا ثقة

توفي في رجب سنة ٣٩٧ ، ومولده سنة ٣١٣ ، ذكر مولده ووفاته الحافظ بن عبد السلام . وأبو زكريا يحيى بن محمد بن وهب بن مسرة بن حكم بن مفرّج التميمي سمع ببلده ، وادي الحجارة ، من جده وهب بن مسرة وغيره ، ورحل إلى المشرق ، وروى عن أبي بكر الطرسوسي ، والحسن بن رشيق ، وأبي الطيب الحريري ، وعبد الغني ابن سعيد الحافظ ، واختصر كتاب الأسماء والكُنَى للنسائي ، وأخذ عنه الناس كثيراً قال ابن شنطير : توفي يوم الجمعة عقب ذي القعدة سنة ٣٩٤ ، ومولده سنة ٣٣٤ ، وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم بن محمد بن النحوي المقرىء ، كان من أهل المعرفة والفضل والذكاء والحفظ ، قوي الأدب ، ومع ذلك كان ديِّناً ، عابداً ، كثير الصلاة قوام الليل متهجداً ، كثير البكاء ، حتى أثّر ذلك بعينيه ، توفي عقب شعبان من سنة ٥٤٣ ذكر ذلك بن بشكوال ، وكانت وفاته بقرطبة . وأبو محمد عبد الله بن علي بن المنذر بن المنذر بن علي بن يوسف الكناني ، وقد تقدمت ترجمة أبيه أبي الحسن علي ابن المنذر ، وكان عبد الله هذا راوية ، فقيهاً عالماً بالنحو ، أديباً ، وصحب أبا العيش معمّر بن معذل الحجاري .

وأبو مروان عبد الملك بن غصن الخشني الشاعر ، وكان من الأدباء المعدودين ، وامتحنه المأمون بن ذي النون ، صاحب طليطلة ، وسجنه في وبذة مع جماعة غضب عليهم ، فألّف حينئذ كتابه المعروف بكتاب «السجن والمسجون والحزن والمحزون» ضمنه ألف بيت من شعره وروايته ، ثم أطلق سبيله ، فسار إلى بلنسية ، ثم إلى قرطبة وتوفي سنة ٤٥٤ في غرناطة . وأبو نصر الفتح بن يوسف بن محمد المعروف بابن الريول والد الحافظ أبي محمد قاسم ، من وادي الحجارة ، روى ببلده عن القاضي أيوب بن حسين ، و بقرطبة عن احمد بن ثابت وغيره ، وحدث عنه ابنه أبو محمد بن الفتح ، وأخذ عنه احمد بن بدر سنة ٤٠٨ .

ثم ابنه ابو محمد قاسم بن الفتح ، روى عن أبيه ، وعن أبي عمر الطلمنكي ، وأبي محمد الشنتجيالي ، ورحل إلى المشرق وأدى الفريضة ، وروى عن أبي عمران الفاسي

وغيره وكان عالماً بالحديث عارفاً باختلاف الأئمة ، قارئاً بالقراءات السبع ، مفسراً ، متكلماً شاعراً ، أديباً زاهداً ، ورعا ،صادق اللهجة ، وكان لايرى التقليد ، وله تآليف حسنة ومن شعره :

يا طالباً للعلاء مهلاً ما سهمك اليوم بالمعلّى
كم أمل دونه اخترامٌ وكم عزيز يذوق ذُلاً
أبعد خمسين قد تولّت تطلب ماقد نأى وولى
فى الشيب ، إمّا نظرْت وعظٌ قد كان بعضاً فصار كُلا

قال أبو القاسم بن صاعد : كان ابو محمد القاسم بن الفتح واحد الناس فى وقته فى العلم والعمل ، سالكا سبيل السلف فى الورع والصدق ، والبعد عن الهزل ، متقدماً فى علم اللسان والقرآن ، وأصول الفقه وفروعه ، ذا حظ جليل من البلاغة ، ونصيب صالح من قرض الشعر . وتوفى رحمه الله على ذلك جميل المذهب ، سديد الطريقة ، عديم النظير . وذكره الحميدى ، ووصفه بالعلم والفقه والزهد ، وأنشد له من زهدياته :

يا مُعجباً بعلائه وغنائهِ ومُطوِّلاً فى الدَّهر حَبْلَ رجَائهِ
كَمْ ضاحِكٍ أكفانُه منشورةٌ ومُؤمِّلٍ والموتُ مِن تِلقَائهِ

قال أبو بكر عبد الباقي بن بُريَّال الحجارى : إنه كان إماما مختارا ، ولم يكن مقلداً ، وكان يقول بالعلة المنصوص عليها والمعقولة ، ولايقول بالمستنبطة ، ومضى عليه دهر وهو يقول بدليل الخطاب ، ثم ظهر له فساد هذا القول ، فنبذه . وتوفى فى بلده ، بعد مطالبة جرت عليه من جهة القضاة بها ، رحمه الله ، وكانت وفاته سنة ٤٥١ ، قاله ابن صاعد .

وأبو حفص عمر بن على الحجارى ، روى عن أبى جعفر بن عون الله ، وابن مفرّج وغيرهما ، وله رحلة إلى المشرق سمع فيها من علماء جلّة ، وحدث عنه الخولانى ، وأجاز له سنة ٣٩٧ ، رواه ابن بشكوال . وطاهر بن أحمد بن عطية المرى القاضى ،

أصله من وادى الحجارة ، يكنى أبا محمد ، روى عن أبى بكر بن بشر ، وأجاز له ولابنه عبد الله بن طاهر فى سنة ٥٣٧ ، يحدث عنه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى ، ذكره ابن بشكوال . وأو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، المؤرخ الشهير ، صاحب المسهب ، وولداه أحمد ومحمد ، وحفيداه موسى وعلى وكلهم من أهل العلم . وسعد بن عمر . وأحمد بن سعيد بن مسعدة ، ذكره صاحب بغية الملتمس

ومن المدن القريبة من وادي الحجارة على ضفة نهر هنارس ، « سيقوانه » Siguenza وكان اسمها عند الرومانيين «سيغونطية Segontia ،وقد استولى عليها العرب ، وفيها من آثارهم قصر لا يزال معروفاً ، وفيها كنيسة قديمة ، بنيت سنة ١١٠٢ وسكان هذه البلدة خمسة الآف نسمة ، وغير بعيد عنها بلدة يقال لها « السكنيسة » Alconeza

والسكة الحديدية بين مجريط وسرقسطة ترتفع إلى علو ١١٩١ مترا عن سطح البحر ، و ٥٥١ مترا عن مجريط ، وتدخل فى نفق يقال له « هورنه » ثم ينحدر الخط الحديدى ، ولا يزال ينحدر حتى يصل إلى سرقسطة ، وعلى هذا الخط ، بين البلدتين بلاد كثيرة منها « تُرّالُبه » Tarrlb « والمازان » Alamazun و « صوريه » Soria . والعرب يقولون لها شورية ، وهى بلدة قديمة ، سكانها سبعة آلاف نسمة وموقعها على الضفة اليمنى من نهر دوروه ، ولكن الأراضى حولها قليلة الجداء ، وفى هذه البلدة أيضاً أديار وكنائس قديمة ، ومتحف فيه آثار ايبيرية وأخرى رومانية عثروا عليها فى أخربة بلدة « نومنسه » Numance

وهى بلدة ايبيرية قديمة ، عند مازحف الرومان إلى أسبانية ، كانت من أشدها مقاومة لهم . فحاصرها هؤلاء مدة سنوات إلى أن فتحوها عنوة سنة ١٣٣ قبل المسيح وجعلوها دكا ، وبقيت خاوية على عروشها . وفى سنة ١٩٠٥ ، إلى ١٩١٢ ، قام الأستاذ المسمى « شولتن » Seulthen بأعمال حفر مهمة للكشف عن بقايا هذه المدينة الايبيرية ، التى دمرها سيبيون الرومانى ، فكشف منها جانباً . وانكشفت

له أيضاً مستعمرة رومانية ، وأماكن المعسكرات التى كانت لسيمون عند ما أحاط بالبلدة ، ثم كشف الأسبانيول بعد شولتن مساكن ايبيرية قديمة

ومن شورية يذهبون بالعربات إلى « كستيجون » Cestjon و « كالهوة » Celaharo و « خرسونه »

مدينة سالم Medinaceli

ثم مدينة سالم ، والأسبانيول يقولون لها مدينة « سالى » و يلفظونها بالثاء لا بالسين ، وهى فى موقع رفيع منيع ، وقد كان للعرب فيها قلعة شهيرة ، جعلوها من أهم الثغور في وجه الاسبانيول والبلدة المعروفة من قبل العرب ولا تزال فيها آثار رومانية من من القرن الأول بعد المسيح إلا أن العرب حصنوها واعتنوا بها وكانت مركزاً عسكرياً عظيما . وكان يقال لمدينة سالم « الثغر الأوسط » ، فقد كانوا يقسمون الثغور إلى كور منها : الثغر الأعلى ، و يقال له أيضاً الثغر الأقصى ، وهذا الثغر هو سرقسطة وكورتها ، ثم الثغر الأوسط و يقال له أحياناً الثغر الادنى ، وهو مدينة سالم وكورتها وطليطلة ، وكان يوجد ثغر ثالث ، وهو ثغر «قويمرة» ، وربما أضيف إلى الثغر الأوسط بعض الأحيان .

وكان ولاة هذه الثغور قواداً ، وكان أكثرهم من أبناء البيوتات ، سواء من العرب ، أو من البربر ، أو من المولدين ، وذلك مثل التجيبيين ، و بنى هود ، و بنى رزين ، و بنى ذى النون ، و بنى قسّى ، وهؤلاء اسبانيون دانوا بالاسلام ، وكان من أشهر قواد الثغور فى زمن بنى أمية غالب بن عبد الرحمن ، فهو الذى فى سنة ٣٣٥ هجرية رمّم حصون مدينة سالم ، بعد أن خربت . وهو الذى فى سنة ٣٤٢ زحف على قشتالة ، وأوقع بأهلها ، و بقى فى قيادة الثغر الأوسط إلى زمن الحكم المستنصر ، فانتدبه لامارة الجيوش فى افريقية ، عند ما عزم على محاربة الأدارسة . وفى إحدى غزواته

ببر العدوة استصحب معه قاضياً محمد بن أبى عامر ، فاتصل به ، وانعقدت بينهما مودة أكيدة ، انتهت بأن غالباً أزوج محمد بن أبى عامر ابنته ، و بواسطة هذه المصاهرة ترقى ابن أبى عامر . وحاز رتبة ذى الوزارتين ، وما زال يترقى فى الدولة حتى صار هو الحاجب الكبير ، وحتى غلب على الدولة كلها ، وحجر الخليفة هشام ، ولم يُبقِ له إلا اسم الخلافة ، وأخيراً وقعت الوحشة بين القائد الكبير غالب بن عبد الرحمن وصهره محمد بن أبى عامر ، الذى تلقب بالمنصور ، وذلك بعد أن استفحل أمره ، ورأى فيه غالب خطراً على الدولة ، فأدى ذلك إلى الحرب بينهما ، وجرح غالب بن عبد الرحمن فى الواقعة ومات ، وفقدت الدولة الأموية بموته ركناً من أعظم أركانها .

وفى مدينة سالم هذه دفن المنصور بن أبى عامر ، كما هو معروف فى التاريخ ، وكان قد توفى فى الغزوة الأخيرة [1] . فاحتملوه إلى مدينة سالم ، ودفن بها قال ابن خلدون :

---

(١) هذه الغزاة يسميها العرب بغزاة قنالش والدير ، لأن المنصور وصل فيها إلى قنالش ، وهى على مقربة من ناجرة ولوكرونى من مقاطعة ريوجه Riofa . وأما الدير فالمرجح أنه ديرسان ميلان ، شفيع قشتالة . وقد هدمه المنصور بتلك الغزاة فيما هدم من الأديار ، ووجدت كتابة من شانجه الكبير ملك نبارة مورخة فى ١٠٢٧ تدل على هذا الحادث ، وكان المنصور عندما قام رحمه الله بهذه الغزاة يشكو المرض ، ولم يقعده ذلك عن الزحف بنفسه ، وعبثاً حاول الأطباء أن يمنعوه من الخروج ، فانه أصر وصمم على الغزو ، وكان معتقدا أن مرضه غير قابل للشفاء . فلما خرج للغزو اشتدت به الآلام وأصبح غير قادر على الاستقلال بجواده ، حملوه فى محفة على أكتاف الرجال وبقى يحمل فى المحفة أربعة عشر يوماً ، ولما وصل إلى مدينة سالم استدعى ولده الأكبر عبد الملك ، وأمره بالرجوع إلى قرطبة ، وتسليم قيادة الجيش إلى أخيه عبد الرحمن ، وذلك لأن المنصور كان يتوجس عند موته خيفة الانتقاض فى قرطبة على الدولة العامرية ، وكان يحتاط لأجل توطيد الحكم لأولاده ، فلما ذهب عبد الملك راجعا إلى قرطبة أفاق المنصور بعض الشىء ، واستدعى كبار القواد ، وودعهم ، وأوصاهم بما يجب على مثله أن يوصى به فى وقت كهذا ، ثم أسلم الروح فى ليلة الاثنين ١٠ أغسطس عام ١٠٠٢ من التاريخ المسيحى ، وكانت تلك الغزاة مقرونة بالنصر لغيرها من غزوات المنصور التى قيل إنها بلغت أربعاً وخمسين غزوة ، وقيل ستاً وخمسين ، وقيل سبعين غزوة

وهلك المنصور أعظم ما كان مُلكا ، وأشد استيلاء ، سنة اربع وتسعين وثلاثمائة

قال لسان الدين بن الخطيب : واصل رحمه الله الغزو بنفسه فيما يناهز سبعين غزوة ، وفتح فيها البلاد ، وخضد شوكة الكفر ، وأذل الطواغيت ، وفض مصاف الكفار ، وكسر الصلبان ، وبلغ الأعماق ، وضرب على العدو الضرائب ، إلى أن تلقاه عظيم الروم نفسه بينته ، واتحفه بها فى سبيل الرغبة فى مهره ، فكانت أحظى عقائله ، وأبرت فى الدين والفضل على سائر أزواجه . انتهى . نقل هذا دوزى فى كتابه « المباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى » وقد سمى المؤرخون غزاة المنصور الأخيرة التى توفى على أثرها بغزاة قلعة انيازور Calatanazor وزعم مؤرخو الاسبانيول مثل لوكاس دوتوى Lucas de Tuy ولذريق الطليطلى Rodrigue de Tolède أن المنصور انكسر فى تلك الغزاة ، وقد فند دوزى زعمهم بما سنذكره فى القسم التاريخى من هذا الكتاب ، عند الوصول إلى أخبار الدولة العامرية

وجاء فى نفح الطيب نقلا عن ابن حيان : ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرض الذى مات فيه ، وواصل شن الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ، ووطىء عليه مايقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يحمل على أعناق الرجال ، والعساكر تحف به ، وكان هجر الأطباء فى تلك العلة ، لاختلافهم فيها ، وأيقن بالموت ، وكان يقول : إن زمانى يشتمل على عشرين الف مرتزق ، ما أصبح فيهم أسوأ حالة منى . ولعله يعنى من حضر معه تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ، واشتغل ذهنه بأمر قرطبة ، وهو فى مدينة سالم ، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته ، وخلا بولده ، وكان يكرر وصايته ، وكلما أراد أن ينصرف يرده ، وعبد الملك يبكى ، وهو ينكر عليه بكاءه ، ويقول : وهذا من أول العجز . وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر ، وخرج عبد الملك إلى قرطبة ، ومعه القاضى أبو زكوان ، فدخلها أول شوال ، وسكن الأرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه ، ووجد المنصور خفة فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كالخيال لا يبين الكلام ، وأكثر كلامه بالاشارة كالمسلم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به . ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يدفن حيث يقبض ، فدفن فى قصره بمدينة سالم ، واضطرب العسكر ، وتلوم ولده أياماً ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة ، فيمن بقى معه ، ولبس فتيان

بمدينة سالم ، منصرفه من بعض غزواته ، ودفن هنالك . وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه . اه . وزاد المقرى على ذلك فى النفح قوله : مما حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى :

آثارُه تنبيك عن أخبارِه حتى كأنك بالعيانِ تراهُ
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلهِ أبداً ولا يحمِى الثغورَ سواهُ

قال : وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لما توجهت إلى اذفونش ، وجدته فى مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره ، وامرأته متكئة إلى جانبه ، فقال لى : ياشجاع أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم؟؟ قال : فحملتنى الغيرة أن قلت له : لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ، ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ! ! فهمّ بى ! فحالت امرأته بينى و بينه وقالت له : قد صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ وقال فى موضع آخر : وتوفى رحمه الله فى غزاته للافرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، وحُمل فى سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحف به و بين يديه إلى أن وصل إلى مدينة سالم ، ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة . قال انتهى كلام ابن سعيد وفى بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون . ثم نعود إلى الكلام على مدينة سالم فنقول: إن ياقوت الحموى يذكرها فى المعجم تحت اسم « سالم » و يقول : مدينة بالأندلس ، تتصل بأعمال باروشة[1] ، وكانت من أعظم المدن وأشرفها ، وأكثرها شجراً وماء ، وكان طارق لما افتتح الأندلس ألفاها خراباً . فعمرت فى الاسلام ، وهي الآن بيد الافرنج . اه

المنصور المسوح والأكسية ، بعد الوشى والحبر والخز ، وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة . وكان الفتيان قد اضطربوا ، فقوم المائل ، وأصلح الفاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد . انتهى

(١) أظن باروشة هذه تصحيف أروشة وأن هذه البلدة هى أريزة عند الاسبانيول وقد سألت الأستاذ المحقق السيد علال الفاسى الجد الفهرى رأيه فى هذه المسألة فأجابنى



المنصور بن أبي عامر يجود بنفسه بين أيدى ابنه وقواده وأطبائه

وجاء فى صبح الأعشى : مدينة سالم قال ابن سعيد : وهى بالجهة المشهورة بالثغر من شرقى الاندلس (والحقيقة أنها من شماليها الى الشرق أو من جوفيها على رأى الأندلسيين) قال : وهى مدينة جليلة . قال فى تقويم البلدان : وبها قبر المنصور بن أبى عامر .

وفي مدينة سالم قبور عائلة أسبانيولية نبيلة يقال لها عائلة دوق مدينة سالم Duc du Medinaceli . وكورة مدينة سالم قاحلة ، قليلة الزرع والضرع ، ويكثر فى أرضها الجفصين .

وعلى مسافة ثلاثين كيلو متراً من مدينة سالم بلدة شنتا مَرْيَة Santa Maria de Huerta . وبالقرب من شنتا مرية هذه ، بينها و بين «أديزه» Ariza خرابات مدينة ايبيرية قديمة يظن أنها مدينة اركوبريقه Arcobriga . ثم تمر ببلدة أريزة ، وهى داخلة فى حدود اراغون ، وحول هذه المدينة الصغيرة كهوف ومغاور كانت مسكونة فى القديم . والغالب على أرض هذه البلدة الصخور والجنادل ، ولون التراب أحمر الى السواد ، ويمر بها نهر شلون [1] وماؤه يميل الى الحمرة ، وكانت من ملحقات

بما يلى : « أما أريزة أو أريسة فأنا لا أرى بعيدا أن تكون هى المسماة « باروشة » ، فقد جاء فى دائرة المعارف للبستانى : أريزة بلدة فى اسبانيا تبعد سبعين ميلا عن سرقسطة إلى الجنوب الغربى . وفى معجم البلدان يقول ياقوت عن باروشة : بلدة من غربى سرقسطة ، من نواحى الأندلس، شرقى قرطبة ، تقرب من أرض الافرنج . فأنتم ترون التقارب فى التحديد بينها وبين سرقسطة . ومع ذلك فأرى أن أريسة - وإن لم استطع تعيينها - كانت تعرف كذلك عند العرب ، أى لم يلحقها تحريف ، إذ حفظ لنا التاريخ اسم شخصين يدعيان بالأريسى ، أحدهما أبو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن احمد الاريسى ، المعروف بالجزائرى ، الشاعر الشهير ، المترجم له فى « عنوان الدراية ، فى علماء بجاية » صفحة ١٣٤٤ ، والثانى جده محمد بن احمد الاريسى ، مترجم له أيضاً فى هذا الكتاب صفحة ١٤٤ . فيغلب على ظنى أن هـذه العائلة منسوبة إلى بلدة أريسة . والله أعلم » اه

(١) Jalon

مدينة سالم فى أيام العرب بلدة يقال لها « شمّونت » ، قال ياقوت : شمّونت بالفتح والتشديد وسكون الواو وفتح النون ، قرية من أعمال مدينة سالم بالاندلس ، لها ذكر فى أخبارهم . انتهى . وقال أبو الفداء : إن مدينة سالم كانت قاعدة الثغر الأوسط ، وقال الادريسى إنها مدينة عامرة ذات بساتين ورياض . وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ما معناه إن مدينة سالم واقعة فى نصف الطريق بين مجريط وسرقسطة ، وارتفاعها عن سطح البحر الف متر . وليست هى مدينة ابن السالم ، التى هى من ملحقات اشبيلية ، وكانت فى زمان العرب مركز الجيوش المرابطة فى الثغور ، ومنها تخرج الى قتال العدو ، واليها تتراجع ، وبها تعتصم فى حال الفشل . وكانت قد سقطت مكانتها حيناً من الدهر ، الى أن تولى الخليفة الناصر ، فاعاد عمرانها فى سنة ٣٣٥ للهجرة ، عن يد القائد غالب ، وبقيت فى أيدى المسلمين الى أن استرجعها المسيحيون . ثم عاد المسلمون فاسترجعوها . ثم عاد المسيحيون فأجلوهم عنها ، عندما أخذ الاسلام فى الاندلس بالتقهقر [1]

من انتسب من أهل العلم الى مدينة سالم

إن العرب لم يحلوا فى محل ، ولو مدة قصيرة الاّ وحلّت مدنيتهم معهم فيه .

---

(١) شنتامرية التى تقدم ذكرها فى الكلام على مدينة سالم قد ورد ذكرها فى معجم البلدان قال ياقوت : شنت مريه بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء ، وأظنه يراد به مريم بلغة الافرنج : حصن من أعمال شنتبرية ، وبها كنيسة عظيمة عندهم ، ذكر أن فيها سوارى فضة ، لم ير الراءون مثلها ، لايحزم الانسان واحدة منها ، مع طول مفرط ، قال أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسى النحوى :

تنكرت الدنيا لنا بعــد بعدكم وحفت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنــا فى أرض شنت مرية هواجس ظن خان والظن خوان
رحلنا سوام الحــد عنا لغيرها فلا ماؤها صدى ولا النبت سعدان

قلنا جاء فى دليل بديكر أن فى شنت مرية هذه ديرا فيه مكان مائدة صنعة بنائه افرنسية ، ولم يحدّث عن سوارى فضة . ولا شيء مما رواه ياقوت بدون تحقيق

واشتغلوا هناك بالعلم والأدب ، وعكفوا على الاقراء ، والتدريس ، وتصنيف الكتب.

فمن المنسوبين الى مدينة سالم من أهل العلم أبو الحسن على بن يوسف القيسى السالمى ، سكن جيّان . وأخذ القراءات عن محمد بن أحمد بن الفرّا ، وتصدّر للاقراء. ذكره ابن الابّار فى التكملة . وأبو الحسن على بن موسى بن على بن موسى بن محمد بن خلف الأنصارى السالمى الجيانى ، المعروف بابن النقَرات . كان من القراء ، ونزل مدينة فاس ، واليه ينسب الكتاب الموسوم بشذور الذهب فى الكيمياء ، ذكره التجيبى وأثنى عليه بالصلاح والورع وقال : سألته عن مولده فقال : سنة ٥١٥ ، وبقى الى سنة ٩٣ . وابو الاصبغ عيسى بن أبى يونس بن أسد اللخمى ، قرأ على أبى العباس بن هاشم المقرىء ، وعلى غيره ، وتوفى ببلده سنة ٤٨٢ ، على رواية ابن بشكوال . ومنه يفهم ان الاسبانيول افتتحوا طليطلة نهائياً قبل مدينة سالم ، لأن الروايات متفقة تقريباً على أنهم استولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ ، ومدينة سالم هى الى الشمال من طليطلة بمسافة بعيدة ، فما كذب الذي قال :

الثوب يُنسلُ من أطرافه وأرَى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسَطِ

هذا إلا إذا كان هذا الرجل أقام بمدينة سالم من بعد استيلاء الأسبان عليها

ثم أبو الحسن على بن ابراهيم بن فتح ، يعرف بابن الامام ، أخذ عن أبى عمر بن عبد البر وأبى الوليد الباجى وغيرهما ، وكان من أهل النبل والأدب ، توفى سنة ٤٧٩ ، وله ثلاث وستون سنة . ذكره ابن مدير ، وعنه نقل ابن بشكوال . وأبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن بن سعيد الأموى المقرىْ ، سمع من القاضى ابن السقاط ، وكان من أهل العلم ، وتوفى بمصر سنة ثمان وتسعين بعد الاربعمائة . وأبو العاص حكم بن محمد بن اسماعيل بن داود القيسى السالمى ، من ساكنى سرقسطة ، أخذ عن جماعة من علماء الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق ، فأخذ عن ابن رشيق وغيره ، وكان صالحاً ورعا تولى الصلاة بجامع سرقسطة ، وحدّث عنه الصاحبان ، وذكر وضّاح بن محمد السرقسطى أنه توفى سنة ٣٩٩ ، نقلاً عن ابن بشكوال . وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوى ،

من أهل طرطوشة وسكن مرسية ، وأصله من مدينة سالم ، كان من أهل العلم والادب مؤرخاً ، له كتاب اسمه « درر القلائد وغرر الفوائد » وله فى اللغة كتاب حسن ، وله كتاب فى الطب سماه « الشفاء » وكتاب فى التشبيهات ، وكان له حَظٌّ من قرض الشعر ، وتوفى سنة ٥٥٩ . ترجمه ابن الأبار فى التكملة . ومحمد بن أحمد البلوى السالمى ، قال فى بقية الملتمس : إنه فقيه أديب ، له كتاب جمع فيه علوماً ، وجدّد من الدهر آثاراً ورسوماً ، سماه « كتاب السلك المنظوم ، والمسك المختوم » ولم يذكر ابن عميرة فى البغية أين سكن محمد بن أحمد البلوى هذا ، ولم نعلم هل هو أبو عامر محمد ابن أحمد البلوى ، الذى سكن طرطوشة ، وترجمه ابن الأبار ، وله كتاب «درر القلائد وغرر الفوائد » أم هو غيره . كما أن ابن عميرة لم يذكر سنة وفاته ، بحيث يترجح عندنا أن هذا البلوى محمد بن أحمد هو واحد ، لا اثنان تشابه اسماهما ؟

وأبو زيد خالد بن أحمد بن أبى زيد الرصافى ، ولى قضاء مدينة سالم وامتُحن بالنهب عند قتل واليها ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن باق ، الكاتب القرطبى سنة ٤١٩ ، وكان يلقّب بجبل الثلج . من خط ابن حبيش . قاله ابن الأبّار فى التكملة . وخلف بن ياسين ، من أهل مدينة سالم وقاضيها . قال ابن الأبار : حضر مع غالب مولى الناصر ، ووثوبَهُ على محمد بن أبى عامر ، إذ حاول الفتك به . فقبض على أسفل كمه لما أهوى إليه بالسيف ، فنَثَر خربته ، وجعل يناشده الله حتى أدهشه ، وأفلت ابن أبى عامر ، وعدا غالب عليه (أى على خلف) بعد ذلك ، فقتله أفظع قتلة ، لخروج مدينة سالم عن يده . وذلك فى منسلخ شهر رمضان سنة ٣٦٩ انتهى . ومن هنا يُعلم أن مدينة سالم تداولها المسلمون والنصارى مراراً لأنه بعد هذا التاريخ دفن فيها محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور ، وكانت يومئذ فى أيدى المسلمين . وخلف ابن محمد بن خلف المقرىء ، روى عن أبى عمرو المقرىء ، وأخذ عنه أبو الحسن بن قوطه الحجارى ، سمع منه فى شعبان سنة ٤٧٦ . وأبو الوليد يونس بن عيسى بن خلف الأنصارى ، سمع من أبى عبد الله بن السقاط ، وقرأ على أصحاب أبي عمرو المقرىء ،

قال ابن بشكوال: أخذ عنه أصحابنا ، وقرأت بخط بعضهم أنه توفى سنة ٥٠٨ ، و يبيش ابن خلف الأنصارى ، روى عن أبى عمرو المقرىء ، وكان عنده علم وخير . وقد حدث، وأخذ عنه عن ابن بشكوال . ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، كان من أهل الأدب والمعرفة بالعروض ، وله فى العروض كتاب ، صنعه للمؤتمن بن المقتدر بن هود . قال ابن الأبار فى التكملة : وكان له حظ من النظم ضعيف . وله رواية عن أبى الحسن بن سيده . وأبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن شاس القيسى ، من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، كان أديباً كتب عنه ابن سيدراى . وأبو القلمى كامل السالمى الحكيم ، حكى عنه أبو داود المؤيدى فى حفظ أبى عمرو المقرئ ، وذكر أنه كان رفيقا له .

وأبو محمد الغالب بن يوسف السالمى ، كان عالما بالأصول ، سكن سبتة ، ثم مراكش وتوفى بها سنة ٥٧٦

وأبو عبدالله محمد بن موسى الأنصارى ، كان من القراء أخذ عن المغامى .

وأبو مروان عبد الملك بن خلف بن محمد الخولانى المكتّب ، أصله من مدينة سالم . سكن غرناطة وتصدر للاقراء بها . وكان من جلة القراء مع الصلاح والزهد ، أخذ عنه أبو بكر بن الخلوف وأبو الحسن بن ثابت ، ترجمه ابن الأبار فى التكملة .

الحمة Alhama

وعلى مسافة ٢١٩ كيلومتراً من مجريط إلى الشرق وعلى مقربة من أريزة توجد بلدة الحمة Alhama حمة أراغون ، فيها مياه معدنية سخنة ، ومن ذلك اسمها «الحمة» وأينما وجد العرب مياها حارة تنبع من الأرض ، سموها حمة [1] و بقرب هذه المياه

(١) قال ياقوت فى المعجم : الحمة العين الحارة يستشفى بها الاعلاء والمرضى ، وفى الحديث : العالم كالحمة تأتيها البعداء ويتركها القرباء . فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقى أقوام يتفكنون أى يتندمون . قال : وفى بلاد العرب حمات كثيرة منها حمة اكيمة وحمتا الثوير ، وحمة البرقة ، وحمة خنزر ، وحمة المنتضى ، وحمة الهودرا .



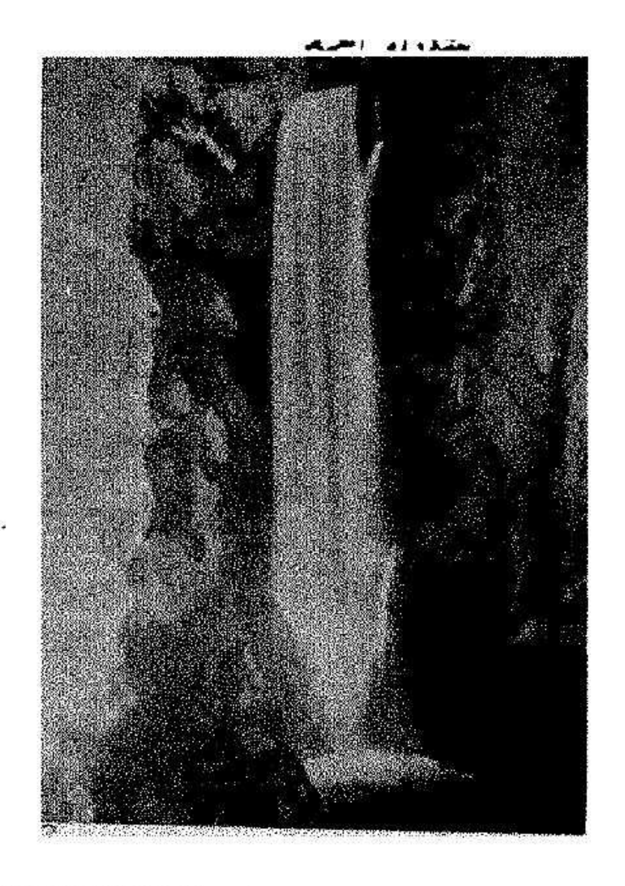
الحامة في اراغون

الحارة يجرى نهر شلون (١) بين الصخور . وضواحى هذه البلدة هى فى غاية النضارة

هذه الست فى بلاد كلاب . قال : والحمة جبل بين ثور وسميراء . وحمة ما كسين فى ديار ربيعة . والحمة قرية فى صعيد مصر . والحمة مدينة بافريقية من عمل قسطنطينة من بلاد الجريد . والحمة قرية من أودية العلاة من أرض اليمامة . والحمة عين حارة بين اسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة ، تقصد من النواحى البعيدة ، يستشفى بها ، ولها موسم اه بتصرف

قلنا : وقد فات ياقوت حمة اليرموك فى فلسطين ، وهى من أهم الحمات وأنفعها ماء ، وكان عندها أبنية من قديم الدهر . ولما كنا فى اليمن مررنا بحمة عظيمة من بلاد آنس لها موسم كل سنة يستمر شهراً . أما حمات الاندلس فأشهرها حمة غرناطة الى الجنوب الغربى منها ، بحذاء شارة الحمة ، وكانت بلدة ذات بال . وحمة أراغون التى نحن بصددها وحمة بين مرسية ولورقة .

(١) الاسبانيول يقولون لهذا النهر جالون Jalon ، وقد ورد ذكره فى معجم ياقوت قال : شلون بفتح أوله ، وبضم ، وسكون الواو ، وآخره نون : ناحية بالاندلس من نواحى سرقسطة ، نهرها يسقى أربعين ميلا طولا ، ينسب اليها ابراهيم بن خلف ابن معاوية العبدرى المقرى الشلونى ، يكنى أبا اسحق ، من جملة أصحاب أبى عمرو المقرىء ، وكان حسنّ الحفظ والضبط .





شلال آخر

و ينحدر من نهر «بييدره» Piepra هناك اثنا عشر خلالاً ، إحداها ينصب من علو ٤٤ متراً ، وفي تلك النواحي كهوف تستحق الفرجة

ثم بلدة « بو بيرقة » وعندها جسر على نهر شلون . ثم بلدة « عتيقة » Ateca وهي بلد قديمة وسكانها ٣١٠٠ نسمة كان لها قلعة في زمن العرب افتتحها القمبيذور سنة ١٠٧٣ وأخرج منها ، ولا تزال فيها أبراج من أيام العرب

وعلى مسافة ٢٤٥ كيلو متراً من مجريط إلى الشرق

قلعة أيوب Kalat Ayoub

والاسبان يقولون Calatayud كلاتايود

وهي الآن بليدة لا يزيد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمة ، لكنها في موقع من أبدع المواقع منظراً ، على وادي جالون يشرف عليها قلعة تسمى قلعة أيوب ، يقال إن بانيها هو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ولذلك انتسبت اليه . ومباني هذه البلدة من الطين المجفف في الشمس ، وعليها علامة الفقر . وفيها كنيسة يقال لها كنيسة سانتامرية ، كانت في الأصل جامعة ، ولها منارة للجرس كانت في أصلها مئذنة ، وكنيسة أخرى يقال لها كنيسة القبر المقدس ، لها برجان ، وكانت في الماضي أعظم مركز لفرسان الهيكليين في أسبانية . وقد بنيت هذه الكنيسة سنة ١١٤١ أي بعد اجلاء العرب عن قلعة أيوب باثنتين وعشرين سنة ، لأن الاذفونش الاول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب من أيدي العرب سنة ١١١٩

وفي جوار قلعة أيوب كهوف وغيران يسكن فيها البشر ، أشهرها الكهف الذي يقال له المُرَيَّة Moreria ، وكذلك المغاور التي يقال لها « كامينوسوليداد » Camino de la Soledad . والى الشرق من قلعة أيوب على الطريق السلطاني المؤدي من ماردة الى سرقسطة ، كانت مدينة « بيلبيليس » Bilbilis . وهي بلدة بناها بعض الجالية الايطالية في أثناء المائة الأولى من التاريخ المسيحي ، وكانت موصوفة بحسن الصياغة ، وباتقان صنعة الاسلحة ، و بتربية الخيل المسوّمه . ومن قلعة أيوب

الى بلنسية ٢٩٤ كيلو متراً بالقطار الحديدى ، الذي يسير كل يوم ، ومنها طريق الى يرْوَل Teruel يسير عليه القطار أيضاً . ثم إن السكة الحديدية تمتد من قلعة أيوب فى وادى جلّق Giloca فلا يسير القطار أكثر من خمسة كيلو مترات حتى يصل إلى بلدة يقال لها « باراكولُوس » Paracuellos ، و بعد خمسة كيلو مترات أخرى ، الى بلدة يقال لها « مالونده ڤلّيلة Maluenda Velilla ، وفيها عدد من الكنائس ، و بعد ثلاثة كيلو مترات لا غير يصل الى موراته Morata ، ثم على مسافة تقرب منها الى قرية يقال لها « فنت جِلق » ، في أرضها معدن من الجفصين والمرمر . ثم على مسافة قريبة من هذه بلدة « فيلا فليش » Villa Feliche ، واقعة بين أكمَتَيْن ، وفيها آثار مساجد اسلامية . والسكة الحديدية فى هذه المسافة تخترق الجبل فى عدة أماكن . وعلى ٣٥ كيلو متراً من قلعة أيوب مدينة دروقة ، وليس فيها الآن الا أربعة آلاف نسمة ، لكنها فى موقع بديع خفيف على الروح ، ضمن واد عميق من جِلّق . وقد كانت هذه البلدة من زمان الايبيريين ، ولكنها عمرت كثيراً في أيام العرب ، الى أن افتتحها الاذفونش الأول صاحب أراغون سنة ١١٢١ وأجلى العرب عنها ، ولها قلعة من بناء العرب معروفة بقلعة دورقه ، وسور عظيم طوله ثلاثة كيلو مترات ، وعليه ١١٤ برجاً .

والى الشمال الشرق من دروقة ، وهناك منظر من أبدع المناظر ، سرداب طويل ، يزيد على خمسمائة متر ، و يعلو على ستة أمطار ، لاجل تصريف المياه ، في وقت الفيضان ، نحو وادى جلق . وعلى مقربة من دورقة بلدة فى سهل مريع تسمى «باغنه» Bagiena ، و بلدة أخرى اسمها كَلَموشه Calamocha ثم بلدة تسمّى كاميزيال Caminreal على نُهير يقال له « ريجه » واقع على الطريق السلطانى بين قاعدتى سرقسطة و بلنسية

من نبغ من أهل العلم من أهل قلعة أيوب

ولنذكر الآن بعض ما جاء فى كتب العرب وغيرها عن قلعة أيوب . قال ياقوت: مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر ، وكذا ينسب اليها ، فيقال : ثغرى ، من أعمال سرقسطة ، بقمتها كثيرة الأشجار ، والأنهار ، والمزارع . ولها عدة حصون . و بالقرب منها مدينة لبلة . ينسب اليها جماعة من أهل العلم ، منهم محمد بن قاسم بن خرّة ، من أهل قلعة أيوب ، يكنى أبا عبد الله ، رحل سنة ٣٣٨ ، سمع بالقيروان من محمد بن أحمد بن نادر ، ومحمد بن محمد بن اللباد ، حدثنا عنه ابنه عبد الله بن محمد الثغرى ، وقال : توفى سنة ٣٤٤ . قاله ابن الفرضى . ومحمد بن نصر الثغرى ، يكنى أبا عبد الله ، أصله من سرقسطة ، كان حافظاً للاخبار والأشعار ، عالماً باللغة والنحو ، خطيباً بليغاً ، وكان صاحب صلاة قلعة أيوب . قال ابن الفرضى : أحسب أن وفاته كانت فى نحو سنة ٣٤٥ . انتهى

قلنا : لم يذكر ياقوت استيلاء النصارى على قلعة أيوب ، ونظن ذلك قد فاته سهواً ، لأنه فى أيام ياقوت الحموى المتوفى فى ٦٢٦ للهجرة ، كان مضى على قلعة أيوب نحو مائة وعشرين سنة وهى فى يد الاسبانيول . وقد ذكر ياقوت تحت لفظة الثغر ، ترجمة أبى محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغرى ، من أهل قلعة أيوب ، سمع بتطيلة من ابن شبل ، وأحمد بن يوسف بن عباس ، وبمدينة الفرج من وهب بن مسرة ، ورحل الى المشرق سنة ٣٥٠ ، فسمع ببغداد من أبى على الصواف ، وأبى بكر بن حمدان ، سمع منه مسند احمد بن حنبل والتاريخ ، دخل البصرة والكوفة ، وسمع بها ، وسمع بالشام ومصر وغيرهما ، من جماعة يكثر تعدادهم ، وانصرف الى الاندلس ، ولزم العبادة والجهاد ، واستقضاه الحكم المستنصر بموضعه ، ثم استعفاه منه فأعفاه ، وقدم قرطبة فى سنة ٣٧٥ ، وقرأ عليه الناس . قال ابن الفرضى : وقرأت عليه علماً كثيراً ، فعاد الى الثغر ، فاقام الى أن مات . وكان يعد من الفرسان . وتوفى سنة ٣٨٣ بالثغر من مشرق الأندلس اه

قلنا : وممن ينسب إلى قلعة أيوب من أهل العلم ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن عبد الحميد التجيبى ، يعرف بالقبريرى ، كان فقيهاً مالكياً جليلا ، بصيراً بالمذهب ، حافظاً للرأى ، وله مسائل فى الآذان ، وفى الحضانة وكتاب سماه « بالانتصار لابن العطار فيما رده عليه أبو عبد الله بن الفخار » وقدروى عنه أبو عبد الله بن سيدراى القلعى ، ذكره القنطرى ، وقال فى نسبه : محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن عبد الحميد ، وذكر أنه كان من كبار الفقهاء الحفاظ وكان شاعراً ، روى هذا ابن الأبار فى التكملة . وأبو عبد الله محمد بن احمد الكفيف يُعرف بابن الحاج ، حدث عنه ابن عبد السلام الحافظ وقال : أجاز لنا كتاب الشريعة لأبى بكر الآجُرى ، وكان قد كف بصره . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن مطرف التجيبى القلعى ، يعرف بالبيرانى ، روى عن أبى محمد بن عتاب ، وكان من أهل العلم والفضل ، حدث عنه ابنه أبو حفص عمر ، وتوفى بعد الأربعين والخمسمائة . ذكره ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن سيدراى الكلابى الوراق القلعى ، سكن ببلنسية ، كان يروى عن أبى الحسن بن واجب وأبى بكر بن العربى وأبى الأصبغ المنزلى ، وأبى عبد الله القبريرى ، سمع منه المدونة ثلاث مرات ، وخرج من بلده لما تغلب العدو عليه ، بعدوقيعة كتندة فى سنة ٥١٤ ، فكان يبيع الكتب فى دكان له ، وكان أبوه من قبله ورّاقا ، توفى ببلنسية فى رجب سنة ٥٤٨ ، وقد نيف على السبعين ، وقيل بلغ الثمانين .

وأبو عمر يوسف بن يونس الأموى ، يعرف بالمورى ، له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن أبى الوشا ، وأبى حفص بن عراق ، ورايق الصقلى وغيرهم ، وأخذ ببلده قلعة أيوب عن القاضى ابى محمد عبد الله بن قاسم ، واخذ عنه الصاحبان وابو عمر المقّرى

وأبو الطيب سعيد بن فتح الانصارى ، منّ قلعة أيوب ، أخذ القراءات عن أبى داود ، وابن الدوش ، وابن البياز ، وغيرهم ، وتصدر للأقراء بمرسية ، وكان

متقنا أديبا ، أخذ عنه أبو عبد الله بن فرج المكناسى وغيره ، توفى بقرطبة سنة خمس عشرة أو ست عشرة وخمسمائة . ذكره ابن الأبار . وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعى ، أخذ القراءات عن أبى جعفر بن حكم ، ورحل ، فلقى بالمهدية أبا عبد الله ابن الحداد الأقطع ، وأخذ عن أبى عبد الله الطرابلسى ، وتصدر للإقراء فى قلعة أيوب ، وأخذ عنه أبو عمرو عثمان البلجيطى [1] ، وكانت وفاته سنة ٥١٢ ، ذكره ابن الأبار .
وأبو القاسم اسماعيل بن أبي الفتح ، قال ابن بشكوال : كان فقيه جهته ، من أهل العلم والتقدم فى الفتوى ، توفى فى نحو الخمسمائة . أفادنيه ابن عياض . وأبو القاسم اسماعيل ابن يونس المورى ، حدّث عن أبى محمد عبدالله بن محمد بن قاسم الثغرى وغيره ، حدّث عنه أبو عمرو المقرى وأبو حفص بن كُريب وغيرهما . وأبو عثمان سعيد بن يوسف ابن يونس الأموى ، له رحلة إلى المشرق روى فيها عن أبى بكر بن عمار الدمياطى ، وأبى اسحق ابراهيم بن أبى غالب المصرى ، وأبى محمد بن النحاس وغيرهم ، حدّث عنه الصاحبان ، وأبو عبد الله بن عبد السلام ، وقال : توفى فى عقب ذى الحجة سنة ٣٩٧ .
وأبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن أبى محمد القلعى ، توفى سنة ٤٢٥ .
وأبو يونس عبد العزيز بن عبد الله بن هذيل العبدى القلعى ، يروى عن أبى الوليد الباجى ، سمع منه صحيح البخارى بسرقسطة فى جيئته رسولا اليها سنة ٤٧٠ ، روى عنه أبو الحسين بن حفصيل السرقسطى ، وأبو مروان بن الصيقل الوشقى ، وكان أديباً فقيهاً مشاوَراً . وأبو محمد عبد الرحيم بن عبد الجبار بن يوسف بن عبد الرحيم بن احمد الشعنتى ، وشعنت حصن فى قلعة أيوب ، خرج من بلده سنة ٥١١ ، ونزل بمرسية سنة ٥٢٦ ، وتصدر بها للإقراء . وأبو يونس عبدالله بن هذيل العبدرى ، والد عبدالعزيز ابن عبد الله بن هذيل . وأبو محمد عبد الله بن عبد الله بن عبد الله (ثلاثا) بن محمد ابن قاسم القلعى ، تولى قضاء قلعة أيوب بعد أبيه ، وتوفى سنة ٤٨٧ .

---

(١) نسبة إلى بلجيط Belchite من عمل سرقسطة

وأبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن حزم يعرف بالبطروري نسبة إلى قرية منها بوادي جلّق ، وهو والد القاضى أبى محمد القلمى ، توفى سنة ٤٢٥ .

من نبغ من أهل العلم من مدينة دروقة

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعيد بن عبد الله بن سعيد الدروق ، يعرف بابن زرياب ، لقى أبا بكر بن العربى ، وكان من أهل العلم والزهد ، فقيهاً مشاوَراً ، توفى ببلنسية ليلة الخميس منتصف رمضان سنة ٥٢٢ . ذكره ابن الأبار فى التكملة .

وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية بن داود الأنصارى ، أصله من دروقة ، وسكن أبوه قرطبة ، وكان يقال له الدروق ، روى عن أبيه عبد العزيز وعن أبى على الصدفى ، وعن أبى بكر بن العربى ، وكان من أهل الحفظ للحديث . قاله ابن الدباغ ، وتوفى فى حياة أبيه قبل العشرين وخمسمائة ، ذكره ابنَ الأبار .

وأبو محمد عبد العزيز بن محمد بن معاوية الانصارى . يعرف بالدروق الأطروش ، قال ابن بشكوال : روى عن أبى بكر محمد بن مغوز ، وأبى على حسين الصدفى ، وأبى عبد الله الخولاني ، وسمع من جماعة من شيوخنا بقرطبة وغيرها . وكان معتنياً بالحديث وكتبه وتقييده ، حافظاً له ، عارفاً بعلله وطرقه ، وصحيحه وسقيمه ، وأسماء رجاله ، مقدماً في جميع ذلك على أهل وقته ، سمعنا منه ، وأجاز لنا بلفظه ما رواه وجمعه ، وكان حرج الصدر ، نكد الخلق ، توفى رحمه الله فى ربيع الآخر سنة ٥٢٤ . انتهى . قلنا : وجاء فى معجم البلدان تحت اسم « دورقة » بالدال قبل الواو ، ترجمة عبد العزيز هذا ولكنه كنّاه بأبى الأصبغ لا أبى محمد ، عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية ابن داود الأنصارى الدورق الأطروشى . وقال ياقوت : كان من أهل المعرفة بالحديث والحفظ وله تآليف ، وكان عسراً سيء الأخلاق ، قلما يصبر على خدمة أحد ، وكان له ولد من أهل الفقه والمعرفة يقال له محمد بن عبد العزيز ، مات قبل أبيه . قال ياقوت : وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن خيرة الدورق المقرىء ، بلغ الاسكندرية ، وحضر عند أبى طاهر السلفى ، وكتب عنه ، انتهى ملخصاً

ومن الغريب أن ياقوت الحموى ذكر فى معجمه دروقة ، بفتح أوله وثانيه ، وسكون الواو . وهنا قدّم الراء على الواو ، وقال إنها بلدة أو قرية بالأندلس ، ينسب إليها أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن خِيرة الدروقي المقرىء ، قال السلفى : قدم علينا الأسكندرية سنة ٥٢٩ ، وسألته عن مولده فقال : سنة ٤٦٤ بدروقة ، وقرأت القرآن على أبى الحسين يحيى بن ابراهيم البسّار القرطبى بمرسية ، وسمعت الحديث على أبى محمد عبد الله بن محمد بن اسماعيل القاضى بسرقسطة . انتهى ، ثم قال : ومات بقفط من الصعيد سنة ٥٣٠ انتهى . ثم رجع ياقوت فذكر بلدة اسمها دورقة ، بتقديم الواو على الراء ، وقال : إنها مدينة من بطن سرقسطة ، ينسب إليها جماعة ، منهم أبو محمد عبد الله ابن جوشن الدورقى المقرىء النحوى ، كان اية فى النحو ، وتعليل القراءات ، وله شعر حسن ، وسكن شاطبة و بها توفى سنة ٥١٢ . ثم ذكر ياقوت ترجمة أبى الأصبغ عبد العزيز الأطروشى ، وأبى زكريا يحيى بن خـيرة الدورقى ، وذلك بعد أن كان ذكر ترجمة ابن خيرة المذكور تحت اسم دروقة ، لا دورقة . والحقيقة أنه لا يوجد بلدتان إحداهما اسمها دروقة ، والأخرى دورقة . و إنما هى بلدة واحدة يتلفظ بعضهم باسمها بتقديم الراء على الواو ، والآخرون بتقديم الواو على الراء .

والذى فى الصلة لابن بشكوال ، وفى التكملة لابن الأبار ، هو دروقة بتقديم الراء على الواو ، وهكذا يتلفظ بها الاسبانيول . وممن ينسب إليها ، عدا من تقدم ذكرهم ، أبو الحسن على بن محمد بن يحيى بن أبى العافية الأنصارى الدروقى ، روى عن أبى القاسم بن حبيش ، وأبى القاسم السهيلى ، واحمد بن ابراهيم الدروقى . وأما محمد بن عبد الله بن جوشن المقرىء النحوى ، فقد أخذ القراءات بسرقسطة عن أبى زيد ابن الورّاق ، وأبى جعفر بن الحكم ، وأخذ العربية عن أبى جعفر بن باق . وكان له معرفة بعلم الكلام ، ومشاركة فى الطب ، وكانت وفاته سنة ٥١٤ ، وهو دون الأربعين ، هذا ماقرأناه عنه ، و ياقوت يقول : إن وفاته كانت سنة ٥١٢ .

ترول Teruel

وعلى مسافة ١٣١ كيلو متراً من قلعة أيوب ، إلى الجنوب ، بلدة « ترول » Teruel ، وسكانها ١٢ ألفاً ، وهى مركز جنوبى أراغون ، وموقعها على وادي الأبيار ، وفيها آثار أسوار من القرون الوسطى ، وفيها قناة معلقة ، وهى إلى الشرق من مملكة بلنسية القديمة ، ومنها يقطعون النهر الذى يقال له المجرّ ، وعليه جسر علوه ٤٢ متراً ، وفى تلك الناحية بلدة يقال لها « جريقة » Gérica ، وفى هذه البلدة آثار حصن عربى قديم استولى عليه جقوم الأول ، ملك أراغون سنة ١٢٣٥ ، والخط الحديدى ينحدر من هنالك إلى بسائط مملكة بلنسية القديمة ، وفى مقاطعة ترول هذه يضع الجغرافيون مدينة شنتمرية الشرق

شنتمرية ابن رزين[1]

جاء فى الأنسيكلوبيدية الأسلامية أن شنتمرية الشرق ، ويقال لها شنتمرية ابن رزين ، هى مدينة على نهر « تُريه » Turia الذى يقول له العرب وادى الأبيار المنحدر من مقاطعة ترول فى جنوبى أراغون . وقد ورد ذكر هذه البلدة فى تاريخ ابن عذارى ، عند كلامه على ذهاب أمير شنتمرية ، الذى هو ابن رزين من البربر ، وذلك إلى قرطبة ، لأجل حلف يمين الأمانة للخليفة عبد الرحمن الناصر . وقد سموا هذه البلدة شنتمرية ابن رزين ، ومنها جاء اسم « البراسين » الذىهو اليوم اسم تلك المقاطعة Albarracin ويقال لها شنتمرية الشرق ، تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب ، التى هى اليوم فى البرتغال ، ومركزها قريب من مرسى « فارو » Faro

جاء فى الانسيكلوبيدية المذكورة أنه بعد سقوط بنى أمية فى قرطبة ، ومجىء ملوك الطوائف ، استقل بشنتمرية الشرق أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، ثم جاء بعده أخوه أبو مروان عبد الملك بن خلف ، ثم خلفه ابنه أبو محمد هذيل الثانى

(١) Albarrazin

الملقب بعز الدولة ، وجاء بعده ابنه أبو مروان عبد الملك الثانى الملقب بحسام الدولة ، وذلك سنة ٤٩٦ للهجرة ، وفق ١١٠٢ للميلاد . وفى سنة ١٠٨٧ انضم ابن رزين إلى القمبيذور الملقب بالسيد ، وزحف معه لحصار بلنسية سنة ١٠٩٤ ثم إن شنتمرية ابن رزين انتهى أمرها باستيلاء الدون بترُه رويز الصخرة Ruiz de Azagra عليها ، فخرجت من يد الاسلام ، وفى سنة ١٢٣١ اندمجت فى مملكة أراغون . انتهى .

وقد اطلعنا على ذيل لكتاب « البيان المُغْرِب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لأبى العباس بن عذارى المراكشى طبعه الأستاذ لاوى بروفنسال مع الجزء الثالث من كتاب ابن عذارى ، وفيه نُتف من أخبار ملوك الطوائف . ومن الجملة ذكر دولة بنى رزين هؤلاء . قال الكاتب : ذكر دولة بنى رزين ملوك شنتمرية الشرق ، وهى مدينة عظيمة فى شرق الأندلس ، و يعرفون ببنى الأصلع ، لما اشتعلت الفتنة بالأندلس فى ثورة ابن عبد الجبار ، وثار كل رئيس بموضع ، ثار ابن الأصلع بشنتمرية و يقال لها السهلة ، واسمه هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربرى ، وكنيته أبو محمد ، بويع له بها سنة ثلاث وأربعمائة ، وكان من أكابر ناس الثغر ، وكان بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم يُرَ فى الأمراء أبهى منه منظراً مع طلاقة لسانه ، و إدراك حوائجه ببيانه ، وكان أرفع الملوك همة فى اكتساب الآلات ، واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب أبى عبدالله الكنانى بثلاثة آلاف دينار .

قال ابن حيّان فى تاريخه : لم يُرَ فى زمانها أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ولا ألين أعطافا ، ولا أطيب صوتا ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا خطاً ، ولا أبدع أدبا ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغِنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب ، وعلم الطبائع ، ومعرفة التشريح ، وغير ذلك مما يقصّر عنه علماء الزمان . وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجاولة بالتراس واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة ، لم يُسمع لها فى ذلك بنظير ولا مثل ولا عديل [1]

(١) هذه المرأة هى ريحانه وقهرمانة معاً

ثم إن الأمير هذيل اشترى كثيراً من الجوارى الحسنات المشهورات بالتجويد ، طلبهن فى كل جهة ، فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الأندلس . وكان مع هذه الأوصاف كنفاً للقصاد ، ومنهلاً عذباً معيناً للوراد ، سهل المأخذ ، لم يزل على أحسن حالاته إلى أن أدركته منيته ، فمات بالسهلة ، سنة ست وثلاثين وأربعمائة . فكانت دولته ثلاثا وثلاثين سنة كلها آمنة هادئة

وولى بعده ابنه عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، بويع له يوم موت أبيه سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وكان فى أيام أبيه يسمى حسام الدولة ، وكان بالعكس من أبيه . قال ابن حيان : وكان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلاً لا متجاهلاً ، وخاملاً لا متخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذكرت الخيل فزيدها ، أو الدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء فجرولها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فبديع همذان ، أو الخطابة فقس وسحبان ، أو النقد فقدامة ، والعلم ليس منه ولا كرامة، خلىّ من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف ، ومنه قوله الذى هو جسم بلا روح ، وليل بلا صبوح :

أدِرْها مُداماً كالغزالة مزّةً تَلينُ لرائيها وتأبى عن اللمس
وتَبْدُو إلى الأبصار دونَ تجسمٍ على أنها أشفَى على الذهن والحسّ

وقوله أيضاً :

يارُبَّ ليل أطال الهَجْرُ مدَّتَهُ فأيأسَ العُمرَ منْ إدراكِ مُنتَصَفِه
ليلٌ تطاولَ حتى ما تَبيّنَ لى عندَ التأمّل أن الدهرَ من سُدَفِهِ

وقوله :

أنا مَلِكٌ تجمعتْ فىَّ خمسٌ هى للأنام مُحْيٍ مُميتُ
هى ذِهْنٌ وحِكْمةٌ ومَضاءٌ وكلامٌ فى وقتهِ وسكوتُ

إلى غير هذا من سخفه ، انتهى كلام ابن حيان . ومن لعمري لايوافقه عليه ؟

وذكره الفتح بن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » فأثنى عليه بما ليس فيه من المحاسن ، ووصفه بصفات ليس هو بأهل لها ، ثم قال بعدها : إلا أنه كان ينشطط على ندامة ، ولا يرتبط في مجلس مدامة ، فربما عاد إنعامه بوساً ، وانقلب ابتسامه عبوساً ، فلم تتم معه سلوة ، ولا فقدت في ميدانه كبوة ، وقليلا ما كان يقيل ، ولا يناجي المذنب عنده إلا الحسام الصقيل

ففُهم من هذا الوصف هوره وحماقته ، وسرعته إلى القتل . ولم يزل على ذلك من أفعاله إلى أن مات بحصن السهلة ، غدوة الاثنين التاسع من شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة ، فكانت دولته ستين سنة . انتهى .

قلنا : فما كان أصبر رعيته على نار هذه المحنة ، التي استمرت ستين سنة ! ثم جاء في هذا الذيل ذكر ولده يحيي بن عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، بويع له يوم موت أبيه ، بعهده ووصيته ، وسلك في التخلف مسلك أبيه ، مدمناً للخمر ، مكثراً من الغشيان ، ضعيف العقل ؛ ومن ضعف عقله أن الفنش (يعني به الأذفونش السادس) لما أخذ الثغور وتملكها ، أهدى إليه كل ملك من ملوك الطوائف الهدايا الجليلة ، فلم يلتفت إلى أحد منهم ، ولا كافأه على هديته . فأهدى إليه حسام الدولة يحيي هذا هدية جليلة ، من الحلى والحلل ، والخيل والبغال ، وتحف الملوك ، يعجز عنها الوصف ، فأعجب الفونش هديته ، فكافأه عليها بقرد . فكان من ضعف عقله يفخر بذلك القرد على ملوك الأندلس . فانظر إلى هذا السخف وهذا الخذلان ! ولم يزل على سخفه وخذلانه إلى أن خلعه المرابطون يوم الاثنين الثامن من رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، فكانت دولته سنة واحدة . وانقرضت دولتهم اه

ولما كانت شنتمرية ابن رزين معمورة بالعرب ، خرج منها عدد من أهل العلم لأنهم أينما حلوا كانوا يقيمون سوق المعارف على ساقها

من نبغ من أهل العلم فى شنتمرية ابن رزين

أبو عيسى لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن يعرف بابن ورهزن ، سمع من أبيه ومن القاضى أبى بكر بن العربى، لقيه بكولية من الثغور الشرقية حين غزاها مع الأمير أبى بكر بن على بن يوسف بن تاشفين فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٢ ، وسمع أيضاً من أبى مروان بن غردَي ، وولى الأحكام بشاطبة ، ثم ولى قضاء بلدة شنتمرية بآخرة من عمره مضافة إلى البونت من أعمال بلنسية . وتوفى سنة ٥٣٨ وقد نيف على الستين . ترجمه ابن الأبار فى التكملة . وأبو عيسى لب بن عبد الملك بن احمد بن محمد بن نذير الفهرى من أهل شنتمرية الشرق ، سكن بلنسيه ، روى عن أبيه أبى مروان ، وتولى قضاء بلده وراثة عن أبيه ، ثم سُعى به إلى السلطان فغربه عن وطنه وأسكنه حضرته بلنسية إلى أن توفى بها بعد سنة ٥٤٠ ، حدَّث عنه ابنه أبو العطاء وهب بن لب . وأبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلف بن عثمان العبدرى من شنتمرية الشرق ، سكن مرسية ورحل حاجاً ، وسمع من أبى على الصدفى . وأبو مروان عبدالملك بن احمد بن محمد بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، سمع ببلدة شنتمرية الشرق من أبيه ،و بمدينة سالم من أبى الحسن على بن الحسن صاحب الصلاة فيها ، وتولى القضاء ببلده ، وتوفى بعد التسعين والأربعمائة . وأبو الوكيل عبد الجبار بن عبد الرحمن بن ورهون من أهل شنتمرية الشرق وقاضيها ، روى عن أبى مروان بن نذير فى شنتمرية سنة ٤٨٩ . وأبو مروان عبدالملك بن عبد العزيز بن فيروه بن وهب بن غردَى من أهل مرسية، أصله من شنتمرية الشرق ، له رحلة إلى المشرق ، ذكر ابن بشكوال أنه توفى سنة ٤٢٥ ، وأبو مروان عبد الملك بن مسرّة بن فرج بن خلف بن عزيز اليحصبى من أهل قرطبة ، أصله من شنتمرية الشرق ، ومن مفاخرها وأعلامها ، اختص بالقاضى أبى الوليد بن رشد وجمع بين الحديث والفقه ، وكان على منهاج السلف الصالح ، وتوفى سنة ٥٥٢

وأبو الخيار مسعود بن عثمان بن خلف العبدرى ، والد أبي عبدالله محمد بن مسعود ابن عثمان العبدرى . وأبو جعفر احمد بن بقاء بن مروان بن نميل اليحصبى ، من أهل

شنتمرية الشرق، نزل مرسية، وتوفى سنة ٥٤٤ . وأبو العطاء وهب بن لب بن عبد الملك ابن احمد بن محمد بن وهب بن نذير الفهرى من شنتمرية الشرق، سكن بلنسية، وتولى قضاءها مع الخطابة، وتوفى سنة ٥٩٥، ترجمه ابن الأبار، وترجم والده أبا عيسى لب بن عبد الملك . وأبو عبد الله محمد بن وهب بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى، له ولأهل بيته نباهة، و بسماع العلم عناية، توفى صفر سنة ٤٣٣ قاله ابن الأبار .

ثم إن ابن عذارى فى البيان المغرب فى أخبار بنى رزين، بدأ بذكر أبى مروان عبد الملك الملقب بحسام الدولة، فنقل عن ابن حيان ما يلى : كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين، المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة، موسطة مابين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة، فانه كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك عن سلفه، ثم سما لأول الفتنة (أى فتنة قرطبة الكبرى) إلى اقتطاع عمله، والأمارة لجماعته، والتقيل لجاره اسماعيل بن ذى النون، فى الشروع عن سلطان قرطبة . فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى في الأطراف، شرقاً وغرباً، وقبلة وجوفاً . إلا أن هُذيلا هذا مع تمززه على المخلوع هشام (أى ابن الحكم المستنصر) لم يخرج عن طاعته، ولا وافق الحاجب منذراً، ولا جماعة المتمالئين على هشام، فى شأن سليمان عدوّه (سليمان بن الحكم بن الناصر، وكان يسمى بالمستعين)، إلى أن ظفر بهشام، فسلك هذيل مسلكه، فرضى منه سليمان بذلك، وعقد له على مافى يده هنالك لعجزه عنه، فزاده ذلك بعاداً مسه، وتمرّس به الحاجب منذر بن يحيى، مدرجاً له فى طى من استعمله، واشتمل عليه من سائر أمراء الثغر النازلين فى ضِبنه، فأبت له نفسه الخنوع له، والانضمام إليه، فردّ أمره وحادّه، وأجاره منعة معقله، وظاهر أعداء منذر، حتى حالف الموالى العامريين، واستمر معهم على دعوة هشام المخلوع . وقطع دعوة سليمان . وكانت واقية الله له كونه موسطة الثغر، فصار ذلك أردّ الأشياء عنه، فسلم من معرّة الفتنة أكثر وقته، وتخطته الحوادث لقوة سعده، واقتصر مع ذلك على ضبط بلده، المرسوم بولاية عهده، وترك التجاوز لحده، والامتداد إلى شىء

من ولاية غيره ، فاستقام أمره ، وعمر بلده ، وقطع بعد جمهور الثوار بالأندلس شأو الحياة .

وليس فى بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بنى رزين سلفه فى اتصال عمارتها . فكثر ماله ، إذ ناغى جاره وشبيهه فى جمع المال ، اسماعيل بن ذى النون ، ونافسه فى خلال البخل ، وفرط القسوة . وكان مع ذلك شاباً جميل الوجه حامى الأنف ، غليظ العقاب ، جباراً ، مستكبراً ، صار اليه أمر والده منبعث الفتنة ، وهو فتى فى العشرين من سنه ، فأنجده الصباء على الجهالة ، وقواه الشباب على البطالة ، فبعُد فى الشرور شأوه ، فلم يخالف أحداً من الأمراء على أداء الأتاوة ، ولاحظى أمراء الفتنة منه بسوى إقامة الدعوة فقط ، دون معونةٍ بدرهم ، ولا إمداد بفارس ، ولا شارك الجماعة فى حلوٍ ولا مر ، على كثرة ماطرق الحضرة من خطوب دهم ، استخفت البطاء ، وقربت البعداء ، فضلا عن الأولياء ، إلا ما كان من هذه الحية الصماء ، فانه لم يزل على تصامّهِ عن كل نداء ، إلى أن مضى لسبيله ، والأخبار متتابعة عن جهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه سطا بوالدته ، وتولى قتلها بيده ، لتهمة لحقتها عنده ، وكانت أشنع ما كان من كبائره .

ثم ذكر ابن حيان ما تقدم نقله عن هذيل هذا من مغالاته فى شراء القيان [1]

---

(١) وفى نسخة أخرى من كتاب ابن عذارى ورد عند ذكره شراء هذيل بن رزين جارية ابن عبدالله المتطبب بثلاثة آلاف دينار قوله : لم ير أخف روحا منها ولا أملح حركة ولا ألبق إشارة ولا أطيب غناء ولا أجود كتابة ولا أملح خطاً ولا أبدع أدبا ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه إلى الشروع فى علم صالح من الطب ينبسط بها القول فى المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه أكثر منتحلى الصناعة ، إلى حركة بديعة فى معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة ، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ، وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجويد ، طلبهن فى كل جهة ، فكانت ستارته فى ذلك أرفع ستائر

ثم ذكر ابن عذارى عن حسام الدولة أبي مروان ابنه خلاف ما جاء فى الذيل المتقدم ذكره ، فانه قال عنه : كان له طبع يدعوه فيجيب ، و يرمى بغرّة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة استجداء لمن عُني بالأخذ عنه من الأئمة ، وربما جالسهم مباحثاً ، بين مغالطة وأنفة ، و بالجملة فلو جرى ذو الرئاستين على عفوه ، ابلغ منتهى شأوه . قال : وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره :

يارُبّ ليلٍ أطال الهجر مدته الخ . وقد تقدم هذان البيتان

ولنعد إلى قلعة أيوب متوجهين صوب سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى فنقول :

إن الخط الحديدى يمر بينها و بين سرقسطة على ثمانية جسور ، معقود أكثرها على نهر شالون ، وهو يخترق أحشاء جبال بيكور[1] ، و إن منظر ضفاف نهر شالون هو من أبدع مناظر الاندلس ، بما فيه من خضرة ناضرة ، وجنان زاهرة ، تحاذى القفار اليابسة التى بأزائها ، أشبه شىء بغوطة دمشق ، بحذاء جبل الصالحية الموجود ، ولا تزال القرى والقصاب منتظمة بلبّة نهر شالون الى أن تبلغ سرقسطة ، ومن جملتها بلدة « كالاتوراو » [2] وهى مدينة قديمة رومانية ، حصّنها العرب وأقاموا بها ، و بالقرب منها بلدة « ساليلاس » [3] وفيها بيوت منحوتة فى الجبل ، ثم بلدة أبيلة ، ولعلها التى يقول لها العرب لبلة ، من عمل سرقسطة ، وهى بحذاء سلسلة جبال يقال لها شارات « مولا » [4] و بحذاء تلك الجبال بلدة « روطة » وفيها حصن قديم من بناء العرب . قال ياقوت فى معجم البلدان : روطة بضم أوله وسكون ثانيه وطاء مهملة : حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس ، وهو حصين جداً على وادى شلون . ثم بلدة يقال لها « بلازنسيا » على شالون ، ثم « كازيتاس » على مقربة من سرقسطة . وعلى

الملوك بالاندلس . وحدثت عنه أنه اجتمع عنده مائة وخمسون حظية ، ومن الصقلب المجابيب (الخصيان) ستون وصيفاً لم تجتمع عند أحد من نظرائه . قلت : قوله كانت ستارته أرفع ستائر الملوك بالاندلس معناه كان حرمه أرفع حرم الملوك بالاندلس

(١) Seirra de Vicor (٢) Calatorao أو قلعة أوراو

(٣) Salillas. (٤) Muela

مسافة ٣٤١ كيلو مترا من مجريط تقع مدينة سرقسطة عاصمة مملكة أراغون فى القديم ، ومركز ولاية أراغون اليوم .

وقبل أن ندخل فى مبحث أراغون وسرقسطة ، نرى مناسباً أن نتكلم عن :

سلسلة جبال البرانس Pirénées

هذه هي الجبال الفاصلة بين فرنسة واسبانية . ولما انتخب الأسبان حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسة ملكا عليهم قال له جده : ياولدى لم يبق برانس . وذلك إشارة إلى أن هذه الجبال هى الحد الحاجز بين المملكتين .

وهى ممتدة من البحر المتوسط الى البحر الاطلانطيكى ، و بدايتها من جهة البحر المتوسط رأس « كريّوس » Créus فى أرض اسبانية ، وهو متصل « برأس سر بار » Cerbére من أرض فرنسة شمالى مرسى « بو » Port - Bou ونهايتها عند الاطلانتيكى نهر « بيداسوا » Bidassoua الذى يصب ماؤه فى خليج غشقونية Gascogne وفي وسط هذا النهر جزيرة الحجال التى اصطلحت المملكتان أن تجعلها منطقة متحايدة بينهما .

عرض هذه الجبال هو من الغرب ٣٠ و ٤٢ إلى ٢٠ و ٤٣ ، ومن الشرق من ٢٠ و ٤١ إلى ٤٣ ، فهى مائلة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى . وكلما تقدمت نحو البحر الرومى يزداد عرضها . وثخانة هذه السلسلة الجبلية هى ٥٥٣٨٠ كيلو متراً مربعاً ، من أصلها ٣٨٥٦٥ كيلو مترا مربعاً فى المنحدر الأسبانيولى ، و ١٦٨١٥ فى المنحدر الافرنسى ، فمنها إذا الثلثان فى أرض أسبانية ، والثلث فى أرض فرنسة . وهذه السلسلة حفظت فى الجنوب هيئتها الأصلية أكثر مما حفظت فى الشمال ، وذلك بسبب كون الجنوب أصفى أفقا ، وأكثر شعاع شمس ، بحيث إن المياه تتبخر فيه بسرعة . فأما فى الشمال فالرطوبة الزائدة ، والرياح الشديدة الهابة من الشمال ، أحدثت فى هذه الجبال بكرور الدهارير تغييرات عظيمة . وكثيرا ما تبددت النجود لاحقة بالسهول . ويزداد هذا التفكك فى البرانس الشمالية ، كلما قربت من الأوقيانوس

وارتفاع البرانس يتدرج من المكان الذى يقال له « رون » Rhune وعلوه تسعمائة متر مقابلا للاوقيانوس إلى قمة « أنيتو » Anto ، وعلوها ٣٤٠٤ أمتار ، وهى أعلى قمة فى الجبال المسماة بالجبال الملعونة Maidits وفى جميع السلسلة . وهناك قمم أقل ارتفاعاً ، مثل قمة « آنى » Anie التى علوها ٢٥٠٤ أمتار ، وقمة «أوساو» Ossau وعلوها ٢٨٨٥ متراً ، وقمة « بَلاَيطُس » Balaitous وعلوها ٣١٤٦ متراً ، وذروة « فينيمال » Vignemale ، وعلوها ٣٢٩٨ متراً ، وذروة الجبل الضائع Mont Perdiu وعلوها ٣٣٥٢ متراً ، وقنة « بوزانس » Posets وعلوها ٣٣٦٧ متراً

و إلى الشرق من الجبال الملعونة ، ومن قمة أنيتو ، تهبط الارتفاعات إلى ٢٧٥٨ متراً ، ولـكن يبقى ارتفاع كبير لا يهبط ، فان جبل كانيغو Canigou المشرف على البحر المتوسط لا يقل ارتفاعه عن ٢٧٨٥ متراً

أما المعابر التى فى جبال البرانس ، والتى يقال لها عند العرب أنفسهم «البرتات» فهى تعلو بحسب علو الجبال ، وتكثر عقابها ، و يمر السائر فيها بكثير من مناسف الثلج . وفيها طرق معبدة أحيانا ، تمر عليها العربات إلا أنه يوجد أماكن ليست فيها طرق صالحة للعربات ، و إنما هى شعاب يصعب حتى على البغال العبور منها . ومن هذه المعابر أو البرتات ، معبر مركادو Marcadau ارتفاعه ٢٥٥٦ متراً ، وهو يفضى من المكان الذى يسمى كوتريه Cauterets إلى حمامات بانتيكوزه Panticosa التى علوها ١٦٧٣ متراً فى جوف نهر كالدارس Caldares وهو من الأنهر التى تنصب فى جلّق ، نهر سرقسطة . وقبل الوصول إلى بنتيكوزه يمر السائح ببحيرات ماشيماسة Machi Massa و يرى شلالا عظيما يقال له ليفازه Levaza ، وكثيراً ما يذهب السياح إلى هناك لمشاهدة جمال الطبيعة .

وكل شىء يراه الانسان هناك يراه صغيراً بالنظر لعظمة الجبال الشماء ، فالبشر أشبه بالنمل ، والمبانى التى لو كانت فى أماكن أخرى لـكانت شاهقة ، لايكاد الرائى يبصرها . وفى أواسط جبال البرانس نقطة يقال لها غافارنى Gavarnie علوها ١٣٤٦

متراً ، منها ينفذون من مضيق يقال له مضيق رولان Brèche de Roland علوه ٢٨٠٤ أمتار ، وهو مضيق وعر ، يمرون منه على مثلجة يقال لها تايون ، علوها ٣١٤٦ مترا ، ولكن هذه المثلجة لا تخلو من خطر ، لأنها أبداً تقذف بالصخور ، و بقطع الثلج الكبار ، وقد سبق هلاك المارة من هناك .

ومن المعابر المشهورة البورت المسمى فينسك Venasque علوه ٢٤٤٨ متراً ، ويذهبون إليه من لوشون ، وفي أيام الصيف تكثر القوافل المارة منه بالسياح أو بالتجار ، وهناك معبر يقال له اليرش La Peereche بين سردانية Cerdagne وكابسير Capcir وكانت تمر به بينهما طرق رومانية قديمة ، وعلوه ١٦٠٠ متر ، ثم معبر برتوس Perthus يفيض الناس منه على سهول أمبوردانية Ampurdan ومن هنا يقع المرور بين بار بينيان Perpignan في فرنسة ، وجيرونة Girona في أسبانية . وهذا المعبر هو البورت الأعظم ، والأقدم ، وطالما مرت به جيوش العرب في غزواتها للأرض الكبيرة

أما الحدود هناك بين فرنسة وأسبانية فلا تسل عنها ، بل هي مما يصح أن يقال فيه : كيفما اتفق . فأية هيئة سياسية تقدر أن تسير أشهراً في تلك الجبال الشامخة في جوار المثالج الهائلة ، حتى تعين حدوداً معقولة بين المملكتين ؟ فلذلك تجد أنهارا أسبانيولية منابعها أفرنسية ، وأخرى أفرنسية منابعها أسبانيولية ، وترى كثيرا من من الجبال والوهاد متشابكة بين فرنسة وأسبانية تشابكا فظيعاً . ولجميع أقسام أسبانية حظ من البرانس ، ولكن أوفرها حظا منها مملكة أراغون ؛ فان الجبل الضائع ، وجبل مالاديتا Maladeta ، هما أراغونيان . والفاصل بين برانس أراغون و برانس كتلونية واد يقال له ريباغورزانة Ribagorzana

أما الجبال المسماة بالجبال الملعونة ، فهي تابعة لبلاد أراغون ، وأعالي ذراها تبلغ ثلاثة آلاف متر ، فهي من شواهق جبال أوربة . ولو كانت هذه الجبال في آسية أو أميركا لما كانت بهذه الجلالة ، لأن جبال حملايا في آسية ترعى فيها الغنم إلى

ارتفاع ستة آلاف متر . وفى أميركا الجنوبية توجد بلاد مسكونة فى الجبال على ارتفاع أربعة آلاف متر . وفى جزيرة العرب تجد قرى وقصبات عامرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر . فكوكبان من اليمن بلدة تعلو عن سطح البحر ثلاثة آلاف متر ، وصنعاء اليمن تعلو ٢٣٤٢ متراً . وصعدة مدينة تعلو ٢٢١٦ متراً ، والروضة ٢٣٠٦ أمتار . وثلا ٢٨٦١ مترا . وزمرمر ٢٦٩٨ متراً . وشبام ٢٦٣٥ مترا . وذمار ٢٤٣١ مترا . ويوعان ٢٩٣٦ مترا . وسوق الخميس ٢٣٧٢ متراً ، ومناخة ٢٣٢١ مترا . وعمران ٢٣٠٢ أمتار . وأبها من عسير ٢٢٧٥ مترا . وغامد من عسير ٢١١٠ أمتار .

والسبب فى كون ارتفاعات كهذه توجد عليها المساكن ، هو قربها من خط الاستواء[1] ، وعدم نزول الثلوج عليها إلا فى النادر الأندر . فلو كانت هذه الجبال فى سورية لما استطعت سكناها أصلا ، لأنها تكون مغمورة بالثلج أكثر أشهر السنة . هذا وإن غلظ جبال البيرانس هو أعظم من غلظ جبال الالب ، فسافاتها بعيدة ، والسفر فيها متعذر جداً ، لعدم وجود مراكز يمكن استمداد الغذاء ولوازم المعيشة منها . فمن أراد أن يتوقل جبال البيرانس ، لزمه أن يحمل معه جميع اللوازم إلى مدة مديدة ، وليس هذا بالأمر السهل . ولهذا بقيت أكثر أراضى البيرانس مجهولة طول الدهر ، ولم يبدأ الناس أن يعرفوا عنها ما يجب العلم به إلا من خمسين سنة . وأعلى قمم الجبال الملعونة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى هى

---

(١) فى نفس اسبانية قدصعدت إلى ارتفاعات ٢٥٠٠ متر فى جبال غرناطة المشرفة على البحر المتوسط وذلك فى شهر اغسطس ، فوجدتنى كأننى أسير فى ارتفاعات لا تزيد على الف وثلاثمائة متر من سورية مثل عين صوفر مثلا ، ووجدت هناك قرى معمورة ونباتات لا تنبت عندنا فى الشام فى جبال بهذا العلو ، ونحن فى جبال الشام لا نعلم عمراناً دائما فى ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ متر إذ لو زاد على ذلك لتعذر السكن فيه أيام الشتاء . والذى يلوح لى والله أعلم أن مهب الرياح الحارة الجنوبية من جهة القطب الجنوبى على جبال اسبانية وجبال أميركة هو الذى يخفف صقيعها ويجعل السكن فيها ممكناً على ارتفاعات لا تمكن السكنى عليها فى أماكن أخرى .

قنة ألب ، علوها ٣١١٩ متراً ، وقنة روسّل Russel وعلوها ٣١٩٨ متراً . والقنة المسماة « مالديتا » علوها ٣٣١٢ متراً . وأكثرما يتراكم الثلج ويستمر هو فى نواحى قنة مالديتا . وأما القنة العليا على الجميع ، وهى أنيتو ، فان الثلج محيط بها من كل الجهات ، وقد وصل إليها السياح بشق الأنفس ، ومن جملتهم الكونت روسل Russel الذى كتب عن سياحته هذه تذكرة بديعة

أما الجبل الضائع فعلوه ٣٣٥٢ متراً ، ومكانه متوسط بين حرارة الجنوب ، وبرد الشمال ، وبين أشعة الشمس المحرقة من جهة أسبانية ، والضباب الكثيف المطبق من جهة فرنسة . وفى حذاء الجبل الضائع يوجد مزارع لفلاحى الأراغون ، ويبدأ العمران ، وهناك نهر يقال له « آرَه » Ara عليه بلدة يقال لها بروتو Broto وحولها قرى ، ويقال لهذه الناحية وادى بروتو ، وكلما انحدر الانسان من هناك يزداد العمران . وتجد قرى وقصابا ، وهناك مكان غربى شارة بارسيز Berciz يقال له « بارنكومسكون » Berranco de Mascum وفيه بلدة يقال لها القصر Alquézar وسواء كان القصر أو المسكون فلفظه عربى ، ولا تزال فى هذه البلدة آثار من زمن العرب ، وقد قرأت أنه فى القرن التاسع كان للعرب مسلحة فى هذه البلدة ، ومنها كانوا يحرسون معابر جبال البيرانس ، وكانوا قد جعلوا محارس على القمم المشرفة على تلك المعابر ، وهى أبراج ، كل برج منها يقابل أخاه ، فإذا أحسوا عدواً ، أوقدوا النيران من برج إلى برج ، فكانوا دائماً على حذر وأهبة . ومن هذه الابراج برج مديانو Mediano المشرف على وادى انترمون Entremon وأبراج أبيزنده Abizanda وارتازونه Artasona واستاديلاّ Estadilla على وادى الغرادُه Elgrado وأبراج أولفينا Olvena و بينابار Benabarre والساموره Alsamora وهى فى وادى « ريبا رغورزانه » المتقدم ذكرها ، وكانت على وادى بلارزا Pallaresa قلاع للعرب لأن هؤلاء طاردوا الاسبانيول ، لأوائل الفتح ، إلى أن أقبعوهم فى الكهوف والمغاور . وسيأتيك خبر صخرة بيلاى التى آوى إليها بيلاى ، ولم يبق معه

سوى ثلاثين علجاً ، والاسبانيول يقولون لهذه الصخرة صخرة « كوفا دونقه » Covalouga وكان بطل آخر يسمى غرسى شيمينيس Garci - Jimenez قد لجأ بجماعة إلى أعالي بلاد أراغون ، فطاردهم عبدالرحمن الأموى ، وأرسل جيشاً ، فاستولى على بلدة جاقة Jaca واكتسح وادى أراغون ، ودمّر قصبة أنْسَه Ainsa عند ملتقى نهرى « آرَه » و « سِنْـكَه » .

ولكن إلى الغرب من جاقة ، فى برية عاصية ، اجتمع فلّ المشرّدين ، على رأسهم جوان اتارس Atares وكان من رفاق لذريق آخر من ملوك القوط ، وصار كل من انهزم ينضم إلى هؤلاء الشذاذ .

ثم زحف غرسى المذكور ومعه خمسمائة مقاتل ، فاجتاز وادى جلق الى وادى آرَه ، وهجم على العرب بغتة بقرب « أنسة » فهزمهم ، وانتعش بذلك أصحابه ، و بايعوه باسم ملك سوبرار به Sobrarbe وجعلوا أنسة قاعدة للمملكة الجديدة . ولما كان عددهم قليلا لم يكونوا فى بادىء الأمر يجرءون على الخروج من جبالهم التى كانت تقاتل معهم ، ولكن بفتن العرب بعضهم مع بعض بصورة مستمرة ، كانت تلوح للاراغونيين كل يوم غرّة فينتهزونها ، و ينحدرون إلى الأمام ، و يأخذون قلعة بعد قلعة ، و يدمرون حصناً بعد حصن ، إلى أن بلغوا مدينةوشقة Huesca ، وجعلوها قاعدة مملكة سو براربه ، ثم صارت بعد ذلك تسمى مملكة اراغون ، وكان استرجاع الاسبانيول لوشقة سنة ١٠٩٦ بعد حصار شهير قتل فيه ملك اراغون شانجة راميريس . وفى وشقة آثار قديمة كثيرة .

سرقسطة أو الثغر الأعلى وبنبلونة

Zaragoza او Saragosse و Pampelonne

قد تقدم لنا ذكر منبع وادى ابرُه ، وقول الناس إن أصله راشح من وادي « هيجار » حتى قالوا إنه اذا جرت سيول بسبب الزوابع اضطرب لها وتعكرماء هيجار يتعكر أيضاً ماء ابره . وعلى كل حال فابره يمده وادى « هيجار » ومنبع « رينوزة » ، وهو حياة مملكة أراغون ، وقسم من كتلونية . وكلما تقدم إلى الشرق تنضم اليه أنهر من الشمال ومن اليمين ، ولا سيما الأنهر التى تأتيه من الشمال ، فهى ذات بال ، وينحدر الى أراغون من البيرانس مياه لا تحصى أنهارها .

ومن المدن المعدودة فى تلك الناحية مدينة بنبلونة [1] ، يقال إن الرومانيين

---

(١) مما ورد فى نفح الطيب عن الوقائع التى جرت فى بنبلونة قوله عن الامير عبد الرحمن الثانى الاموى ابن الحكم إنه سنة تسع وعشرين ومائتين بعث أبنه محمداً بالعساكر فتقدم إلى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى (ثم جاء فى النفح عن بنبلونه) : وفى سنة سبع واربعين ومائتين أغزى محمد الى نواحى بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية بن « ونقه » ؟ وكان يظاهر اردن بن اذفنش فعاث فى نواحى بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرا من حصونها واسر فرتون ابن صاحبها فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة . ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر بالعساكر الى نواحى ألبة والقلاع (قلنا ألبة هى Alava من بلاد البشكنس وأما القلاع فكان العرب يسمون بالقلاع أعالى بلاد اراغون ونبارة . انظر إلى كلام ياقوت عن منبع ابره) فعاثوا فيها ، وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم ، وأثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحاً لا كفاء له . وفى سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفى السنة التى بعدها إلى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع (ثم ذكر أيام عبد الرحمن الناصر ، فمن جملة كلامه عنه) : ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه (ثم قال) : غزا سنة ثمان وثلاثمائة

أحدثوها ، ثم استولى عليها القوط ، ثم العرب سنة ٧٣٨ ، ولـكن العرب لم تطل مدة استيلائهم عليها ، قيل إنهم لم يلبثوا فيها إلا بضع عشرة سنة ، و إن النباريين استرجعوها ، ثم استغاثوا بشارلمان الذى جاء من فرنسة ، وحاصر سرقسطة ، فرده العرب عنها ، ففى أثناء رجوعه ، كان النباريون والبشكونس قد رأوا من جيشه ما أثار حفائظهم ، فكمنوا له فى الجبال وأوقعوا به .

ولاتزال بنبلونة[1] حافظة حصونها وآثارها القديمة ، وهى أهم مدينة فى تلك الجبال .

الى جايقية وملكها اردون بن اذفنش فاستنجد بالبشكنس والافرنجة وظاهره شانجة ابن فرويله صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم . ثم غزا بنبلونه سنة اثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والاوعار ولم يظفر منه بشيء . ثم بعد مدة بلغه انتقاض طوطه ملكة البشكنس فغزاها فى بنبلونه ودوخ أرضها واستباحها . ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحى بنبلونه وردد عليها الغزوات ، وكان سنة اثنتين وعشرين غزا إلى بنبلونه فجاءته طوطة بطاعتها لابنها غرسية على بنبلونة . ثم عدل إلى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها اه

(١) قد زار هذه البلدة الاستاذ احمد زكي باشا المصرى العلامة المشهور رحمه الله ، وذلك سنة أوفدته الحكومة المصرية إلى المؤتمر العلمى الشرقى سنة ١٨٩٢ فبعد أن قام بسياحة فى اورية فكر بأن يزور بلاد الاندلس لرؤية آثار المسلمين فيها فجاءها من طريق ايرون الى فونترابية الى سانسيباستيان الى بنبلونة الى سرقسطة الخ . وذكر بنبلونة فى الصفحة ٣٨٣ من الطبعة الثانية من كتابه « السفر إلى المؤتمر» فقال : بنبلونة وتسمى فى قليل من كتابات العرب بنقلونه ، وقدحكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط ، وهى أنظف مدينة رأيتها ، وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى

وجاء ذكر بنبلونة فى صبح الأعشى هكذا : قال فى تقويم البلدان بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو وسا كنة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر، وموقعها فى أوائل الاقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة والعرض أربع وأربعون درجة .

وموقعها على نهر آرغه Arag وتأتى بعدها مدينة جاقة ، وفيها أيضاً قلاع وحصون وأبراج . ومن تلك الجبال يخرج نهر جاَّق Gallego الذى يمر بأراضى سرقسطة ، ويتصل بابرُه . فأما سرقسطة فهى على الضفة اليمنى من ابرُه ، ولها ربض على الضفة اليسرى منه . و يقال لهذا الربض الطاباس Altavas ، و بين البلدة والربض جسر حجر

وسرقسطة بلدة كبيرة سكانها يناهزون ١٢٠ ألف نسمة ، وفيها مدرسة جامعة ، ودار أسقفية ، وهى مركز قيادة جيش أراغون ، وضواحيها تشرب من القناة التى يقال لها القناة السلطانية التى شقها رجل يقال له بينياتلى Pignatelli ، وله بسرقسطة تمثال . وكل من نهر هورفه Huerva وابرُه وجاق يمر بأرض سرقسطة . ومن سرقسطة يسرح النظر فى بسائط أراغون

وسرقسطة مدينة جيدة الهواء ، معتدلة لا يشتد الحر فيها ولا البرد . ومنها قسم جديد ، وقسم لا يزال على قدمه . وكان العرب يبالغون بمحاسنها ، وقد مر بنا قولهم إن الحيّات لا تعيش فيها ، و إنه إذا جىء إليها بأفعى لا يلبث أن يموت حالا . وقالوا إن الفواكه فيها تبقى مدة طويلة ولا تتعفن ، ولكننا لم نجد لها هذه الأوصاف فى كتب الافرنج . وفيها من الكنائس الشىء الكثير ، وأعظمها كنيسة سِيوُ Seo قد بنيت على أنقاض المسجد الأعظم الذى كان للمسلمين ، و يقال إن بانى هذا

قال فى تقويم البلدان : وهى مدينة فى غرب الاندلس خلف جبل الشارة . قال : وهى قاعدة النبرى احد ملوك الفرنج وتعرف هذه المملكة بمملكة نبرة بفتح النون وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر ، وهى مملكة فاصلة بين مملكتى قشتالة و برشلونة وهى مما يلى قشتالة من جهة الشرق . انتهى

قلنا : إن هذه المملكة هى نبارة Navarra وكونها فاصلة بين مملكتى قشتالة و برشلونة هو صحيح ، ولكن قوله إنها فى غرب الاندلس فليس بصحيح لأنها فى شمالى الاندلس أو فى جوفيها على قول الاندلسيين . ثم إن البلدة بنبلونة يبدأ اسمها بالباء وهو هكذا عند الافرنج ، وفى تقويم البلدان يبدأ الاسم بالياء وهو خلاف الصحيح ، وقد كان يمكن الظن بأن الباء انقلبت ياء بخطأ فى النسخ ولكنه يصرح بقوله « الياء المثناة »

المسجد هو التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى رضى الله عنه ، و إنه توفى سنة ١٠٠ للهجرة ، ودفن مع أحد أصحابه بازاء المحراب . ثم إن هذا المسجد ضاق عن جماعة المسلمين ، فوسعوه سنة ٢٤٢ ، فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى . ولما استرجع النصارى سرقسطة هدموا المسجد ، ولم يبقوا من بنائه إلا القليل ، و بنوا الكنيسة العظمى سيو على مقتضى الفن القوطى ، وأتقنوا بناءها إلى النهاية . ومن الغريب أن فيها رواقا من النحاس الأصفر ، هو أبدع شىء فيها ، قد رأيته عندما زرت سرقسطة ، وشاهدت هذه الكنيسة . والبنّاء الذى بنى هذا الرواق هو مهندس عربى اسمه الرامى Alrami ، صنعه سنة ١٤٩٨ على ما فى دليل بديكر

وفى هذه الكنيسة قبر فرنندو حفيد الملك فرديناند الكاثوليكى . والكنيسة و إن كانت على طرز البناء القوطى ، ففيها كثير من الزليج والصنعة العربية ، وذلك أن سرقسطة لاتزال حافظة مسحة عربية قوية ، كان السبب فيها أنه لما تغلب أهل أراغون على العرب ، وأخرجوهم من سرقسطة ، بقى كثير من صناع العرب ساكنين فى المدينة لأجل أسباب معيشتهم ، وكانت لهم علاقات وطيدة مع المسيحيين من أهل سرقسطة . وكذلك بقى فيها اليهود الذين كانت ثقافتهم عربية ، فلم يبرحوا المدينة . ثم لما استولى فرديناند وايزابلا على غرناطة ، وضيّقوا على مسلمى الجنوب ذلك التضييق الفاحش ، لم يجدوا لزوماً لمثل هذا التضييق فى الجهات الشمالية ، حيث المسلمون مبعثرون فى مدن متعددة ، ولم تكن لهم أدنى قوة سياسية هناك ، فمن أجل هذا بقى مسلمون كثيرون ، و يهود كثيرون ، فى سرقسطة و برشلونة . وكان منهم صناع كثيرون متمسكون بتقاليدهم الشرقية . وكانت لهم آثار كثيرة لا تزال محفوظة إلى الآن . ومن أهم هذه الآثار هو حائط القرميد الذى فى كنيسة السيو ، وكذلك برج الساعة الذى بنى فى زمن الملك فرديناند ، وثبت نحواً من أربعمائة سنة ، ثم تداعى إلى الخراب ، فهدموه خوفاً من خطر سقوطه [1] وهناك برج آخر لكنيسة سان ميشال

(١) قال أحمد زكى باشا فى كتابه «السفر إلى المؤتمر» : وقد زرت جميع آثار سرقسطة

المعروفة بسان ميشال النباريين ، فهو أيضاً مصنوع بالقرميد والزليج . وقبة الجرس فى كنيسة المجدلية أصلها منارة جامع ، وهى مزينة بالزليج والفُسَيْفِسَاء

ومن مبانى العرب المشهورة فى سرقسطة ، المحفوظ منها جانب إلى اليوم ، قصر الجعفرية ، شرق البلدة ، على ضفة ابرُه . وهو الآن ثكنة عسكرية . قرأت فى دليل بديكر أن بانيه هو أبو جعفر أحمد ، بناه فى القرن الحادى عشر للمسيح ، ولم أطلع على ترجمة لأبى جعفر أحمد هذا ، ويغلب على ظنى أن بانى هذا القصر هو المقتدر بالله بن هود ، ملك سرقسطة ، وقد كان يكنى بأبي جعفر فقيل لقصره : الجعفرية ، نسبة إليه . وكذلك كان يقال للمستعين الثانى ابن هود « أبو جعفر »

وقد زرت هذا القصر فى شهر يونيو سنة ١٩٣٠ ، فلم أجد فيه من آثار العرب المحفوظة سوى جامع صغير ومقصورة . وفي هذا القصر الغرفة التى ولدت فيها سنة ١٢٧٠ القديسة اليصابات ملكة البرتغال . و بالاختصار فمن جهة الصنعة تتلاقى فى سرقسطة أوربة وآسية . وفى قصر الجعفرية مثال بارز لهذا الأمر . وقد كان ملوك أراغون بعد أن استولوا على سرقسطة ، جعلوا إقامتهم فى هذا القصر ، ثم صار مركزاً لديوان التفتيش . وسنة ١٨٠٩ فى أثناء الحرب بين الفرنسيس والاسبانيول ، تهدم الجانب الأعظم من الجعفرية ، ثم رمموه ، وجعلوه ثكنة للعساكر .

العربية وغير العربية ، وصعدت الى قمة البرج المائل ، وهو من صنع العرب المرتدين ، وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه اه . قلنا : إن هذا البرج هو من بناء العرب المدجنين ، وكان يقال له البرج الجديد ، ويظهر أنه دخل عليه وهن من أساسه ، فصار مائلا ، وخافوا من سقوطه فهدموه . وليس العرب المدجنون فى الحقيقة من المرتدين ، وإنما أكرهوا على عدم اظهار شعائر الاسلام . وكان يقال لهم المدجنون وهى لفظة تفيد الاقامة والاستئناس فى المكان ، ومنه الحيوانات الداجنة ، أى التى تألف البيوت ، ووجه المناسبة أنهم أقاموا تحت حكم النصارى ودجنوا . وقد حرف الاسبانيول لفظة مدجن الى مدجر Mudjar وصار يقال عندهم لفن البناء العربى ، ولكل شىء عربى ، « مدجر » ولما كانوا يقلبون الجيم خاء صارت فيما بعد « مدخر » فكنا فى « المدجن » وانتهينا الى « المدخر »

ومن المباني المشهورة في سرقسطة كنيسة سيدة بيلار Pilar وهي الكنيسة الثانية بعد كنيسة السيو في تلك البلدة ، وقبابها مزخرفة بالزليج العربي ، وفيها العمود الذي يزعمون أنه تجلت عليه السيدة العذراء للحواري يعقوب ، عند ما كان ذاهباً إلى شنت ياقب ، وفي هذه الكنيسة من الصنعة والزخرف ، وفي خزائنها من الكنوز ما يعجز القلم عن وصفه . وهناك كنيسة ثالثة شهيرة يقال لها سان بابلو ، ولها برج مبني على الطرز العربي ، وفيه كثير من الزليج الأخضر والأبيض .

وفي سرقسطة حارات جديدة بشوارع واسعة ، على الطراز الحديث ، ولكن لايزال فيها أيضاً حارات قديمة ، ذات شوارع ضيقة ، وأما القناة الامبراطورية المشتقة من ابرُه فانما سميت بذلك نسبة للامبراطور شارلكان ، وكان الابتداء بشقها سنة ١٥٢٨ ، وهي تتبع الضفة اليمنى من ابره ، وطولها ٨٨ كيلو متراً .

و بساتين سرقسطة غاية في البداعة ، فيها التين والزيتون واللوز والكرم وأصناف الفواكه ، وأما نهر جلق فأصل اسمه عند الاسبان غاليقو Gallego ولكن العرب قالوا له جلق لأنه كاسم دمشق التي يقال لها جلق . وجاء في نفح الطيب أن موسى بن نصير لما وصل إلى سرقسطة وشرب من مائها ، استعذبه جداً ، وقال إنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسم النهر الذي منه هذا الماء ، فذكروا له اسمه ، فقال : إذاً هذا نهر جلق ، وهذه غوطة دمشق ، لأن البساتين التي تحدق بسرقسطة تشبه غوطة الشام

وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي عن سرقسطة ما يلي :

سرقسطة ، بفتح أوله وثانيه ، ثم قاف مضمومة ، وسين مهملة ساكنة ، وطاء مهملة : بلدة مشهورة بالاندلس ، تتصل أعمالها بأعمال تطيلة ، ذات فواكه عذبة ، لها فضل على سائر فواكه الأندلس ، مبنية على نهر كبير ، وهو نهر منبعث من جبال القلاع ، وقد انفردت بصنعة السمّور ، ولطف تدبيره ، يقوم في طرزها بكمالها ، منفرداً بالنسج في منوالها ، وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية . هذه خصوصية لأهل

هذا الصقع . وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ، ولا أى شىء يعنى به : إن كان نباتاً عندهم ، أو وبرَ الدابة المعروفة ؟ فان كانت الدابة المعروفة فيقال لها الجندبادستر أيضاً ، وهى دابة تكون فى البحر ، وتخرج إلى البر وعندها قوة ميز . وقال الأطباء : الجندبادستر حيوان يكون فى بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا الى خصاه ، فيخرج ذلك الحيوان من البحر ، و يسرح فى البر ، فيؤخذ و يقطع منه خصاه ، و يطلق ، فربما عرض له الصيادون مرة أخرى ، فاذا علم أنهم ماسكوه ، استلقى على ظهره ، وفرّج بين فخذيه ، ليريهم موضع خصيته خالياً ، فيتركونه حينئذ .

وفى سرقسطة معدن الملح الذرآنى ، وهو أبيض صافى اللون ، أملس خالص ، ولا يكون فى غيرها من بلاد الأندلس .

قال : ولها مدن ومعاقل ، وهى الآن بيد الافرنج ، صارت بأيديهم منذ سنة ٥١٢ انتهى .

ثم ذكر من ينسب الى سرقسطة من العلماء ، وسنأتى على هذا البحث . وقد تقدم فيما نقلناه عن نفح الطيب ماذكره العرب من مزايا هذه المدينة ، وقالوا إنها هى أم تلك الكورة التى يقال لها الثغر الأعلى ، وكانت تسمى بالبيضاء . ونقلوا عن الحجاري فى كتابه « المسهب » أن السمّور الذى يعمل من وبَره الفراء الرفيعة ، يوجد فى البحر المحيط بالأندلس ، من جهة جزيرة برطانية ، و يجلب إلى سرقسطة ، و يصنع بها . جاء فى نفح الطيب : ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذى يصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ماهو ، ولا ما عنى به إن كان هو نباتا عندهم ، أو بر الدابة المعروفة ، فان كانت الدابة المعروفة ، فهى دابة تكون فى البحر ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوه ميز . وقال حامد بن سمحون الطبيب ، صاحب كتاب « الأدوية المفردة » : هو حيوان يكون فى بحرالروم ، ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه ، فيخرج الحيوان من البحر فى البر ، فيؤخذ ، وتقطع خصاه و يطلق ، فربما عرض للقناصين مرة أخرى ، فاذا أحس بهم ، وخشى أن لا يفوتهم ، استلقى

على ظهره ، وفرّج بين فخذيه ، ليُرى موضع خصيته خالياً ، فاذا رآه القناصون كذلك تركوه . قال ابن غالب : و يسمى هذا الحيوان أيضا الجند بادستر ، والدواء الذى يصنع من خصيبه هو من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة . الخ

قلنا : أنت ترى أن هذه العبارات هى عبارات ابن غالب فى وصف هذا الحيوان ، وهو الذى قال : وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ، ولا أى شىء يُعنى به . والحال أن ياقوت الحموى يذكر هذه العبارة بدون أن يرويها عن ابن غالب ، بل يسوقها كأنها منه ، و إنما تصرّف فى بعض جملها ، وزاد ونقص . و بدلا من قول ابن سعيد : قال حامد بن سمحون الطبيب ، جعل : قال الأطباء . فأخل ياقوت هنا بأمانة النقل

وأما أن سرقسطة لا تدخلها عقرب ولا حية ، و إذا جىء إليها بشىء من ذلك مات لحينه ، وأن القمح فيها لا يتعفن ولو بقى مائة سنة ، وأن العنب يؤكل فيها ولو تعلق ستة أعوام ، وأنه لا يسوس فيها الخشب ، ولا يدخل العث على أثوابها ، صوفا كانت أو حريراً أو كتانا ، إلى غير ذلك مما جاء فى كتب العرب ، فلم أجد شيئا من هذه الأوصاف فى كتابات الاوربيين عن سرقسطة . وسألت عن ذلك بعض أدباء الأسبانيول فلم يجيبونى بأجوبة شافية

وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية ماملخصه : سرقسطة مدينة من أسبانية ، هى مركز مقاطعة سرقسطة اليوم ، وقاعدة مملكة اراغون فى القديم ، واقعة على يمين نهر ابرُه ، ارتفاعها عن البحر ١٨٤ مترا ، وهي فى وسط بقعة خضراء بديعة ، واسمها سرقسطة هو الاسم الذى أعطاه إياها أغسطس الرومانى ، مشتق من سيزارية أوغسطة Caesarea Ongusta فالعرب قالوا لها سرقسطة ، والنسبة إليها عندهم سرقسطى ، ومنذ فتحها العرب إلى أن استرجعها المسيحيون كانت تعد من قواعد المملكة الاسلامية الكبرى ، وبسبب موقعها الجغرافى كانت مركز الثغر الأعلى . وفى أيام الادريسى ، أى القرن الثانى عشر ، كانت معمورة جداً ، وكان يقال لها المدينة البيضاء ، نظراً لبياض أسوارها ، وكانت فواكهها معدودة

من أحسن فواكه الأندلس ، وكان فرو السمور الذى يصنع بها مشهوراً فى كل العالم الاسلامى .

وقد استولى العرب على سرقسطة سنة ٩٤ للهجرة ، وفق ٧١٢ ، بعد أخذهم طليطلة بقليل ، زحف إليها موسى بن نصير ففتحها ، وفتح القصاب ، والحصون التى حولها . وروى ايزيدور الباجى (١) أن العرب عاثوا فيها ، وعاملوا أهلها بأقصى الشدة . وفى أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس كانت من القواعد الكبار ، وتولى عليها الصُميل بن حاتم ، وكان ذلك سنة ١٣٢ . ولما جاء شارلمان يحاول فتحها سنة ٧٧٨ مسيحية ، كان فيها والياً الحسين بن يحيى الخزرجى ، فحاصرها شارلمان ، فامتنعت عليه ، وإذ ذاك جاء الخبر إلى شارلمان من بلاد الرين بخطب أوجب انصرافه إلى بلاده ، فقفل بعساكره ، ولما صار إلى مضيق رونسفو (٢) Rancevaux كمن له هناك البشكنس وأوقعوا بجيشه ، وكانت وقيعة شنيعة تخلد ذكرها بأنشودة رولان .

وفي سنة ١٦٤ زحف اليها عبد الرحمن الداخل ففتحها ، ولكنها عادت فخرجت من أيدى الأمويين ، فسرح اليها هشام سنة ١٧٥ جيشاً عقد لواءه لعبيد الله بن عثمان ، فاستولى عليها ، ثم عادت فانتقضت سنة ١٨١ ، وكان خلائف قرطبة يسرحون اليها الزحف بعد الزحف ، فتارة ينجحون وتارة يفشلون ، وفي أواخر القرن الثامن عظم أمر عائلة يقال لها بنو قصىّ ، فاستولت على أراغون ، وهى عائلة اسبانيولية دانت

(١) Isidore de Beja يقال إنه من قرطبة ، ترك باللاتينية تأليفاً تاريخه ٧٥٤ مسيحية ، وذكره دوزى فقال : إنه كان قسيساً . ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد على العرب ، وهو يروى مثلا أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبدالعزيز بن موسى بن نصير ولا يجد فى ذلك إثماً كما كان يفعل غيره من القسيسين لو قص هذه الحادثة . قال دوزى إن كراهية ايزيدور الباجى للعرب هى بسبب كونهم شعباً غريبا عن شعبه لا من أجل عملهم

(٢) ويقال Roncevalles والعرب يسمون هذا المضيق باب الشزرى

بالاسلام ، وأحد رؤساء هذه العائلة موسى بن فورتونيو[1] Fortinio صهر اينيقوار يستة Inigo Arista ، أول ملك على بنبلونة ، انحاز الى الامير هشام الأموى ، وساعده على استرجاع سرقسطة . ثم إن موسى الثانى من أفراد هذه العائلة كان والياً على تطيلة وقائداً لجيوش عبد الرحمن الثانى التى كانت تغير على حدود الافرنجة ، وقد كان لموسى هذا مواقف جهاد فى رد عادية النورمانديين الذين كانوا نزلوا فى البرتغال

وسنة ٨٥٢ لما تولى الأمير محمد الأموى كان موسى بن قصى عاملا له على سرقسطة وتطيلة ووشقة ، وكان أشبه بأمير مستقل ، وطالما تبادل الهدايا مع ملوك النصارى ، مثل شارل الأصلع ، ملك فرنسة ، إلا أنه في سنة ٨٦٠ تغلب أوردونة الأول ملك ليون على موسى ، ولم يلبث أن قتل بعد ذلك بسنتين ، و بعد موته انتقض بنو قصى على خلائف قرطبة . فعول الأمير محمد الأموى على التجيبيين لادخال بنى قصى فى الطاعة ، وولى عبد الرحمن التجيبى على الثغر الأعلى .

والتجيبيون عائلة عربية استقرت فى سرقسطة من أول الفتح (وكانت أهالى سرقسطة ونواحيها عرباً صراحا كما هو معلوم فى التاريخ) . وفى سنة ٨٨٨ بلغ الأمير عبد الله الأموي خبر مكيدة تدبّر عليه فى سرقسطة ، فولى محمد بن عبد الرحمن التجيبي الملقب بالأنقر ، وأمره بالفتك بعامل سرقسطة ، فأنفذ الأمر ، ولكنه استبد بالامارة ، وقتل محمد بن لب زعيم بنى قصى ، وتوارث الامارة عقبه إلى زمن

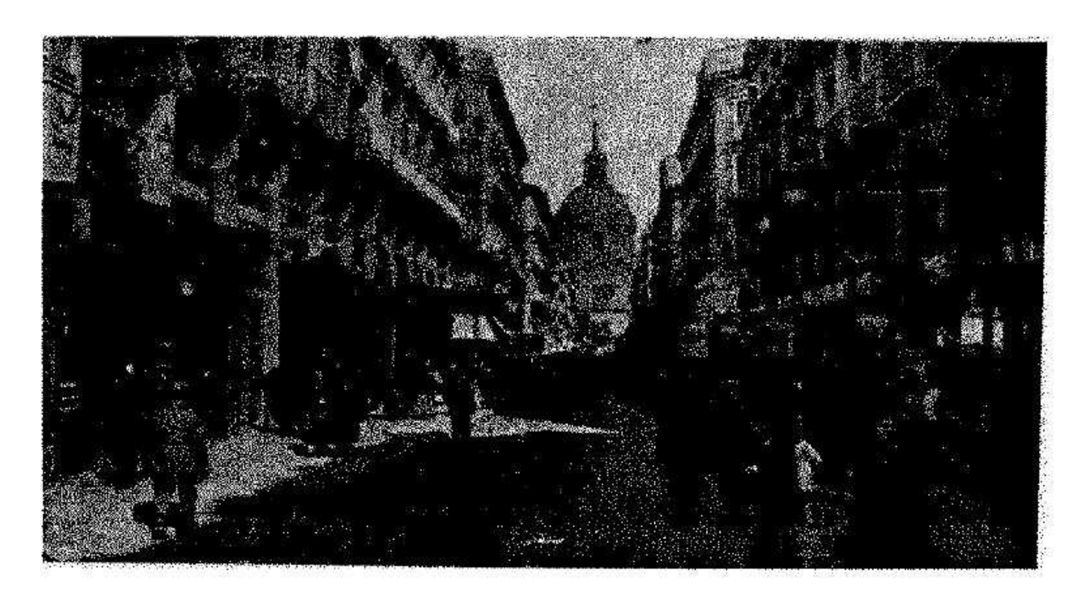
---

(١) قال دوزى : إن عائلة بنى قصى هذه أصلها من القوط وقد دانت بالاسلام فى القرن التاسع وصارت لها سيادة عظيمة فى الثغر الأعلى وكان موسى الثانى من بنى قصى لعهد الأمير محمد الأموى مستولياً على سرقسطة وتطيلة ووشقة وعاهدته طليطلة ، وكان شجاعاً مقداماً تارة يناجز كونت برشلونة وطوراً كونت قشتالة وملك فرنسة . وكان هذا يصانعه ويرسل اليه بالهدايا وكان موسى لقب نفسه بملك أسبانية الثالث ، ومازال كذلك إلى أن مات ، فاسترجع الأمير الأموى سرقسطة وتطيلة ، لكن ظفره لم يطل لأن أولاد موسى بن قصى حالفوا أذفنش الثالث ملك لون وقاتلوا عساكر السلطان وهزموها .

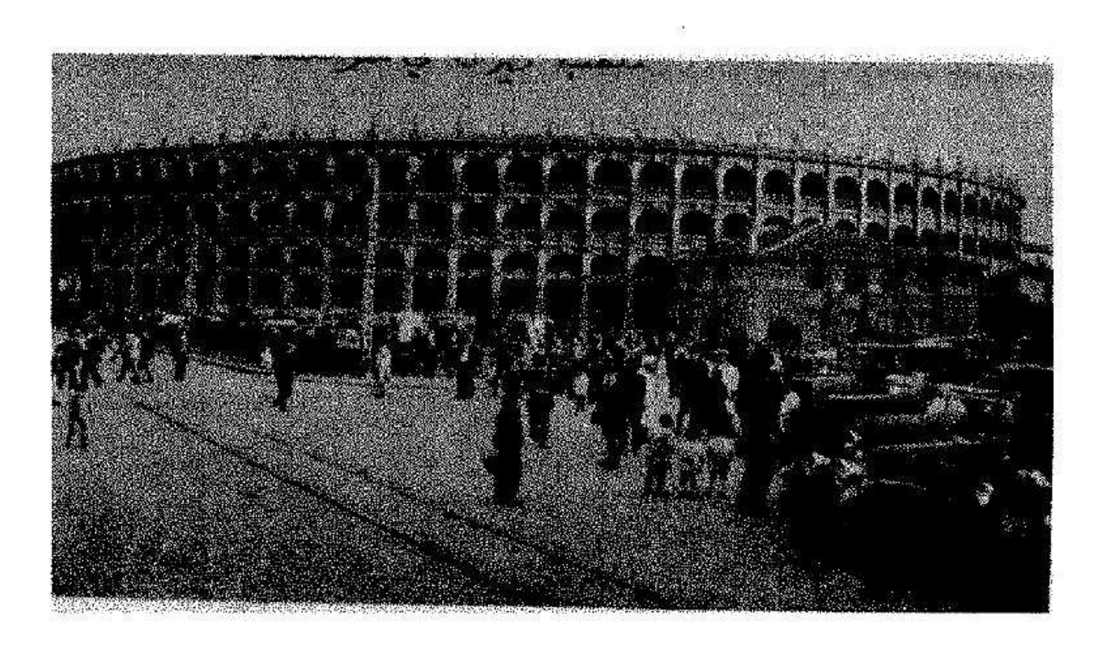
عبد الرحمن الناصر ، الذى أحسن إلى التجيبيين ، ولكن أحدهم محمد بن هاشم خلع الطاعة سنة ٩٣٤ ، وانضم إلى ر وميروه الثانى ملك ليون ، و إلى ملك نبارة ، وأثار جميع أهالى الثغر الأعلى على الخليفة ، فزحف الخليفة بنفسه ، وأخذ قلعة أيوب عنوة ، وحاصر سرقسطة وضيق عليها ، إلى أن لاذ محمد بن هاشم بطالب العفو ، فعفا الناصر عنه ، وأقره على إمارته ، وخلفه ابنه يحيى التجيبى ، الذى صار من قواد الناصر ، وابنه الحكم المستنصر . وتولى سرقسطة سنة ٩٧٥ .

وفى أيام حجابة المنصور بن أبى عامر أراد عامل سرقسطة عبد الرحمن بن مطرف ابن محمد بن هاشم التجيبى أن يشق عصا الطاعة .فتغلب عليه المنصور وقتله سنة ٩٨٩. ولما سقطت الخلافة في قرطبة كان الوالى على سرقسطة أحد أحفاد يحيى المذكور ، وخلفه ولده المنذر ، الذى اتفق مع الصقالبة على البربر ، وأعلن نفسه ملكا على سرقسطة ، وتعاهد مع ملوك قشتالة و برشلونة ، وفى أيامه استتبت الراحة في سرقسطة وازداد عمران البلدة ، و بلغت أوج مجدها .

وكان للمنذر التجيبى هذا أبهة ملك ، ونعمة عيش ، تغنت بهما الشعراء . ومن جملتهم ابن درّاج القسطلى . واستمر حكم المنذر إلى سنة ١٠٢٣ مسيحية ، فخلفه ابنه المظفر ، ولم تطل مدته ، فخلفه ابنه المنذر الثانى ، معزّ الدولة ، فاستمرت إمارته عشر سنوات . ثم خرج عن طاعة الخليفة هشام الثانى ، فقتله ابن عمه عبدالله بن الحكم ، وكاد يستولى على الامارة ، فثار به الأهالى ، واشتعلت الفتنة بينهم ، حتى جاء عامل لاردة ، أبو أيوب سلمان بن محمد بن هود ، فدخل البلدة ، ومهد الأمور ، واستأثر بالإمارة لنفسه ، ثم اتخذ لقب المستعين ، وهو مبدأ دولة بنى هود ، التى كان مركزها سرقسطة ، وكان يتبعها لاردة وطليطلة ، وقلعة أيوب . وكانت وفاة المستعين هذا سنة ٤٣٨ ، وفق ١٠٤٦ ، وخلفه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤ ، ثم يوسف المؤتمن إلى سنة ٤٧٨ ، ثم أحمد المستعين الثانى . وقتل فى معركة بينه و بين النصارى اسمها معركة فلتيرة Valtierra ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، وفى أيامه انتزع



سرقسطة



ملعب الثيران فى سرقسطة

النصارى سرقسطة من أيدى المسلمين فى ٤ رمضان سنة ٥١٢

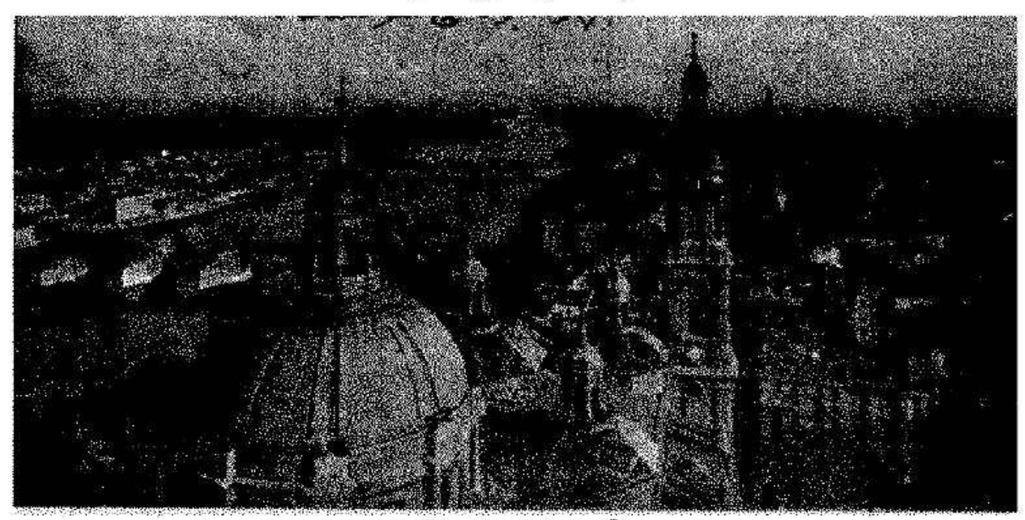
قال لاوى بروفنسال : إنه لا يوجد عندنا معلومات كافية عن أيام دولة بنى هود ، وإن أرقام التواريخ المتعلقة بهم يناقض بعضها بعضا . وقد ثبت أنه قبل استيلاء النصارى على سرقسطة بتسع سنوات كان جيش المرابطين قد احتلها ، وأدخلها تحت حكم على بن يوسف بن تاشفين ، وذلك فى أول ذى القعدة سنة ٥٠٣

ولم يبقَ من آثار المسلمين فى سرقسطة شىء كثير ، لأنها بمرور الأعصر تهدمت مراراً ، و بنيت مرارا ، بكثرة ماوقع عليها من المحاصرات الشديدة ، أما كنيسة السيو المبنية مكان الجامع الأعظم ففى الشمال الشرقى منها حائط مزيّن بالزليج ، يظهر أنه من أيام العرب [1] . وروى بعض المؤرخين والجغرافيين أن بانى المسجد الأعظم الذى فى محله بنيت كنيسة السيو هو التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى [2] ، المتوفى

---

(١) الأرجح أن بانى الرواق العربى المذكور فى كنيسة السيو هو من العرب المدجنين الذين كان منهم عدد غير قليل فى سرقسطة إلى ماقبل هذا التاريخ بثلاثمائة سنة . وقرأنا فى دليل بديكر أن اسم هذا البناء المذكور هو الرامى ، كما تقدم عند ذكر تلك الكنيسة

(٢) جاء فى نفح الطيب : ومن التابعين الداخلين إلى الاندلس حنش الصنعانى ، وفى كتاب ابن بشكوال قال ابن وضاح : حنش لقب له واسمه حسين بن عبد الله ، وكنيته أبو على ، قال ابن بشكوال : وهو من صنعاء الشام . وذكر أبو سعيد بن يونس فى تاريخ أهل مصر وافريقية والاندلس فقال : إنه كان مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وغزا المغرب مع رفيقه رويفع بن ثابت ، وغزا الاندلس مع موسى بن نصير وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتى به إلى عبد الملك فى وثاق . فعفا عنه . وكان أول من ولى عشور افريقية فى الاسلام ، وتوفى بافريقية سنة مائة (سيأتيك خلاف هذه الرواية) قال ابن حبيب : دخل الاندلس من التابعين حنش بن عبد الملك الصنعانى ، وهو الذى أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة ، وأذن فى غير وقت الأذان فقال له أصحابه فى ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غير واحد . قال المقرى : وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فلعل الرواية موضوعة ، أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .



نهر أبرة فى سرقسطة



كنيسة السيو فى سرقسطة

سنة مائة للهجرة . والآن لايوجد بناء عربى جدير بالذكر فى سرقسطة سوى الجعفرية نسبة إلى جعفر أو ابن جعفر ، ولا نعلم من هو . (قلت : يظهر لى أنها من بناء المقتدر أو المستعين الثانى ابن المؤتمن بن هود وكان يقال لكل منهما أبو جعفر . والله أعلم) . فهذا البناء حصلت فيه تغييرات كثيرة ، وتهدم جانب منه سنة ١٨٠٩ ، ولم يبق منه سوى مسجد صغير : ٢٢ متراً مربعاً ، فوقه قبة بديعة علوها ١٤ متراً قائمة على أعمدة من المرمر ، لها قواعد بديعة ، وله محراب بحفر وتنزيل . ويغلب على الظن أن الجعفرية هى من جملة أبنية بنى هود التى لم نحفظ منها إلا اسم قصر السرور

وممن ينتسبون إلى سرقسطة من العلماء المحدث الكبير أبو على الحسين بن محمد ابن فيرُّه بن حيون الصدفى ، المعروف بابن سكرة ، ولد سنة ٤٥٢ ، وقتل شهيداً فى واقعة كتندة سنة ٥١٤ ، ولأجل تراجم تلاميذه جمع ابن الأبار المعجم الذى نشره قديرة فى المجلد الرابع من المكتبة العربية الأسبانية . اه .

قلنا . وكان لبنى هود فى سرقسطة قصور متعددة لم يبقَ لها أثر ، منها دار السرور ومنها قصر الذهب ، اللذان يقول فيهما ابن هود :

قصر السرور ومجلس الذهب   بكما بلغت نهاية الطرب

وجاء فى صبح الأعشى ذكر سرقسطة قال : قال فى تقويم البلدان . سرقسطة بفتح السين والراء المهملتين ، وضم القاف ، وسكون السين الثانية ، وفتح الطاء المهملة ، وهاء فى الآخر : مدينة من شرقى الأندلس ، موقعها فى أواخر الاقليم الخامس من الأقاليم السبعة ، قال ابن سعيد : حيث الطول إحدى وعشرون درجة وثلاثون

ثم قال : إن ابن عساكر فى تاريخه طول ترجمته ، وقال إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن . وفى تاريخ ابن الفرضى أن حنشاً كان بسرقسطة وأنه الذى اسس جامعها . وبها مات . وقبره معروف عند باب اليهود بغربى المدينة . قلنا : قد روى ابن عساكر عن الحميدى صاحب تاريخ الأندلس أن حنشاً كان مع موسى ابن نصير ، ويقال إنه هو الذى اختط جامع سرقسطة .

دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، قال فى تقويم البلدان : وهى قاعدة الثغر الأعلى ، وهى مدينة أزلية بيضاء فى أرض طيبة ، قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء ، والتف عليها أربعة أنهار ، فأضحت بها مرصعة مجزّعة ، ولها متنزهات . منها قصر السرور ، ومجلس الذهب .

ثم قال فى محل آخر : وأما سرقسطة والثغر فاستولى عليهما بقية بنى هود ، إذ كان منذر بن يحيى بن مطرّف بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبى ، صاحب الثغر الأعلى بالاندلس ، وكانت دار إمارته سرقسطة . ولما وقعت فتنة البربر آخر أيام بنى أمية ، استقل منذر هذا بسرقسطة والثغر ، وتلقب بالمنصور ، ومات سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وولى مكانه ابنه يحيى . وتلقب بالمظفر ، وكان أبو أيوب سليمان ابن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى مولى أبى حذيفة الجذامى من أهل نسبهم مستقلا بمدينة تطيلة ومدينة لاردة ، من أول الفتنة ، وجدهم هود هو الداخل الى الأندلس ، فتغلب سليمان المذكور على المظفر يحيى بن المنذر ، وقتله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وملك سرقسطة والثغر من أيديهم ، وتحول إليها ، وتلقب بالمستعين واستفحل ملكه . ثم ملك بلنسية ودانية ، وولى على لاردة ابنه احمد المقتدر ، ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ، فولى ابنه احمد الملقب بالمقتدر سرقسطة وسائر الثغر الأعلى ، وولى ابنه يوسف الملقب بالمظفر لاردة ، ومات احمد المقتدر سنة اربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه . فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن ، وكان له اليد الطولى فى العلوم الرياضية ، وألّف فيها التآليف الفائقة ، مثل « المناظر » و « الاستكمال » وغيرهما ، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وولى بعده ابنه احمد الملقب بالمستعين ، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن مات شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، فى زحف ملك الفرنج إليها . وولى بعد ابنه عبد الملك ، وتلقب عماد الدولة ، وزحف اليه الطاغية أذفنش ملك الفرنج ، فملك منه سرقسطة ، وأخرجه منها واستولى عليها سنة ثنتى عشرة وخمسمائة ، ومات سنة ثلاث عشرة . وولى ابنه أحمد ، وتلقب سيف الدولة



صورة بنبلونة



صورة بنبلونة (منظر عمومى)

والمستنصر، وبالغ فى النكاية فى الطاغية ملك الفرنج ، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة . وكان من ممالك بنى هود هؤلاء طرطوشة ، وقد كان ملكها مقاتل أحد الموالى العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومات سنة خمس وأربعين . وملكها بعده يَعْلى العامرى ، ولم تطل مدته ، وملكها بعده نبيل أحدهم ، إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين بن هود سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة ، فلم تزل فى يده ويد بنيه بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول فيما غلب عليه من شرق الأندلس . انتهى .

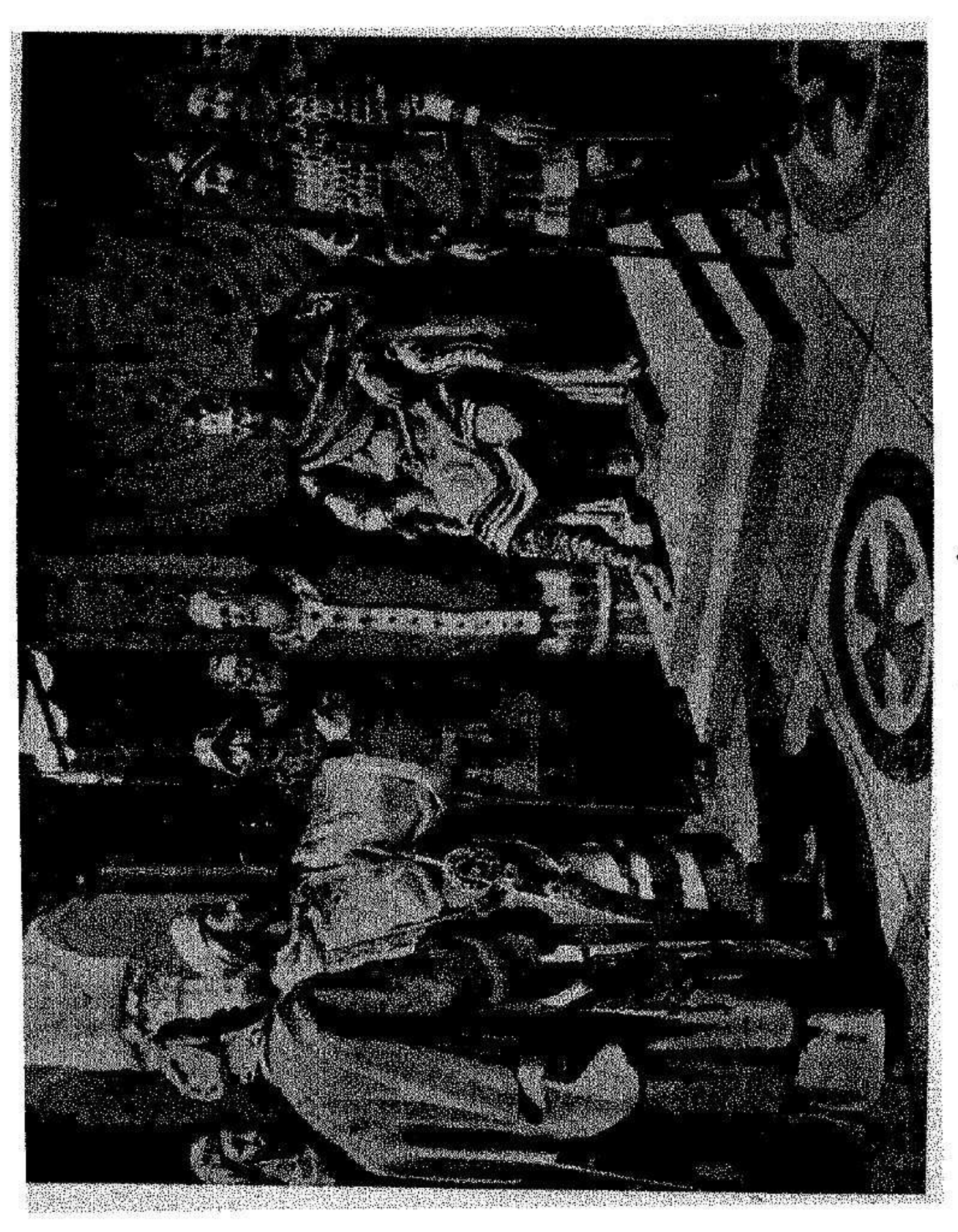
وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » أقدم كتاب فى تاريخ الأندلس ، كُتب فيما يظهر لعهد المستنصر بن الناصر الأموى – كلام عن مدينه سرقسطة وما جرى بها من الحوادث ، لأول الفتح الأموي ، قال : ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد ، فى جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياماً . ثم إن الأعرابى طلب الفرصة من العسكر ، فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب ، وقالوا قد أمسك عن الحرب ، وأغلق أبواب المدينة ؛ لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلة ، فصار عنده أسيراً ؛ وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابى الى قارلة [1]

---

(١) كان فى برشلونة عامل يقال له سليمان الاعرابى حدثته نفسه بالاستقلال ، فانتقض على الأمير عبد الرحمن الداخل، واستولى على سرقسطة ، وعقد محالفة مع شارلمان الذى يقول له العرب قارله . وقد استوفينا هذا الخبر فى كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » فى صفحة ١١٦ و١١٧ وخلاصته أن سليمان الأعرابى أسر ثعلبة المرسل من قبل عبد الرحمن الداخل ، وأرسله إلى شارلمان حليفه . ويقال إن سليمان الاعرابى قصد هو وأمير آخر الى فستفالية وتواجها مع شارلمان ، فازداد طمع شارلمان فى الزحف إلى الاندلس ، وكان يظن أن المسيحيين فى الاندلس سيثورون بأجمعهم وينضمون إليه فزحف سنة ٧٧٨ فلم يصب حسبانه من جهة المسيحيين ، لأن أهل تلك الجبال أبوا أن يخضعوا لأجنبى أياً كان ؛ فاضطر شارلمان أن يقاتلهم وأن يحاصر بنبلونة ، ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . ولما وصل إلى سرقسطة قاومه العرب أشد المقاومة ، مع انه كان يظن أن

فلما صار عنده ، طمع فارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودافعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده . وخرج الأمير غازياً إلى سرقسطة ، فقبل أن يبلغ الأمير سرقسطة عدا حسين بن يحيى الأنصاري على الأعرابي يوم جمعة ، فقتله في المسجد الجامع ، وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الامير ، وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب إلى أربونة . فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة ، وصار على جرف الوادي ، فأقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد ، وقتله ، ثم رجع إلى أصحابه ، فسمى ذلك الموضع إلى اليوم مخاضة عيسون ، ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره ، وحارب سرقسطة معه ، فلما ضاق أهل المدينة من الحصار طلب حسين الصلح ، وأعطى ابنه رهينة ، فقبل ذلك الأمير منه ، ورجع عنه . وكان اسم ابنه ذلك سعيداً ، وكان نجداً ، فلم يُقم في عسكر الأمير إلا يوماً ، حتى أعمل الحيلة فهرب إلى أطيانله بأرض بليارش ، ومضى الأمير فدوّخ بنبلونة ، وقلنيرة ، وكر على البشكنس ، ثم على بلاد الشرطانيس ، فحل بابن بلاسكوط ، فأخذ ولده رهينة ، وصالحه على الجزية . (إلى أن يقول) : إن حسين بن يحيى الأنصاري متولي سرقسطة ، عاد إلى نفاقه ، قال : فخرج اليه الأمير عازياً ، ونصب على سرقسطة المجانيق ، فيقال إنه حفها بستة وثلاثين منجنيقاً ، وضيق على أهلها أشد الضيق . فترامى القوم اليه ، وأسلموا اليه حسيناً ، فلم يقتل من أهل المدينة غيره ، وغير رجل من أهلها يقال له رزق من البرانس . انتهى

سليمان الاعرابي وغيره من الخارجين عن طاعة قرطبة سينضمون اليه . أما رفعه الحصار عن سرقسطة فمؤرخوا العرب يقولون إن شارلمان عجز عن أخذها ، فانصرف عنها بينما مؤرخو الافرنج يقولون أنه بينما كان شارلمان يحاصر سرقسطة جاء الصريخ بان أمة السكسون قد أبت أن تترك ديانتها الوثنية وزحفت للقتال، فاضطر الى الرجوع، وفي أثناء رجوعه عند ما وصل إلى وادي « رونزفو » انقض عليه المسيحيون الجبليون فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس، بينهم رولان الفارس الشهير



ملاقاة سليمان الأعرابي مع شارلمان



صورة نهر أرقا في بنبلونة

وقد اشتهرت سرقسطة من قديم الدهر بشدة المقاومة لمن يحاصرها ، فقبل الفتح العربي كان قد غزاها سنة ٥٣٣ شيلد برت Childeberte ، ملك الافرنج ، وكذلك كلوتار الثاني Clotaire ، وقاومتهما مقاومة خارقة للعادة . ولما جاءها شارلمان بنفسه عجز عنها ، وكثيراً ما زحف إليها بنو أمية بجيوشهم فلم ينالوا منها وطراً . ولما استرجعها أذفنش الأول ملك اراغون من أيدى العرب ، واستمرت الحرب عليها خمس سنوات ؛ وما دخل الاسبانيول سرقسطة إلا بعد حصار شديد ، اتصل تسعة أشهر .

ومن أشد مدافعاتها المشهورة الدفاع الذى دافعت به الفرنسيس سنة ١٨٠٨ و١٨٠٩ ، وذلك فى حرب الاستقلال ، فقد زحف إليها الفرنسيس بجيش جرار ، يقوده أربعة قواد ، كل منهم برتبة مارشال . وكان الذين تولوا كبر المقاومة : شاباً من أهلها اسمه بلافوكس Palafox ، وقسيساً اسمه سنت ياغوساس ، ورجلا كان يقال له العم ، واسمه جورج ايبور Ibort ، وانضم إليهم اثنان من الفلاحين ، أحدهما اسمه ماريانو سيريزو Cerezo ، والآخر مارين . فهؤلاء أثاروا حمية الأهالى ، ووقفت البلدة كلها وقفة



صورة بنبلونة

الرجل الواحد فى وجه الفرنسيس ، و بعد حصار شهرين اضطر المارشال لُفقر Lefepvre أن يرفع الحصار . ثم عاد اليها الفرنسيس بجيش عدده ثلاثون ألفاً ، وكان السرقسطيون قد زادوا تأهبهم للدفاع ، ولكن لم يكن سور بلدتهم يعلوا أكثر من ثلاثة إلى أربعة أمتار ، فترك السرقسطيون الدفاع عن دير يسوع ، على ضفة أبرُه من اليمين ، وتركوا أيضاً الدفاع عن دير « طور يروه » وجمعوا أنفسهم الى داخل المدينة ، و بدأ القتال بشدة لم يسبق لها مثيل ، فوضع الفرنسيس خمسين مدفعاً تقذف بالنار الدائمة ، الى أن خرقوا السور من ثلاث جهات . وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٠٩ دخل المارشال « لان » الى البلدة من جهة دير سنتا انغراسيه . ولكن الأهالى استمروا يقاومون عن بيت بيت ، و يقاتلون فى شارع شارع ، فقتل وجرح من الفريقين أربعة وخمسون ألف نسمة في مدة ستين يوماً . ولم تعول البلدة على الاستسلام إلا بعد أن فتكت بأهلها المجاعة والأمراض . وقد لُقبت سرقسطة من أجل ذلك الدفاع بالخالدة Inmortal .

وكذلك كان لها موقف شديد فى الحرب الكارلوسية ضد الكارلوسيين

أما تاريخها القديم قبل العرب فالمعلوم منه أن السويفيين Sueves استولوا عليها سنة ٤٥٢ ، وأن القوط دخلوها سنة ٤٧٦ ، وأنها كانت فى زمن الأيبيريين يقال لها « سالدوبه » Salduba ، وأن أغسطس قيصر رومة اعتنى بها ، ومن اسمه اشتق اسمها [1]

---

(١) قد ذكر جغرافيو العرب من أعمال سرقسطة شلوقة ، قال ياقوت : حصن بقرب سرقسطة ، ينسب إليه على بن إسماعيل بن سعيد بن أحمد بن لب بن حزم الخزرجى ، قرأ على ابن عطية الغرناطى الحديث ، وعلى ابن طراوة المالقى النحو ، وأبوه أيضا مقرىء نحوى ، لقيهما وكتب عنهما . ا ﻫ وذكروا قتندة ، أو كتندة ، وهى التى وقعت فيها الواقعة الشهيرة بين المسلمين والأسبانيول ، ومحص فيها المسلمون ، واستشهد فيها إمام المحدثين القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى السرقسطى ، فى ربيع الأول سنة ٥١٤ عن ستين سنة . وكان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ألزمه أن يقلده القضاء بمرسية فى شرقى الأندلس ، فتقلده على كره منه سنة ٥٠٥ ، ثم استعفى فلم يعفه ، فاختفى مدة حتى أعفاه ، ولكنه غضب عليه مدة ، ثم رضى عنه وحضه على نشر العلم ، وكانت لهذا الرجل فضائل كثيرة ، ورحلة إلى الشرق ، لقى فيها جلة من العلماء . وقد ألف الحافظ بن الأبار القضاعى البلنسى كتاباً اسمه العجم فى أصحاب الامام أبى على الصدفى ، ذكر فيه أسماء من أخذوا عنه ، وهو مما طبعه قديرة فى مجريط

وذكروا « القناطر » بقرب « روطه » من عمل سرقسطة ، ينسب إليها أحمد بن سعيد بن على الأنصارى القناطرى ، يكنى أبا عمر ، سمع بقرطبة ، ورحل الى المشرق ، وتوفى باشبيلية سنة ٤٢٨

وذكروا « أشبرة » من قرى سرقسطة ، ينسب اليها أناس من أهل العلم ، منهم خلف بن موسى بن فتوح الأشبرى

وذكروا « إشكرب » بكسر أوله ، وراء ساكنة ، وباء موحدة ، ينسب اليها أبو العباس يوسف بن محمد بن فاره الإشكربى ، نشأ بجيان ، وسافر الى الشرق ، ومات ببلخ سنة ٥٤٨

وذكروا « بيطرة » وقال ياقوت : إنها من حصون سرقسطة

وذكروا « منيونش » وقالوا إنها من نواحى بربشتر من عمل سرقسطة

وقد تعذر علينا المطابقة بين أسماء هذه الأماكن بالعربى ، وأسمائها بالاسبانيولى ، ولم نشأ التخمين

من انتسب الى سرقسطة من أهل العلم

قال ياقوت الحموى فى المعجم : و ينسب الى سرقسطة أبو الحسن على بن ابراهيم ابن يوسف السرقسطى ، قال السلفى : كان من أهل المعرفة والخط . وكان بينى و بينه مكاتبة . وأنبل من نسب الى سرقسطة ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيى العوفى ، من ولد عوف بن غطفان ، سمع بالأندلس ، ثم رحل الى المشرق هو وابنه قاسم ، فسمعا بمكة ومصر ، وتوفى ثابت بسرقسطة عن ٩٥ سنة ، وكان مولده سنة ٢١٧ . وابنه قاسم بن ثابت كان أعلم من أبيه ، وأنبل وأروع ، و يكنى أبا محمد ، رحل مع أبيه فسمع معه ، وعنى بجمع الحديث واللغة ، فأدخل الى الأندلس علماً كثيراً . و يقال إنه أول من أدخل كتاب العين للخليل إلى الأندلس . وألف قاسم بن ثابت كتاباً فى شرح الحديث سماه كتاب الدلائل ، بلغ فيه الغاية من الاتقان ، ومات قبل كماله ، فأكمله أبوه ثابت بعده . قال ابن الفرضى : سمعت العباس بن عمرو الوراق يقول : سمعت أبا على القالى يقول : كتبت كتاب الدلائل ، وما أعلم وضع فى الأندلس مثله . ولو قال إنه ما وضع فى المشرق مثله ما أبعد . وكان قاسم عالماً بالحديث والفقه ، متقدماً فى معرفة الغريب والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعاً ناسكا ، أريد على أن يلى القضاء بسرقسطة فامتنع من ذلك ، وأراد أبوه إكراهه عليه ، فسأله أن يتركه يتروى فى أمره ثلاثة أيام ، و يستخير الله فيه ، فمات فى هذه الثلاثة الأيام . يقولون إنه دعا لنفسه بالموت ، وكان يقال إنه مجاب الدعوة . وهذا عند أهله مستفيض . قال الفرضى : قرأت بخط الحكم المستنصر بالله : توفى قاسم بن ثابت سنة ٣٠٢ بسرقسطة ، وابنه ثابت بن قاسم بن ثابت من أهل سرقسطة ، سمع أباه وجده ، وكان مليح الخط ، حدّث بكتاب الدلائل ، وكان مولعاً بالشراب . وتوفى سنة ٣٥٢ . قال : وجدته بخط المستنصر بالله أمير المؤمنين ، انتهى . قلنا : لا يخفى

وأما نهر شلون Jalon فهو جار فى عمل سرقسطة ، وله ناحية اسمها شلون ينسب إليها إبراهيم بن خلف بن معاوية من أصحاب أبى عمرو المقرىء

أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كان معدوداً من العلماء والحكماء ، وقد ترك آثاراً من قلمه

قلنا : وممن ينسب الى سرقسطة من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن يحى بن عبد الرحمن بن فرتش ، ابن عم القاضى محمد بن اسماعيل ، روى عن أبي عمر الطلمنكى ، والقاضى أبى الحزم بن أبى درهم ، وابن محارب ، وغيرهم . واستقضى ببلده ، وكان فاضلا ديّناً عالماً ، أخذ الناس عنه . ولد سنة ٣٩٠ ، وتوفى سنة ٤٨٠ . ترجمه ابن بشكوال . وأبو عبد الله محمد بن يحى بن سعيد العبدرى ، يعرف بابن سماعة ، من أهل سرقسطة وخطيبها ، حدّث عن أبي عمر الطلمنكى وغيره ، وحدّث عنه أبو على بن سكّرة ، وقال : هو مشهور بالصلاح التام . وأجاز له . وقال : توفى فى سنة ٤٧٢ ، ودفن هو وأبو الحسين بن القاضى أبى وليد الباجى ، وصلى عليهما فى وقت واحد ، وموضع واحد . وأبو عبد الله محمد بن يحيي بن هاشم الهاشمى ، سمع من القاضى محمد بن فرتش ، وأبى القاسم مفرّج بن محمد الصدفى ، وسمع بمصر من أبى العباس بن نفيس مسند الجوهرى ، وسئل عنه أبو على بن سكرة فقال : رجل صالح ، كان يحفظ الموطأ والبخارى ، ورأيته يقرأ من حفظه كتاب البخارى على الناس فى ما بين العشائين بالسند والمتابعة ، لا يخل بشيء من ذلك . وأبو عبد الله محمد بن حارث بن أحمد بن منيوه النحوى ، كان من جلّة أهل الأدب ، روى عن أبى عمر أحمد بن صارم الباجى ، وحدث عنه أبو الحسن على بن أحمد المقرى ، لقيه بغرناطة سنة ٤٧٣ وأخذ عنه . وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المقرى ، روى عن أبى عبد الله بن شريح ، وأبى عبد الله بن مهلب قال ابن بشكول : أخذ عنه القراءات شيخنا القاضى الامام أبو بكر بن العربى ، وذكر أنه كان شيخاً صالحاً ، وكان يقرىء الناس بحاضرة إشبيلية ، وتوفى بعد سنة ٥٠٠ .

وأبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن عقبى الكلبى ، كان فقيهاً عالماً زاهداً ورعاً ، لم يمسح على الخفين قط ، وكان مع ذلك يفتى بالمسح . وأراد المقتدر بن هود

أن يوليه الأحكام فأبى عليه ، وحلف ألاّ يقبلها ، فأعفاه منها ، وتوفى سنة ٤٦٨ في المحرم . وأبو المطرف عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن فرتش ، كان فقيهاً أديباً ديّناً عاقلا من أخط الناس ، وكان فصيح اللسان ، عارفاً بعقد الشروط ، وكتب لابن عمه القاضى محمد بن إسماعيل بن فرتش ، وتوفى سنة ٤٦٨ . ترجمه ابن بشكوال ، وترجم الذى قبله . وكذلك فى صلة ابن بشكوال ترجمة أبى زيد عبد الرحمن بن شاطر ، من أدباء سرقسطة . قال : كان ذا فضل وأدب وافر وشعر ، ثم انزوى ولزم الانقباض . ومن شعره :

ولائمة لى إذ رأتنى مُشَمِّرا ... أهرول فى سبل الصبا خالع العذر

تقول : تنبه ويلك من رقدة الصبا ... فقد دب صبح الشيب فى غسق الشعر

فقلت لها : كفى عن العتب واعلمى ... بأن ألذّ النوم إغفاءة الفجر

ومن تراجم ابن بشكوال سيرة أبى زيد عبد الرحمن بن منتيل الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، كان صهر القاضى أبى على بن سكرة ، وقد أخذ عنه أبو على تبركا به ، روى عن القاضى محمد بن فرتش ، وكان صالحاً ورعاً منقبضاً ، مقبلا على مايعنيه ويقرّبه من ربه عز وجل . وكان ممن يتبرك بلقائه ، وكان أيضاً أديباً شاعراً ، ومن شعره :

سأقطع عن نفسى علائق جمة ... وأشغل بالتلقين نفسي وباليا

وأجعله أنسى وشغلى وهمّتى ... وموضع سرى والحبيب المناجيا

وكتب الى القاضى أبى على بن سكرة :

كتبت لأيام تجد وتلعب ... ويصدقنى دهرى ونفسى تكذب

وفى كل يوم يفقد المرء بعضه ... ولا بد أن الكل منه سيذهب

وأبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز بن أبى الخير بن على الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، روى بسرقسطة عن القاضى أبى الوليد الباجى ، واختص به ؛ وعن القاضى أبى محمد بن فرتش ، وعن أبى العباس العذرى ، ومحمد بن سعدون

القروى ، وأبى داود المقرى ، وكان عارفاً بالأصول والفروع ، معنياً بالقراءات وتجويدها ، حافظاً للقرآن العظيم ، حسن الصوت به ، جميل العشرة ، كامل المروءة ، باراً بإخوانه ، قال ابن بشكوال : أخذ عنه أبو على الغسانى الحافظ ، ورأيت قراءاته مقيدة عليه فى أحد كتبه ، وحدث عنه أيضاً القاضى أبوعبد الله بن الحاج فى برنامجه ، وغيره من كبار شيوخنا ؛ وقرأت عليه كثيراً من روايته ، وأجاز لى مارواه بخطه غير مرة ، وصحبته إلى أن توفى رحمه الله ضحوة يوم السبت ، ودفن يوم الأحد الثانى عشر من رجب سنة ٥١٨ ، ودفن بمقبرة الربض ، وصلى عليه أخوه أبو جعفر

وأبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمى من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، قال ابن بشكول عنه : صاحبنا سمع من أبى على الصدفى كثيراً ، ومن أبي محمد بن ثابت ، وأبى عمران بن أبي تليد ، وأبى محمد بن السيد ، وبقرطبة وأشبيلة من غير واحد من شيوخنا . وكان مقدماً فى اللغة والعربية ، شاعراً محسناً ، وله مقامات من تأليفه ، أخذت عنه واستحسنت ، قال : وتوفى رحمه الله بقرطبة فى جمادى الأولى من سنة ٥٣٨ . وأبو القاسم مسعود بن على بن آدم ، حدث عنه أبو عمرو المقرى ، وأبو القاسم مفرّج بن محمد الصدفي ، روى بالمشرق عن أبى القاسم الجوهرى مسنده فى الموطأ ، وعن أبى حسن الحلبى ، قال ابن بشكوال : سمع الناس منه ببلده سرقسطة ، وكان شيخاً صالحاً ، وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٤٤٠ ، ودفن بباب القبلة ، وأبو عبد الله مزاحم بن عيسى ، روى عن أبى إسحق بن شعبان ، وأبى القاسم حمزة بن محمد وغيرهما ، توفى سنة ٣٩٤ . وأبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد بن أبى زياد العمري رحل وسمع من الحسن بن رشيق وطبقته ، وألف كتاباً اسمه « الوجازة ، فى صحة القول بالإجازة» وذكر أنه لقى فى رحلته نيفاً على ألف شيخ ، بين محدث وفقيه ، وسمع منهم ، وقد سمع من أبى عباس الوليد السرقسطى المذكور : أبو ذر الهروى ، وأبو عمر المليحى وأبو القاسم بن الحسن التنوخى ، وغيرهم ، قال ابن بشكوال : ذكره الخطيب وقال : كان ثقة أميناً كثير السماع والكتاب فى بلده وفى الغربة ، وهو عالم فاضل . وقال

الخطيب : حدثني القاضي أبو العلاء محمد بن علي الواسطي قال : توفي الوليد بن بكر الأندلسي بالدينور سنة ٣٩٢ . وأبو محمد وضاح بن محمد بن عبد الله بن مطرّف بن عباد الرعيني ، سمع من أبي عمر الطلمنكي ، وأبي عبد الله بن الحذاء ، وأبي بكر بن زهر وغيرهم ، ورحل الى المشرق سنة ٤١٨ ، فلقي بالقيروان أباعمران الفاسي ، وأخذ عنه ، ولقي بمصر أبا القاسم عبد الجبار بن أحمد بن عمر الطرسوسي ، قال ابن بشكوال: ومولده سنة ٣٨١ ، قرأته بخط أبي الوليد صاحبنا . وأبو محمد يحيى ابن إبراهيم بن محارب، روى عن القاضي أبي محمد الثغري ، وعبدوس بن محمد ، ورحل الى المشرق وحج ، وروى عن أبي القاسم السقطي ، وأبي موسى بن حنيف وغيرهما ، وكان فاضلا زاهداً ، روى عنه الصاحبان ، وقاسم بن هلال ، وعمر بن كريب ، وموسى بن خلف بن أبي درهم، ووضاح بن محمد السرقسطي ، وقال : كان من أهل الدين والورع ، ما رأيت أورع منه في وقته . وتوفي سنة ٤١٤ . ترجمه ابن بشكوال .

وأبو الحسن يحيى بن فرج بن يوسف الأنصاري ، له رحلة الى المشرق سنة ٤٢٥ سمع فيها من محمد بن الفضل بن نظيف وغيره ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وتصدر للإقراء ببلدة سرقسطة ، وكان يعرف فيها بابن المصري . وأبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير ، له سماع من أبي مروان بن سراج ، وأبي علي الجياني وغيرهما، وكان من أهل النحو ، متقدما في علم التوحيد . قال ابن بشكوال : وهو آخر أئمة المغرب ، أخذ عن أبي بكر المرادي ، وكان مختصاً به ، وله تصانيف حسان ، وأراجيز مشهورة ؛ وانتقل أخيراً الى العدوة ، وسكن حضرة السلطان ، فتوفي بها سنة عشرين وخمسمائة . وأبو سعيد خلف بن عثمان بن مفرج ، كانت له رحلة إلى المشرق ، وحج فيها ، وكان خيّراً فاضلا ، مشاوراً في الأحكام ببلده سرقسطة . وتوفي في ربيع الأول سنة ٤٢٤ . ذكره ابن بشكوال . وأبو علي الحسن بن محمد بن هالس الأزدي المقرىء ، سمع من القاضي أبي عبد الله بن فرتش تاريخ ابن خيثمة ، وروى عن أبي عمرو المقرىء ، وأجاز له في صفر سنة ٤٠٤ ، وكان من جلة أصحابه . وهو أحد الشهود على أبي عمر الطلمنكي بخلاف السنة . قال ابن الأبار : غفر الله له . وحسين بن إسماعيل

ابن حسين الغفارى ، من أهل سرقسطة ، وأحد شهودها المعدلين و نبهائها . قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت اسمه بخط أبى الحكم بن غشليان فى نسخة العقد المرتسم ببراءة أبى عمر الطلمنكى ، و إسقاط شهادة الذين نسبوه إلى مخالفة السنة . وذلك عن رأى القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فى سنة خمس وعشرين وأربعمائة . وأبو الحزم خلف بن محمد بن خلف بن أحمد بن هاشم العبدرى ، صاحب الأحكام بسرقسطة ، جده لأبيه ، وهو المعروف بالقروذى ، كان قاضى الجماعة بسرقسطة ، وجده لأمه أبو الحزم خلف بن أبى درهم ، كان قاضى وشقة . روى عن خاله أبى هارون موسى ابن خلف وغيره ، وأجاز له جده ابن أبى درهم ، وقدم للنظر فى جامع بلده سنة ٤٤١ ، ثم تولى الأحكام سنة سبع وستين . وكان فقيها زاهداً ، محبباً إلى الخاصة والعامة . وكان المستعين أبو جعفر بن المؤتمن بن هود يعرف له حقه ويكرمه ، وكان يعوده فى مرضه ، ولد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٤١٢ ، وتوفى ليلة الأحد الموفى ثلاثين لذى الحجة سنة ٤٩٣ ، ودفن بمقبرة باب القبلة ظهر يوم الأحد ، وشهد المستعين جنازته ، ومشى أمامها راجلاً من داره إلى قبره ، وتسامع الناس بموته فابتدروا حضورها ، ولم يعهد بسرقسطة مثلها . وكان قد أوحى المستعين بالصلاة عليه ، فقدم لذلك أبا عبد الله بن الصراف ، صاحب الصلاة ؛ وكفل ابنته ، ولم يكن له عقب غيرها ، فضمها إلى قصره . أكثره من خط أبى محمد بن نوح . وسماه عياض القاضى فى الذين لقيهم أبو على بن سكرة الصدفى بسرقسطة . وذكر ابن الدباغ أنه يحدث عنه ؛ وقال : كان أحد الجلة الفضلاء ، وذكره ابن بشكوال مختصراً اه قاله ابن الأبار فى التكملة .

ومن هنا يُعلم أن المستعين الثانى بن المؤتمن بن هود كان يكنى بأبى جعفر ، فهو الذى يترجح أن يكون قصر الجعفرية منسوباً إليه .

وأبو القاسم خلف بن خلف بن محمد بن سعيد بن اسماعيل بن يوسف الأنصارى يعرف بابن الأنقر ، روى ببلده سرقسطة عن أبى عبد الله بن الفرّاء الجيانى ، وعن عبد الله بن سماعة ، صاحب الأحكام ، وعن أبى عبد الله بن هاشم ، وأبى عبد الله

محمد بن يحيى بن فرتش ، وتفقه به ، وصحبه ثمانية عشر عاماً ، يسمع عليه المدونة ، ويقرؤها ، وأخذ العربية والآداب عن أبى عبد الله بن ميمون الحسينى ، وذكر أبو عمرو زياد بن الصفار أن له رواية عن أبى عمر بن عبد البر ، وكان من أهل الفقه والحديث والأدب ، مقدماً فى الحفظ ، صدراً فى المفتين، يقرض من الشعر يسيراً . قال ابن الأبار فى ترجمته : خرج من سرقسطة بعد أن استولى الروم عليها ، واستوطن بلنسية أول سنة ٥١٧ ، ودرس بها ، وأسمع وأفتى ، وشاوره قاضيها أبو الحسن بن واجب ، وكان بسرقسطة يشاوره قاضيها أبو القاسم بن ثابت ، ولم تخرج بلاد الثغر الشرقى أفضل منه ومن أبى زيد بن منتيال الخطيب ، وكانا متعاصرين يشار اليهما بالعلم والصلاح . قال أبو بكر بن رزق : درس الفقه ، وبرع فيه ، واستفتى ببلده ، ولزم الانقباض والزهد فى الدنيا ، وكان موصوفاً بالصلابة فى الحق ، والقوة فى الدين ، مع حسن الخلق ولين الجانب ، اختلفتُ إليه وأخذت عنه ، وكتب لى بخط يده ، وروى عنه أبو مروان ابن الصيقل ، وأبو بكر بن نمارة ، وأبو محمد أيوب بن نوح وغيرهم . ومن قول ابن الأنقر السرقسطى المذكور :

احفظ لسانك والجوارحَ كلّها فلكلّ جارحةٍ عليك لسانُ
واخزن لسانك ما استطعت فانه ليثٌ هَصور والكلامُ سِنانُ

توفى عن سن عالية ، تنيف على الثمانين ، ليلة الجمعة منسلخ شوال سنة ٥١٩ . قرأت بعض ذلك بخط ابن نمارة . وعن ابن رزق أنه توفى أول سنة عشرين ، ودفن بمقبرة باب بيطالة ، لِصْق قبر بلديِّه وصاحبه أبى زيد بن منتيال . انتهى ، عن ابن الأبار . وأبو الحسن ذيال بن عبد الرحمن بن عمر الشريونى ، من شريون بالثغر الشرقى [1] له سماع بسرقسطة من أبى الوليد الباجى ، مع أبى داود المقرى ، وأبى محمد الركلى سنة ٤٦٣ . عن ابن الأبار .

---

(١) قال ياقوت فى المعجم : حصن من حصون بلنسية بالأندلس نسب إليها السلفى أبا مروان عبد الملك بن عبد الله الشريونى ، وكان قد كتب الحديث بالمغرب والحجاز

وطاهر بن محمد بن طاهر بن عبد الرحمن القرشي الزهري ، من ولد أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوض ، يعرف بابن الناهض ، سكن سرقسطة ، وروى عن أبي ذر الهروي ، وأبي عمر الطلمنكي ، وكان حسن الخط ، ذكره ابن حبيش . اه عن ابن الأبار . وأبو بكر الكميت بن الحسن . قال ابن الأبار في التكملة : سكن سرقسطة ، وكان من شعراء عماد الدولة أبي جعفر بن المستعين بالله أبي أيوب بن هود . قال الحميدي : لقيته وقرأت عليه كثيراً من شعره . اه ، قلت : قد كني هنا بأبي جعفر عماد الدولة ابن المستعين بالله بن هود ، وعماد الدولة هو عبد الملك بن المستعين الثاني . والحال أنه تقدم لابن الأبار في ترجمة أبي الحزم خلف العبدري أن المستعين بالله هو الذي كان يكنى بأبي جعفر ، فلا نعلم هل الأب المستعين هو الذي كان يكنى بأبي جعفر أم هو الابن عبد الملك عماد الدولة ؟ ولاشك بوقوع خطأ في النسخ . ومحمد بن نصر الجهني ، كان أبوه نصر من أهل قرطبة ، انتقل منها الى سرقسطة عند هيج أهل الربض ، وهو أخو إبراهيم بن نصر ، قال ابن الفرضي : شاركه في رحلته ، يعني التي سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى ، ومحمد بن اسماعيل الترمذي ، والحارث بن مسكين ، والمزني ، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي وغيره . ومحمد بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن سليمان بن صالح بن تمام العذري ، يعرف بابن فرتش ، وهو جد القاضي محمد بن إسماعيل بن محمد ، رحل حاجاً ، ولقي محمد بن اللباد وغيره ، وولي قضاء سرقسطة بلده ، وقضاء تطيلة للخليفة الناصر وابنه المستنصر . ترجمه ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبي ، من أهل سرقسطة ، وإمام الجامع بها ، يروي عن أخيه عبد الله بن بسام ، حدث عنه الصاحبان

وتفقه على أبي يوسف الرياني على مذهب مالك . ويوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عديس الأنصاري الشريوني يكنى أبا الحجاج ، أخذ عن أبي عمر بن عبد البر وغيره وسكن طليطلة ، ومات في شوال سنة ٥٠٥ اه . ويظهر أن شريون كانت تعد من الثغر الشرقي أحيانا وتضاف إلى بلنسية أحياناً

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد بن قاسم يعرف بابن الانصارى ، روى عن أبيه ، وولى أحكام القضاء ببلده سرقسطة ، حدّث عنه ابن عبدالسلام. انتهى عن ابن الأبار . ومحمد بن اسماعيل بن محمد ، قاضى سرقسطة ، وهو ابن فرتش ، رحل مع أبيه اسماعيل ، فسمع بالقيروان من أبى عمران الفاسى سنة ٤١٠

ومحمد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمادح التجيبى ، من أهل سرقسطة ، كان والياً على وشقة ، ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبى ، كان مع رياسته من أهل العلم والأدب ، له اختصار فى غريب القرآن ، استخرجه من تفسير الطبرى ، رواه عنه ابنه أبو الأحوص ، معن بن محمد ، أمير المرية . قال ابن الأبار : ذكر ذلك ابن عبيد الله ، ووقفت على وصيته لمن هذا ، منقولة من خط أبى بكر بن زهر ، وحكى ابن حيان أنه هلك عطباً فى البحر الرومى وكان قد ركبه من دانية يبغى الحج فى مركب تأنق فى صحبته ، واستجاد آلته وعدته ، وتخير أعدل الأزمنة ، ومعه خلق كثير تشاحّوا فى صحبته ، فعطب جميعهم سوى نفر منهم ، تخلصوا للإخبار عنهم ، ومضى هو لم يغن عنه حزمه ولا قوته ، فكان اليم أقصى أثره . وذلك فى سنة ٤١٩ ، زاد ابن زهر فى جمادى الأولى بين يابسة والاندلس . انتهى .

قلت : وغير بعيد من هناك ، بالقرب من مينورقة ، على مسافة خمسة كيلو مترات من مرسى سيوداديلة Ciudadela غرق فى عشرة فبراير سنة ١٩١٠ باخرة افرنسية اسمها الجنرال شانزى ، وعطب جميع ركابها ، إلا شخصاً واحداً لاغير .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون ، من أهل سرقسطة ، وقاضى الجماعة بها ، وهو الذى انتصر لأبى عمر الطلمنكى من الذين شهدوا عليه بأنه حرورى سفّاك للدماء ، يرى وضع السيوف على صالحى المسلمين ، فأسقط شهاداتهم ، وكانوا خمسة عشر من الفقهاء والنبهاء بسرقسطة ، وأسجل بذلك على نفسه فى سنة ٤٢٥ . انتهى

من تكملة ابن الأبار . ومحمد بن رافع بن غربيب الأموى أحد الشاهدين على الطلمنكى بخلاف السنة ، وذلك لتشدده على أهل عصره وغيرهم ممن حركهم لمطالبته ، فحضروا عند رافع بن نصر ، وهو ابن أخى محمد هذا ، وكتبوا رسماً أوقعوا فيه شهاداتهم بما ذكر ، فأسقطها القاضى ابن فرتون ، وقع تلك الجماعة ممتعضاً للطلمنكي . ذكره ابن الأبار . ومحمد بن يحيى بن محمد التجيبى كان معدوداً فى فقهاء سرقسطة ونبهائها ، وشاوره القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فى قضية الطلمنكى والشاهدين عليه بخلاف السنة ، عفا الله عن جميعهم ، فأفتى بإسقاط شهاداتهم .

وأبو عبد الله محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، وهو المعروف بنوح الغافقى ، كان معدوداً من فقهاء سرقسطة ، توفى يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٤٥٨ ، ودفن لظهر يوم الخميس بعده . وأبو عبد الله محمد بن ميمون القرشى الحسينى من أهل سرقسطة ، ومن ولد الحسين بن على رضى الله عنهما ، روى عن أبى عمر القسطلى وغيره ، وكان من أهل العلم بالعربية والآداب ، مدرساً لها ، وعنه أخذ أبو القاسم بن الأنقر ، وأبو مروان عبد الملك بن هشام وغيرهما ، ولأبى محمد الركلى[1] إجازة منه . قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت بخط ابن الانقر ، وحدثنى أبو عبد الله ابن نوح عن أبيه أيوب ، وأبو الخطاب بن واجب عن ابن رزق جميعاً قال : حدثنى الفقيه الأديب النحوى أبو عبد الله محمد بن ميمون الحسينى ، قراءة منى عليه فى مسجد الجزارين بسرقسطة ، قال : كانت لى فى صبوتى جارية ، وكنت مغرى بها ، وكان أبى رحمه الله يعذلنى فيها ، ويعرّض لى ببيعها ، لأنها تشغلنى عن الطلب ،

(١) نسبة إلى ركلة من عمل سرقسطة . قال ياقوت فى معجمه : ركلة من عمل سرقسطة بالاندلس ينسب اليها عبد الله بن محمد بن درى التجيبى الركلى ابو محمد ، روى عن أبى الوليد الباجى وابى مروان بن حيان وابى زيد عبد الرحمن بن سهل بن محمد وغيرهم وكان من أهل الأدب قديم الطلب ، مات سنة ٥١٣ ، اهـ . قلنا إن الأسبان يتلفظون بها كالعرب بكسر أولها أى Ricla وهى بقرب نهر شلون لا تبعد كثيراً عن موراطه Morata وموقع ركلة بديع وفيها برج مثمن الشكل ومساكن منحوتة فى الصخور

فكان عذله يزيدني إغراء بها ، فرأيت في المنام كأن رجلا يأتيني في زي أهل المشرق كل ثيابه بيض ، وكان يلقى في نفسي أنه الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان ينشدني:

تصبُو إلى مَىٍّ ومَىٌّ لا تَنِي ... تُزهَى بِبلواكَ التي لا تنقضي
ونجارُكَ القومُ الأُلَى ما مِنهمُ ... إلا إمامٌ أو وَصىٌّ أو نَبي
فاثنِ عِنانكَ لِلهدى عن ذا الهوَى ... وخَفِ الالهَ عليكَ ويحكَ وارعوِى

قال : فانتبهت فزعاً مفكراً فيما رأيته ، فسألت الجارية : هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه ؟ فقالت : لا . ثم عاودتها ، حتى ذكرت أنها كانت تسمى بمية ، فبعتها حينئذ ، وعلمت أنها وعظ وعظني الله عز وجل به ، وبشرى .

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يونس بن حبيب بن اسماعيل الأنصاري ، روى عن أبي عمر بن عبد البر ، وأبي عمرو المقرى ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي عبد الله بن فرتش القاضي ، وأبي عبد الله بن سماعة ، وأبي الوليد الوقشي ، ورحل حاجاً ، فقدم دمشق ، وحدث بها عن هؤلاء ، ذكره ابن عساكر وقال : سمع منه أبو محمد بن الأكفاني ، وحكى عنه تدليساً ضعّفه به . وتوفي في جمادى الأخرى ، وقيل في رجب سنة ٤٧٧ . عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عباس يعرف بابن الموّاق ، روى عن الباجي وابن سمدون القروي وغيرهما . وتولّى قضاء روطة من أعمال سرقسطة ، وكان فقيهاً حافظاً ، وأديباً ماهراً ، توفي سنة ٥٠٣ عن ابن حبيش . قاله ابن الأبار . وأبو عبدالله محمد بن عبد الملك التجيبي المقرئ ، قال ابن الأبار : أحسبه سرقسطيا . يروى عن محب بن حسين أحد أصحاب ابن سفيان ، مؤلف الهادي في القراءات ، أخذ عنه أبو مروان بن الصيقل . وأبو عبد الله محمد بن وهب ابن محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، وهو المعروف بنوح الغافقي ، كان فقيها مشاوراً معظما عند الخاصة والعامة ، يرعاه السلطان ويأتمنه على حرمه وقصره . وخرج من وطنه بعد أن ملكته الروم ، فنزل بلنسية ، وولاه القاضي حسن بن واجب قضاء جزيرة شقر ، وبها توفي ليلة الخميس آخر شهر صفر سنة ٥١٨ ، ودفن بقبلي جامعها ، حدث عنه ابنه

أيوب . قال ابن الأبار : وبخطه قرأت وفاته . قلنا ظاهر أن المترجم هنا هو حفيد محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، المعروف بنوح الغافقى ، المتوفى سنة ٤٥٨ ، وقد تقدمت ترجمته .وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصارى الأوسى ، من أهل سرقسطة ، سكن بلنسية ، يعرف بابن الخراز ، روى عن أبى عبد الله بن أوس الحجارى ، وأبى العباس العذرى ، وأبى الوليد الوقشى ، واختص به ، وسمع منه روايته ، وهو كان القارئ لما يؤخذ عنه ، وكان أديباً ، شاعراً ، راوية ، مكثراً ، حسن الخط . وكان أبوه أبو جعفر أيضاشاعراً ، وهو الذى خاطبه أبو عامر بن غرسية بالرسالة المشهورة . حدث عنه أبو محمد القلنى [1] ، وأبو عبدالله بن ادريس المخزومى ، وأبو الطاهر التميمى وغيرهم ، وقال ابن الدباغ : أقرأ القرآن بالثغر ، وكان عنده أدب صالح . عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عقال المقرى ، سمع من الباجى والعذرى ، وله رحلة حج فيها ، حدث عنه أبو الفضل بن عياض . وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد ابن سعيد بن معاوية بن داود الأنصارى ، سرقسطى أصله من دروقة ، وقد تقدمت ترجمته فيمن انتسب إلى دروقة ، وتوفى قبل العشرين وخمسمائة ، وثكله أبوه . وأبو بكر محمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن أحمد العذرى ، يعرف بابن فرتش ، روى عنه عمه القاضى أبو محمد عبدالله بن محمد ،سمع منه مسند أبى بكر البزار، ومنه سمعه أبو على الصدفي ، وكان أبو على هذا قد استجاز له والجماعة معه أكثر شيوخه الجلة بالمشرق ، كأبى الفوارس الزينبى ، وابن خيرون . والمبارك بن عبدالجبار وطبقتهم ، وولى الأحكام بسرقسطة ، ثم خرج منها بعد غلبة العدو عليها ، وجول ببلاد الأندلس ، وحدث ، وسمع منه بغرناطة أبو جعفر بن الباذش ، وأبو عبدالله

---

(١) نسبة إلى قلنة . قال فى معجم البلدان : بلد بالاندلس . قال ابن بشكوال : ينسب اليها عبد الله بن عيسى الشيبانى أبو محمد من أهل قلنة حيز سرقسطة ، محدث حافظ متقن ، كان يحفظ صحيح البخارى وسنن أبى داود عن ظهر قلب ، فيما بلغنى عنه ، وله اتساع فى علم اللسان وحفظ اللغة ، وأخذ نفسه باستظهار صحيح مسلم ، وله عدة تآليف حسنة ، وتوفى ببلنسية عام ٥٣٠ .

النميرى . وحكى عنه ابن بشكوال وفاة جده القاضى محمد بن إسماعيل . وتوفى بعد الثلاثين وخمسمائة . عن ابن الأبار .

وأبو عبد الله محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله البزّاز ، لقى بدانية أبا الحسن الحسن الحصرى ، وسمع منه بعض منظومه ، ورحل حاجاً ، ودخل العراق ، فأجاز له ابن خيرون ، والحُميدى . وأبو زكريا التبريزى ، والمبارك بن عبدالجبار ، وهبة الله بن الأكفانى وغيرهم ، ونزل الاسكندرية وحدث بها ، وأخذ عنه الناس ، وتوفى هناك . وأبو عبدالله محمد بن خليل بن يوسف بن نظير الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، سكن بلنسية ، أخذ عن أبى المطرّف بن الوراق ، وأبى محمد بن سمحون ، وكان سماعه من هذا فى سنتى ثلاثين و إحدى وثلاثين وخمسمائة . عن ابن الأبار . وأبو حاتم محمد بن أحمد بن عيسى بن ابراهيم بن مزاحم من أهل سرقسطة ، كان معنياً بالفقه ، موصوفا بالزهد والنزاهة ، توفى ببلنسية عصر يوم الخميس الثالث عشر لرجب سنة ٥٣٣ . نقل ذلك ابن الأبار عن أيوب بن نوح .

وأبو جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد بن باق ، من أهل سرقسطة ، جده ذو الوزارتين محمد بن أحمد صاحب مدينة سالم ، قتل فيها سنة ٤٢٠ ، روى أبو جعفر عن أبى وليد الباجى ، وأبى عبد الله محمد بن يحيى بن هاشم والقاضى أبى الأصبغ بن عيسى ، وأبى جعفر بن جرّاح ، وأبى عبيد البكرى ، وعبد الدائم القيروانى ، وأبى الفوارس بن عاصم وغيرهم ، واستقر بمدينة فاس وأفتى بها ، وولى أحكامها ، وأقرأ العربية ، وكان ذا حظ من علم الكلام ، حسن الخلق ، قوالا بالحق ، وله شرح على الايضاح لأبى على الفارسى ، وكان واقفاً على كتبه ، وعلى كتب أبى الفتح ابن جنى ، وأبى سعيد السيرافى ، وقد حدّث عن أبى جعفر المذكور أبو الوليد بن خيره وأبو مروان بن الصيقل الوشقى ، وأبو محمد بن رحمان ، وأبو عبد الله الأندى ، وأبو محمد ابن بونُه ، وأبو الحسن اللواتى ، وغيرهم ، وتوفى بتلمسان فى نحو سنة ٥٣٨ ، روى ابن الأبار أكثر هذه الترجمة عن ابن حبيش . وأبو بكر بن محمد بن يوسف بن

سليمان بن محمد بن خطاب القيسى ، من أهل سرقسطة ، سكن مرسية ، يعرف بابن الجزار ، أخذ العربية عن أبى بكر بن الفرضى ، وأبى محمد البطليوسى ، وسمع الحديث من أبى على الصدفى ، وأبى محمد بن أبى جعفر ، وأجاز له أبو عبد الله الخولانى ، وقعد للتعليم بالعربية ، وكان مشاركا فى القراءات ، أديباً كاتباً شاعرا ، وجرت بينه و بين أبى عبد الله ابن خلصة مسائل فى إعراب آيات من القرءان ظهر عليه فيها ، وضمّن ذلك رسالة أخذها عنه أبو عبد الله المكناسى فى اختلافه إليه لقراءة النحو عليه ، وقال : قتل بناحية غرناطة سنة ٥٤٠ . تلخيصاً عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن سليمان التجيبى السرقسطى ، منها نزل المرية ، كان من أهل المعرفة بالقراءات والفرائض والحساب ، وله فى ذلك تواليف . وأبو الوليد محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسى من أهل سرقسطة ، سكن شاطبة ، روى عن أبى على الصدفى وأبى محمد بن عتّاب ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى القاسم بن ورد ، وأجاز له الرئيس أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر ، وأبو بكر غالب بن عطية ، وأبو الحسن بن الباذش وغيرهم ، وتصدر للإقراء بشاطبة ، وولى بها الصلاة والخطبة ، قال ابن الأبار فى التكملة : أخذ عنه شيخنا أبو عبد الله بن سعادة المعمر قراءة نافع ، وأجاز له جميع روايته. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجبر التجيبي السرقسطى ، نزيل مصر ، كان مقرئا متصدراً بعقربة من جامعها العتيق ، ذكره ابن حوط الله وقال : أجاز لى فى سنة ٥٨٤ قاله ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد الرعينى السرقسطى ، يلقب بالركن ، كان فقيها متحققاً بعلم الكلام ، متقدماً فيه ، يناظر عليه فى الارشاد لأبى المعالى وغيره ، تولى قضاء معدن عوّام ، بعقربة من مدينة فاس ، أخذ عنه أبو الحسن ابن خروف ، وأبو سليمان بن حوط الله ، لقيه بمالقة سنة ٥٨٧ ، وقال توفى سنة ٥٩٨ . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصارى من أهل غرناطة ، أصله من سرقسطة ، يعرف بابن الصقر ، روى عن أبيه أبى العباس وأبى عبد الله النميري ، وغيرهما ، وولى القضاء ، وكان بارع الخط ، وكتب علماً كثيراً .

وأبو سعيد مسعود بن سعيد من أهل سرقسطة ، وصاحب الصلاة بها ، روى عن أبي بكر الآجرّى ، حدث عنه أبو الحزم خلف بن مسعود بن الجلاد الوشقى . قال ابن الأبار فى التكملة : وذكر ابن الفرضى مسعود بن عبد الرحمن الحنتمى الثغرى ، وكناه أبا سعيد ، وقال إنه سكن قرطبة ، ولم يذكر له رواية عن الآجرى ، ولا جعله من أهل سرقسطة، ولا أدرى أهو هذا وغلط فى نسبه أم غيره ؟ قلنا : لايوجد دليل على كون ابن الفرضى قصد بمسعود بن عبد الرحمن الحنتمى رجلا اسمه مسعود بن سعيد كان صاحب الصلاة فى سرقسطة .

وأبو الأحوص معن بن معن بن معن الانصارى ، نسبه فى البربر ، ويتولى الأنصار ، من أهل سرقسطة ، وأحد رجالاتها ، ومدره جماعتها . قال ابن الأبار : قرأت اسمه ونسبه فى الأمان الذى عقده الناصر عبد الرحمن بن محمد لصاحب سرقسطة محمد بن هاشم التجيبى ، عند انخلاعه عنها ، وولى قضاء بلده سرقسطة سنة ٣٢٦ من قبل الناصر ، وكان حصيف العقل ، معروفا بالدهاء ، له فهم وإدراك ، ولا ينسب اليه فقه ولا علم ، ذكر ذلك محمد بن حارث ، ولم يزل قاضياً بسرقسطة إلى أن توفى سنة ٣٣٠. ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة ، من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، وكان أديباً ذا معرفة بالعروض . قال ابن الأبار فى التكملة : وقفت له على تأليف فى العروض ليس بذلك ، صنعه للمؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر أبى جعفر بن هود ، صاحب سرقسطة ، ولابنه وولى عهده أبى جعفر المستعين . اهـ

ظهر من هنا أن كلا من المقتدر بن هود وابنه المستعين الثانى يكنى بأبى جعفر ، وأن قصر الجعفرية هو منسوب اليهما .

وأبو العلاء نام بن محمد بن ديسم بن نام ، كان من أهل الأدب والبلاغة ، وكتب لبعض الرؤساء ، وكان يقرض الشعر ، قال ابن الأبار : واستجاز له أبو على الصدفى ، ومن خطه نقلت اسمه ، والجماعة معه من أهل سرقسطة وبلادها ، وتوفى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . وأبو محمد عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن

قاسم بن ثابت بن حزم العوفى ، كان يحدث بالدلائل ، تأليف جده الأعلى قاسم بن ثابت ،عن أبيه ، متصلاذلك فى سلفه إلى المؤلف ، وكان فقيها مشاوراً جليلا، عريقاً فى النباهة والعلم ، شاوره القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فيما شُهد به على أبى عمر الطلمنكى ، من كونه حروريا على خلاف السنة ، وكان معه جماعة هو صدرهم ، فأفتوا بإسقاط شهادات المتألبين على الطلمنكى . حدث عن ابى محمد المذكور ابنه القاضى ابو القاسم ثابت بن عبد الله ، آخر من حدث من أهل بيتهم . وأبو محمد عبد الله بن على الانصاري من ذرية الحسين بن يحيى بن سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة ، تولى الصلاة ببلده مضافة اليها من قبل المؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر أبى جعفر ابن هود ، وكان فاضلا من بيت علم ورئاسة ، وكانت وفاة المؤتمن في سنة ٤٧٨ ، روى ذلك ابن الأبار عن محمد بن نوح . وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمى أحد الفقهاء المشاورين فى سرقسطة ، وهو ممن أفتى باسقاط شهادة من شهدوا على الطلمنكى بمخالفته للسنة . وأبو محمد عبد الله بن موسى بن ثابت ، له سماع من أبى العباس العذرى ، أخذ عنه صحيح مسلم . وأبو الحسين عبد الله بن مروان بن عبد الله بن محمد ابن حفصيل ، من ولد حفص بن سليمان ، راوية عاصم بن أبى النجود القارى ، أخذ عن أبى يونس عبد الله بن هذيل القلعى ، وأخذ عنه أبو عمرو الباجيطى المقرىء . وأبو بكر عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عمير التقفى ، روى ببلده سرقسطة عن صاحب الأحكام أبى الحزم خلف بن هاشم ، وأخذ عن أبى على الصدفى . قرأ عليه بمرسية رياضة المتعلمين لأبى نعيم فى سنة ٤٩٥ ، وسمع بقرطبة من أبى بحر الأسدى بعد خروجه من سرقسطة سنة ٥١٦ ، وتوفى بمدينة فاس سنة ٥٢٩ ذكر وفاته ابن حبيش .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مقاتل التجيبى ، من أهل بلنسية ، أصله من سرقسطة ، صحب القاضى أبا بكر بن أسد ، وتفقه به ، وحضر مجلس أبى محمد بن عاشر ، وكان فقيها عارفاً بعقد الشروط متقناً لها ، قال أبو محمد بن نوح : توفى

ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ٥٥٢ ، ترجمه ابن الأبار . وأبو محمد عبدالله ابن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي ، من أهل بلنسية ، أصله من سرقسطة ، سمع أباه وأبا العطاء بن نذير ، وأبا عبدالله بن نسع ، وأبا الحجاج ابن أيوب ، وأبا الخطاب بن واجب ، وأبا ذر الخشنى ، والقاضى أبا بكر عتيق بن على وغيرهم . وأكثر من أخذ عنه هو أبو عبد الله بن نوح ، فقد تلقى عنه القراءات والأدب ، ولازمه طويلا ، وأجاز له أبو بكر بن الجد ، وأبو عبد الله بن الفخّار ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو القاسم بن حبيش ، وأبو الحسن بن كوثر وغيرهم ، وأجاز له من أهل المشرق أبو الطاهر بن عوف ، وأبو عبد الله بن الحضرمى ، وأبو الثناء الحرّانى ، وأبو طالب التنوخى وغيرهم . قال ابن الأبار : وولى بآخرة من عمره قضاء دانية ، ثم صُرف بى عند ما قلدت ذلك فى رمضان سنة ٦٣٣ ، ثم أعيد الى قضائها بعد ذلك ، لما استعفيت منه ، وكان فقيهاً عارفاً بالأحكام ، عاكفاً على عقد الشروط ، من أهل الشورى والفتيا ، أديباً شاعراً مقدماً فكها ، صدوقاً فى روايته ، سمعت منه حكايات وأخباراً ، وأنشدنى لنفسه ولغيره كثيراً ، وأجاز لى غير مرة لفظاً جميع ما رواه وأنشاه ، وروى عنه بعض أصحابنا . توفى ببلنسية مصروفاً عن القضاء عند المغرب من ليلة الجمعة التاسع لذى القعدة سنة ٥٣٦ ، والروم محاصرون بلنسية ، ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة ، قبل امتناع الدفن بخارجها ، ومولده سنة ٥٧٤ انتهى . وأبو عبدالله بن الصفّار ، أخذ بسرقسطة عن أبى العباس احمد بن على بن هاشم المقرى المصرى فى مقدمة سرقسطة سنة ٤٢٠ ، ذكره أبو عمر ابن الحذاء في برنامجه . وأبو مروان عبيد الله بن هاشم بن خلف بن احمد بن هاشم العبدرى ، روى عن أبى هارون موسى بن أبى درهم ، وسمع من أبى وليدالباجى ، وهو كان القارىء عليه لصحيح البخارى بسرقسطة فى رجب سنة ٤٦٣ ، وأخوه أبو الحزم خلف بن هاشم هو أيضاً من علماء سرقسطة .

وأبو الحكم عبيد الله بن على بن عبيد الله بن غَلِنْدُه الأموى ، مولاهم ، من

أهل سرقسطة ، لما تغلب العدو على بلده خرج مع أبيه وجده إلى قرطبة ، وأخذ عن أبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأبى بكر يحيى بن الفتح الحجارى ، ثم رحل عن قرطبة إلى اشبيلية فأوطنها ، وكان أديباً شاعراً ، وطبيبا ماهراً ، وكان صناع اليدين أبرع الناس خطا ، وأحسنهم ضبطا ، وكتب علما كثيراً . قال ابن الأبار فى التكملة : وأنشدنى له بعض أصحابنا من لزومياته :

إذا كان إصلاحى لجسمىَ واجباً فاصلاحُ نفسى لا محالةَ أوجبُ
وإن كان ما يَفنى إلى النفس مُعجباً فان الذى يَبقَى إلى العقل أعجبُ

وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ ، وحدثنى الثقة أنه بلغ سبعاً وتسعين سنة اه . وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأموى البزاز ، يعرف بابن الصرّاف ، روى عن أبي محمد الاصيلى ، وأبى بكر بن موهب القبرى ، حدّث عنه ابن أخيه أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد الخطيب بسرقسطة ، ترجمه ابن الأبار . وعبد الرحمن بن عبدالله ابن ميسرة ، من أهل سرقسطة وقاضيها ، ذكره أبو محمد بن نوح وقال : توفى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت لرجب سنة ٤٤٢ . ودفن يوم الأربعاء بعده ، قال : وولى القضاء فى آخر شعبان من السنة محمد بن اسماعيل بن فورتش . وفى هذه السنة ، ولاحدى عشرة ليلة بقيت لرجب ، احترق من جامع سرقسطة البلاط الشرقى . نقلا عن ابن الأبار . وأبو القاسم عبد الرحمن بن فُرتون الانصارى ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وحدث عنه بحياته بكتاب « تفكر الحافظ » من تأليفه ، قال ابن الأبار : وقفت على ذلك فى نسخة عتيقة منه ، ويقال إن هذا الكتاب هو أول ما ألفه أبو عمرو . وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن عياض اليحصبى المكتّب ، كان من القراء ، ومن علماء الحساب ، وأدّب بذلك ، أخذ عنه أبو على الصدفى ، وعنده أكمل حفظ القرآن . وأبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الرحمن فورتش ، رحل حاجا فسمع بمكة أبا ذر الهروى ، وأجاز له أبو عمرو السفاقسى ، ولأخيه القاضى أبى عبدالله محمد بن يحيى بن فورتش ، لقيه أبو على الصدفى ولم يسمع منه شيئا . وعبد الرحمن

ابن موسى بن ميسرة من أهل سرقسطة أو ناحيتها ، يحدث عن أبي الفوارس منجّى ابن موسى من أصحاب أبي بكر بن الخطيب .

وأبو بكر عبد الرحمن بن احمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عمير الثقفي ، من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، روى عن أبيه وعمه ابي بكر عبد الله بن يحيى ، وابى عامر بن شروِّية ، وابى الحسن بن مغيث ، وابى بكر بن العربي ، وابي عبد الله بن مكى ، وابى مروان بن مسرة ، وابى عبد الله بن ابى الخصال ، وابى الحكم بن غُشليان ، وابى بكر يحيى بن موسى ، سمع منه بقرطبة فوائد ابن صخر . وكان من أهل العناية بالرواية ، حسن الخط والضبط ، أزعجته الفتنة بقرطبة إلى ميورقة فنزلها وحدث بها ، وسمع منه ابو محمد بن سهل المنقودى وغيره سنة ٥٣٨ ، رواه ابن الأبار . وعبد الملك بن هشام التجيبي ، ويكنى أبا مروان ، روى عن ابى عبد الله محمد القسطلى . وعبد العزيز بن جوشن ، من أهل سرقسطة ، كان فقيها مشاوراً ، وولى الصلاة بجامعها . وكان ممن أفتى باسقاط شهادات المتألبين على ابى عمر الطلمنكى

وأبو جعفر عبد الوهاب بن محمد بن حكم الانصارى ، من سرقسطة ، أخذ القراءات بطليطلة عن ابى عبد الله المغامى ، وأجاز له ابو الفضل بن خيرون ، من بغداد ، في رمضان سنة ٤٨٦ ، وتصدر ببلده للاقراء ، ومن مشاهير تلاميذه ابو محمد عبد الله بن ادريس بن سهل المقرىء نزيل سبتة ، وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعى ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء البُلغى ، نزيل دمشق ، وأبو محمد بن سعدون الوشقى الضرير وغيرهم ، واستشهد في وقيعة وشقة سنة ٤٨٩ ، في آخر ذى القعدة أو أول ذى الحجة منها ، وهى إحدى الوقائع الفاجعات بالاندلس . قتل فيها نحو عشرة آلاف من المسلمين ، ذكر ذلك ابن الأبار القضاعى فى التكملة .

وأبو عمر عثمان بن فرج بن خلف المبدرى السرقسطى ، حج فسمع من الرازى ومن أبى بكر بن عبد الله بن طلحة اليابُرى ، وأبى الحجاج بن زياد الميورقى ، وأبى الحسن على البيهقى الزاهد ، وسكن بالقاهرة . قال ابن الأبار : وروى عنه من شيوخنا

أبو عبد الله الألشى ، لقيه فى جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة . وأبو عمرو عثمان ابن يوسف بن أبى بكر بن عبد البر بن سيدى بن ثابت الانصارى السرقسطي ، ويقال له البلجيطى ، أخذ القراءات عن أبى زيد الوراق ، ويحيى بن محمد القلعى ، وأخذ عن أبي زيد بن حياة قراءة نافع ، واختلف الى أبى جعفر بن شريح ، وأبى الحسن بن طاهر فى أخذ العربية ، وسمع التيسير من أبى الحسن بن هذيل سنة ٥٢١ واستوطن « لريه » ثم ولى قضاءها ، وكان قارئا ضابطاً ، محققاً إخبارياً ذاكراً ، وأسن ، وأخذ عنه الناس . قال ابن الأبار : وأخذ عنه من شيوخنا أبو عبد الله الشونى وأبو الربيع بن سالم ، وكانت ولادته سنة ٤٨٧ ، ووفاته فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٧٧ . وأبو الحسن على بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفارى السرقسطى البرجى ، وبُرجة من أعمال سرقسطة ، كان من القراء ، توفى سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة . وأبو الحسن على بن يوسف بن الامام ، من أدباء سرقسطة ، وكان زاهداً روى عنه أبو الوليد بن خيرة الفقيه .

وأبو العلاء همام بن يحيى بن همام السرقسطى ، كان كاتبا بليغا متفننا ، بديع الخط ، كتب عن المقتدر بالله ابى جعفر بن هود ، ثم عن ابنه المؤتمن ، ثم عن المستعين ابن المؤتمن ، وتوفى فى الدولة اللمتونية . عن ابن الابار . ومثله ابنه أبو بكر يحيى بن همام ابن يحيى السرقسطى ، المعروف بابن ارزاق ، كان من أهل الأدب مع بداعة الخط ، وكتب للمستعين ابى جعفر بن هود مع أبيه همام ، وكتب ليوسف بن تاشفين ، ثم لابنه على ، واستدعى إلى مراكش سنة ٤٩٥ ، وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٣٧ ، عن ابن الأبار . وابو بكر يحيى بن محمد السرقسطى ، نزيل مرسية ، يعرف باللّبانى ، أخذ عن أبى الوليد الوقشى ، وابى الحسن بن افلح النحوى ، وكان ماهراً فى علم العربية ، حافظا للغة ، أقرأ بمرسية وغيرها ، أخذ عنه ابو عبد الله بن سعادة ، وأبو على ابن عريب ، وغيرهما ، وتوفى فى نحو العشرين وخمسمائة . ومحمد بن سليمان بن تليد ، ولى القضاء بسرقسطة ، ووشقة ، يروى عن محمد بن احمد العتبى ، ومحمد بن يوسف

ابن مطروح الربعي، توفى سنة ٢٩٥ ترجمه ابن عُميرة الضبي فى بغية الملتمس . ومحمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله السرقسطى الفقيه المقرىء ، روى عنه أبو بكر بن العربى وغيره .

وأبو اسحق ابراهيم بن نصر السرقسطى ، حدّث عن احمد بن عمرو بن السرح ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، و يحيى بن عمر ، روى عنه عثمان بن عبد الرحمن ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وابراهيم بن هارون بن سهل ، قال ابن عميرة : قاضى سرقسطة من ثغور الأندلس ، فقيه محدث ، مات بها سنة ست وتسعين ومائتين . وحفص بن عبد السلام السلمى ، قال ابن عميرة : سرقسطى ، روى عن مالك بن أنس ، مات بالأندلس قريباً من سنة مائتين ، ورَزين بن معاوية ، قال ابن عميرة : سرقسطى محدث ، توفى سنة ٥٢٤ بمكة ، زادها الله شرفاً . وسليمان بن مهران السرقسطى ، أديب شاعر مشهور ، له جلالة وقدر ، روى أبو محمد بن حزم عن محمد بن الحسن المذحجى قال : أنشدني سليمان بن مهران ، فى مجلس الوزير أبي الاصبغ عيسى بن سعيد وزير المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر :

خليليَّ ما لِلريحِ تأتى كأنما ... يخالطها عند الهُبوب خَلوقُ

أم الريحُ جاءت من بلادِ أحبّتى ... فأحسَبها عَرْفَ الحبيب تسوقُ

سقى الله أرضاً حلها الأغيَدُ الذي ... لتذ كاره بين الضلوع حريق

أصار فؤادى فرقتين فعندَه ... فريقٌ وعندى في السّياقِ فريقُ

وأبو الربيع سليمان بن حارث بن هارون الفهمى ، قال ابن عميرة : فقيه سرقسطى ، توفى بالاسكندرية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة .

وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبي من أهل سرقسطة و إمام الجامع بها ، يروى عن أخيه عبد الله بن بسام ، حدّث عنه الصاحبان . وحسان بن عبد السلام السلمى ، يروى عن مالك بن أنس ، قال ابن عميرة : ذكره محمد بن حارث الخشنى ، وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطى ، يعرف بالحمّار . قال ابن عميرة :

له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق ، وهو مشهور . وعبد الله بن محمد بن زرقون السرقسطى . قال ابن عميرة : بتقديم الزاى على الراء ، محدّث ، روى عن أصبغ بن الفرج . روى عنه محمد بن وضاح ، ومن جملة ما روى عنه رواية عن أصبغ بن الفرج عن ابن وهب ،وهى : ما يحل لأحد أن يرد شيئاً بغير علم ، ولا يقول شيئاً بغير ثبت. ولقد سمعت مالكا يقول : والله ما أحب أن تكتبوا عنى كل ما تسمعون منى . قال ابن وهب : ولو عرضنا على مالك كل ما كتبنا عنه لمحا ثلاثة أرباعه . وعبد الله بن أبى النعمان قاضى سرقسطة ، قال ابن عميرة : من أهل العلم والفضل ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين . وأبو الحكم عبد الرحمن بن عبد الملك بن غشليان السرقسطى ، توفى بقرطبة سنة ٥٤١ قاله ابن عميرة . وعبدالأعلى بن الليث ، يكنى أبا وهب ، من أهل سرقسطة ، محدث له رحلة ، مات بالأندلس سنة ٢٧٥ ، ذكره ابن عميرة فى البغية . وكلثوم بن أبيض المرادى ، يكنى أبا عون ، من أهل سرقسطة ، محدث له رحلة ، مات بالاندلس سنة ٢٥٣ ، ذكره أيضا ابن عميرة . وأبو مروان بن الانصارى السرقسطى ، من ذرية الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجى أمير سرقسطة ، كان فقيها فاضلا زاهداً ، وكان أمراء بلده بنو هود يتناغون فى اكرامه واحترامه . ذكره ابن نوح عن ابن الابار .

وأبو محمد لب بن عبد الله ، من أهل سرقسطة ، قال ابن عميرة : محدث ، كان فاضلا زاهداً ، كتب عن أهل الاندلس ولم يرحل ، وكانت وفاته فى صدر أيام الامير عبد الله بن محمد . قاله أبو سعيد . وموسى بن على بن رباح ، قال ابن عميرة : يقال إن قبره بسرقسطة بإزاء قبر حنش بن عبد الله . وأبو عبد العزيز عبدالرءوف بن عمر بن عبد العزيز ، محدث معروف ، قال ابن عميرة . مات بلاردة من ثغور الأندلس سنة ثمان وثلاثمائة . والوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله الباهلى القاضى، من أهل سرقسطة ، ذكره محمد بن حارث الخشنى ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وأبو الحجاج يوسف بن محمد السرقسطى ، قال ابن عميرة : كان قارئاً لكتب الحديث

محسنا ، توفى بعد السبعين وأربعمائة . والفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطى ، جاء فى نفح الطيب ذكره ، وقال: إنه قد ذكره العماد الاصفهانى فى الخريدة ، وذكره السمعانى فى الذيل ، وأنه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة وخمسمائة ، ومن شعره :

أيا شمسُ إني إن أتتكِ مدائحي وهُنَّ لآلٍ نُظِّمت وقلائد
فلستُ بمن يبغى على الشعر رِشوة أبَى ذاكَ لِى جدٌّ كريم ووالد
وأنِّى من قوم قديماً ومحدثاً تباع عليهم بالألوف القصائد

وأبو مروان محمد بن يوسف بن مرونجوش ، قال ابن عميرة : سرقسطى فقيه ، توفى سنة تسع عشرة وخمسمائة . وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمى .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سندور بن منتيل بن مروان التجيبى ، سمع أبا عمر ابن عبد البر ، وأبا الوليد الباجى ، وأبا العباس العذرى ، وأبا عمر الطلمنكى ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وتوفى قبل الخمسمائة .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن طريف ، قال ابن الأبار : كان من أهل المعرفة بالعربية ، مع حظ من قرض الشعر ، وكان فى نحو الخمسمائة . وأبو محمد يعيش بن محمد بن فتحون من أهل الثغر ، له رحلة إلى المشرق ، روى فيها عن أبى الطاهر العجيفى ، وأبي القاسم الجوهرى وغيرهما ، حدث عنه محمد بن عبد السلام الحافظ . ويوسف بن عبد الملك ، ثغرى ، يكنى أبا عمر ، روى عن وهب بن مسرة وغيره ، حدث عنه الصاحبان وقالا : توفى فى المحرم سنة ٣٨٧ . وخلف بن سيد ، من أهل الثغر الشرقى ، يحدث عن عيسى بن موسى بن الامام ، لقيه بتطيلة ، وأخذ عنه ، وأبو الحسن ذيّال بن عبد الرحمن بن عمر الشريونى الثغرى ، سمع بسرقسطة من أبي الوليد الباجي وغيره سنة ٤٦٣ . وأبو عبد الله محمد بن جعفر الهمذانى ، يعرف بالشرقى ، نسبة إلى شرق الاندلس ، قرأ بجامع قرطبة ، ذكره ابن الدباغ ووصفه بالعلم والنبل ، وتوفى سنة ٥١٣ ، قاله ابن الأبار . وأبو الربيع الحصيب بن محمد بن خصيب بن الخزاعى . وأبو

الطاهر الاشتركونى ، من اشتركونى ، حصن من أعمال تطيلة ، اسمه محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن ابراهيم ، سمع من جلة العلماء ، وتحقق باللغة والأدب ، وألف المسلسل ، وأنشأ المقامات اللزومية ، ومات بقرطبة سنة ٥٣٨ ، ومن عادة الاندلسيين أنهم إذا أطلقوا الثغر أرادوا به سرقسطة أو إحدى جهاتها ، وقد ينسبون إلى الثغر فيقولون فلان الثغرى ، ويكون من سرقسطة ، أو من وشقة ، أو من تطيلة ، أو من لاردة ، وهلم جرًّا من المدن التى كانت يومئذ آخر بلاد المسلمين ، أو من ملحقاتها .

فمن هؤلاء أبو حديدة ناهض بن عريب ، قال ابن الأبار : من أهل الثغر الشرقى روى عن زكريا بن النداف . وأبو يونس عبد العزيز بن عمر بن حبنون ، من أهل منتشون ، من أهل الثغر الشرقى ، سمع من أبى الوليد الباجى صحيح البخارى بسرقسطة سنة ٤٦٣ وولى الأحكام بموضعه . قال ابن الابار : قرأت ذلك بخط أبى داود المقرى . وأبو الاصبغ عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن خلف الاموى ، من أهل بلشند . قال ياقوت : بسكون اللام وفتح الشين وسكون النون ، من نواحى سرقسطة بالاندلس ، وفيها حصن يعرف ببنى خطاب ، روى عن أبى محمد بن أبى جعفر ، سمع منه ، وحكى عنه أنه كان يقول : سمعت كتاب صحيح البخارى على ابى الوليد الباجى ، ولكنى لا أحدث به عنه ، لأنه كان يصحب السلطان . وأبو الحجاج يوسف بن ابراهيم العبدرى المعروف بالثغرى ، قال ابن عميرة : فقيه محدث راوية ، عارف أديب ، انتقل الى مرسية فى الفتنة واقتنع ولم يتعرض لظهور ، وكان قد غصّ به جماعة من الفقهاء بمرسية حين وصلها ، فسُعى له فى الخطبة بجامع قليوشة من قرى مدينة اور يوالة ، وانتقل اليها ، سمعت عليه بعض كتاب الموطأ ، يروى عنه جماعة ، منهم أبو الحسن بن مغيث والحافظ ابو بكر وابو الوليد ابن رشيد ، وأجاز له ابو الحسن رزين بن معاوية العبدرى ، وتوفى سنة ٥٦٠ . وكان مولده سنة ٤٧٢ ببلده اه . قلت : قرأت فى بعض الكتب أن القاضى أبا يوسف كان محدثا ، فلما اتصل بهارون الرشيد تحامى الناس سماع حديثه

وخلف بن سيد من أهل الثغر الشرقي يحدث عن عيسى بن موسى بن الامام

لقيه بتطيلة ، وأخذ عنه . وخلف بن موسى بن فتوح المقرىء ، يكنى أبا القاسم ، و يعرف بالأشبرى ، وأشبرة قرية من قرى سرقسطة . كان مقرئا ، أخذ عنه أبو على ابن بشر السرقسطى وغيره ، ذكره ابن الدباغ ، عن ابن الأبار . وأبو عبدالله محمد بن فتح الأنصارى الامام الثغرى ، قال أبو عمرو المقرىء أنشدنى أبياتا فى الزهد منها :

كم مِنْ قوىٍّ قوىٍّ فى تَقَلّبه مهذبِ الرأى عنه الرزق ينحرفُ
ومِن ضعيفٍ ضعيف الرأى مختبلٍ كأنه من خليج البَحْر يَغترف

وغالب بن عبد الله الثغرى ، شاعر أديب ، ذكره ابن عميرة .

وأبو القاسم خلف بن عيسى ، من أهل الثغر الشرق ، وليس بابن أبى درهم ، روى عن أبى عمر بن الهندى ، وأبى عبدالله بن العطار . ذكره ابن الأبار . ومحمد بن سعيد بن ثابت العبدرى ، من أهل الثغر الشرق ، أبو عبدالله ، حدث عنه أبو زاهر سعيد بن أبى زاهر ، وكان صاحب الصلاة بموضعه . ذكره ابن الأبار نقلا عن ابن حبيش . وأبو عبدالله محمد بن فرج بن جعفر بن خلف القيسى ، من أهل الثغر الشرق ، سكن غرناطة ، يعرف بابن أبى سمرة ، أخذ القراءات عن أبى جعفر أحمد بن عبدالحق الخزرجى ، وأبى القاسم بن النحاس ، وأبى الحسن بن كرز وغيرهم . ودرس العربية ولقيه أبو عبد الله بن حميد بغرناطة سنة ٥٣٥ ذكره ابن الأبار .

وممن ينسب إلى سرقسطة من المشاهير ، و إن لم يكن من أهل العلم ، ابراهيم ابن محمد بن مفرج بن همشك ، وهمشك جده نصرانى أسلم على يد بنى هود بسرقسطة وكان مقطوع إحدى الأذنين ، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال قالوا (همشك) معناه ترى مقطوع الأذن ، فان (هاء) عندهم قريب من (اما) بالعربية . والمشك فى لغتهم هو المقطوع الأذنين .

و إبراهيم هذا لما خرج بنو هود من سرقسطة نشأ تحت الخمول . قال لسان الدين ابن الخطيب فى الاحاطة فى صفحة ١٦٠ من الطبعة المصرية : إنه كان شهماً متحركا خدم بعض للموحدين بالصيد وتوسل بدلالة الأرض ، ثم نزع إلى ملك قشتالة ،

واستقر مع النصارى ، ثم انصرف إلى بقية اللمتونيين بالأندلس ، بعد شفاعة و إظهار توبة . ولما ولى يحيى بن غانية قرطبة ارتسم لديه برسمه ، ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين وثار ابن أحمر بقرطبة ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، فبعثه ابن غالية رسولا ، ثقة بكفايته ودربته ، لمحاولة الصلح بينه و بين ابن أحمر ، فنبه قدره .

ثم غلى مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس ، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره ، إلى أن تمكن له الامتياز بحصن شقوبش ، ثم تغلب على مدينة شقورة [1] وتملكها ، وهى ماهى من النعمة ، فغلظ أمره ، وساوى محمد بن مردنيش أمير الشرق ، وداخله حتى عقد معه صهراً على ابنته ، فاتصلت له الرئاسة والامارة ، وكان سيفا لصهره المذكور مسلّطا على من عصاه ، فقاد الجيوش ، وافتتح البلاد ، إلى أن فسد بينهما ، فتفاتنا وتقاطعا ، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقل ، وعد من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادة ، والشبا المرهوب ، بعد انقباض دولته . قال محمد بن أيوب بن غالب ، المدعو بابن حمامة : أبو اسحق الرئيس شجاع بهمة من البهم ، كان جريئا شديد الحزم ، سديد الرأى ، عارفا بتدبير الحروب ، حمى الأنف ، عظيم السطوة ، مشهور الاقدام ، مرتكباً للعظيمة . قال بعض من عرّف به من المؤرخين : إنه و إن كان قائد فرسان ، فقد كان حليف فتنة وعدوان ، ولم يصحب قط متشرعا ، ولا نشأ فى أصحابه من كان متورعا ، سلطه الله على الخلق وأملى له ، فأضر بمن جاوره من أهل البلاد . وقال لسان الدين : كان جباراً قاسياً ، فظاً غليظا ، شديد النكال ، عظيم الجرأة والعبث بالناس ، بلغ من عبثه فيهم إحراقهم بالنار ، وقذفهم من الشواهق والأبراج ، و إخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم ، عن أوتار القسى ، وضم أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ، وربط الانسان بينها ، ثم تسريحها فيذهب كل غصن بحظه من الأعضاء . قال : ورآه بعض الصالحين فى النوم وسأله : ما فعل الله بك ؟ فأنشده :

مَنْ سره العَيْش فى الدنيا بخلقة مَنْ ... يصوّر الخَلْق فى الأرحام كيف يشا

(١) Segura سيأتى ذكرها

فليصير اليوم صبرى تحت بطشته مفَلَّلاً أمتطى جَمّ الغضا فُرُشا

ثم ذكر لسان الدين شجاعته فقال : زعموا أنه خرج متصيداً ، وفى صحبته مخاولون له ، وقارعوا أوتار الغناء فى مائة من الفرسان ، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة ، فى مائتين من الفوارس ، فقالوا : العدو فى مائتى فارس ؟ فقال : و إذا كنتم أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم . فعد نفسه بمائة ، ثم استدعى قدحاً من شرابه وصرف وجهه إلى المغنى وقال : غنّ لى تلك الأبيات ، وكان يغنيه بها فتعجبه :

يتلقى النّدَى بوجــه حياء وصدورَ القَنَا بوجه وقاح

هكذا هكذا تــكون المعالى طُرُق الجدّ غير طرْق المزاح

فغناه بها ، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه و بأصحابه حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانماً إلى بلده ، ثم انصرفت الأيام ، وعاد للصيد فى موضعه ، وأطلق بازه على حجلة فأخذها ، وذهب ليذبحها ، فلم يحضره خنجر ، فبينما هو يلتمسه إذ رأى نصلا من نصال المعترك ، من بقايا الهزيمة فأخذه وذبح الطائر ، واستدعى الشراب وأمر المغنى ، فغناه بيتى أبى الطيب :

تذكرت مابين العُذيب و بارِق مجرّ عَوالينا ومَجْرى السوابق

وصحبــة قوم يذبحون قنيصهم بفضلة ما قد كسروا فى المفَارق

وقد رأيت من يروى هذه الحــكاية عن أحد أمراء بنى مردنيش . وعلى كل حال فهى من مستظرف الأخبار .

قال لسان الدين : وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فى جمادى الأولى منها ، قصد إبراهيم بن همشك بجمعه مدينة غرناطة ، وداخل طائفة من ناسها ، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الــكلمة عليهم ، وتوجــه الوالى بغرناطة السيد أبو سعيد إلى العدوة ، فاقتحم ابن همشك غرناطة ليلا ، واعتصم الموحدون بقصبتها فنصب لهم المجانيق ، وقتلهم بأنواع من القتل . وعند ما اتصل الخبر بالسيد أبى سعيد بادر إليها ، فأجاز البحر ، والتف به السيد أبو محمد ، والسيد أبو حفص ، بجميع

جيوش الموحدين ، ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة ، وأصحر إليهم ابن همشك ، وبرز منها ، والتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها ، ودارت بينهم الحرب ، فانهزم جيش الموحدين ، واعترضت الفلّ تخوم الفدادين ، وجداول المياه التى تتخلل المرج ، فاستولى عليهم القتل ، وقتل فى الوقيعة السيد أبو محمد ، ولحق السيد أبو سعيد بمالقة ، وعاد ابن همشك إلى غرناطة ، فدخلها بجملة من أسرى القوم أفحش فيهم المثلة ، بمرأى من إخوانهم المحصورين .

واتصل الخبر بالخليفة ، وهو بقرية سلا ، فجهز جيشاً أصحبه السيد أبا يعقوب ولده والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته ، وداهية زمانه ، فأجازوا البحر ، والتقوا بالسيد أبى سعيد بمالقة ، وتتابع الجمع ، والتفّ بهم من المجاهدين والمطوعة ، واتصل منهم السير الى قرية داق من قرى غرناطة . وكان من استمرار الهزيمة على ابن همشك ، لذى جره لنفسه وجيشه من نصارى وغيرهم مايأتى ذكره عند اسم مردنيش . ثم قال :

ولما فسد بين ابن همشك وابن مردنيش بسبب بنته التى كانت تحت ابن مردنيش فطلقها ، وانصرفت إلى ابيها ، وأسلمت اليه ابنها ، وسئلت عن إمكان صبرها عنه ، فقالت : جرو سوء من كلب سوء ! فأرسلت كلمتها فى نساء الاندلس مثلا ــ اشتدت بينهما الفتنة ، وعظمت المحنة ، وهلك بينهما من شاء الله هلاكه ، إلى أن كان أقوى الأسباب فى تدمير ملكه .

ولما صرف ابن مردنيش عزمه إلى بلاده ، وتغلب على كثير منها ، خدم ابن همشك الموحدين ، واستجار بهم ، وقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة ، فأكرم قدومه ، وأقرّه بمواضعه ، إلى أوائل عام أحد وسبعين ، فطولب بالانصراف إلى العدوة بأهله وأولاده ، وسكن بمكناسة ، وأقطع بها أملاكا لها خطر

وابتلاه الله بفالج غريب الأعراض ، فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه ، فيخرج فيشكو البرد كذلك ، إلى أن مضى لسبيله ، انتهى ببعض تصرف

وممن ينسب إلى سرقسطة عمر بن مصعب بن أبى عزير بن زوارة بن عمرو بن

هاشم العبّادى ، وقيل العبدرى ، ذكره ابن عميرة فى بغية الملتمس ، نقلا عن ابن يونس.
وأبو الحكم المنذر بن رضا السرقسطى ، سكن بلنسية ، وكان من الشعراء . ومظفر الكاتب السرقسطى ، خرج من سرقسطة ، وسكن غرناطة ، وكنيته أبو الفرج ، أخذ عن قاسم بن محمد الشيبانسى ، وأبى عمر القسطلى ، وصحب أبا بكر المصحفى ، ذكره ابن الأبار .

ونسب إلى سرقسطة حكماء وعلماء من اليهود ، من مشاهيرهم ابن الفوال [١] الطبيب الفيلسوف . ومنهم الفضل حسداى [٢] المشهور بالحكمة والرياضيات .

وممن سكن فى سرقسطة من الأطباء أبو عبد الله بن الكتانى ، وهو من أطباء المسلمين ، ترجمه ابن أبى أصيبعة فقال : هو أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكتانى ، كان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته ، وخدم به المنصور بن أبى عامر ، وابنه المظفر ، ثم انتقل فى صدر الفتنة إلى مدينة سرقسطة ، واستوطنها ، وكان بصيراً بالطب ، متقدماً فيه ، ذا حظ من المنطق والنجوم ، وكثير من علوم الفلسفة . قال القاضى صاعد : أخبرنى عنه الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد اللخمى أنه كان دقيق الذهن ، ذكى الخاطر ، جيد الفهم ، حسن التوحيد والتسبيح ، وكان ذا ثروة وغنى واسع ، وتوفى قريباً من سنة

(١) قال ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء : منحم بن الفوال يهودى من سكان سرقسطة كان متقدماً فى صناعة الطب متصرفاً مع ذلك فى علم المنطق وسائر علوم الفلسفة . ولمنحم بن الفوال من الكتب كتاب كنز المقل على طريق المسألة والجواب وضمنه جملا من قوانين المنطق وأصول الطبيعة .

(٢) قال ابن أبى أصيبعة : أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى من ساكنى مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالأندلس من ولد موسى النبي عليه السلام ، عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب ونال حظاً جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع فى علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيق وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر ، واشتغل أيضاً بالعلم الطبيعى وكان له نظر فى الطب، وكان في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة فى الحياة وهو فى سن الشبيبة .

عشرين وأربعمائة ، وهو قد قارب ثمانين سنة . قال : وقرأت في بعض تآليفه أنه أخذ صناعة المنطق عن محمد بن عبدون الجبلي ، وعمر بن يونس بن أحمد الحراني ، وأحمد بن جفصون الفيلسوف ، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم القاضي النحوي ، وأبي عبد الله محمد بن مسعود البجاني ، ومحمد بن ميمون المعروف بمركوس ، وأبي القاسم فيد بن نجم ، وسعيد بن فتحون السرقسطي ، المعروف بالحمّار ، وأبي الحارث الأسقف ، تلميذ ربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف ، وأبي مرين البجاني ، ومسلمة بن أحمد المرجيطي .

وقد ترجم ابن أبي أصيبعة عالماً من علماء الأندلس ، وطبيباً من أطبائها ، اسمه ابن بكلارش ، كان يهودياً ، قال إنه خدم بصناعة الطب بني هود ، وله من الكتب كتاب « المجدولة في الأدوية المفردة » وضعه مجدولا ، وألفه بمدينة المرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود .

ولا شك في أنه ليس من ذكرناهم هم جميع الذين نبغوا من أهل سرقسطة في العلم والأدب ، بل مهما استقصى الانسان فلا بد من أن يفوته تراجم كثيرة ، إما سهواً منه أو من المؤلفين الذين أخذ عنهم ، وهذا هو الشأن في كل مدينة حاولنا أن نذكر من خرج منها من العلماء والأدباء .

هذا وفي سرقسطة صدر الأمر من فيليب الثاني ملك اسبانية باخراج المور يسك أي المسلمين الذين أكرهوا على التنصر ، ولبثوا يضمرون الاسلام في قلوبهم ، وكان لايزال منهم عدة ألوف في بلاد أراغون وفي سائر اسبانية ، وكان منهم عدد غيرقليل في سرقسطة و برشلونة ، وفي مدن قشتالة ، وقلما خلت منهم بلدة . فلما صممت الدولة الاسبانية على إخراجهم جميعاً من البلاد ، بحجة أنهم لايزالون مسلمين في الباطن ، اعترض على ذلك كثيرون من الأهالي ، لاسيما أصحاب الأراضي ، وقدموا وأخروا ، وقالوا للملك : إن بعض البلاد ستصبح قاعاً صفصفاً إذا خرج المور يسك منها ، فأبى الملك إلا إنفاذ أمره الذي صدر في ٢٣ مايو سنة ١٦١٠

وبمقتضى هذا الأمر كان يجب اجتماع جميع المور يسك ليأتي المعتمد الخاص من قبل الحكومة ، ويسير بهم إلى الثغر البحرى ، الذى سيخرجون منه ، وقد جاء فى هذا الأمر أن الموريسكى الذى يكون متزوجا بمسيحية أصلية يجوز بقاء امرأته وأولاده ، إذا شاءوا البقاء فى البلاد . وكذلك المسيحيون الأصليون المتزوجون بمور يسكيات إذا أرادوا هم ونساؤهم البقاء فى البلاد فلهم ذلك . وكذلك المور يسك الذين تحقق أنهم ارتدوا عن الاسلام ارتداداً صحيحياً لا شائبة فيه ، فهؤلاء لهم أيضاً حق البقاء .

فخرج من المور يسك بضعة عشر ألفاً ، بطريق نبارة إلى فرنسة . وخرج بضعة عشر ألفاً إلى ميناء كمفرنش ، والتحقوا ببلاد الاسلام .

وتاريخ المور يسك بتفاصيله سنأتى به فى جزء خاص ، بعد الانتهاء إن شاء الله من جغرافية الأندلس ، وتاريخ الدول الاسلامية فيها .

ومن توابع سرقسطة حصن يقال له شميط ، بضم فكسر ، ذكره ياقوت فى المعجم ، وحصن آخر يقال له « قشب[١] » بفتح فسكون . قال ياقوت : حصن من قطر سرقسطة ينسب اليه أبو الحسن نفيس بن عبدالخالق بن محمد الهاشمى القشبى المقرىء ، جاور بمكة مدة ، قال أبو طاهر السلفى : وقرأ علىّ بعد رجوعه من مكة وتوجه إلى الأندلس . ومن حصون سرقسطة الحصن المسمى قشتلار Castellar و بلدة يقال لها « الاغون » و بلدة أخرى اسمها « منزلبار با » و بلدة أخرى اسمها بُرجة . وهى مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة إلى الشمال الغربى من سرقسطة ، وهى تناوح شارات مونكايو Moncayo ، وقد كانت برجة من البلاد المعروفة فى زمن العرب . ونبغ فيها أناس من أهل العلم ، ومنهم من سكن سرقسطة ، وقد تقدم ذكر أحدهم ، وهى غير برجة التى هى من أعمال البيرة ، فان برجة سرقسطة هى بضم أولها

---

(١) بالاسبانيولية Caspi وهى على نصف المسافة بين سرقسطة ولاردة موقعها على نهر أبره .

كان يلفظها العرب كما يلفظها الاسبانيول اليوم Boya [1] وأما برجة البيرة فهى بفتح أولها .

تطيلة Tudela

وعلى مسافة ٧٨ كيلو مترا من سرقسطة مدينة تطيلة ، واقعة على الضفة اليمنى من ابره . ولها هناك جسر ١٩ قوساً ، وسكان هذه المدينة اليوم نحو من عشرة آلاف . ولكنها كانت عظيمة فى أيام العرب .

قال ياقوت الحموى فى المعجم : تطيلة بالضم ثم الكسر وياء ساكنة ولام : مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة ، تتصل بأعمال أشقة ، هى اليوم بيد الروم [2] شريفة البقعة ، غزيرة المياه ، كثيرة الأشجار والأنهار ، اختطت فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية . وقال أبو عبيد البكرى : كان على رأس الاربعمائة بتطيلة امرأة لها لحية كاملة كلحية الرجال ، وكانت تتصرف فى الأسفار كما يتصرف الرجال ، حتى أمر قاضى الناحيـة القوابل بامتحانها فأجبن عن ذلك ، فأكرهنها

---

(١) وقيل إن من توابع سرقسطة « المنارة » قال ياقوت : وعن السلفى : أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن سلامة الانصارى المنارى ، ومنارة من ثغور سرقسطة بالاندلس كان يحضر عندى لسماع الحديث سنة ٥٣٠ بعد رجوعه من الحجاز ، وذكر لى أنه سمع بالاندلس من أبى الفتح محمد المنارى ، وذكر أنه قرأ على أبى الوليد يونس بن أبى على الآبرى . وعلى بن محمد المنارى صاحب أبى عبد الله المغامى ، سمع الموطا وغيره بالمغرب اه . قلت : إن المعروف عندى هو أن بقرب دروقة من عمل سرقسطة جسراً يقال له جسر المنارة . وكذلك توجد بلدة اسمها « المنارة » بقرب « بلفى » من عمل لاردة من الثغر الشرقى .

وذكر العرب من توابع سرقسطة «ملوندة» قال ياقوت إنها حصن من حصون سرقسطة

(٢) كتاب العرب كانوا يعبرون عن الاسبانيول بقولهم تارة : الافرنج ، لأن هذا الاسم صار عند العرب مرادفاً للاوربيين ، وتارة بالروم لأنه عند العرب اسم لكل من كان فى الأصل تابعاً لمملكة رومة ، وأحياناً بالنصارى الاسم العام لهم ، ولم يكن اسم الاسبانيول معروفاً حينئذ .

فوجدوها امرأة ، فأمر بحلق لحيتها ، ولا تسافر إلا مع ذى محرم . و بين تطيلة وسرقسطة سبعة عشر فرسخاً ، و ينسب إليها جماعة ، منهم أبو مروان اسماعيل بن عبد الله التطيلى اليحصبى وغيره . انتهى .

من انتسب إلى تطيلة من أهل العلم

عبد الله بن محمد الفهرى كانت له رحلة ، نقل ابن الأبار القضاعى عن ابن حبيش قال : كان عالما فاضلا ، صالحا ديّناً ، من الحفاظ المتقدمين . وأبو عبدالله ابن محمد بن عيسى بن القاسم الصدفى ، سكن بآخرة مدينة فاس ، سمع أبا على بن سكّرة الصدفى ، ولازم مجلسه لسماع الحديث ، ومسائل الرأى ، وكان فقيها عارفا بالوثائق ، أديبا شاعراً ، استكتبه ابن الملجوم فى قضائه بمكناسة ، واستخلفه ، وتوفى سنة ٥٢٩ ، عن ابن الأبار . وأبو حفص عمر بن محمد بن اسماعيل الزاهد المعروف بالترفى ، روى بالمشرق عن أبى القاسم بن الصقلى ، توفى سنة ٣٧٩ .

وسكن تطيلة من العلماء عبد الرحمن الحسين ، روى عن عبد الله محمد بن يحيى ابن عبد العزيز بن الخراز صاحب الصلاة بقرطبة . وأبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن ابرُيلى من أهل تطيلة وقاضيها . له رحلة الى المشرق حج فيها سنة ٣٨١ ، ولقى مشيخة المصريين ، وأخذ عنهم ، وكان موصوفا بالعلم والصلاح ، والعفة والشجاعة ، والجهاد بثغره ، وخرج مع المهدى محمد بن هشام لنصرته ، فقتل بعقبة البقر ، فى صدر شوال سنة ٤٠٠ ، عن ابن بشكوال .

وأبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعيد بن موسى بن نعم الخلف الرعينى ، من أهل تطيلة ، سمع بسرقسطة من القاضى أبى الوليد الباجى ، وكان قد رحل حاجاً فلقى بمكة أبا معشر الطبرى ، و بالاسكندرية أبا الفتح السمرقندى ، وكان مولده سنة ٤٤٣ ، وتوفى سنة ٥٠٧ فى أوريوله ، قاله ابن بشكوال . وأبو عبد الله محمد ابن أحمد بن مطرف البكرى ، يروى عن أبى العباس أحمد بن أبى عمر المقرى ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى على بن المبشر ، والحصري وغيرهم ، توفى بالميرته سنة ٥٢١ ، عن

ابن بشكوال . ووليد بن خطاب بن محمد ، سمع من أبى بكر التجيبى وغيره ، وله رحلة إلى المشرق كتب فيها عن أبى سعد الماليني ، وعن جماعة سواه . كانت له عناية بالحديث وكان ثقة ، رواه ابن بشكوال . وأبو بكر يحيى بن زكريا بن محمد الزهرى القرشى ، روى ببلدة تطيلة عن عبد الله بن بسام وغيره ، حدّث عنه الصاحبان وقالا : كان رجلا صالحا ، رحمه الله

وأبو الحسن داود بن اسماعيل المكتّب، حكى عنه أبو عمرو البلجيطى [١] ترجمه ابن الأبار وأبو جعفر أحمد بن على بن غزلون الأموى ، روى عن أبى الوليد سليمان بن خلف الباجى، وهو معدود من كبار أصحابه ، وكان من أهل الحفظ والذكاء ، وتوفى بالمدوة فى نحو ٥٢٠ قاله ابن بشكوال . وحوشب بن سلمة ، قال ابن عميرة : تطيلى منسوب إلى بلدته ، ولى قضاءها ، ومات بها فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وأبو الوليد حيون بن خطاب بن محمد ، يروى عن أبى العاصى حكم بن ابراهيم المرادى ، وأبى محمد بن أرفع رأسه ، وسهل بن ابراهيم الاستجى وابن الهندى وابن العطار ، وله رحلة إلى المشرق حج بها ، ولقى الداودى والقابسى ، والبراذعى وله كتاب جمع فيه أسماء الرجال الذين لقيهم ، حدّث عنه محمد بن سمان الثغرى .

وزكريا بن الخطاب بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن حزم الكلبى محدث ، من أهل تطيلة ، رحل إلى المشرق حاجا سنة ٢٩٣ ، فسمع بمكة كتاب النسب للزبير بن بكار ، من الجرجانى ، وروى موطأ مالك بن أنس ، رواية أبى المصعب الزهرى ، فكان الناس يأتون إلى تطيلة للسماع منه . وعمر بن يوسف ابن موسى بن فهد بن خصيب بن الامام ، تطيلى ، توفى سنة ٣٣٧ . ونعم الخلف ابن أبى الخصيب ، يكنى أبا القاسم ، من أهل تطيلة ، كان محدثاً ، شاعراً ، زاهداً ،

(١) نسبة إلى بلجيط من عمل سرقسطة إلى الجنوب منها ، والاسبان يقولون لها « بلشيت » Belchite . وقد ذكر ياقوت فى المعجم بلدة من نواحى سرقسطة اسمها « بلطش » بفتح الطاء والشين معجمة ، وقال : ان لها نهراً يسقى عشرين ميلا . ولم تتحقق اسمها بالاسبانيولى

مرابطاً ، غازياً ، قتل شهيداً سنة ٢٩٨ . ذكره ابن عميرة فى بغية الملتمس . وعامر ابن مؤمل ، بالميم ، وقيل موصل ، بالصاد ، ابن اسماعيل بن عبد الله بن سليمان بن داود بن نافع اليحصبى ، يكنى أبا مروان ، محدث من أهل تطيلة ، مات فى أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموى . ومحمد بن على بن محمد بن شبل بن كايب بن معشر ابن عبد الله القيسى . وسعيد بن هارون بن عفان بن مالك بن عبد الله ، اليحصبى التطيلى محدث ، له رحلة . ذكره محمد بن حارث الخشنى عن ابن عميرة .

وإلى الشمال من تطيلة مدينة « الفارُه » (١)

---

(١) Alfaro وهى من المدن التى كانت للعرب. قال ياقوت: فاره بالراء المشددة والهاء بلفظ قولهم : امرأة فارة ، اى هاربة . مدينة فى شرق الاندلس ، من اعمال تطيلة اهـ جاء فى دليل بديكر أنها مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة

ومما ذكره جغرافيو العرب من اعمال تطيلة « فاجرة » ، قال ياقوت : بكسر الجيم والراء المهملة ، مدينة فى شرق الاندلس من أعمال تطيلة هى اليوم بيد الافرنج . قلت : هى بلدة قديمة كان يقيم بها الملوك وفيها أديار وكنائس ولفظها عند الاسبانيول Najera كما هو عند العرب .

وقالوا إن من أعمال تطيلة أرنيط ، قال ياقوت : بضم أوله مدينة فى شرقى الأندلس من أعمال تطيلة ، مطلة على أرض العدو ، بينها وبين تطيلة عشرة فراسخ ، وبينها وبين سرقسطة سبعة وعشرون فرسخا . قال ابن حوقل : هى بعيدة عن بلاد الاسلام اهـ . قلنا : إلى الشمال من تطيلة ، ضاربة فى الارض التى كانت يومئذ للعدو ، بلدة « أوليت » وفيها مساكن للملوك نبارة ، فهل هذه هى التى يقال لها « ارنيط » أو الراء فيها محرفة عن الواو وهى « أونيط » واللام والنون تتبدل إحداهما من الاخرى ؟ على ان الادريسى يذكر « أرنيط » على انها إقليم قلعة أيوب ودروقة ، وفى دليل بديكر ذكر بلدة اسمها « ارنيدو » على ٣٠ كيلو متراً من « كلهرة » ، فالاقرب ان أرنيط هى هذه .

وذكروا أيضاً من أعمال تطيلة « بقيرة » ، قال ياقوت : بينها وبين تطيلة أحد عشر فرسخاً . فهل هى « أقيلة » Aguila التى بقرب تطيلة من جهة الشرق وقد حرفها العرب الى « بقيرة » ؟ .

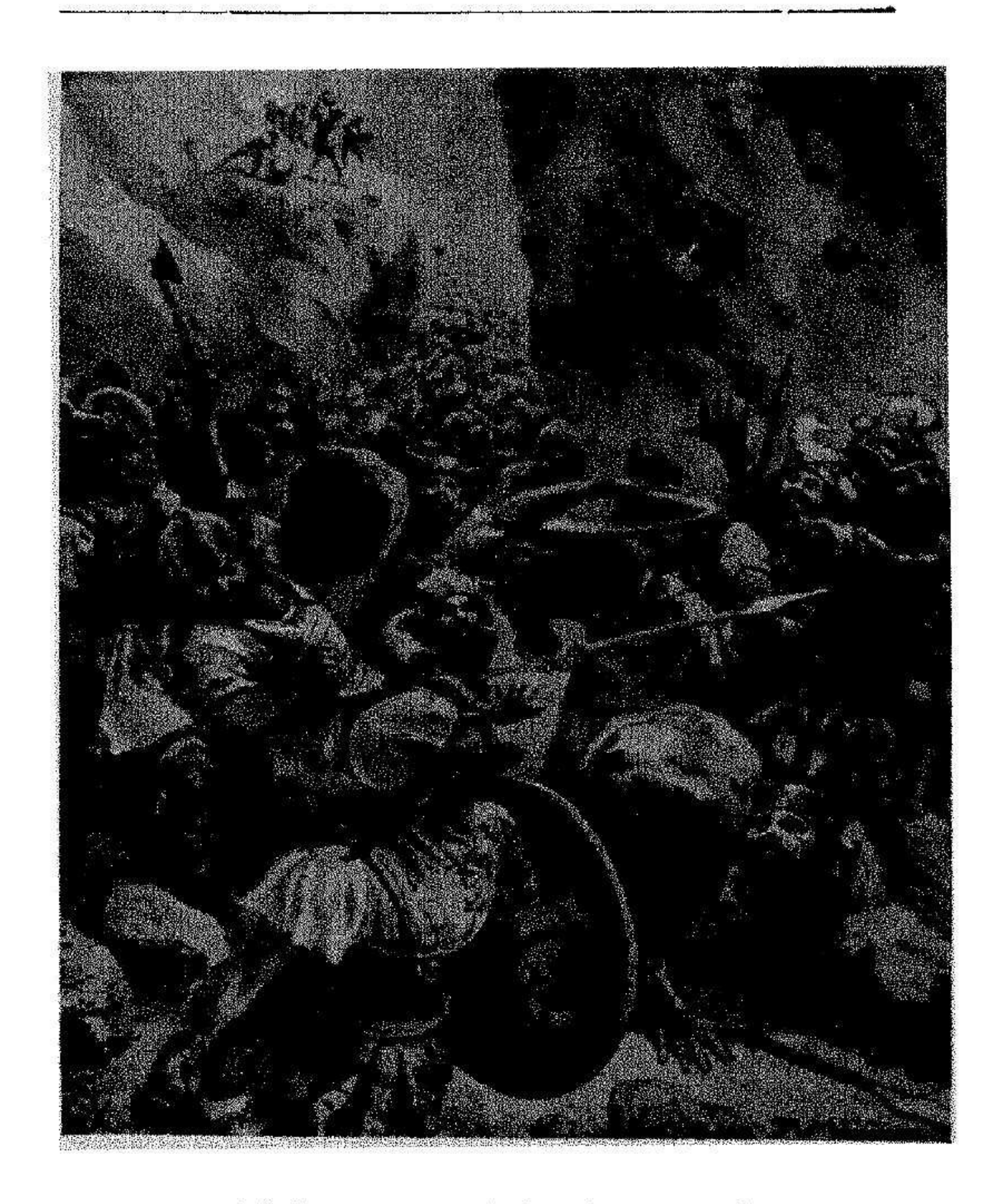
طرسونة Tarazona

وإلى الجنوب الغربى من تطيلة مدينة طرسونة Tarazona على مسافة ٢٢ كيلو متراً . واسمها كان عند الرومانيين توريا سو Turiaso ، سكانها اليوم ثمانية آلاف نسمة ، وفيها كنيسة من بناء القرن الثانى عشر ، وقد كانت طرسونة من المدن العربية المعروفة. قال ياقوت فى المعجم : بينها و بين تطيلة أربعة فراسخ ، معدودة فى أعمال تطيلة ؛ كان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين إلى أن تغلب عليها الروم ، فهى فى أيديهم إلى هذه الغاية [1] . انتهى . ومن طرسونة إلى شورية Soria ٦٧ كيلو مترا

---

(١) ومن البلاد التى تتصل بتطيلة « قلصادة » جاء فى دليل بديكر أنها على مسافة ١٩ كيلو متراً إلى الغرب من ناجرة ، على طريق برغش Burgos والأسبان يقولون لها « سانتا دومينيقو قلصادة » Santa Dominigo de la calzada وليس فيها أكثر من أربعة آلاف من السكان ، ولكن فيها كنيسة من الطرز القوطى عظيمة . قلنا إنه منسوب إلى قلصادة ، ونظنها هى هذه ، رجل من أعلم علماء الأندلس اسمه أبو الحسن على بن محمد بن على القرشى البسطى القلصادى ، ترجمه نفح الطيب فيمن رحل إلى المشرق ، وضبطه « القلصادى » بفتحات وقال فى حقه : الرحلة المؤلف الفرضى ، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس ، وأكثر تصانيفه فى الحساب والفرائض كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء والحوفى ، وكفاه فخراً ان الامام السنوسى صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب ، وأجازه جميع مروياته . وأصله من بسطة ، ثم انتقل الى غرناطة فاستوطنها ، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطى وغيرهما ، ثم ارتحل الى المشرق ، ومر بتلمسان ، فاخذ بها عن عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضى أبى الفضل العقبانى ، وأبى العباس بن زاغ وغيرهم ، ثم ارتحل فلقى بتونس تلاميذ ابن عرفة كابن عقاب والقلشانى ، وغيرهما ، ثم حج ولقى أعلاما ، ورجع فاستوطن غرناطة ، إلى أن حل بوطنه ماحل ، فتحيل فى خلاصه من الشرك ، وارتحل فمر بتلمسان فنزل بها على الكتيب ابن مرزوق ابن شيخه . ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية ، منتصف ذى الحجة سنة ٨٩١ (أى قبل سقوط غرناطه بست سنوات)

ومن تآليفه أشرف المسالك إلى مذهب مالك . وشرح مختصر خليل ، وشرح الرسالة وشرح التلقين ، وهداية الانام فى شرح مختصر قواعد الاسلام ، وشرح رجز القرطبى ، وتنبيه الانسان إلى علم الميزان ، والمدخل الضرورى ، وشرح ايساغوجى فى المنطق .



انكسار جيش شارلمان فى باب الشرزى من جبال البرانس .

هذا وينسب إلى طرسونة بعض أهل العلم ، منهم أبو سحق بن يعلى الطرسونى[١]
ثم مدينة كشيجون Cactjon على مسافة ٩٤ كيلو متراً من سرقسطة ، وقصبة «اوليت» Oliete ، وسكانها نحو من ألفى نسمة ، وقصبة طفاله Tafalla سكانها خمسة آلاف نسمة . وعلى ٨٨ كيلو مترا من سرقسطة بنبلونة الشهيرة ، وقد تقدم ذكرها فى أثناء الكلام على جبال البيرانس ، والأسبانيول يكتبونها بالميم بعد الفاء الفارسية ، أى بامبلونة ، ولكن العرب يكتبونها بالنون ، لأنهم لايأتون بالميم بعد الباء ، وإنما يأتون بالنون . وسكان بنبلونة نحو من ثلاثين ألفا ، وهى واقعة على ضفة نهر أرقة Arga ويحيط بها سور قديم بناها بومى Pompée الرومانى ، فانتسبت إليه ، وصارت تسمى بومبايلو Pompaela ثم تحرفت إلى اسمها الحالى بنبلونة ، وكان استيلاء القوط على هذه البلدة سنة ٤٧٦ للمسيح ، ثم فى سنة ٥٤٢ استولى عليها الافرنج ، ثم فى سنة ٥٧٨ جاءها العرب ، واستولوا عليها مدة غير طويلة . ومن سنة ٩٠٥ صارت قاعدة مملكة نبارة Navarra ، ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٥١٢ ، وفى حصارها

وشرح الانوار السنية لابن جزى ، وشرح رجز الشراز فى الفرائض . وشرح حكم ابن عطاء الله ، وشرح رجز أبى عمرو بن منصور فى اسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وشرح البردة ، وشرح رجز ابن برى . وشرح رجز شيخه أبى إسحق بن فتوح فى النجوم . وشرح رجز ابن مقرعة . وله النصيحة فى السياسة العامة والخاصة . وهداية النظار فى تحفة الاحكام والاسرار . وكشف الجلباب عن علم الحساب . وكشف الاسرار عن علم البخار . والتبصرة . وقانون الحساب وشرحه . وشرحان على التلخيص كبير وصغير وشرح ابن الياسمين فى الجبر والمقابلة ومختصره . وكليات الفرائض وشرحها . وشرحان للتلمسانية كبير وصغير . وشرح فرائض صالح بن شريف . وفرائض مختصر خليل . وشرح لابن الحاجب . وكتاب الغنيه فى الفرائض . وغنية النجاة وشرحاها الكبير والصغير . وتقريب المواريث . ومنتهى العقول البواحث . وشرح مختصر العقبانى ولم يتم . ومدخل الطالبين . ومختصر مفيد فى النحو . وشرح رجز ابن مالك . وشرح الأجرومية وشرح جمل الزجاجى . وشرح ملحة الحريرى . وشرح الخزرجية . ومختصر فى العروض.

(١) وقد أقام بطرسونة أبو الحسن سعيد بن محمد الجهمى المقرىء من أهل وادى الحجارة وتوفى بها، وكان يعرف بابن قوطه



صورة أحد أبواب بنبلونة



صورة باب الكنيسة الكبرى فى بنبلونة

جُرح اينيقولو بيس ريكالد الذى بعد أن كان قائد عسكر ترهّب وأقلع عن الدنيا ، وصار هو القديس أغناطيوس لويولا Loyola مؤسس الرهبانية اليسوعية

وفى بنبلونة كنيسة كبرى بدأ ببنائها كارلس الثالث ملك نبارة سنة ١٣٩٧ ، وفى الزاوية الجنوبية الغربية من الكنيسة شبكة حديدية أصلها سلسلة ، كانت تحيط بسرادق الناصر سلطان الموحدين ، أخذت منه في الهزيمة الكبرى التى وقعت على المسلمين فى وقعة العقاب التى يقول لها الاسبان « لاس نافاس دوطولوزه » Les Novas de Tolosa

ومن بنبلونة يصعد السائح الى جبال البيرانس ، وغير بعيد من هناك مضيق رونسفو ، ويقال له أيضاً رونسفال Roncevalles الذى انهزمت فيه ساقة شارلمان وهو قافل من سرقسطة ، ويقول له العرب باب الشزرى .

ومن بنبلونة إلى سان سبستيان ٩٣ كيلو متراً بسكة الحديد . وفى هذه المسافة يقطع الخط الحديدى الحد الذى كان فاصلا بين قشتالة القديمة ونبارة . ومن مدن تلك البلاد « الفاره » وسكانها ستة آلاف ، ثم « كَلَهَرّه » وهى مدينة ايبيرية قديمة سكانها عشرة آلاف ، واقعة على نهر سيدا كوس Cidacos وكان اسمها فى القديم كالاغوريس ناسيكا Calagurris Nassica وفيها كنيسة قديمة جداً فيها عظام بعض شهداء النصرانية . ومن كلهره الى شورية ٩٩ كيلو مترا . وأما الارض القفر المسماة سولانا Solana فتمتد من الابره الى أرقة Arga .

ومن المدن المجاورة لنهر سيدا كوس قصبة يقال لها ارنيدو Arnide [(١)] ثم بلدة يقال لها لودوسا Lodosa فيها كهوف كانت مساكن ، ثم بلدة يقال لها آغون سيلّو وفيها حصن بأربعة أبراج ، ثم مدينة لوكرونتو Logrono وكان العرب يقولون لها « لوكرونى » وهى بلدة سكانها خمسة عشر ألفا ، معدودة من قشتالة القديمة . ومن لوكرونى مسافة ٢٥ كيلو مترا إلى ناجرة ، وهذه بلدة قديمة كان لها شأن فى القديم ،

(١) هذه التى نظن أن العرب كانوا يقولون لها « ارنيط » وبعد ذكرها ياقوت والإدريسى وغيرهما

وفيها قصر كان يسكنه الملوك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وعلى ١٩ كيلو متراً إلى الغرب من ناجره ، على طريق برغش ، بلدة يقال لها سانتودومنقه قالصادة . وهي التي ينسب اليها الامام القلصادي المار الذكر Santo Domingo de la Calzada وفيها أربعة آلاف نسمة ، ومن لوكروني مسافة قصيرة إلى بلدة استلّه Estella

وقد ورد ذكر ناجره في كتب العرب ، قال ياقوت : ناجرة بكسر الجيم ، والراء مهملة . مدينة في شرقي الاندلس من أعمال تطيلة ، هي الآن بيد الافرنج ، والى اليمين من نهر ابره توجد جبال وعرة في وسط الحقول ، وذلك عن بلدة « فون مايور » Fuenmayor وعندها قنطرة على ابره ، ثم بلدة « غواردية » وأما بلدة هارو Haro فهي من ناحية « ريوجه » Rioja وسكانها ثمانية آلاف نسمة ، وبالقرب منها وادي ميرَنْدَة

ومن سَرَقسطة يمر الخط الحديدي على الضفة اليمنى من نهر جلّق ، فعلى مسافة ثمانية كيلو مترات يصل إلى بلدة يقال لها « سان جوان موزاريفار » وبالغرب منها بلدة أخرى اسمها « فيلاّ نوفة » ثم بلدة « زويرة » ثم قصبة يقال لها المدور ، سكانها ثلاثة آلاف فيها حصن قديم : ثم بلدة تسمى « تاردينتة » Tardienta

ثم مدينة وشقة وهي بلدة في غاية القدم ، سكانها اليوم ثلاثة عشر ألفاً ، لايزيدون وهي على رابية مشرفة على سهل الهوّية La Hoya ، وكان يقال لهذه البلدة لعهد الرومانيين أوسكا Osca وكان سرطوريوس لذلك العهد أسس فيها مدرسة لشبان الأيبيريين . وقد فتح العرب وشقة في ما فتحوه من المدن عند ما استولوا على سَرَقسطة أي في سنة ٩٦ للهجرة ، وفق ٧١٣ للمسيح ، وفي الانسيكلوبيدية الاسلامية ينقل عن المستشرق قُدَيرة : أن وشقة كانت مركز مقاطعة مستقلة في نواحي سنة ٣٠١ ، لعهد أميرها محمد بن عبد الملك الطويل ، وبقيت في يد العرب الى سنة ١٠٩٦ من التاريخ المسيحي ، فاسترجعها الأسبان ، وجعلوها قاعدة مملكة أراغون ، وبقيت

كذلك إلى سنة ١١١٨ ، إذ نقلوا مركز الحكم الى سرقسطة نفسها بعد أن أخرجوا العرب منها .

أما ياقوت الحموي فقال عن وشقة ، بفتح أوله ، وسكون ثانيه والقاف : بليدة بالاندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر ، له رحلة . وابراهيم ابن عجيس بن اسباط بن اسعد بن عديّ الزيادي الوشقي ، كان حافظاً للفقه ، واختصر المدوّنة ، له رحلة سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى ، ومات سنة ٢٧٥ . عن ابن الفرضي . وابنه احمد ، سمع من أبيه . وتوفي سنة ٣٢٢ انتهى .

من انتسب إلى وشقة من أهل العلم

خالد ابن أيوب أبو عبد السلام ، محدث من أهل وشقة . ذكره ابن يونس ، ونقل ذلك بن عميرة . وأبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير ، المعروف بابن أبي درهم القاضي من أهل مدينة وشقة ، محدّث له رحلة ، قال الحُميدي : ورأيت في نسبه زيادة بخط ابن ابنه القاضي أبي عبد الله يحيى بن القاضي أبي الاصبغ عيسى ابن القاضي أبي الحزم خلف ابن عيسى ابن سعيد الخير بن أبي درهم بن وليد بن ينفع بن عبد الله التجيبي ، سمع بالأندلس أبا عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى بن يحيى ، وأبا بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ، وأبا زكريا يحيى بن سليمان بن هلال بن بطرة ، و بمصر من أبي محمد الحسن بن رشيق وطبقته . روى عنه أبو الوليد هشام بن سعيد الخير بن فتحون الكاتب ، حدّث عنه بالموطأ رواية يحيى ابن يحيى . ذكره ابن عميرة .

وأبو عثمان سعد ابن سعيد بن كثير المرادي محدث ، وشقي ، سمع من محمد ابن يوسف بن مطروح وطبقته ، مات في صفر سنة ٣٠٦ . ذكره ابن عميرة ، وكان ابنه سعيد أيضاً من أهل العلم . وصالح بن محمد المرادي ابو محمد يعرف بابن الوركاني ، وشقيّ محدّث ، مات بالاندلس سنة ٣٠٢ ، ذكره ابن عُمَيرة .

وعبد الله بن حسن بن السندي ، وشقيّ ، توفي سنة ٣٣٥ ، عن ابن عميرة .

وعبد الله بن وهب ، وشقي محدث ، مات سنة ٣٠١ . عن ابن عميرة .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن ابراهيم بن عجنس بن أسباط الزيادى ، من أهل وشقة ، مات سنة ٣١٤ ، عن ابن عُميرة

وعبد السلام بن وليد ، محدث ، ولى قضاء وشقة فى أيام الأمير الحكم بن هشام الأموى ، قال ابن عميرة : ذكره ابن يونس

وأبو عثمان عفان بن محمد ، من أهل وشقة ، مات سنة ٣٠٧ ، ذكره ابن عميرة

وهشام بن سعيد الخير بن فتحون ، أبو الوليد الكاتب ، قال الحُميدى : أظن أصله من وشقه ، محدّث جليل ، سمع بالأندلس ، ورحل إلى الحج ، فسمع بطريقه فى القيروان ، و بمصر ، و بمكة ، من جماعة ، ورجع إلى الأندلس ، فحدّث بها ، وسمعنا منه . فمن شيوخه بالأندلس القاضى أبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير الوشقى ، المعروف بابن أبى درهم . وأبو مهدى عبدالله بن أحمد بن فُترى . ومن شيوخه بالقيروان أبو عمران الفاسى ، وأبو اسحق المكناسى ، وعتيق بن إبراهيم ، وابن عياش الأنصارى ، وابن الحوّاص . ومن شيوخه بمصر عبد الجبار بن عمر ، وأبو العباس بن منير ، وأحمد ابن محمد بن الحاج الاشبيلى . ومن شيوخه بمكة أبو محمد بن فراس الأطروش ، وأبو بكر ابن الاسفرائينى ، وأبو العباس بن بندار الرازى ، وأبو الحسن بن بندار القزوينى ، وأبو بكر بن الحسن الصقلى ، وأبو محمد مكى بن عيسون ، وأبو عبدالله محمد بن سهلان الواسطى . وكان أبو الوليد جميل الطريقة منقطعاً إلى الخير ، مات بعد الثلاثين وأربعمائة

وأبو عمر يوسف بن مروان بن عيشون المعافرى ، قال ابن عميرة : وهو وشقى ، يروى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وطبقته ، ويُعرف أهلُ بيته بوشقه ببنى المؤذن ، مات بالأندلس سنة ٣٠٩ . وأبو محمد عبدالله بن محمد بن غالب الوشقى القاضى ، حدّث عن أبى هارون موسى بن هارون بن خلف بن أبى درهم ، قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت ذلك بخط ابن الصيقل المرسى . وأبو محمد عبدالله بن سعدون بن مجيب ابن سعدون بن حسّان التميمى الضرير ، من أهل وشقة ، سكن بلنسية ، أخذ القراءات عن أبى المطرّف بن الورّاق ، وأبى جعفر عبد الوهاب بن حكم الوشقى ، وأبى القاسم

خلف بن أفلح الأموى ، وأبى داود المقرئ ، وأبى الحسن بن الدوش ، وتصدر للاقراء بجامع بلنسية ، قال ابن الأبار : وكان من أهل التجويد والتعليل ، والضبط والاتقان لهذا الشأن ، مشاركا فى العربية ، وكان يعلم بها ، أخذ عنه أبو الربيع بن حوط الله ، وأبو العطاء بن نذير ، وأبو الوليد بن بسّام اللاردى ، وغيرهم ، وقفت على ذلك ، وتوفى قبل الأربعين وخمسمائة . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن موسى بن خلف بن عيسى بن سعيد الخير بن وليد بن ينفع بن أبى درهم التجيبى ، روى عن أبيه أبى هارون وعن غيره ، وولّى قضاء بلده وشقة ووراثة عن سلفه ، حدّث ، وأخذ عنه ، قال ابن الأبار : وقفت على ذلك بتاريخ شوال من سنة إحدى وخمسمائة . وأبو زيد عبدالرحمن ابن محمد بن حيات الأنصارى المقرئ من أهل وشقة ، نزل سرقسطة ، يعرف بابن قرّايش ، أخذ القراءات عن أبى اسحق بن دُخنيل ، وأبى داود المقرئ ، وأبى الحسن ابن الدوش ، وأبى تمام القطينى ، وتصدّر للاقراء بسرقسطة ، وكان مقرئا ماهراً ، نحوياً حافظا ، أخذ عنه أبو الطاهر الأشتركوى ، وأبو مروان بن الصيقل . وأبو عمر البلمجيطى ، وغيرهم ، قال ابن الأبّار : وتوفى شهيداً بسرقسطة ، فى الكائنة على أبى عبد الله ابن الحاج المتوفى بها سنة ٥٠٣ ، وتسمّى سنة المرج . قال : بعضه عن ابن حبيش ، وسائره عن ابن عيّاد .

وأبو القاسم عبد الرحمن بن احمد بن قاسم التجيبى ، من أهل وشقة ، سكن المرية ، أخذ القراءات بقرطبة عن أبى جعفر الخزرجى ، وأخذ عن أبى القاسم ابن النحاس قراءة نافع خاصة ، وتصدر بجامع المرية للاقراء ، وأخذ عنه الناس ، ومن المختصين به أبو العباس البلنسى . قال ابن الأبار : لازمه إلى سنة ٥٢٧ ، وأخذ عنه أيضاً أبو محمد الشُّنْتى المقرىء ، ذكر ذلك ابن عيّاد . وأبو مروان عبد الملك ابن سلمة بن عبد الملك بن سلمة الأموى ، مولاهم ، من أهل وشقة ، يعرف بابن الصيقل أخذ القراءات عن أبى المطرّف بن الورّاق ، وأبى زيد بن حيات ، وأبى الحسن ابن شفيع ، وغيرهم .

ولقى أبا محمد بن عتّاب ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا بحر الأسدى ، وأبا الحسن ابن الأخضر ، وأبا عبد الله المورورى ، وأبا على الصدفى ، وأبا بكر بن العربي ، وأبا عبد الله بن الحاج ، وأبا القاسم بن ثابت ، قاضى سرقسطة ، وأبا محمد الركلى ، وأبا محمد البَطَلْيوسى ، وغيرهم . وأجاز له بعضهم. وقال أبو عبد الله بن عيّاد : له اجازة من ابن عتّاب ، وابن رشد ، وأبى بحر ، ولم ينص على سماعه منهم . قال ابن الأبار : وهو صحيح . وتصدر ببلنسية لاقراء القرآن والنحو والأدب سنين جملة ، وكان مشاركا فى فنون ، فقيهاً ، أديباً ، فصيحاً ، مع الضبط والاتقان . حدّث عنه أبو عمر بن عيّاد وأبو جعفر بن نصرون ، وأبو بكر بن هذيل ، وشيخنا أبو عبد الله بن نوح وغيرهم ، وتوفى بالمرية ، منصرَفَهُ من العدوة سنة ٥٤٠ . وصارت كتبه ببلنسية ، وأمواله بالمرية ، لبيت المال .

وأبو يونس عبد العزيز بن زكريا بن حيّون ، كان من العناية بالعلم ، قال ابن الأبار : ولم تكن له رحلة ، وتوفى سنة ٣٢٠ . ذكره ابن حارث ، وذكر ابن الفرضى أباه زكريا بن حيون . وأبو هرون موسى بن خلف بن عيسى بن أبى درهم التجيبى ، قاضى وشقه ، سمع أباه ، وأبا عمرو السفاقسى وحج فى سنة ٤٠٧ . فسمع من أبى عبد الملك البونى كتابه شرح الموطأ ، وسمع بالقيروان صحيح البخارى من أبي عمران الفاسى ، وأجاز له جماعة . وهو من بيت قضاء وجلالة ، حدّث عنه ابناه أبو موسى هرون ، وأبو المطرف عبد الرحمن ، وابن اخته صاحب الأحكام بسرقسطة ، أبو الحزم خلف ابن محمد العبدرى ، وحدث عنه سنة ٤٤٥ . عن ابن الأبار . وأبو الحزم خلف ابن مسعود بن موسى من أهل وشقة ، يعرف بابن الجلاد ، حدّث عن أبى العاصى حكم ابن ابراهيم المرادى ، ومسعود بن سعيد السرقسطى ، وحكم بن محمد السالمى وغيرهم . حدّث عنه بالأجازة أبو هارون موسى بن خلف بن أبى درهم . وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد ، يعرف بابن الأبّار ، روى عن أبيه اسماعيل الوشقى ، وعن عبد الله ابن حسن السندى ، وعن زكريا بن الندّاف ، وغيرهم . وكان من أهل الفقه والحديث

قال ابن الأبار القضاعى : سمع منه أبو الحزم بن أبي درهم ، وحدّث عنه بالمدوّنة ، وغيرها . ذكر ذلك أبو الوليد الباجى وسواه . وأبو عبد الله محمد بن موسى بن خلف الوشقى ، منها . أخذ عن ابى داود المقريء ، ورحل حاجاً فلقى ابن الفحّام ، وأخذ عنه ، وقفل إلى الأندلس ، فأوطن الش ، وتولى الصلاة والخطبة بجامعها ، وكان بها يُقرىء القرآن ، وكفّ بصره بآخرة من عمره ، وتوفى قبل الثلاثين وخمسمائة ، عن ابن الأبّار . وأبو الأحوص معن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبى ، والى المرية ، ودارُهم وشقة . كان أميراً مرضى السيرة ، عدلا ، باسطا للحق ، بريئاً من الدماء وأموال الناس . وقلّد ذلك القضاة وأصحاب الشورى ، فما أفتوه به أنفذه بواسطة صاحب الشرطة . وكان ذا حظ من العلم . وقد روى عن أبيه أبى يحيى مختصره لغريب القرآن ، الواقع فى تفسير الطبرى الكبير .

ذكر ذلك أبو محمد بن عبيد الله في برنامجه وقال : وقال الحسن بن أبى الحسن : حدّثوا عن الأشراف ، فانهم لايرضون أن يدنّسوا شرفهم بالكذب ولا بالخيانة . قال ابن الأبار القضاعى في التكملة : وتوفى أبو الأحوص هذا بالمرية سنة ٤٤٣ . وأبو بكر احمد بن سليمان بن محمد بن أبى سليمان قاضى وشقه ، روي بالمشرق عن أبى القاسم بن عبد الرحمن بن الحسن الشافعى ، وأبى ذر الهروى ، وغيرهما . حدّث عنه أبو بكر محمد بن هشام المصحفى ، وسمع منه ، وأثنى عليه . قاله ابن بشكوال فى الصلة .

وكثير بن خلف بن كثير الوشقى ، منها ، روى عن أبى عبد الله بن عيشون ، سمع منه سنة ٣٦٤ ، قاله ابن بشكوال . وأبو عيسى لب بن هود بن لب بن سليمان الجذامى ، رحل من وشقه إلى المشرق ، ودخل بغداد ، وسمع بها مع القاضى أبى على الصدفى على الشيوخ ، وصحبه هناك ، قاله ابن بشكوال . وهرون بن موسى بن خلف ابن عيسى بن أبى درهم ، تقدمت ترجمت أبيه ابى هرون موسى ، سمع من أبيه ، ومن أبى محمد الشنتجالى ، وحيّون بن خطّاب ، وغيرهم ، واستوطن دانية ، وكان قاضياً

بها ، وخطيباً بجامعها ، قال ابن بشكوال : وكانت له معرفة بالأحكام وعقد الشروط وتوفي سنة ٤٨٤ أو نحوها . وأبو عبد الله يحيى بن عيسى بن خلف بن أبي درهم ، سمع من خاله موسى بن عيسى ، ومن ابي الوليد الباجي ، وكان أبو علي بن سكّرة يحسن الثناء عليه ، قاله ابن بشكوال . وسعيد بن يحيى الخشّاب ، محدّث وشقي ، مات بالأندلس سنة ٣١٨ . وأبو الحسن علي بن غالب بن محمد بن غالب ، من أهل وشقة ، له رحلة إلى المشرق ، استوطن طرطوشه ، وولّي الخطبة بجامعها ، وتوفي سنة ٥٢٠ وكان من أهل العلم والفضل . وأبو إسحق ابراهيم بن دُخنيل المقرىء ، من أهل وشقه ، سكن سرقسطة ، روى عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقرىء ، قال ابن بشكوال: وكان رجلا فاضلا ، جيد التعليم ، حسن الفهم ، أخبرنا عنه غير واحد من شيوخنا ، توفي بسَرَقسطة في حدود السبعين والأربعمائة . ومحمد بن سليمان بن تليد ، قاضي وشقه وتولّى القضاء بسرقسطة أيضاً ، يروى عن محمد بن العتبي ، وعن محمد بن يوسف ابن مطروح الربعي ، مات بالأندلس سنة ٢٩٥

* * *

و إلى الشرق من وشقة مدينة « تمريط »[1] مائلة إلى الجنوب ، وهي إلى الشمال من لاردة . ذكرها نفح الطيب .

و إلى الشمال من وشقة على مسافة ١٣٣ كيلو متراً من سرقسطة مدينة «جاقة» سكانها خمسة آلاف نسمة ، وهي قاعدة مقاطعة سوبرار به Sobrarba ، ولها سور وأبراج ، وفيها كنيسة بناها راميرو الأول سنة ١٠٤٠ ، ثم مدينة « سارينينه » Sarinena وسكانها أربعة آلاف نسمة .

ثم مدينة بَرْبُشطر[2] ، وهي الآن مدينة صغيرة ، سبعة آلاف نسمة . ولكن كان لها شأن عظيم في زمان العرب ، وهي إلى الجنوب الشرقي من وشقة ، جاء ذكرها في معجم البلدان فقال : بَرْبُشْتر ، بضم الباء الثانية ، وسكون الشين المعجمة ، وفتح

(١) Tamarite (٢) Barbastro

التاء المثناة من فوق : مدينة عظيمة فى شرق الأندلس ، من أعمال بَرْبَطَانية [١] ، وقد صارت للروم فى صدر سنة ٤٥٢ ، حُمل منها لصاحب القسطنطينية فى جملة الهدايا سبعة آلاف بِكْر منتخبة . ثم استمادها المسلمون فى إمارة أحمد بن سليمان بن هود فى سنة ٤٥٧ ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، فغنموا فى ماغنموا عشرة آلاف امرأة ، ثم

---

(١) Boltania والعرب يقولون « بربطانية » وبه قال ياقوت الذى يضبطها هكذا : بفتح الباء الثانية وطاء وألف ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء . قال : انها مدينة كبيرة بالاندلس يتصل عملها بعمل لاردة ، وكانت سداً بين المسلمين والروم ، ولها مدن وحصون ، وفى أهلها جلادة وممانعة للعدو ، وهى فى شرق الاندلس ، اغتصبها الافرنج ، فهى اليوم فى أيديهم . انتهى . ولكن فى نفح الطيب يسميها كورة برطانية ، بباء واحدة ، لا ببائين ، وهو الأقرب للاصل الاسبانيولى ، وهو يذكرها مع كورة باروشة فيقول : كورة تطيلة ، ومدينتها طرسونة ، وكورة وشقة ومدينتها تمريط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها بليانة ، وكورة برطانية ، وكورة باروشة ، وقد تكرر ذكر برطانية فى نفح الطيب ، فانه يذكر فى أيام الأمير هشام ابن عبد الرحمن الداخل أنه أرسل وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث سنة سبع وسبعين ومائة بالعساكر إلى أربونة وجرندة ، فأثخن فيهما ، ووطىء أرض برطانية . ثم انه عند ذكره إمارة عبد الرحمن الثانى يقول انه فى سنة ست وعشرين بعث العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض برطانية ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ، ولقيهم العدو ، فصبروا حتى هزم الله عدوهم ، وكان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود ، انتهى . ولا يمكن أن يكون قد أراد ببرطانية هنا بلاد بريطانية التى هى فى شمالى فرنسة ، لأنها شديدة البعد ، ولم تذكر التواريخ أن عبد الرحمن الثانى أوغل فى أرض فرنسة ، حتى وصل إلى برطانية . ثم إنه يذكر فى هذه الواقعة بلاء عامل تطيلة موسى بن موسى ، وهو موسى بن موسى بن قصى ، الذى هو من أصل اسبانيولى ، وقد أسلم وتولى الثغر الشرقى مدة طويلة ، فظاهر من هنا أن برطانيه هى البلدة التى يقول لها الاسبانيول « بلطانية » باللام ، وهى إلى الشرق الجنوبى من جاقة ، وإلى الشمال من بربشتر .

عادت إليهم خذلهم الله ، ولها حصون كثيرة ، منها حصن القصر ، وحصن الباكه [١] وحصن قصر منيونش [٢] ، وغير ذلك . وينسب إليها خلف بن يوسف المقري البربُشترى ، أبو القاسم ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وأجاز له . وكان من أهل القرآن والحديث والبراعة والفهم ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٤٥١ . ويوسف بن عمر بن أيوب بن زكريا التجيبى الثغرى البربشترى ، أبو عمرو ، وله رحلة سمع فيها بمصر من الحسن بن رشيق وغيره ، وكان يسكن الاسكندرية ، وبها حدّث . وسمع من أبى صخر بمكة ، قاله السلفى . اه .

قلنا إن ما ذكره ياقوت فى معجمه عن خلف بن يوسف المقرى وجدناه منقولا بالحرف تقريباً عن الصلة لابن بشكوال ، لا يختلف إلاَّ فى قول ابن بشكوال إن وفاة خلف كانت لعشر خلون من رمضان ، وإنه مات بالطاعون . وأما يوسف بن عمر بن أيوب التجيبي ، فكذلك مترجم في الصلة لابن بشكوال . وإنما يقول فى الصلة إن كنيته أبو عمر ، وانه روى بقرطبة عن أبى زكريا بن فطرة ، ويقول إن له رحلة إلى المشرق ، سمع فيها من أبى الحسن بن رشيق بمصر وغيره . ولكنه يزيد على ذلك بقوله : حدّث عنه الصاحبان ، وتوفى بعدها بأُندة سنة ٤٠٨ ، وحدّث عنه أيضاً أبو عمرو المقرى . فظهر لنا أن ياقوت نقل عن أبي طاهر السلفى قوله انه سكن الاسكندرية لأن السلفى كان هناك ، كما لا يخفى

وأما فاجعة بَرْبُشْتر التى مع جميع ما حصل بالاسلام من الفجائع لم يوجد أشق منها ، فقد ذكرها ابن عَذارَى فى البيان المُغرِب فقال : إن جيش الاردامانيين (؟)

(١) ذكر ياقوت هذا الحصن ، وجعله بتشديد الكاف ، فقال : حصن بالاندلس من نواحى بربشتر وهو اليوم بيد الافرنج . انتهى ولعله هو الحصن الذى بقرب المنار ، بين لاردة وبربشتر ، والاسبانيول يقول له « الباكه » Albca وهو أقرب إلى لاردة منه إلى بربشتر .

(٢) لم نجد فى أعمال بربشتر ما يقال له اليوم منيونش ، وإنما توجد بالقرب من بربشتر بلدة يقال لها المنية ، ويقول لها الاسبانيول منية سان يوان

نزلوا عليها ، وجدّوا فى قتالها وحصارها جداً عظيما ، فكان أهلها يقاتلونهم خارج مدينتهم ، وذلك فى سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وكان الماء يأتيها فى سرب تحت الأرض من النهر حتى يدخل إليها فيخترقها ، فخرج رجل من القصبة إلى الروم ودلهم عليه ، فساروا إليه وهدموه وحالوا بينه وبين الاتصال بفم السرب . فعدم أهلها الماء ، ولم يكن لهم صبر على العطش ، فراسلوا الروم فى أن يسلموهم فى أنفسهم وذراريهم ويسلموا إليهم البلد ، فأبى الروم من ذلك فجالدهم المسلمون إلى أن دخل الروم عليهم عنوة ، فقتلوا المقاتلة ، وسبوا الحريم والذرية وحصلوا منها على أموال جليلة ، فكان أشد الرزايا بهذه الجزيرة ، وحصل بأيدى الروم من نساء أهل بَرْبشتر وذريتهم قرب المائة ألف ، حصل من ذلك فى سهم رئيسهم اللعين أربعة آلاف قسمة ، اختارهن أبكاراً ، من الثمانية أعوام إلى العشرة فأهدى منهن لملكه ماشاء . وكان هذا اللعين يسمّى بالبطيبين ؟ وذكر أنه حصل فى سهمه أخزاه الله ، من أوقار الأطعمة والحلى والكسوة خمسمائة حمل . وكان الخطب فى هذه المدينة أعظم من أن يوصف ، لأن الحال كان آل بهم إلى أن القوا بأيديهم بسبب الظمأ ، وخرجوا من المدينة ، وانتشروا فى بسيط من الأرض . فلما رأى الطاغية ، ضاعف الله عذابه ، كثرتهم وانتشارهم ، خاف أن تدركهم حمية ، فى استنقاذ أنفسهم فأمر ببذل السيف فيهم ، وبعضهم ينظر إلى بعض من رجال ونساء . فقيل انه قتل منهم يومئذ نحو ستة آلاف ، ثم نادى برفع السيف عنهم ، وأمر بخروجهم عن المدينة بالأهل والذرية ، فبادروا الخروج منها مزدحمين على أبوابها ، فمات فى ازدحامهم خلق كثير .

ولما عرض جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها ، بعد قتل من قتل منهم ضموا قياماً ذاهلين منتظرين نزول القضاء بهم ، ثم نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره بأهله وولده ، وأزعجوا لذلك . ولما استقروا بالدور مع عيالاتهم وذرياتهم ، اقتسمهم المشركون ، فكل من صارت فى حصته دار حازها وما فيها من أهل وولد

ومال ، فحكم كل علج منهم فى من سلط عليه من أرباب الدور ، بحسب ما يبتليه الله به منه ، يأخذ كل ما أظهر له ، ويعذبه فيما أخفى عنه . وربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح، وربما أنظره أجله إلى أسوأ من مقامه ذلك ، لأن عداة الله كانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم و بناتهم بحضرتهم ، إبلاغاً فى نكايتهم (الى أن يقول) فبلغ الكفرة يومئذ منهم مالا تلحقه الصفة ، والحول والقوة لله العظيم

فلما استولى الروم على هذه المدينة المشؤومة ترك فيها اللعين الف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، ورحل منها إلى بلاده . ولم يكن للنصارى قبل هذه الفعلة مثلها فى بلاد المسلمين

فلما رأى بن هود هذا الأمر نادى بالنفر للجهاد فى سائر بلاد المسلمين ، فحميت نفوس أهل الاسلام ، وجاءه منهم خلق عظيم لايحصى عدده ، ذكر انه وصل من سائر بلاد الاندلس ستة آلاف من الرماة العقّارة ، فنازلوا مدينة بر بشتر وتأهبوا لقتال من ورد عليهم من الكفار ، فلما عاين الكفار قوة المسلمين وكثرة حماتهم ورماتهم أغلقوا أبوابهم ، وتركوا حربهم ، وعظم عليهم أمرهم ، فأمر ابن هود المقتدر بالله بالنقب لسورها ، وأمر الرماة أن ينقبوا السور ، لئلا يمنع الكفرة النقّابة من النقب . فكان الروم لا يخرجون أيديهم من فوق السور ، فنقبوا شقة كبيرة ، ودعموا السور وأطلقوا النار فى الدعائم ، فوقعت تلك الشقة واقتحم المسلمون البلد . ولما عاين الروم ذلك خرجوا من ناحية أخرى على باب آخر فاتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤا ، ولم ينج منهم إلا اليسير ممن تأخر أجلهم . وسبوا كل ما كان فيها من عيالهم وأبنائهم وقتل من أعداء الله نحو الف فارس ، وخمسة آلاف راجل ، ولم يصب من جماعة المسلمين إلا نحو الخمسين .فاستولى المسلمون على المدينة ، وغسلوها من رجس الشرك ، وجلوها من صدأ الإفك

قال البكرى : أدخل منها سرقسطة نحو ألف سبية ، ونحو ألف فرس ، ونحو ألف درع ، وأموال وأثاث ، وكان أخذها فى جمادى الاولى من سنة سبع وخمسين وار بعمائة ، فكان بين دخول الروم اليها وعودها للمسلمين سنة كاملة ، وشاع لابن هود

صنيع فى بلاد المسلمين لهذا الفتح الذى اتفق على يديه . انتهى ما قاله ابن عذارَى عن فاجعة بر بشتر ، وانتقام المسلمين لها .

وتقل المقّرى فى النفح عن ابن حيان ما يلى قال : وكان تغلب العدو ، خذله الله تعالى ، على بر بشتر ، قصبة بلد برطانية ، وهى تقرب من سرقسطة . سنة ست وخمسين وار بعمائة ، وذلك أن جيش الاردمليش نازلها وحاصرها ، وقصّر يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ، ووكّل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ، ووقع ما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدد القتال عليها والحصر لها ، حتى دخل المدينة الاولى فى خمسة آلاف مدّرع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة ، قتل فيها خمسمائة افرنجى . ثم اتفق ان القناة التى كان الماء يجرى فيها من النهر إلى المدينة تحت الارض فى سرب موزون انهارت ، وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة . ويئس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة ، دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل ، والقاضى ابن عيسى ، فى نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الاموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى ان الذى خص بعض مقدمى العدو لحصته ، وهو قائد خيل رومة ، نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلىّ والكسوة خمسمائة جمل . وقُدّر من قتل وأسر مائة ألف نفس . وقيل خمسون ألف نفس

ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة ، وانقطعت المياه ، ان المرأة كانت تقف على السور وتنادى من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها ، أولولدها فيقول لها اعطينى ما معك ، فتعطيه ما معها من كسوة وحلىّ وغيره .

قال : وكان السبب فى قتلهم أنه خاف ممن يصل لنجدتهم ، وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع فى القتل ، لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً على ستة آلاف ، ثم نادى الملك بتأمين من بقى ، وأمر أن يخرجوا ، فازدحموا فى الباب إلى أن مات منهم

خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار في الحبال ، للخشية من الازدحام في الأبواب ، ومبادرة إلى شرب الماء .

وكان قد تحيّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه ، وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممن أسر وقتل ، وأخرج من الأبواب والأسوار ، وهلك في الزحمة ، نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد منهم بمن معه من أهله في منزله ، اقتسمهم الافرنج ، لعنهم الله تعالى ، بأمر الملك ، وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم و برزوا في صور الهلكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق ، إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله . قال : وكان الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة (وذكر أموراً هنا أمسكنا عن نقلها لأنها مما تتفطر له الكبود وتقشعر الجلود) وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط في ما مضى من الزمان ، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده ، تخيّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة ، حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه ، وترك من رابطة خيله ببربشطر ألفاً وخمسمائة ، ومن الرجال ألفين .

قال ابن حيان : واختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة يكتفى باعتبارها عما سواها ، وهي أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ، ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ، ممن نجا من أهلها ، حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه . قال : فهديتُ إلى منزله فيها . واستأذنت عليه ، فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستوياً على فراشه ، رافلا في نفيس ثيابه ، والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته ، لم يغير شيئاً من رياشهما و زينتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ،

قائمات على رأسه ، ساعيات فى خدمته . فرحب بى وسألنى عن قصدي ، فعرفته وجهه ، وأشرت إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه ، وفيهن كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فى من عرضناه لك ! أعرض عمن هنا ، وتعرض لمن شئت ممن سيّرته لحصنى ، من سبيي وأسراى ، من أقار بك فى من شئت منهم . فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه ، و بقر بك أنست ، وفى كنفك اطمأننت ، فسُمْنى ببعض من هنا ؛ فانى أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب ، والبز الرفيع الغريب . فقال : كأنك تشهّينى ماليس عندى ! ياباجه ـ ينادى بعض أولئك الوصائف، يريد يابهجة ، فغيّره بعجمته ـ قومى فأعرضى عليه مافى ذلك الصندوق . فقامت إليه ، وأقبلت ببدر الدنانير ، وأكياس الدراهم ، وأسفاط الحلى ، فكشفت ، وجعلت بين يدى العلج ، حتى كادت توارى شخصه . ثم قال لها : أدنى إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر ، مما حار له ناظرى ، وبُهت ، واسترذلت ماعندى . ثم قال لى : لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذ به . ثم حلف بآلهه : إنه لو لم يكن عندى شيء من هذا ثم بذل لى بأجمعه فى ثمن تلك ، ماسخت بها يدى ، فهى ابنة صاحب المنزل ، وله حسب فى قومه ، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتى ، حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن، أيام دولتهم ، وقد رُدّت لنا الكرة عليهم ، فصرنا فى ماتراه، وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة — وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية — مغنّية والدها، التى كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته . يافلانة ، يناديها — بلكْنته ـ : خذى عودك فغنى زائرنا بشجوك . قال : فأخذت العود وقعدت تسو يه و إنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العلج مسحه ، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا ، فضلا عن العلج ، فصار من الغريب أن حثّ شربه عليه ، وأظهر الطرب منه . فلما يئست مما عنده ، قمت منطلقاً عنه ، وارتدت لتجارتى سواه ، واطلعت لكثرة مالدى القوم من السبى والمغنم على ماطال عجبى به فهذا فيه مقنع لمن تدبّره ، وتذكر لمن تذكّره !

قال ابن حيان : قد اشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة ، على مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من اثارة ، ولا شك عند ذوى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشمار ذلك ، والتمادى عليه على شفاجرف ، يؤدى إلى الهلكة لامحالة . انتهى ببعض اختصار

قال المقرى : وذكر بعده كلاماً فى ذم أهل ذلك الزمان ، من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدلّ الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، و بعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغورهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، و يستقرى بسائط بقاعهم ، و يقطع كل يوم طرفاً ، و يبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا ، صموت عن ذكرهم ، لهاةٌ عن بثّهم ، ما إن يُسمع عندنا بمسجد من مساجدنا ، أو محفل من محافلنا ، مذكّر لهم أو داع ، فضلا عن نافر اليهم ، أو ماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء ، بخلنا بالعناء : عجائب فاتت التقدير ، ولله عاقبة الأمور و إليه المصير . انتهى .

قال المقّرى : ولقد صدق ابن حيان رحمه الله تعالى ، فان البثق سرى إليهم جميعاً كما ستراه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونقل المقّرى عن ابن حيان أيضا فى هذه الفادحة ما يلى : ان بربُشتر هذه تناسختها قرون المسلمين ، منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الاسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الايمان ، وتُدورس القرآن ، إلى أن طرق الناعى بها قرطبتنا صدر رمضان من العام ، فصك الاسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا يشغل الناس فى التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله أياماً ، لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل ، والاستناد الى أمراء الفرقة الهَمَل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويُلبِّسون عليهم

وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ، بصلاحهم يصلحون ، و بفسادهم يفسدون . فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه

فالأمراء القاسطون قد نـكبوا عن نهج الطريق ، زيالا عن الجماعة ، وجريا إلى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم ، من التبيين لهم ، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، و بين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية من صدقهم . وأولئك هم الأقلون فيهم . فما القول في أرض فسد ملحها ، الذي هو مصلح لجميع أغذيتها ، وما هي الا مشفية على بوارها . ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الامراء ! لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الأسوار ، وشد الاركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوءة السوءى من إلقائهم يومئذ بأيديهم اليه أموراً قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور باعجاز الغِيَر

أمور لو تدبَّرها حكيمٌ إذاً لنَهَى وحبَّب ما استطاعا

انتهى باختصار

ثم قال ابن حيان : فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها ـ أي إلى بر بُشتر ـ وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرّط فيها والمتهم على أهلها ، لانحرافهم إلى أخيه ، صمد لها مع امداد الخليفة عباد ، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه مالا يمحوه إلا عفوه ، فتأهب لقصد بر بشتر في جموع من المسلمين ، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحمى الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه ، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوها أجمعين ، إلا من فرّ من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجيل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين . إلا من استُرِق من أصاغرهم ، وفُدِي من أعاظمهم ، وسَبَوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم ، وملكوا المدينة بقدرة الخالق الباريء ، وأصيب في منحة النصر المتاح ، طائفة من حماة المسلمين الجادّين في نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله

تعالى شهادتهم وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الافك . انتهى

فانا قد ظهر من هذا النقل أن المقرى ، ومن قبله ابن عذارى ، إنما نقلا تاريخ فاجعة بر بُشتر عن ابن حيان لأن بعض الجمل مثل « فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الافك » مذكورة فى نفح الطيب نقلا عن ابن حيان ، وأيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى ، وكذلك يوجد اتفاق فى بعض الروايات مثل أنه استُشهد من المسلمين يوم ارتجموا بر بشتر نحو الحسين، وأن العدوّ فقد يومئذ ألف فارس وخمسة آلاف راجل . إلا أنه موجود بين روايتى ابن حيان وابن عذارى اختلافات فى بعض التفاصيل . فان ابن عذارى لم يذكر تقصير يوسف بن سليمان بن هود فى حماية بر بشتر، ولاذكر أيضاً أن احمد المقتدر أخاه فرّط فى أمرها لانحراف أهلها إلى أخيه يوسف مع وجود العداوة بينهما . والحال أنه من سياق الكلام، ومن قول ابن حيان إن العدو أقام يحاصر بر بشتر أربعين يوماً ، يظهر للقارىء أن التفريط وقع من بنى هود فى أمرها سواء كان يوسف بن هود أو أخوه احمد ، وأن أهل بر بشتر كانوا من حزب يوسف ، فبهذا السبب تركهم احمد الذى كان أميراً لسرقسطة ولم ينجدهم . وكذلك يوسف تأخر عن نصرتهم ، ولا سبب فى ذلك ، والله أعلم ، سوى خوفه من أخيه ، لأنهما كانا فى شقاق بعيد ، وكل منهما يستنصر بالطاغية ابن ردمير على أخيه فتأخر يوسف وتأخر احمد عن نجدة أهل بر بشتر بخوف كل منهما من الآخر . فجرى على بر بشتر ما جرى من الفاجعة التى ندر وقوع مثلها فى الاسلام . ولا شك فى أنه تحدّث المسلمون بهذا الخبر فى كل ناد ، وجعلوا التبعة فى هذه الفجيعة على بنى هود ، ولا سيما على أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر صاحب سرقسطة لأنه كان أقدر من أخيه على اصراخ أهل تلك البلدة ، فلذلك عمد احمد لاصمات سوء المقالة عنه ، كما قال ابن حيان ، وصمد إلى بر بشتر بجموع المجاهدين واسترجعها ، وشفى صدور المسلمين

مما قد كان فجعهم من حادثتها ، فقال ابن عذارى : وشاع لابن هود صنيع فى بلاد المسلمين لهذا الفتح الذى اتفق على يديه . ولكن ابن حيان يقول: ان الله تعالى كتب عليه من حادثة بر بشتر مالا يمحوه إلا عفوه . و بالاختصار يظهر للمتأمل أن جميع ماحل بالمسلمين من الفجائع فى الاندلس انما كان نتيجة انقسامهم، واشتغالهم بمحاربة بعضهم بعضاً ، واستظهارهم بملوك الاسبانيول على إخوانهم ، ولما كانت الامارة الاسلامية موحدة فى قرطبة والكلمة مجتمعة ، كان يبعد أن يقع بهم ما وقع فى ما بعد ، وكانوا لو أصيبوا فى حادثة واحدة لم يمض وقت حتى يجبروا كسرها ، بخلاف ما آل اليه أمرهم فى زمن ملوك الطوائف ، عند ماسقطت الخلافة فى قرطبة، ووقعت الفتنة الكبرى بين العرب والبربر ، وصارت كل مدينة من مدن الأندلس مستقلة بنفسها ، فيها أمير المؤمنين ومنبر . فأصل فساد أمر الأندلس انما كان من سوء أحوال أمرائها ، وتنزّى جميعهم على الملك ، غير ناظرين إلى العواقب ، وفى جانب هذا الفساد لم يكن من صلاح الفقهاء ما يقوّم الأوَد ، بل غلب على هؤلاء حب الدنيا ، كما قال ابن حيان فى ما نقلناه عنه ، وهو عين ما ذكرناه نحن فى رسالتنا المشهورة « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ » قلت فى الصفحة ٤٣ من الطبعة الأولى من تلك الرسالة :

«ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء، إلا من رحم ربك، أن الأمة خلقت لهم ، وأن لهم أن يفعلوا بها مايشاؤون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون فى نعمائهم، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح ، بحجة أنه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة . ولقد عهد الاسلام إلى العلماء بتقويم أوَد الأمراء ، وكانوا فى الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر، يسيطرون على الأمة ، و يسددون خطوات الملك و يرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، و يهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب ، وهكذا كانت تستقيم الأمور، لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد، متحلين بالورع،

متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب ذلك الملك الجبار أم رضى ؟ فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، بما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الأمة بهم . إلا أنه بمرور الأيام ، خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوّغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين . هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ؛ والفساد بذلك يعظم ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمّر ، وكل هذا إثمهُ فى رقاب هؤلاء العلماء » اه .

وقد وضع الأستاذ فقيد الاسلام صاحب المنار رحمه الله حاشية على هذه الجملة قال فيها : وفّينا هـذه المسألة حقها فى المنار ، وأهمه مقالة فى المجلد التاسع عنوانها « حال المسلمين فى العالمين ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين » أنحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر فى تقصيرهم عن نصيحة الملوك والأمراء . اه .

على أن فقهاء الأندلس برغم كل ما ثبت عنهم من التقصير فى إقامة أمرائهم على الطريق المستقيم ، لا ننكر أنه ضاق ذرعهم أخيراً بفتن ملوك الطوائف التى كان من ورائها تقلص ظل الاسلام شيئاً فشيئاً ، فراسلوا المرابطين ومن بعدهم الموحدين ، فى بر العدوة حتى أجازوا إلى الاندلس المرة بعد المرة وكانت مواقفهم فى جهاد النصارى هى السبب فى نسيئة أجل الاسلام فى تلك البلاد مدة مائتين إلى ثلاثمائة سنة

ومما يجب الانتباه إليه بمناسبة حادثة بربشتر هو العمران الزائد الذى وصلت اليه لذلك العهد أسبانية الاسلامية ، فأنت ترى أنهم عدّلوا سبى تلك البلدة بمائة ألف نسمه أو بخمسين ألفاً ، ولا شك فى أن أهلها لم يكونوا أجمعين من جملة السبى . والحال أن بربشتر لم تكن إلا مدينة من الدرجة الثالثة بالكثير فى مدن الأندلس ، أى من المدن التى رافائيل بلستر أحصاها بثلاثمائة مدينة فى أسبانية المسلمة . فلا هى من الحواضر الكبرى ، ولا هى فى الثمانين مدينة المعمورة جداً ، بل هى فى القصاب التى تأتى فى

الدرجة الثالثة، ومع هذا فقد رأيت ما كان من عدد أهلها، وماظهر من عظمة ثروتهم وسبوغ نعمتهم ؛ وفي حكاية التاجر اليهودي الذي ذهب لفكاك السبايا مافيه كفاية

ولقد ذكرنا أن بربشتر هي من أعمال بربطانية أو برطانية في شرق الأندلس و برطانية يقول لها الأسبان بولطانية باللام ، وهي إلى الشمال من بربشتر ، و إلى الشمال الشرقي من وشقه . وقد نقلنا عن ياقوت في المعجم أنها مدينة كبيرة بالاندلس، يتصل عملها بعمل لاردة، وكانت سداً بين المسلمين والروم، ولها مدن وحصون، وفي أهلها جلادة وممانعة للعدو ، وهي في شرق الأندلس اغتصبها الافرنج فهي اليوم في أيديهم . اه .

قلنا ان بلطانية أو برطانية هي في وسط جبال البرانس ، تقع في الجنوب من الجبل المسمى بالجبل الضائع، وفي الشرق من الشارات التي يقال لها « شارات بانيه » Pena وأما لاردة فهي الى الجنوب الشرقي من برطانية . ثم انه إلى الجنوب من بربشتر تقع مدينة « مونتشون » و يقول لها الاسبانيول Monzon (١) وهي بلدة صغيرة اليوم أهلها أربعة آلاف نسمة ولكنها قديمة ، وفيها خرب من زمن الرومان ، وعلى صخرة عالية منها ، تشرف عليها ، حصن قديم كان ريموند بيرانجه الرابع أمير برشلونة تخلى عنه سنة ١١٤٣ لنظام الفرسان الهيكليين . و بالقرب من حصن مونتشون إلى الشرق بحراً بلدة تَمَريط Tamarite وإلى الجنوب الشرقي من تمريط تقع بلدة يقال لها المنار و بالقرب منها بلدة « بُلْغَى » التي سيأتي ذكرها، وهي من عمل لاردة من بلاد كتلونية .

والطريق من سرقسطة إلى برشلونة بالسكة الحديدية هو على الجنوب الشرقي ، بين نهر ابرُه والقناة الامبراطورية، وهناك قرية يقال لها باستريز « Pastriz » وقرية أخرى يقال لها البُرجو ، ولا شك انها محرّفة عن البرج ، ثم ان على النهر بلدة يقال لها « الفونت » تنتهي عندها القناة الامبراطورية ، وفيها قصور لعائلة نبيلة كانت لها

(١) قال ياقوت في المعجم : منت شون الشين معجمة وآخره نون حصن من حصون لاردة بالاندلس قديم بينه وبين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جدا تملكه الافرنج سنة ٤٨٢

سيادة على الفونت ، وغير بعيد عنها قرية « أغيلار » ثم قصبة يقال لها « بينه » ثم مدينة « كينتو » Quinto وهي صغيرة وكلها قصاب على وادي ابرُه ، ثم بلدة قلسة Gelsa و « الزائدة » Zaida و « اسقاطرون » Escatron ثم السهلة ويقول لها الاسبانيول Azaila

وعلى مسافة ٧٢ كيلو مترا من سَرَقسطة بلدة صغيرة اسمها هيجار Hijar أهلها ألفا نسمة . وعلى مسافة ٣٢ كيلو متراً من هيجار بلدة يقال لها الكنيز Alcaniz وكان العرب يقولون لها القنيت وهي بلدة قديمة ايبيرية . كان اسمها في الماضي أنيتورجيس Anitorgis وفي هذه البلدة ظفر القرطاجنيون بقيادة الاسد الرئبال أسد روبال Hesdrubal بالجيش الروماني سنة ٢١٢ قبل المسيح . وبالقرب من القنيت هذه يوجد صخر كبير يقال له « صخر المغربي Roca del Moro عليه صور قديمة عُذمُليّة تمثل كثيراً من الحيوانات ، وفي تلك الناحية تجتاز السكة الحديدية وادي لب ، وتعود فتدنو من نهر أبره . وأما حصن جَبْرَة فيقع على مائة وكيلو مترين من سَرَقسطة وهذا الحصن يقول له الاسبانيول شبرانة ، وقد ذكره ياقوت بهذا الاسم فقال :

شبرانة من ثغور شرف الاندلس بقرب طرطوشة ينسب اليها أديب يقال له الشبراني ، وإلى الشمال من جبرة أو شبرانة تقع بلجيط . وبلجيط قصبة من عمل سرقسطة ينسب إليها أناس من أهل العلم قد ورد ذكرهم في تراجم علماء سرقسطه[1] وإلى الجنوب من جبرة مدينة قشب Caspe وقد مر ذكرها ، وهي سبعة أو ثمانية آلاف نسمة على الضفة اليمنى من وادي ابرُه ، والوادي من عند قشب يدور صوب الشرق ، ماراً بمكناسة ، ويدخل في بلاد كتلونية .

وكانت قشب من الحصون المعروفة عند العرب ، وينسب إلى قشب من العلماء أبو الحسن نفيس ابن عبد الخالق بن محمد الهاشمي القشبي المقرىء ، لقيه السلفي بالاسكندرية ، وحج ورجع إلى الأندلس ، وذكر السلفي انه قرأ عليه قبل رجوعه إليها . وقد تقدم ذكره .

---

(١) منهم أبو عميرة البلجيطي

ومن أعمال سرقسطة بلدة إلى غربيها يقال لها المُنية Almuna و بلدة أخرى إلى الغرب منها أيضاً ، بينهاو بين دروقة ، يقال لها كار ينتّه Carinena ولانعلم هل هذه التى يقول لها العرب قُلُنّة ، أم هى غيرها ؟ قال ياقوت فى المعجم : قُلُنّة بلد بالأندلس ، قال ابن بشكوال انه ينسب إليها عبدالله بن عيسى الشيبانى ، أبو محمد ، من أهل قُلُنّة حيّز سرقسطة ، محدث حافظ متقن ، كان يحفظ صحيح البخارى ، وسنن أبى داود ، وله اتساع فى علم اللسان ، وحفظ اللغة ، وله عدة تآليف حسنة ، وتوفى ببلنسية عام ٥٣٠

وجاء فى معجم البلدان أن من جملة حصون سرقسطة حصن اسمه «ملونده[1]» بضم أوله وثانيه ، وسكون النون ، ثم دال مهملة . ومن هذا القبيل « بَلْشَنْد » و « بِلْطش » اللتان قال ياقوت انهما من أعمال سرقسطة . ولم نقف على أسمائهما بالاسبانى الى هذه الساعة ، ونرجح أنه من أثر التحريف . وذكر ياقوت من جملة حصون سرقسطة حصناً اسمه شُلَوقة ، ينسب إليه على بن اسماعيل بن سعيد بن احمد ابن لب بن حزم الخزرجي ، قرأ على ابن عطية الغرناطى الحديث ، والنحو على ابن طراوة المالقى ، وأبوه أيضاً مقرىء نحوى ، لقيهما السلفى (بالاسكندرية) وكتب عنهما ولا نعلم هل شُلَوقة هذه هى التى يقول لها الاسبانيول سلوسية S. lucia ؟ وهى إلى الشرق نحراً من بينية ، الواقعة على نهر ابره ، إلى الجنوب من سرقسطة

ومتى تجاوزت قشب تجد نهر ابره قد توجه إلى الشمال ، ودار من حول شارات مكناسة Sierra de Mequinenza المعدودة من جبال كتلونية ، ثم يعود ابره فينحدر إلى الجنوب ، و يعود الخط الحديدى فيتلاقى بابره ، عند بلدة يقال لها فيّون ، على مسافة ١٥٢ كيلو متراً من سرقسطة ، وهناك الحد بين أراغون وكتلونية ثم ينحدر ابرُه طالباً طرطوشة ، حيث ينصب فى البحر ، وعلى مسافة ٢١١ كيلو متراً بلدة يقال لها مرسى فلسيت ، عدد سكانها أربعة آلاف ، و بالقرب منها معدن رصاص ، وهى

(١) لعلها التى يقول لها الاسبانيول اليوم مالونده على نهر جلق Malunda velilla Giloca وهى بقرب بلدة موراطة Morata

واقعة فى واد بهيج ، على سفح جبل مُولا Mola ومن بعدها إلى الشرق بلدة بورجاس دلكامبو Borjas del Cabmpo ثم يطل السائح على البحر المتوسط .

كتالونية Catalogne

هذه البلاد هى قائمة بذاتها من قديم الدهر ، وكثيراً ما كانت مستقلة عن سائر اسبانية ، ولم تتحد مع اراغون وقشتالة إلا بعد طرد المسلمين من الاندلس ، وأهلها أمة يقال لها الكتالان ، لسانهم غير الاسبانيول ، والفرق بينهما أن الاسبانيول مشتق من اللاتينى ، وهو أقرب إلى اللاتينى من اللغة الكتلونية ، وان هذه اللغة أقرب إلى لغة بر وفنسة ، التى هي لغة جنوبى فرنسة . وجنس الكتلان على وجه الاجمال لا يود الجنس القشتالى . قال لى رجل من الكتلان ، ونحن آتون من مجريط إلى برشلونة : نحن والقشتاليون كالماء والزيت ، بمجرد اختلاطنا ينفصل كل فريق منا عن الآخر .

وحدود كتلونية جبال البيرانس من الشمال ، و بلاد أراغون من الغرب ، وولاية بلنسية من الجنوب ، والبحر المتوسط من الشرق ، وكان لكتلونية على هذا البحر من السواحل مسافة اربعمائة كيلو متر من رأس سربيرة Cerbira في الشمال إلى مصب نهر سينيه Cenia ، وأهم مدنها البحرية روزاس Rosas وكاداكيس Cadaques و بالاموس و برشلونة وطركونة وسالو Salou ولوس الفاكيس Los Alfaquis . وأهم قسم لها من البرانس الجبال المسماة بجبل نيغرو Negro وسان غراو Sangrau ومونشارّات Montserrat وغيرها ، وأهم الأودية المتكونة من هذه الجبال هى وادى اندور ، وهو واد له حكومة مستقلة ، بين فرنسة واسبانية ، كما لا يخفى ، ووادى آنيو Anéo ، ووادى آرون Aron ، ووادى آرو Aro . ووادى كردونة Cardona وغيرها . وأعظم أنهرها نهر ابره ، ثم نهر سكر Segre ثم نهر لو بريقات Llobregat ونهر تير Ter ونهر فلوفيه Fluvia .

والقسم الشمالى من كتلونية شديد البرد . لمساقبته لجبال البرانس ، ولكن

السواحل هى فى غاية الاعتدال ، وكذلك القسمان الغربى والجنوبى . وليست البلاد من جهة أرضها معدودة من البقاع الخصيبة فى الدنيا . وأكثر أراضيها جبلية ، والأوعار فيها كثيرة ، إلا أن الـكتلان من أكثر الأمم نشاطاً وأشدهم ثباتاً فى العمل فلذلك ترى فى أراضيهم المزارع العظيمة للحبوب ، وكروم العنب المالئة للسهل والوعر ومن بساتين الزيتون ، ومن الغياض مالايحصى ، ومن الأماكن التى تذكر بحسن زراعتها سهول لامبوردان Lampordan ، وجيرندة ، وسيردانيه ، وباجس ، وبنادس وطركونة وضفاف نهر سيفر ، ونهر ابره ، ولا تنس لحص طرطوشة ، وبقعة لاردة .

ومن حاصلات كتلونية الثمار بأنواعها ، والخشب ، والبقول ، وأكثرما تباع فى فرنسة ، وكذلك يستخرجون الخمر بكثرة . ثم إن عندهم فى الجبال مواشى كثيرة . أما المعادن فيكثر فى كتلونية الجير والجص والملح ، وفى طرطوشة وطركونه رخام كثير وبقرب ساليت Salut معدن رصاص ، والحديد موجود فى البرانس ، والمياه المعدنية كثيرة أيضاً ، أشهرها فى عاريقة Garriga وكالداس Caldas و بودا Puda الخ

وأما الصناعة فى كتلونية ففى منتهى الازدهار ، لاسيما فى ارباض برشلونة ، ومما لانزاع فيه ان كتلونية هى أرقى بلاد اسبانية فى الصناعة . ومن صناعات كتلونية نسج القطن والصوف والحرير والجوخ ، وسائر أنواع المنسوجات . وعمل الورق والصابون والزجاج والسلاح ، وغير ذلك ، وبسبب ازدهار الصناعة نجد تجارة برشلونة هى أوسع من تجارة أية مدينة فى اسبانية ، بل برشلونة تعد من أعظم المدن التجارية فى العالم . وفى كتلونية عرق فينيقى ثابت فى التاريخ ، فان الفينيقيين زاروا تلك البلاد وعمروها ، وكانوا يبحثون فيها عن معادن الذهب والفضة ، ثم جاء اليونانيون فزاحموا الفينيقيين ، وأنشأوا مستعمرات على شواطىء البحر ، مثل بلدة روزاس التى قيل لها الروضة ، وأنبورياس التى قيل لها انبوريون Enporien ، ثم عند ما عظمت دولة قرطاجنة جاء القرطاجنيون فى القرن الثالث قبل المسيح ، وزاحموا اليونانيين وانتشروا فى كتلونية . والمظنون أن اسدروبال برقة Asdrubal Berca

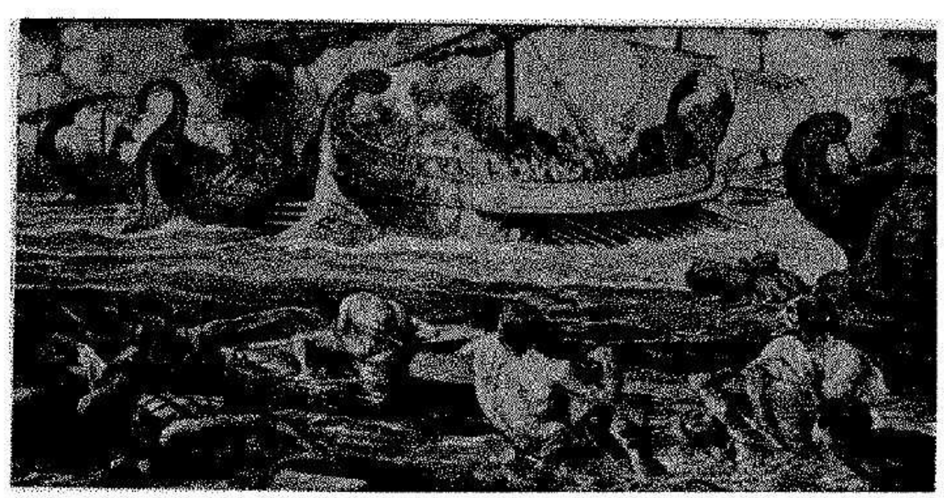


صورة انتصار اينبال على الرومان فى واقعة براسيمانو سنة ٢١٧ ق ٠ م

الزعيم القرطاجنى هو بانى مدينة برشلونة ، التى كان اسمها فى القديم بارسينو Bercino

ولما كان الرومانيون حلفاء لليونانيين لم تلبث الحرب أن نشبت بين الرومان والقرطاجنيين، لأن الرومان أرسلوا فى سنة ٢١٨ قبل المسيح القائد سيبيون Scipion وأخاه بأسطول إلى مياه امبور يون ، ثم إلى طركونة ، ودارت الحرب بين القرطاجنيين والرومان ، فانهزم سيبيون وأخوه ، وقتلا فى المعركة ، وفى طركونة نفسها عاد الرومانيون فنزلوا وحشدوا لقتال القرطاجنيين ، وصارت هذه البلدة قاعدة للرومان ، ومنها امتدوا وانتشروا فى اسبانية ، وصارت الروضة وامبور يون و برسينو ، أى برسلونة ، وجيرندة وڤيك و بادلوانة ودرطوزة التى سماها العرب طرطوشة ، وايلَرْدة ، التى سموها لاردة وغيز ونة وايزونة وسيقارة ، من المدن المعروفة فى ذلك الوقت تحت حكم الرومانيين

وقد ذكر المؤرخون من اللاتين أسماء الشعوب التى كانت معروفة فى كتلونية ، مثل الكوزتانى Cozetani ، واللاسيتانى Lacitani والايلارجيت Ilergetes ، والايندجيت Indigetes ، واللالتانى Laletani ، والسيرتانى Cerretani والاوزتانى Austani ، والكاستلانى Castelloni ، و بعض المؤرخين يذهبون إلى



صورة واقعة بحرية بين القرطاجنين والرومان سنة ٢١٨

أن اسم كتلونية مشتق من اسم الكاستلانى ، والآخرون يقولون إنه مشتق من اسم قبيلة يقال لها « قوطي ألاني » Gothi - Alani .

أما تاريخ كتلونية فى القرون الأولى من القرون الوسطى فلايزال إلى اليوم غامضاً وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن العرب استولوا على كتلونية فى القرن الثامن للمسيح

قال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير إلى الأندلس :

نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين ، في عسكر ضخم ، من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ، ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع ، ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه ، المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق ، وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة من جهة المشرق ، وأربونة فى الجوف ، وضم قادس فى الغرب ، ودوّخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتى المشرق من جهة القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أمم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، ومستلحما لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق .

ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همّ به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين، إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده. ففتّ ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس، بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها. واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، وأنزله بقرطبة، فاتخذها دار إمارة. إلى آخر ما ذكره ابن خلدون، مما يدل على أن فتح العرب لبرشلونة وقع في زمن موسى ابن نصير نفسه، بل يقول انه أوصل الغزو إلى اربونة، إلا أنه يقول بعد ذلك: ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس، تارة من قبل الخليفة، وتارة من قبل عامله بالقيروان، وأثخنوا في أمم الكفر، وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق، وحصون قشتالة و بسائطها من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط. وأوى الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب، فتحصنوا بها، واجتازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة، حتى احتلوا البسائط وراءها، وتوغلوا في بلاد الفرنجة، وعصفت ريح الاسلام بأمم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة، فرجع الافرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة، لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها اه.

ثم انه في نفح الطيب مذكور فتح هشام بن عبد الرحمن الداخل لمدينة أربونة الشهيرة من جنوبي فرنسة، ولا يقدر الأمير هشام المذكور أن يفتح أربونة وهي في الجوف، على مسافة غير قصيرة إلى الشمال من البرانس، أو جبل البُرتات؛ إلاّ إذا كان استولى على كتلونية. وجاء في نفح الطيب أن الأمير هشام بعث سنة ست وسبعين ومائة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، لغزاة العدو، فبلغ ألبَة والقلاع، وأثخن في نواحيهما، ثم بعثه بالعساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجيرندة فأثخن فيهما، ووطىء أرض برطانية. اه.

وقد نقلت هذه الفقرة فى كتابى « غزوات العرب فى أوربة » وعلّقت عليها بقولى : الأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية ، برطانية الافرنسية ، بل امبرطانية الكتلانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد المذكورة قبلها جيرندة التى هى فى جنوبى فرنسة ، والتى قاعدتها بوردو ، بل جيرندة التى هى من مقاطعات كتلونية ، أى جيرندة التابعة لبرشلونة ، والتى يقال لها اليوم جيرونة ، فان إسمها الرومانى القديم جيرونده Gerunda . وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نبّهنى إلى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسى الفهرى ، وقال لى انه لم يزل بفاس إلى الآن عائلة من الأندلس ، يقال لها عائلة الجيرُندى ، نبغ منها علماء مثل أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن الجيرندى الأندلسى ، المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ، ترجمه القادرى فى نشر المثانى ، والكتانى محمد بن جعفر فى سلوة الأنفاس . ولا شك فى أن العرب سكنوا جيرندة الكتلونية طويلاً ، ولكنهم لم يسكنوا جيروندة التى عاصمتها بوردو ، ولا عرفوها إلا فى الغزوات ، عابرى سبيل . روى لى محمد الفاسى أن المستشرق الاسبانى قُديرة ، كتب فصلاً خاصاً عن فتح العرب للمدن الثلاث : برشلونة ، وجيرندة ، وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جيرندة ، عند مافتحوا الأندلس ، و بقيت فى أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ؛ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ، ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ؛ ثم عادوا ففتحوها ، ثم أخرجوا منها نهائياسنة ٨٠٠

وفى الصفحة ١١٦ من كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » ذكرت نقلا عن المستشرق الافرنسى رينو ، ما يلى : منذ استرجع « ببّين » القصير أربونة ، وأجلا العرب عنها ، سكنت الأمور بين مسلمى الأندلس والفرنسيس . وكان ببّين يعد البيرانة هى التخم الطبيعى بين فرنسة واسبانية . وكان عبد الرحمن (يريد الداخل) مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن ببّين يهمل شيئاً من الوسائل لاثارة نيران الفتنة بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أى بعد استرداد الفرنسيس لأربونة (وقرقشونة Carcassone) دخل أمير برشلونة ، المسمّى سليمان فى علاقات مع ببّين

وتعاهد معه . ومؤرخو الفرنسيس يزعمون أنه انضوى تحت لواء ببين ؛ ولكن الأصح أن يقال انه ما قصد إلاّ أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين فى شمالى الأندلس فيوم يضغط عليهم السلطان فى قرطبة ، يلجأون إلى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من خناقهم . و إذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيس بحق بلادهم ، عادوا إلى رئيسهم فى قرطبة ، واعتصموا به . انتهى كلام رينو

وعلقت على هذا الكلام مايلى : سليمان الأعرابى الكلبى أمير برشلونة كانت بينه و بين شارلمان علاقات ، مذ كان أميراً بسرقسطة . أنظر ما يقوله صاحب أخبار مجموعة ، ثم ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (يعنى عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد فى جيش ، فنازل أهل المدينة ، وقاتلهم أياماً ، ثم ان الأعرابى طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب ، وقالوا قد أمسك عن الحرب ، أغلق أبواب المدينة ، وأعدّ خيلا ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلة فصار عنده أسيراً ، وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابى إلى قارلة ، فلما صار عنده طمع قارلة فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حلّ بها ، فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده . انتهى

وقلت بعد ذلك ان العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتى ذكر قصة الأمير سليمان هذا الذى مالأ شارلمان على قومه ، وكيف انتهى أمره . انتهى

وقد ورد فى « أخبار مجموعة » ذكر سليمان الأعرابى فى محل آخر حيث يقول : ثار على الأمير (أى عبد الرحمن الداخل) عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، الذي كان يقال له السقلابى بتدمير ، فكاتب سليمان الأعرابى الكلبى ، وكان ببرشلونه ، يدعاه إلى الدخول فى أمره ، فكتب إليه الأعرابى . إنى لا أدع عونك .

فامتعض الفهرى من جوابه ؛ إذ لم يجمع له فنزاه . فهزمه الأعرابى ، فكرّ الفهرى إلى تدمير . اه

وجاء فى « أخبار مجموعة » فى مكان آخر : أن حسين بن يحيى الأنصارى عدا على الأعرابى يوم جمعة ، فقتله فى المسجد الجامع فى سرقسطة ، وصار الأمر لحسين وحده ، فنزل به الأمير ، وكان عيسون بن سليمان الأعرابى قد هرب إلى أربونة ، فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة ، أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة ، وصار على جرف الوادى ، فاقحم عيسون فرساً له ، كان يسميه الناهد ، وقتله ، ثم رجع إلى أصحابه فسمى ذلك الموضع مخاضة عيسون اه

ونقلت فى كتابى « غزوات العرب فى أوربة » عن المستشرق رينو مايلى :

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين فى مقاطعات نهر أبرُه ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه ، قاصدين شارلمان فى قستفالية ، حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين ، وهو المسمى سليمان ، قد قاتل عساكر قرطبة ، وأخذ قائدها أسيراً ، وجاء به ، وقدّمه كهدية إلى شارلمان ، و يزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل فى طاعة الأمبراطور الافرنسى . اه

وعلقت على هذا بقولى : استشهد رينو على ذلك بمجموعة الدون بوكه ، وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير ، لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي ، والآخرين يسمونه مطرّف بن العربى . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الأعرابى الكلبى . وأما أسيره الذى أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذى أسره بحيلة كما تقدم . اه .

وفى صفحة ١٢٤ من كتابى « غزوات العرب فى أوربة » ، فى أثناء كلامى على إمارة عبد الرحمن الثانى ، نقلت عن نفح الطيب قوله : وفى سنة ٢٢٦ بعث عبدالرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض برطانية ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى ، عامل تطيلة ، ولقيهم العدو ، فصبروا حتى هزم الله عدوهم اه

وعلقت على هذه الجملة بقولى : برطانية هنا لا يظهر أنها التى يقال لها بريطانية Bretagne من شمالى فرنسة إلى الغرب ، بل هى مقاطعة من كتلونية ، يقال لها اليوم أمبوردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها « امبر وطانية » ، وهى لفظة مشتقة من « أمبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ، ثم يونانية فى أرض كتلونية . اه . ولقد لاح لى الآن أن برطانية هنا ليست أمبوردانية من كتلونية وإنما هى برطانية من أراغون . وهى التى تقدم ذكرها ، والاسبان يقولون لها « بلطانية » باللام ، ففى هذه الواقعة كان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى من بنى قصىّ ، وكان عاملا بتطيلة من بلاد أراغون .

وفى صفحة ١٣٠ من « غزوات العرب فى أوربة » ذكرت ملك الحكم بن هشام فى قرطبة ، وكيف ثار به عماه ، فاضطر أن يقضى أوائل أيامه فى قمع الثورة ، ونقلت عن المستشرق رينو [1] صاحب كتاب « غارات العرب فى بروفانس وسيمونت وسويسرة » ما يلى :

(١) أخذ علينا بعض المؤلفين كوننا فى كتابنا « غزوات العرب فى اوربة » لم نزد على أن نقلنا كلام المستشرق الافرنسى رينو ؟ وعدوا ذلك قصورا فى التأليف ؟ وحقيقة الحال أننا نحن توخينا عمداً النقل عن رينو الافرنسى وكلر الألمانى والمحافظة على نصوصهما وذكر المنابع التى استقيا منها وذلك حتى لا يظن أننا نحن تصرفنا بروايات مؤرخى الافرنجة وطولنا وقصرنا فى الموضوع وما أشبه ذلك مما يتعرض له المؤلفون الذين يجعلون التاريخ مجرد استنتاج بعقولهم ويخلطون الرواية بالرأى الشخصى . فالموضوع الذى طرقناه لم يسبق أن أحدا من العرب أفرده بالتأليف وكل ما جاء عنه فى كتب العرب بعض جمل فى تضاعيف السطور جمعناها من هنا وهناك إلى كتاب واحد واخترنا وضعها فى الحواشى تعليقا على كلام رينو وكلر الذين رويا ما رويا بناء على وثائق لا تحصى من كتب الافرنج والعرب وممن عاصروا تلك الوقائع وقد جاءت هذه الحواشى التى علقناها مؤيدة فى الجملة للمتون التى ترجمناها من الافرنسية والألمانية والطليانية والتى أحببنا نقلها بالأمانة العلمية اللازمة . والمقصد الحقيقى عندنا هو تمحيص الروايات التى يحصل بها برد اليقين عن تلك الحوادث لا إظهار البراعة الشخصية

بينما كان شارلمان فى مدينة « أكسلا شابيل » جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم ، وعم الحكم أمير قرطبة (نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكه) وفى تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك أكيطانية عاقداً مجمعاً فى طلوزة جاءه رسول من الأذفونش ملك جليقية وأشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية ، وتجريدها لقتال العدو العام ، ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم ، فى ناحية وشقة ، يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين ، فظهر أن الفرصة كانت لائحة لأخذ الثأر من المسلمين ، وللدخول الى اسبانية . وكان لويس ملك اكيطانية ، وأخوه شارل ، قد شنا الغارات فى أطراف المقاطعات التى تشرب من نهر ابره : ثم عاد لويس فأجاز البيرانة من جهة أراغون ، وحاصر وشقة ، التى كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيس لتسلم بلدته ، امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر .

وفى ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة . قد استولى على طليطلة وعمه الآخر سليمان استقر فى بلنسية ، فسرح جيشاً لقتال عمه عبد الله فى طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانة ، فأدخل فى الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التى كانت أشرطت نفسها للعصيان . انتهى .

وأيدت رواية رينو رواية نفح الطيب عن هذه الحوادث ، وهى هذه : وفى سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ، ملك الفرنج ، جموعه ، وسار لحصار طركونة ، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً . ولما كثر عيث الفرنج فى الثغور ، بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه ، سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين ، فافتتح الثغور والحصون ، وخرب النواحى ، وأثخن فى القتل والسبى ، وعاد إلى قرطبة ظافراً . اه

قلت : لعل صاحب نفح الطيب يعنى بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان أما الأمير المسلم الذى كان فى ناحية وشقة ويسميه الافرنج « بهالوك » فنرجح أنه هو بهلول بن مخلوق ، من عمال قرطبة . وكان قد انضم إلى لويس بن شارلمان في تلك الغارة

فالمؤرخ كوندى الاسبانيولى يقول : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطّد أطنابها بتعبه وجهاده ، ففى سنة ٨٠١ مسيحية ، وفق ١٨٥ هجرية ، تحرك ملك اشتورية وأراد التجاوز على المسلمين ، ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم، استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته ، مؤملا بذلك الاستيلاء على اسبانية الشمالية وضمها إلى مملكته ، فجاءت امداد شارلمان تثوب إلى الاسبانيول ، تحت قيادة ولده لويس ملك اكيطانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة وجاء فحاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق (الذى نحت منه الافرنج اسم بهالوك) من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس إلى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ، ومعه عمروس ، ومحمد بن مفرّج ، قائد الخيالة . الذى كان عظيم الاعتماد عليه ، نظراً لدهائه و إقدامه ، ثم أغار الحكم على نبارة و بنبلونة ، ودخل وشقة . فخشى الاذفونش على بلاده ، وحشد عساكره ، وزحف إليه يوسف بن عمروس ، فأوقعه الأذفونش فى كمين ، وأخذه أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه .

وأما الحكم فكان يتوقد صدره إحنة على بهلول بن مخلوق عامله ، الذى انحاز إلى الفرنسيس ، ومشى بين أيديهم . ولما عرف أنه فى جوار طركونة ، عمد إليه من فوره ، ولم يزل فى أثره حتى ثقفه فى طرطوشة بعد أن هزمه ، ثم احتز رأسه ، ورجع الحكم إلى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة ، وذلك خوفاً من الفشل فى حصارها اهـ .

وقال المستشرق رينو — الذى اعتمدنا على كتابه « غارات العرب فى بروفنس و بيمونت وسويسرة » لأنه أشهر كتاب فى هذا الموضوع ، وكل جملة فيه تقريباً مدعومة بالوثائق ، مؤيدة بروايات مؤرخى ذلك العصر ، سواء من الافرنج أو من العرب — ما يلى :

ولم يكن شىء من تلك الغارات ، سواء من جهة العرب أو من جهة الافرنج ، ليؤدى إلى نتيجة حاسمة ، يستخصّ منها أحد الفريقين ملكا . أو يحوز فتحاً مبيناً ،

وكان أهم ما لقيه الفرنسيس فى هذه الحرب ، هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، أبوا أن يقبلوها عند ماجاءت جيوشه إلى بلادهم ، وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى ، والمعاقل المنيعة ، مثل برشلونة ، وطرطوسة ، وسَرَقُسطة . وكانت برشلونة . بنوع خاص ، بحصانة موقعها ، و بقربها من فرنسة ، و بكونها مدينة بحرية ، هى من أشد البلاد نكاية بالفرنسيس وكان الأمير الذى فيها ، وهو الذى يسميه مؤرخو الافرنجة « زاتون »[1] قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول فى طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيس أمام بلدته ، قلب لهم ظهر المجنّ ، وكشّر عن ناب العداوة ، فأجمع لويس شارلمان ، ملك اكيطانية بالاتفاق مع غليوم ، كونت طلّوزة ، و برأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد ، أن

(١) جاء فى تاريخ متس وتاريخ ريجنون وغيرهما أنه فى سنة ٧٩٧ من التاريخ المسيحى قدم أمير برشلونة العربى على شارلمان . وبعد ذلك فى سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته فاخذ أسيراً ونفى ، وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون Zaton » وطوراً « زادو Zaddo » وأحياناً « زاد Zaad » والارجح ان اسمه سعدون أو سعد . وقد ورد فى تاريخ الملك لويس الحليم أن سعدون هذا وقع أسيراً فى سربونة وانه بعد اسره تولى امارة برشلونة ابن عم له اسمه عامر فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين تحمل فى أثنائها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجزأى قبيل عن تحمله وذهب مؤرخون منهم « مارمول Marmol » إلى أن سعدون أو سعداً كان من عمال ملك قرطبة فانتقض على سلطانه فارسل إلى شارلمان يعده بالدخول فى طاعته . وفى سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل هذا الامير فعلا فى طاعة شارلمان ولكن شارلمان شعر بعد سنتين من هذا العهد بأن أمير برشلونة نقض طاعته . فسرح اليه جيشاً تحت قيادة ولده لويس أو لودفيك ، ولذلك العرب حرفوه إلى لذريق ـ فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها . فجاء أمير سرقسطة واستردها . ولكن لويس شارلمان عاد سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها . فالروايات تختلف فى كيفية استيلاء الفرنسيس على برشلونة ولكن خلاصتها واحدة وهى ان العرب خسروا بلاد كتلونية من ذلك الوقت وانه تولى عليها فى البداية أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عن فرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عن فرنسة وعن العرب معاً

يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ فى رومة مشغولا بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة قد أصبحت للمسلمين معقلا متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث الغارات فى بلاد النصارى وتعود وأيديها ملأى بالغنائم ، وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيس لبثوا سنتين يحصرونها ، و يضيقون عليها ، و يكتسحون نواحيها ، ولم يقدروا على دخولها .

وكان الفرنج فى حصارها ، قد قسموا جيشهم إلى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم نفس برشلونة ، وقسم ثان ، يقوده غليوم كونت طلّوزة ، كان يرابط فى الممر الذى كانت تفيض منه جيوش المسلمين المقبلة من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه . وكان فى جبال البرانس يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة ، وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار فيما بينهم ، حتى يتهيأ لكل فريق منهم أن يتقن عمله ، فمنهم من كان شغله وضع السلالم ، والتسلق على الأسوار والابراج ، ومنهم من لم يكن له شغل غير جلب الميرة والعدة . ومنهم من كان موكولا إليه الحفر والنقب . ومنهم من كان معهوداً إليه بوظائف أخرى . فاشتد الحصار إلى درجة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين لتفرج عن برشلونة ، فلم تقدر على النفوذ إليها ، فتحولت إلى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، والمدد بعيد عنه ، وخرج فى إحدي المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة حملتهم الأخيرة ففتحوها .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ بعد أن بقيت تسعين سنة فى أيدى المسلمين . فلما دخلوها بادروا بتحويل جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم ، من دروع ، وزرود ، وخوذ ، وخيول مسرجة بأفخر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان فى شمالى اسبانية : إحداهما كتلونية ، وقاعدتها برشارنة ، والثانية غشقونية ، ومن مضافاتها نبارّة وأراغون .

أما مؤرخو العرب فينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله ، عمّا الحكم الأموى ، وشغلته عن انجاد تلك المدينة ، كما جاء فى كلام أبى الفداء وابن خلدون والمقّرى وغيرهم . وهذا هو الصحيح .

و بقيت برشلونة وما يليها من كتلونية ، حاشا طركونة ، ولاردة ، وطرطوشة ، خارجة عن حكم العرب ، حتى فى زمن عبد الرحمن الناصر ، برغم كثرة غزواته ، وعظمة دولته . وقد ذكر المسعودى ، وهو ممن عاصر الناصر وولده المستنصر ، أن الحدود بين المسلمين والنصارى كانت فى ذلك الوقت طرطوشة ، ومنها إلى أفراغه . وقال ابن خلدون انه لأول وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور ، فغزاهم الحكم المستنصر بنفسه ، ونازل شنت اشتابين ، وفتحها عنوة ، فبادروا إلى عقد السلم معه ، وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزا غالباً مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، فهزمهم واستباحهم .

وكان شانجه بن ردمير ، ملك البشكنس ، قد انتقض ، فأغزاه الحكم التجيبى ، صاحب سرقسطة ، فى العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم . ثم أغزا الحكم ابن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى إلى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر فى نواحيها

قال ابن خلدون : ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة يسألان تجديد الصلح ، و إقرارهما على ما كانا عليه ، و بعثا بهدية ، وهى عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلبية ، ومائتا سيف أفرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين . اه .

ومن هنا يعلم أن برشلونة وطركونة ونواحيهما كانت فى ذلك الوقت ، وهو أواسط القرن الرابع للهجرة ، فى أيدى أهلها ، إلا أن ملوك تلك النواحى كانوا يعدون أنفسهم تحت سيادة الخليفة فى قرطبة .

وفى زمن أبى مروان المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر كانت غزاة للمسلمين فى كتلونيه ، لأن ابن عَذارَى ذكر أنه فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة كانت أولى غزوات المظفر إلى بلاد الافرنج ، وفتح حصن « مُمَقْصَر » من ثغر برشلونة عنوةً ، وأسكنه بالمسلمين ودوّخ بسيط برشلونية ، وما اتصل به . قال ابن حيّان : وأظهر عبد الملك المظفر الجِدّ فى أمر هذه الغزوة ، غرة رجب من السنة ، أى ٣٩٣ ، ودفع المعاريف والصلات إلى طبقات الأجناد الفازين معه فيها . ووافت الحضرة طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين ، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وفقهائهم ، وتعرّض قوم من أمراء هذه القبائل لصلة عبد الملك ، فأطلق لهم عند تكاملهم ببابه خمسة عشر ألف دينار عينا ، ووزّعها عليهم بحسب مقاديرهم ، معونة على جهادهم ، قبلوها منه بالتأوّل . وتحرّج آخرون ممن وافى معهم عن فعلهم

واتصل ورود المطوعة من كل قوم ، وكل ناحية ، فتكاملت الحشود بالحضرة ، ودنا وقت الحركة ، فصُبّ المال صباً . وعهد عبد الملك إلى خزان الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع ، وخمسة آلاف بيضة ، وخمسة آلاف مِغفَر ، على طبقات الأجناد الدارعين .

وركب عبد الملك إلى المسجد الجامع لشهود عقد الألوية ، على عادة أمراء الأندلس قبله وذلك يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان من تلك السنة ؛ ثم خرج يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شعبان ، من باب الفتح الشرقى ، من أبواب الزاهرة ؛ وقد اجتمع الناس لرؤيته ، فخرج عليهم شاكى السلاح ، فى درع جديدة سابغة ، وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل ، مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان فى أحسن تعبئة ، وسار عبد الملك إلى أن نزل بمنية أرملاط ، أول محلاته ، ثم سار إلى أن وصل طليطلة ، لسبع بقين من شعبان فتلوّم بها يوم الجمعة ، ورحل يوم السبت إلى مدينة سالم ، فوافاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ ، اذفونش بن اردن ، المعروف بابن البربرية

ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجه بن غرسية ، زعيم الجلالقة ، وصاحب قشتيلة وألَبَة . وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدى عبد الملك ، على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد أول هذه السنة . فأحسن عبد الملك قبولهم ، وأوسع انزالهم ، وأصعد عن مدينة سالم إلى الثغر الأعلى ، فاحتل سَرَقُسطة .

وأخرج عبد الملك مولاه واضحاً ، فى نخبة من رجاله ، إلى حصن «مدنيش»[١] بمقربة من حصن «مُمَقْصَر»[٢] الذى عمل على قصده ، فسار واضح فصبّح هذا الحصن مع إسفار الصبح ، ورحل عبد الملك ، فتلقته رسل واضح ، فبشروه بالفتح ، وأشرف المسلمون على حصن ممقصر ، فكبّروا لما نظروا إليه تكبيراً عالياً ، كادت الأرض ترجف له ! وتتابع قرع الطبول ، وطَمّ هوله ، فذعر الكفرة ، لأول وقتهم ، واحتل الحاجب عبد الملك وعسكرُ المسلمين بساحتهم ، فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته ، وصمم المسلمون صاعدين إلى الحصن ، فوجاً إثر فوج ، وقد برز المشركون إلى الربض ، يمانعونهم عنه بزعمهم ، فنشب القتال بين الطائفتين ، وصبر المشركون ، فلم يمهلهم المسلمون إلا ريثما كشفوهم عن الربض ، وأقحموهم خلف السور ، واضطروهم إلى التحصن به . ثم جدّ الكفرة فى الدفاع ، وصدقوا القراع ، فتجرعوا كؤوس الحمام دراكا ، وضرب الليل رواقه ، فحجز بين الفريقين ، وقد ثلم المسلمون فى السور ثلماً كثيرة .

ثم غدا المسلمون على القتال بعد صلاة الفجر ، فناهضوا أعداء الله بأصح عزيمة ، وقامت الحرب على ساق ، فصبر المسلمون على مباشرتها أكرم صبر سمع به ، حتى ولّى العدوُّ الأدبار ، فاقتحموا عليهم الأسوار ، وأخذوا كثيراً منهم ، وركب الحاجب عجِلاً بنفسه ، مع أكابر أهل مركبه ، فارتقى إلى باب قصبتهم ، واقتحم الناس على

(١) لم نتحقق اسم هذا الحصن بالاسبانيولى

(٢) لم نجد ممقصر ولكن وجدنا اسم محل فى الجبل الى الغرب من طركونة اسمه الاقصر Aleixar فربما كان هو الحصن المقصود إلا أن الاسماء تتحرف بين الاسبانيولى والعربى إلى أن لا يهتدى إلى حقيقتها .

أعداء الله القصبة ، فملكوها ، وخلصت طائفة منهم إلى محل منيع بهذه القصبة ، فساورهم أولياء الله بذروة ذلك المحل ، فأيقنوا بالهلاك ، وسألوا النزول على حكم الحاجب فأنزلهم ، وحكم فيهم بحكم ابن عمه سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، فقتل جميعهم ، وملك الحصن ، وحاز الغنائم .

وعهد الحاجب إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلا ، ولا يهدموا بناء ، بما ذهب اليه من أسكان المسلمين هناك ، فشرع للوقت فى إصلاح الحصن ، ونادى فى المسلمين : من أراد الاثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر ، على أن يستوطن فى هذا الحصن ، فعل ، وله مع ذلك المنزل والحرث . فرغب فى ذلك خلق عظيم ، واستقروا به فى حينهم .

ولما استكمل الحاجب ما أراده من أمر هذا الحصن ، وأقام كلمة الاسلام منه بأرض لم ترَ الاسلام قط ، رحل عنه إلى بسيط برشلونة ، فدوّخ بلاد الكفرة ، وانبسط المسلمون فى عرصاتهم ، يحرقون ويهدمون ، وانبسطت خيل المغيرة فى أرضهم إلى أن أتى بسيطاً كثير العمارة ، فاحتلوه ، وعمّوا جميعه ، ووقعوا على كثير من عيال الجالية من هذه الحصون ، فردوهم سبياً إلى المحلة ، وأبلغوا فى النكاية ، وأحرزوا الأجر الجزيل .

وعيّد الحاجب والعسكر عيد الفطر بأرض برشلونه ، فانه رحل يوم عيد الفطر غرة شوال من السنة المؤرخة ، فأدركه وقت صلاة العيد وهم سائرون ، فنزلوا للصلاة . ولما قضى الحاجب صلاته ، تبوأ بمصلاه مقعداً ، لتهنئته بما سنّى الله له من التعييد فى سبيل جهاده ، فتقدم إليه أكابر الناس على مراتبهم ، ثم ركب فرسه ، فتقدم إليه طبقات الأجناد ، مبتهلين بالدعاء له ، وسار العسكر ، ونزل بالبطحاء ، ثم رحل من منزل إلى منزل ، فعم ذلك كله غارة وانتسافا .

قال حيان بن خلف : ورأى الحاجب عبد الملك أن قد بلغ الغاية من التدويخ لأرض العدو ، فرحل بالعسكر منكفئاً نحو أرض الاسلام ، وأمر كاتب الرسائل احمد

ابن برد أن يكتب بالفتح نظيرين : أحدهما إلى الخليفة هشام المؤيد بالله ، والآخر يقرأ على كافة المسلمين بقرطبة ؛ وتنفذ نسخته إلى الأقطار ، فعجل ذلك وأنفذه نحو حضرة قرطبة ، وكان جملة ماتضمنه كتاب الفتح من عدد السبي خمسة آلاف وخمسمائة وسبعين رأساً ، وعدد الحصون التى افتتحت عنوة ، فقُتلت مقاتلتها ، ستة حصون ، وكان عدد الحصون التى أخلاها العدو فخربت ودمّرت خمسة وثمانين حصناً ، وكلها قد سمّيت فى كتابه ، وأذن الحاجب لجميع المطوعة فى القفول إلى بلادهم ، إذ قدقضوا ماقصدوا له من جهاد عدوهم ، فقفلوا فرحين مستبشرين .

ورحل العسكر من مدينة لاردة يوم الثلاثاء لثمان خلون من شوال ، فدخل قرطبة لخمس خلون من ذى القعدة ، فتلقاه أهل قرطبة وعلماؤها ووجوهها مهنئين شاكرين ثم دخل الحاجب إلى الخليفة هشام ، فرفع مجلسه وكساه من ملابسه السنية ثلاث رزم ، قرن بها سبعين من خاص سيوفه ، فاظهر عبد الملك السرور بذلك ، وشكر الخليفة ، وقبل يده ، وانصرف إلى قصره بالزاهرة .

وجلس يوم الأربعاء ثانى يوم وصوله مجلس التهنئة فى أبهة فخمة ، وأذن للناس فى الوصول على مراتبهم ، فوصل فى أوائلهم كبار قريش ، من بيت الخليفة ، المروانيون، ثم القضاة والحكام والفقهاء ، ثم وجوه أهل الأسواق والأرباض من قرطبة ، ثم وصل الشعراء والأدباء ، فانشد منهم من رسمه الأنشاد ، ووضع سائرهم الأشعار بين يدى الحاجب . انتهى نقلا عن ابن عذارى ببعض اختصار .

وجاء فى الانسكلو بيدية الاسلامية عن برشلونة ماحصّله : أن العرب افتتحوها سنة ٧١٣ فى غارة موسى بن نصير لأول الفتح ، وسموها برشينونة Barshinona ، ولكن غلب عليها اسم برشلونة ، باللام ، ثم صارت برسلونة بالسين . وكان العرب يلقبون ملك أراغون وكتلونية بالبرشلونى أو بالبرجلونى بالجيم . وفى سنة ٨٠١ غلب عليها لويس بن شارلمان ، و بقيت تابعة للملكة الأفرنجية إلى سنة ٨٨٨ ، فنى ذلك الوقت استقل بها أمراؤها الذين كان يقال للواحد منهم كونت برشلونة . وقد ذكر

«البيان المغرب» أنه فى سنة ٢٤٢ عاد العرب فاحتلوها ، كما أن دوزى ذكر أن المنصور ابن أبى عامر أخذ برشلونة عنوة ، ولكن فى سنة ٩٨٧ رجع الكونت بوريل Borel فاستولى عليها ، وفى سنة ١١٣٧ انضمت إلى مملكة أراغون .

ومما هو جدير بالذكر من خبر برشلونة أن علياً بن مجاهد العامرى ، ملك دانية أصدر أمراً تاريخه ٤٥٠ للهجرة وفق ١٠٥٨ للمسيح ، يضع فيه أسقفيات دانية ، وأوريولة ، وجزر ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة ، تحت رئاسة أسقف برشلونة . اهـ

وقد راجعنا قول دوزى فى كتابه « تاريخ مسلمى أسبانية » فوجدناه يقول فى صفحة ١٩٩ من الجزء الثالث ان المنصور بن أبى عامر رحل من مرسية قاصداً كتلونية فهزم الكونت بوريل ، ووصل نهار الأربعاء أول يوليو إلى برسلونة . ويوم الاثنين من الأسبوع التالى دخل البلدة عنوة ، فقتل جانباً من الأهالى ، وأخذ الباقى أسرى وانتهب العسكر البلدة وأحرقوها . ونقل دوزى عن ابن الخطيب أن المنصور استولى على برشلونة فى وسط صفر سنة ٣٧٥ ، فهذا اليوم يوافق ٦ يوليو سنة ٩٨٥ قال دوزى ان هذا التاريخ صريح فى كتب العرب ، وهو مطابق تواريخ الافرنج وقد أخطأ بوفارول[١] Bofaroll فى زعمه أن هذا الحادث وقع فى السنة التى بعدها

وجاء فى الأنسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى أنه بعد أن استرجع الافرنج كتلونية كان يوجد فيها تسعة أكناد تابعون للامبراطور ، وفى سنة ٨٧٢ استقل أحدهم ، وهو المسمى عند الكتلان غريفا بيلوس Griva Pelos وهم يعدونه أول واضع لأساس استقلال كتلونية . وكان يتولى أيضا بلاد جيرندة Gironde وفيش Vich ومانرسه Manresa وبرجه Berga ، وبيرالده Peralada ، وريباغورس Ribagorce ، وسيردانية Cerdagne ، وبسالو Besalu ، وأمبورياس Ampurias وبالارس Pallars ، وتوفى هذا الكند سنة ٩٠٢ ، ودفن فى دير ريبول Pipoll

(١) هو صاحب الكتاب المسمى بتاريخ أكناد برشلونة Condes de Barcelone

الذى كان قد بناه ، وفى مدة أولاده أغار المنصور بن أبى عامر على برشلونة ، واستولى عليها سنة ٩٨٥ ، ولكن بوريل الثانى لم يلبث أن استرجعها . ثم ان بوريل ريموند الثالث قام بدور عظيم فى أثناء الحروب الأهلية التى اشتعلت بين المسلمين ، وأضعفت الاسلام فانتصر لمحمد بن هشام على سليمان بن الحكم ، وانتصر فى واقعة عقبة البقر سنة ١٠١٠ م

قلنا ان واقعة عقبة البقر هذه هى واقعة شهيرة ، تحرير خبرها أن عبد الرحمن ابن المنصور بن أبى عامر ، وهو الملقب بشنجول ، لأن أمه اسبانيولية ، بنت الملك شانجة ، كان من الحمقى ، وعلى يده انتهت الدولة العامرية . وذلك أنه حمل الخليفة هشام المؤيد بالله على توليته عهده بمحضر من الملأ ، وكان يوماً مشهوداً ، فقرىء العهد عليهم ، وهو من إنشاء أبى حفص بن برد ، فنقم أهل الدولة على شنجول هذه الجرأة الفظيعة ، ولا سيما أقارب الخليفة هشام ، من الأمويين والقرشيين ، وتمشت رجالاتهم في أمر القيام على شنجول ، وقتلوا صاحب شرطته ، وهو غائب فى إحدى غزواته ، وكان ذلك سنة تسع وتسعين وثلاثمائة . وخلعت قرطبة هشاماً المؤيد ، وبايعت هشام بن عبدالجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وطار الخبر إلى عبدالرحمن شنجول بمكانه من الثغر فقفل إلى الحضرة بجيشه ، فلما قرب من قرطبة ، وثب عليه من احتزّ رأسه . وحمله إلى محمد بن هشام الخليفة الجديد ، الذى تلقب بالمهدى . وكان العرب قد كرهوا البربر ، لمظاهرتهم المنصور بن أبى عامر وأولاده ، ونسبوا ما حل من الضعف بدولة بنى أمية إليهم ، وأخذ المهدى باهانتهم ، ونهبت العامة بعض دورهم ، فتمشت رجالاتهم ، واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر ، فعرف بذلك المهدى ، فأمر بالقبض على هشام وأخيه أبى بكر ، وضرب أعناقهما ، وفرّ سليمان بن أخيهما الحكم ؛ ومعه البربر ، واجتمعوا بظاهر قرطبة ، فبايعوه ، ولقبوه بالمستعين بالله ، ونهضوا به إلى طليطلة ، حيث استجاش المستعين ، بشانجة بن غرسية بن فردلند ، ثم نهض بجموع البربر والنصارى إلى قرطبة ، وبرز

المهدى إليهم بجموع قرطبة ، فكانت الدائرة على المهدى والقرطبيين ، فقتل منهم البربر والنصارى عشرين ألفاً ، وهلك فى هذه الوقعة من خيار الناس والعلماء ، وأئمة المساجد عدد كبير . ودخل المستعين الحضرة ختام المائة الرابعة . وقيل ان الذى هلك من أهل قرطبة ثلاثون ألفاً ، وقالوا انها كانت أول ما أخذ النصارى من إثاراتهم عند المسلمين ، وكان ذلك على يد فرقة من أنفسهم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

* * *

ثم نعود إلى ما ذكرته الانسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى من تاريخ كتلونية فنقول :

« إنه بعد ريموند بوريل الثالث ، قام بيرنجة ريموندالاول (١٠١٨ ــ ١٠٣٥) وهذا قسم مملكته بين أولاده الاربعة ، وكان أكبرهم ريموند بيرنجه الاول ، الملقب بالشيخ (١٠٣٥ ــ ١٠٧٦) الذى اتسعت مملكته ؛ وغزا مرسية العربية سنة ١٠٧٤ وقام بعده ولده ريموند بيرنجه الثانى ؛ وحفيده بيرنجه ريموند الثانى الذى قتل أخاه وانفرد بالمملكة (١٠٨٢ — ١٠٩٧) وكان لهذا الكند مدخل فى الحرب الاهلية بين المسلمين وهو الذى انتزع طركونة من أيديهم سنة ١٠٩١ ؛ ورحل إلى المشرق مشتركا فى الحرب الصليبية . وخلفه ابن أخيه الذى تلقب بريموند بيرنجه الثالث ؛ ويقال له الكبير . وفى زمانه بلغت كتلونية قمة عزها ومجدها ؛ وصار لبرشلونة أسطول وكانت لها تجارة واسعة . وفى أيامه أخرج الاسبانيول العرب من جزائر ميورقة واخواتها . وذلك باجتماع أسطول برشلونة مع أساطيل بيزة ورومة من ايطالية مما سيأتى الكلام عليه ، فسقطت ميورقة فى أيدى الكتلان سنة ١١١٥ ، وكان العرب قد شنوا الغارة على كتلونية فهزمهم ريموند برنجه فى واقعة كونغسط Congost وفى سنة ١١٢٠ زحف إلى طرطوشة وحاصرها ، وضيّق عليها ، وأجبر كلا من أميرى طرطوشة ولاردة أن يؤدى له إتاوة سنوية ، إلا أن العرب عادوا فأغاروا على بلاده ، وهزموه فى واقعة كوربينس Corbins وبينما كان يتأهب لأخذ الثأر منهم ، وقعت وفاته فى سنة ١١٣١ ، وكانت اتسعت مملكته جداً ، لأنه عدا كتلونية ، كان قد استولى على

قرقشونة وكونتية بروفنس من فرنسة ، وكانت فى يده ميورقة ، والجزائر التى حولها .

و بعد وفاته انقسمت المملكة بين ولديه ، أحدهما البكر وهو المسمى ريموند بيرنجة الرابع ، والثاني بيرنجة ريموند ، الذى تولى بلاد بروفنس من فرنسة ، وترك لأخيه كل ما كان تابعاً للمملكة من اسبانية ، وتلقب ريموند بيرنجة الرابع بالقديس وأخذ يحارب المسلمين ، واتفق مع راميرو الثانى Ramire II ملك أراغون ، الذى كان قد ترهب فى الآخر ، وتقرر بينهما ترويج ريموند بيرنجة بالأميرة بترونيليه Pétronilla وارثة مملكة أراغون ، ولما خلع راميرو الثانى نفسه من ملك أراغون ، واختار الرهبانية بايع أهل أراغون ريموند بيرنجة المذكور ملكا عليهم ، فصارت فى يده قوة عظيمة ، وتحالف مع الأذفونش السابع ملك قشتالة ، وساعده فى غارته على المرية سنة ١١٤٧ ثم انه بمساعدة الجنويين حاصر طرطوشة ، واستولى عليها فى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨ و بعد أن طرد العرب من طرطوشة أخرجهم أيضاً من مواطنهم الأخيرة فى أطراف بلاده ، من جهة الغرب ، مثل لاردة ، وفراغه ، ومكناسة ، وفى سنة ١١٥٢ لم يكن بقى للعرب شىء فى كتلونية .

وفى سنة ١١٦٢ خلفه ابنه ريموند ، الذى ضم وشقة إلى مملكته ، وتلقب باذفونش الثانى [١] ، وكانت كل من مملكتى أراغون وكتلونية تحت حكمه ، ولكن الاتحاد بينهما كان سياسياً فقط ، إذ كل من المملكتين كانت محتفظة بلغتها ، وعاداتها ومشاربها ، ولم يمنع اختلاف الذوق والمشرب من الاتفاق فى السياسة ، فان أراغون كانت ، بسبب كتلونية تتصرف بقوة بحرية عظيمة . كما ان كتلونية ، بواسطة

(١) ولد هذا الملك فى سنة ١١٥٢ وبويع ملكا على برشلونة وعلى أراغون سنة ١١٦٣ وتوفى سنة ١١٩٦ وكان قد استولى على بروفنس فى جنوبى فرنسة ووقعت الحرب بينه وبين شانجة ملك نبارة وقاتل جيوش الموحدين الزاحفين من افريقية إلى الأندلس وخلفه ابنه بتره ملكا على أراغون وبرشلونة ويقال له بتره الثانى ولد سنة ١١٧٤ واشترك مع اذفونش السادس ملك قشتالة فى قتال الموحدين سنة ١٢١٢ ومات فى السنة التي بعدها قتيلا فى حرب الالبيجيين Albigeois

أراغون ، كانت تتصرف فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة برية عظيمة . فأفادهما الاتحاد فوائد لا تحصى ، لاسيا فى اجلاء العرب عن شرق اسبانية .

ولما آل الملك إلى فرديند الكاثوليكى ، ثم إلى شارلكان ، كانت كتلونية تابعة لاسبانية ؛ ولكن الكتلان بطبيعتهم لا يحبون القشتاليين ، ولا يمتزجون معهم ، وفى سنة ١٦٣٩ ، عند ما أراد فليب الرابع ، ملك أسبانية ، الغاء امتيازات كتلونية ، ثار الكتلان به ، وحاربوه بمساعدة لويس الثالث عشر ، ملك فرنسة ، الذى اعترف بحكومة جمهورية لكتلونية ، واستمرت هذه الثورة مدة اثنتى عشرة سنة . ثم وقع الاتفاق بين الفريقين سنة ١٦٥٩ . وصدر العفو عن الثائرين ، وبقيت امتيازات كتلونية محفوظة ، ولكن فى سنة ١٦٨٩ ثارت كتلونية مرة ثانية ، ولما انتخبت أسبانية حفيد لويس الرابع عشر ملكا عليها لم يعجب ذلك الكتلان ، كرهاً بأهل قشتالة ، الذين انتخبوه ، فانتقم فيليب الخامس من الكتلان ، وأذاقهم عذاباً واصباً وألغى امتيازاتهم ، ونقل المدرسة الجامعة من برشلونة إلى سرڤيره Cervera . إلا أن الكتلان هم أهل جد ونشاط ، فلم يلبثوا أن تقدموا إلى الامام بجدهم ، وصارت بلادهم أغنى قطعة من أسبانية . ولما زحفت جيوش نابليون على أسبانية قاومها الكتلان مقاومة شديدة ، كسائر أهل أسبانية . وفى الحروب الاهلية التى تقع كثيرا فى أسبانية ، كان الكتلان ينقسمون إلى قسمين ، فأهل الجبال منهم ينزعون بطبيعتهم إلى المبادىء الملكية ، وأهل السواحل ، مثل برشلونه ، يميلون إلى المبادىء الحرة .

ولما سقطت الملكية سنة ١٩٣١ جرت حركة شديدة فى كتلونية ، لأجل الانفصال عن سائر أسبانية ؛ ولكن المعتدلين من الكتلان كانوا يكتفون لكتلونية بالاستقلال الداخلى ، ولما كانوا فى أيام الملكية قد اتفقوا مع زعماء الحزب الجمهورى على ذلك ، بموجب معاهدة وقّع عليها الفريقان ، لم يقدر زعماء هذا الحزب بعد أن قبضوا على ناصية الحكم ، إلا أن يجيبوا الكتلان إلى بعض مطالبهم بالأقل ، فلم يكن

رضى الكتلان عن الحكومة الجمهورية الجديدة تاماً ، ولبثوا يترقبون الفرصة لأجل استكمال حريتهم .

وفى أثناء ما نحن نكتب هذه السطور تشتعل نيران الحرب الأهلية فى أسبانية بين الحز بين الكبيرين الحزب المحافظ ، ومعه القسوس ، والأحبار ، وأكثر قواد الجيش ، والفئة الملكية ، والفئة الجمهورية المعتدلة . والحزب الاشتراكى ، ومعه العملة ، والشيوعيون ، والصعاليك ، والفلاحون من طلاب الأراضى ، والجمهوريون الغُلاة الثائرون على القديم . ولقد مضى إلى ساعة رقم هذه الأحرف نحو من خمسة عشر يوما والفتنة تضطرم فى جميع مدن أسبانية ، والقوتان متكافئتان إلى هذا اليوم ، لا يقدر الناظر إلى الحوادث أن يستخلص منها حكما بترجيح الظفر لاحدى الفئتين . وقد وقعت الوقائع فى برشلونة أيضاً ، وانتصب الميزان نحواً من ثلاثة أيام ، إلا أن كفة حزب اليسار رجحت فيها على كفة الحزب المحافظ ، وسارت العساكر الموالية للجمهورية ومعها عصائب من الأهالى ، قاصدة إلى سَرَقُسطة ، لاخضاع الجيش الثائر فيها على الحكومة . وقد مرت هذه القوّة الزاحفة ببلدة قشب ، وأدخلتها فى الطاعة ، ولا نعلم ماذا يتم فى سرقسطة ؟

فظهر من هنا أن سكان السواحل من كتلونية لاتزال تنزع فيهم من الحرية أعراق تتجلى فيهم عند كل فرصة

* * *

ذكرنا قبلا أن اللغة الكتلونية هى أقرب لغة إلى اللغة البروفنسية Provencçal ومن المعلوم أن الكتلونية ، والبروفنسية ، والقشتالية ، والبرتغالية ، كلها مشتقة من اللغة اللاتينية التى هى الأم . وذلك بفساد طرأ على اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى فما زال يعمل عمله فيها حتى تكونت منها عدة فروع ، يقال لها عند الافرنج : لغات الاوك Langues d' Oc وقد أصبحت اللغة الكتلونية لغة متميزة عن غيرها ، منفصلة عن القشتالية والغالية فى القرن الثانى عشر للمسيح ، ولكنها

إلى ذلك الوقت لم تكن لغة أدب وتأليف ، وما ابتدأ التأليف في اللغة الكتلونية إلا فى القرن الثالث عشر ، فظهرت فيها دواوين شعرية ، ومعجمات لغوية ، وكتب نحو وصرف ، وأخذت تنمو وتنتشر ، ولما استولى ملوك برشلونة واراغون على جزر الباليار ، امتدت اللغة الكتلونية إلى ميورقة ومينورقة و يابسة ، و إلى بلنسية والقنت ، وصارت هى اللغة السائدة فى شرقى اسبانية . وكانت الملاحة فى سواحل اسبانية الشرقية فى أيدى الكتلان ، فصارت اللغة الكتلونية هى أداة التفاهم عند جميع البحرية ، في هذه القطعة من البحر المتوسط . وقد انقسمت اللغة الكتلونية هى أيضاً إلى لهجتين إحداهما الميورقية ، والثانية البلنسية ، وأكثر ما كان التباين هو فى اللفظ ، وفى تركيب بعض الجمل . ولما اتحدت مملكتا أراغون وقشتالة ، تقلصت اللغة الكتلونية من أراغون ، ولكنها بقيت هى اللغة المعروفة فى كتلونية ، وجزر الباليار ، و بلنسية والقنت

ولما كنت فى ميورقة جرى التعارف بينى و بين قسيس كبير طاعن فى السن ، قيل لى انه من كبار العلماء ، وانه صنف كتاباً بالغاً عدة مجلدات فى فرائد اللغة الكتلونية .

وهذه اللغة و إن كانت لاتينية محضة فى أصلها فقد دخل فيها ألفاظ كثيرة جرمانية وألفاظ كثيرة بروفنسية ، وألفاظ كثيرة عربية ، وهى فى كثرة الداخل عليها من العربى أشبه بالأسبانيولية القشتالية .

أما فى تركيب الجمل فيوجد تشابه كثير بينها و بين البروفنسية ، ومن خصائصها أنه يقع فيها تبديل حرف بحرف ، فيجعلون بدلا من حرف E حرف I أو حرف O أو حرف U ، وهم يجعلون دائما حرف X بدلا من حرف S . و إذا كان اسم أو نعت باللغة البروفنسية منتهياً بأحرف An أو En أو In أو Im فالكتلونى يضيف إلى هذا الاسم أو هذا النعت حرف Y فاذا جاء فى البروفنسى لفظة Engin مثلا جعلوها فى الكتلونى Enginy . وعلامة التأنيث فى النعوت هى فى الكتلونى حرف A كما هى فى البروفنسى ، ولكن ليس ذلك مطرداً ، فقد يقولون Fort فى مقام التأنيث بدلا

من أن يقولوا Forta ومزية هذه اللغة هي الاختصار والنحت ، فهى لا تعرف تغيير أواخر الكلام بحسب مواقعها من الاعراب . بل تقتصر على أصل الكلمة ، وربما تحذف بعض أحرف من أواسطها . فتجد فيها مثلا لفظة Vino منحوتة بلفظة Vi ولفظة Bono منحوتة بلفظة Bo [٢] ولذلك تمتاز هذه اللغة بالشدة والجزم ، وقوة المقاطع وهى فى هذا كالتركية . ومن مزاياها كثرة الألفاظ المحاكية للاصوات ، وهى التى من قبيل الطقطقة ، والهمهمة ، والغمغمة ، والدمدمة ، وخرير الماء ، وصرصرة البازى ، وشقشقة الفحل . وفحيح الحية ، وما أشبه ذلك فى العربية فهذا الضرب من الكلام مستفيض فى هذه اللغة وإذا انتهت فيها الكلمة بحرف صائت حذفوه ، وتلفظوا بها بصورة الجزم .

وأما آداب اللغة الكتلونية فقد قسمها بعضهم إلى ثلاثة أدوار : الأول هو الدور البروفنسى ، وأمده من القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن الرابع عشر . والدور الثانى هو الكتلانى ، الذى يبدأ من زمان الدون جقّوم ، وينتهى بالقرن

(١) إذاً الكتلونية فى هذا تشبه جارتها العربية المغربية فلا شك فى كون اخواننا المغاربة هم أعظم النحاتين فى العربية فيقولون فى عبد الله « عبو » وفى عبد الرحمن « رحو » وفى عبد السلام « عبسلام » ويصغرونه « بسلامو » وفى عبد الكريم « عبكريم » وفى تصغيره « كريمو » ويقولون فى عبد القادر « عبقادر » و « قدور » والمشارقة أيضاً يقولون قدور وينحتون محمداً « بحمود » وعبد اللطيف أو لطف الله « بلطوف » وزكريا « بزكور » ونصر الله « بنصور » وعبد الرزاق ورزق الله « برزوق » وعبد الجبار « بجبور » وهذه ايضا فى المغرب وفيه ايضا « عزوز » و « كبور » لعبد العزيز وعبد الكريم وفيه غرائب نحت من قبيل « مح » و « مُحَ » و « حمو » فى فى محمد و « طامة » و « طامو » و « طم » و « ط » فى فاطمة و « عشوش » و « ش » فى عائشة ويقال إن النحت فى فاطمة وعائشة يبلغ بضع عشرة صورة . أما فى المشرق فنقتصر فى نحتها على « فطوم » و « عيوش » ومن غرائب نحت الأسماء ماسمعته من إخواننا مسلمى بوسنه وهرسك وهو « ميو » فى مصطفى و « سلو » فى صالح ومنها عند الاكراد « حسو » فى حسن ، وهلم جرا

الرابع عشر . والثالث هو المسمّى بالبلنسى ، وهو يبدأ باوزياس مارك Ausias March وينتهى بنهاية القرن الخامس عشر . ثم إنه فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كُتبت باللغة الكتلونية كتب نفيسة ، ونظم الشعراء أشماراً رائقة ؛ ولكن الأدب الحقيقى لم يبدأ إلاّ فى القرن الثالث عشر ، فى ذلك العصر عدل الشعراء والزجالون من الكتلان عن اللغة المكتوبة ، ونظموا باللهجات العامية كما يعلم من قرأ شعر بركدان Berquedan و بليور Benluire وغيرهما . وممن اشتهر بهذا الأسلوب من شعرائهم برناردو موغوده Bernardo de Mogoda وجقوم فبرّر Jaime Fabrer وكان موغوده فى صحبة الملك جقوم الأول عند مافتح ميورقه ، فقال فى ذلك الفتح ما هو شعر وتاريخ معاً . وللشاعر فبرر والشاعر الآخر جوردى دلراى Jordi del Rey قصائد وصفا بها تلك العاصفة الشديدة التى دمّرت أسطول جقوم الأول ، ومنعته من خوض غمرات الحرب الصليبية فى الشرق

والغالب على الكتلان أنهم يميلون إلى ذكر الأحداث الواقعة المحسوسة أكثر من ميلهم إلى العواطف والخيالات ، ولذلك نجدهم فى التاريخ كتباً قيّمة وكان جقّوم الأول ، الملقب بالفاتح ، قد كتب هو نفسه تاريخا لغزواته ، مملوءاً بالوقائع ، وقد طبع هذا التاريخ طبعته الأولى فى برشلونة سنة ١٥١٧ ، وهذا الملك كان قد سن قانونا بحرياً لبثوا مدة طويلة يعملون بموجبه فى البحر المتوسط ، ثم دخلت منه قواعد كثيرة فى القوانين البحرية الحديثة . فلهذا كان هذا الملك معدوداً من أعظم الأدباء الذين خدموا اللغة الكتلونية . وفى القرن الرابع عشر اشتهر بتره الثالث ابن جقّوم الأول ، فأمر بكتابة تاريخ عن مغازى والده ومغازيه هو .

وممن امتاز فى علم التاريخ والآثار دسكلوت Desclot محرر تاريخ أراغون ، المعدود من أحسن مؤلفات القرون الوسطى . ثم مونتانير Montaner وهو نَديدُه في

معرفة التاريخ ، ولـكنه أعلى منه عبارة ، ويقال إنه أفصح مؤلف فى عصره .

وممن نبغوا لذلك العهد جوان مورتوريل Martorell وله كتاب قصص عن العروسية ، يقال إن أديب أسبانية الأكبر سرفنتيس Cervantes لم يكن يحفل بغيره . ولا يجب أن ننسى بونيفاسيو فرّر Ferrer الذى ترجم التوراة كلها إلى الـكتلونية ، وطُبعت هذه الترجمة فى بلنسية سنة ١٤٧٨ . ونبغ كثير من الشعراء بهذه اللغة نخص منهم بالذكر رامون مونتانير Ramon Montaner وموزن زالبا Mosen Zalba وموزن توريل Mosen Turrell وغيرهم . وفى زمن بترُه الرابع ملك أراغون تألفت أكاديمية بسعى لويس آفيرسو Averso وجايم مارك Jaime Merch وكان للأدب الايطالى تأثير فى الأدب الـكتلونى ، نظراً لـكثرة العلاقات بين البلادين ، وترجم اندرى فبرر المهزلة الالهية لدانتى

أما الدور البلنسى فهو أرق أدوار اللغة الـكتلونية ، وذلك لأن اللهجة البلنسية أرق وأشجى بكثير من اللهجة البرشلونية الجاسية ، ولأنه نبغ فى بلنسية شعراء كان يجرى فى عروقهم الدم العربى ، ومن شعراء بلنسية المشهورين دوسان جوردى de San Jordi وجقّوم رواغ Roig وجقوم غازول Gazull الذى اشتهر برثائه الفلاحين فى سهل بلنسية ، وأنليزة Anleza و بآترا ربورتلس Portells ونرسيزو فينيولاس Vinyolas ومرسين غرسية ، وجوان فوغاسو Fogasso وتورنيدة Turneda الذى نظم المبادىء الأدبية المسيحية شعراً .

ونبغ من الناثرين جوان مانسو Manso الذى ألف كتاباً على اللهجة البلنسية و بيترُه طوميش ، وله تاريخ وقائع ، وجبرائيل تورّل ، صاحب تاريخ أكناد (١)

---

(١) جمع كند واليوم يقولون كونت بالتاء وكان العرب يقولون قمط بالميم والطاء ويجمعونها على اقماط وكثيراً ما جاء فى كتبهم ذكر اقماط برشلونة أو برجلونة وقد أهدانا الفاضل المؤرخ الحاج محمد العربى بنونة من أعيان تطوان عدة مراسلات خطية دارت بين سلاطين غرناطة بنى الاحمر وبين أقماط برجلونة سننشرها هنا

برشلونة ، ولويس الـكنيس ، وميكال بيريز Perez وغيرهم ، وبقيت الآداب اللغوية الـكتلونية زاهرة مدة دوام استقلال برشلونة ، فلما أضاعت هذه البلاد استقلالها فى زمن الامبراطور شارلـكان ، تقلّصت الآداب الـكتلونية ، ورجعت تلك الحركة إلى الوراء ، ومع هذا فقد نبغ من الـكتلان فى ذلك العصر شعراء ، مثل بيترُه سيرافى Serafi ، وجيبرغا Giberga ، وجُوان ماتارو Mataro ، الذى نظم قصيدة عن واقعة ليبنط البحرية ، التى تغلبت فيها الأساطيل النصرانية على الاسطول العثمانى، واشتهر من المؤلفين بيترُه كاربونيل Carbonell ، وفرنسيسكو كالسّه Calça وميكال فرّر ، وكاتب جغرافى اسمه فرنسيسكو طَرَفة Tarrafa وروكه مؤلف معجم لغوى للسان الـكتلونى .

ومن الفقهاء فرنسيسكو سولسونة Solsona ، ومن الأطباء جوان روفائيل مواكس Moix وغيرهم ، ولـكن زوال الدولة البرجلونية فتّ فى عضد اللغة الـكتلونية وهو أمر بديهى ، فحيث لا توجد دولة قومية ، لا يوجد أدب حقيقى ، انظر إلى العرب كيف ضعفت ملـكة البيان عندهم ، بعد استيلاء الأعاجم على بلادهم .

وكان مبدأ انحطاط اللسان الـكتلونى فى القرن السابع عشر، واستمر إلى الثامن عشر وزاد الطين بلة أن فيليب الخامس أمر بالغاء الامتيازات الـكتلونية ، و بعدم تحرير أوامر الحـكومة باللغة الـكتلونية . وصاروا يؤلفون الـكتب فى كتلونية باللغة القشتالية ، ولـكن برغم تضييق الدولة الاسبانية على هذه اللغة ، بقيت فيها بقايا صالحة من شعراء وكتّاب ، مثل فرنسيسكو بالار ، واينياسيو فرّيره ، وأوغسطين اورّه ، وغيرهم .

وبقيت اللغة الـكتلونية تتقهقر إلى الوراء إلى أيام الثورة الافرنسية ، التى تلقى الـكتلان مباديها بشوق عظيم ، فحصلت نهضة سياسية صحبتها نهضة لغوية ، ونشطت هذه اللغة ثانية من عقالها ، وتنظمت جامعة برشلونة على نسق جديد ، وتألفت أكاديميات ، وانتشرت صحف ، ونشأ ناشئة كتلونية ، تنزع إلى إحياء أدبها القديم .

ونشر عبدون ترّاداس Abdon Terradas أول جريدة باللغة الـكتلونية سنة ١٨٣٨ وأخذوا ينظمون وينثرون بهذه اللغة ، وكثر الشعراء والزجالون . مثل بادريس Padris . و بوفارول Bofarull . وريكار Ricart . واسترادا Estrada . وغيرهم . ولـكن اللغة القشتالية بقيت فائقة .

ومن سنة ١٨٦٠ فصاعداً انقسم الأدباء إلى قسمين : بعضهم يذهب إلى ترقية اللغة الـكتلونية ، بدون اهمال القشتالية شقيقتها ، و بعضهم يأبى إلا حصر الأدب والقضاء والسياسة فى الـكتلونية ، والحزب الأول يكثر فى بلنسية ، وأما الحزب الثانى فأكثره فى برشلونة ، وعلى كل حال فاللسان الـكتلونى من ستين أو سبعين سنة إلى اليوم ، قد بُعث بعثة جديدة ، وتمثّلت فيه الروايات ونظمت المآسى ، والمهازل والنشائد المختلفة ، واشتهر فى هذا الدور فيكتور بلاغر Balaguer من الشعراء، وأورس Ors رئيس أكاديمية الآداب فى برشلونة ، وفرنسيسكو مارترينة ، وغيرهم . ومن كتاب القصص فونتانلس Fontanals وله شهرة فى كل أوربة ، وأولّر Oiler وتوده Toda .

مراسلات سلطانية

وقعت بين أقماط برجلونة ملوك أراغون

وسلاطين بنى الاحمر أصحاب غرناطة

كانت المراسلة لا تنقطع بين سلاطين غرناطة بقية ملوك العرب فى الأندلس ، من جهة ، و بين ملوك قشتالة ، وملوك أراغون ، وأقماط برجلونة من جهة أخرى ، بسبب الجوار ، واتصال الأرض بالأرض ، واشتباك المصالح ، والمرافق ، ولقد أتينا فى كتابنا « آخر بنى سراج » المذيل بمختصر تاريخ اسبانية ، فى طبعته الثانية ، بأربعة مراسيم سلطانية صادرة عن السلطان أبى الحسن على بن الأحمر ، إلى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم . ونحن الآن ناشرون بعض كتب من سلطان غرناطة يوسف بن اسماعيل بن فرج ، إلى الدون بترُه ، ملك أراغون وكتلونية . قد أهدانا هذه الوثائق النفيسة الأخ الفاضل الوجيه الحاج محمد العربى بنونة ، من أعيان تطوان وذلك نقلا عن مجموعة رسائل اتصل بها من كتلونية ، حاوية عدداً كبيراً من هذه المراسلات ، إلا أن تقادم العهد قد طلسها ، وعبث الأرَضة بها قد جعل قراءتها متعذرة وطمسها ، فبعد الجهد الجهيد تمكن الأخ العربى بنونه ، جزاه الله خيراً ، من نسخ هذا الجزء القليل ، الذى اتضح له خطه ، وتسنى له ضبطه ، وهو ما يلى بحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، دون بطرُه : ملك أراغون ، وسلطان بلنسيةْ وسردانية وقرصقة ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين ، أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن

نصر ، سلطان غرناطة ومالقة والمريه ووادى آش وما يليها ، أما بعد فانا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن العلم بمحلكم فى الملوك الأوفياء ، والشكر مما لكم فى الصحبة من المذاهب والانحاء ، و إلى هذا فوجبه إليكم هو أنه حدثت شكايات فى هذا الصلح ، رفع إلينا فيها أهل بلادنا ، وطلبوا خلاصها ، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إليكم كتابنا هذا ، صحبة سفير بها ، ومن هذه الشكايات ماصدر عن أهل بلادكم . من أخذ أسارى ، وحملهم إلى أرض غير أرضكم ، و بيعهم لهم بها ، ونحن نعلم أنكم أوفى ملوك النصرانية ، وانك ما عُرفت إلا بالوفاء قديماً وحديثاً ، فقصدنا منكم أن تعملوا فى هذا الحال ماتقتضيه غيرتكم على عهدكم ، ومحلكم في الوفاء وتأمروا بخلاص الشكايات على الوجه الذى يقتضيه نظركم ، و يكون ذلك مما نشكره من أعمالكم ، ونزداد به علماً بوفائكم ، وحسن مصادقتكم . وقد وجهنا إليكم برسم هذه الشكايات مملوك جانبنا القائد بشيراً ، ومعه أُقين ولد خديمنا وخديمكم بُشقاين شرنجة [1] ، وأنتم تفعلون ما هو اعتقادنا فيكم ، وما نعلمه من مقاصدكم فى الوفاء ، ومناحيكم ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى اليوم الرابع والعشرين لشهر محرم مفتتح عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، عرّف الله خيره .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، دون بطرُه ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وصاحب سردانية ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاء

(١) لم نعرفه

ومذاهبه ، حافظ عهده البر به ، العارف بمحله فى الملوك ومنصبه ، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد فانا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن الحفظ لعهدكم ، والثناء على مذهبكم فى الوفاء وقصدكم ، والعلم بمنصبكم فى ملوك النصرانية ومجدكم ، و إلى هذا فقد وصلنا كتابكم جواباً عما كتبناه إليكم ، فى شأن الضرر الذى لحق بلادنا من أرضكم ، تذكرون ان ذلك الضرر لاعلم عندكم به ، وحاشا لله أن نعتقد فيكم إلا الوفاء الذى يليق بمملكتكم وسلفكم ، فمثلكم من الملوك الكبار لا يعتقد فيه إلا الوفاء والصدق . وما ذلك الضرر إلا من أهل الأرض ، وأكثره من الناس الخارجين عن طاعتكم من لَقَنْت ، والمدوّر ، وأريولة ، والارض التى لنظر بِطرُه شارقة ، ومع ذلك فانه ضرر كبير ، ومنه ما هو من البلاد التى تحت طاعتكم . فنى هذه الأيام أضر بهذه السواحل شينى [1] ، وحمل من المسلمين حملة (جملة لم نتبين حقيقتها) ببلنسية ، فالقصد منكم أن تنظروا فى هذا الحال بما هو المعلوم من وفائكم ، وغيرتكم على عهدكم ، حتى تجدوا ما أُخذ من المسلمين وأموالهم ، وعرفونا بما عندكم فى قضية تلك البلاد التى خرجت عن طاعتكم ، لنعلم مذهبكم فى ذلك ، ونبنى عليه وعرفتم بأنكم قد كتبتم إلى ميورقة ، ليوصل اليكم منها المفسدون الذين خرجوا على عهدكم ، وأضروا بالمسلمين لتعملوا فى قضيتهم الواجب ، وذلك هو الذى يليق بكم ، ونشكركم عليه ، ووقفنا فى آخر كتابكم على فصل طلبتم منا فيه أن نعرفكم بمذهبنا فى الصلح ، فانكم صعُب عليكم ما تضمنه كتابنا ، و إنه لا صبر على هذا الضرر ، فاعلموا أن قصدنا بما كتبناه إليكم ما هو إلا (كلمة أشكلت قراءتها) فى ذلك الضرر ، وأما ما عقدناه

---

[1] الشانى بمعنى السفينة ، ويجمعونها على الشوانى . وقد يقولون فى مفردها « شينى » ، وقد قال صاحب التاج إنها لغة مصرية ، مثل الشونة ، بمعنى مخزن الغلة . والعلامة الأب أنسطاس الكرملى يرجح أنها فارسية ، وأن أصلها « دونى » بمعنى السفينة . وهو يقول إن العرب قد يقلبون الدال شيناً ، كما ترى فى الارتعاد والارتعاش .

من الصلح فنحن نوفى به على حسب ما اشترطناه ، ما وفيتم لنا أيها السلطان ، فكونوا من ذلك على يقين ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى يوم الخميس الثالث والعشرين لشهر محرم مفتتح عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور الأوفى الأشهر المشكور الأخلص ، دون بطرُه ، ملك أراغون ، وبلنسية ، وميورقة ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونة ورشليون [1] ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم مملكته ، الحافظ امهده ، الأمير عبدالله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إليها ، وأمير المسلمين ، أما بعد فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيرا ، وجانبكم مكرم مبرور ، ومحلكم فى الملوك الأوفياء مشهور ، ومذهبكم فى الصحبة والوفاء بالعهد معلوم مشكور ، وإلى هذا فقد وصلنا كتابكم ، جواباً عن كتابنا الذى وجهناه إليكم ، صحبة ارسالنا ، واستوفينا ما ذكرتم فيه ، وما قررتم عندنا ، من أنكم أمرتم خدامكم وولاة بلادكم ، بالإنصاف من كل ما أخذ للمسلمين بعد عقد الصلح ، وذلك هو الذى يليق بسلطان مثلكم ، فما زال أسلافكم الملوك يعرف منهم الوفاء بالعهد ، والوقوف فى حفظ أمور الصلح على ماعقدوا عليه ، وتعلمون أن هذه الشكايات التى لحقت أرضنا من ناسكم ، قد طال الحال فيها ، ووجهنا فيها إليكم ارسالا ، وهم يترددون فى طلبها ، منذ نحو من عام ، وما زال أهل بلادنا الذين لحقهم الضرر ، يتشكّون إلينا ، مرة

(١) Roussillon مقاطعة افرنسية اليوم مركزها بربينيان على الحدود بين فرنسة وكتلونية

بعد مرة ، ولا يسعنا إلا أن ننظر لهم ، فقصدنا منكم أيها السلطان أن تعزموا فى هذه الحال عزيمة مثلكم من السلاطين ، وتحكموا على ناسكم بخلاص ذلك حكما حزماً ، وقرّ رأينا أن وجهنا إليكم بكتابنا هذا خديمنا الفارس المكرم أبا الحجاج يوسف بن فرج أكرمه الله ، فعسى أن تجملوا معه من يظهر لكم من ناسكم ، يتردد معه على الجهات التى تعيّنت الشكايات فيها ، وتنفذوا لهم أمركم فى ذلك بالخلاص الذى يقع به الإنصاف على أكمل الوجوه ، فان فعلتم ذلك فعلتم ما يليق بكم ، وما نقابلكم عليه بالشكر ، و إلاّ فلا يسعنا إلاّ أن ننظر لرعيتنا وجهاً يكون فيه خلاص شكاياتهم ، و إذا وقع الاسترهان ، فلا يخفى عليكم ما يحدث فى ذلك من خلل فى الصلح ، وأنه لاتستقيم له . هذا ما عندنا عرفنا كم به ، ونحن نرقب ما يكون من عملكم فى ذلك . والله يصل لكم بطاعته عوارف رضوانه ، ومواهب إحسانه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى التاسع عشر لشهر ذى الحجة عام ستة وأربعين وسبعمائة

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، الأوفى الأخلص ، المبرور المشكور ، المرفّع المكرم ، دون بطره ، ملك أرغون ، و بلنسية ، وميورقه ، وسردانية ، وقرسقه ، وقط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، و يسّره لما يحبه الله و يرضاه ، مكرم مملكته ، البرّ بجانبه ، الشاكر لمقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إلى ذلك ، وأمير المسلمين . أما بعد فكتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حماها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، وجانبكم مبرور ، ومحلكم فى ملوك النصرانية معلوم مشهور ، و إلى هذا فموجبه إليكم هو أن شخصين من أهل المرية ، يعرف أحدهما بعلى بن بكرون الصائغ ، والآخر بسعيد بن أحمد الحجام ، أُخذا فى جفن[1] الرُّخاج (كذا) وهما خارجان من

---

(١) الجفن معناه هنا السفينة وهو اصطلاح عامى ليس له أثر فى الفصيح ولعلهم تواضعوا عليه من باب التشبيه بجفن العين .

مالقة ، وثبت عندنا عقد صحيح انهما أخذا فى نصف شهر صفر الفارط قريبا ، ونصف صفر موافق للسابع والعشرين ليونيو ، المتصل بشهر مايو ، وصلحنا معكم عقد بتاريخ الرابع عشر من الشهر العجمى المذكور ، فظهر من ذلك أنهما أخذا بعد عقد الصلح بإثنى عشر يوماً ، وهذان المسلمان وصل بهما إلى المرية نصرانى من بلنسية ، يروم فداءهما فرفع إلينا قرابتهما ، وعرفونا أنهما أخذا فى الصلح ، فرأينا أن حكمنا على قرابتهما بأداء الفدية للنصرانى ، ثقة بأنكم تخلّصون القضية ، وتحكمون على من اشتراهما أو باعهما بعد أخذهما فى الصلح بغرم ما يجب فى ذلك ، فغرضنا منكم أن تعملوا فى هذه القضية ماهو المعلوم من وفائكم ، حتى يخلص قرابة الأسيرين من الفدية التى غُرّموها فى غير حق ، تعملوا فى ذلك واجب الوفاء الذى نشكره لكم ، والله يصل عزتكم بتقواه ، وييسركم لما يحبه ويرضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى الثامن والعشرين من شهر رجب الفرد عام خمسة وأربعين وسبعمائة اه .

وبعد انتهاء المكتوب ملحق به سطران بخط غير خط المكتوب ، وهو دونه فى الحسن ، والمظنون أنهما بخط سلطان غرناطة نفسه ، ونصهما :

والفدية التى افتُكّوا بها ، وحكمنا عليهم بغرمها للنصرانى الذى أوصلهم ، هى اثنان وخمسون ديناراً من الذهب العين ، سواء بينهما ، فعرفناكم بذلك ، بعد الوقوف على عقود الفدية بذلك ، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وفى تاريخه كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه ، أننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى اش ، وما إليها ، وأمير المسلمين . لما انعقد الصلح بيننا وبين السلطان الأجل المرفّع ، الأوفى المبرور الأخلص ، دون بطره ، سلطان أرغون وبلنسية ، وقرسقة ، وميورقة ، وسردانية ، وقمط برجلونة ، أسعده الله بطاعته ورضاه ، طلبنا من محل أبينا

السلطان الجليل المعظم الأشهر الأوحد أمير المسلمين أبى الحسن [١] ، سلطان العدوة ، أن ينعم بالأذن لنا فى عقد صلح معه على بلاده ، على ماجرت به عوائد صلحه مع تلك المملكة ، وأعطانا مقدرة لعقد ذلك ، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إلى السلطان دون بطرُه ، برسم عقد الصلح معه على بلاد السلطان أبى الحسن بالعدوة والأندلس ، القائد الأجل الأغر الأرفع الأمجد الحسيب الأصيل ، الأفضل خاصتنا ، الحظى لدينا ، المبرور الأخلص ، أبا الحسن بن كُماشة [٢] ، وصل الله عزته ورفعته ، وأمرنا له بهذا المكتوب ظهيراً على أن مايعقده فى ذلك فنحن نمضيه ، ونلتزم حكمه ، ونلزمه من أذن لنا فيه ، بما عندنا من قبل السلطان ، ولأن يكون هذا ثابتا ، ولا يلحق فيه شيئا أمرنا بكتب هذا المكتوب ، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا ، شاهداً علينا بامضاء حكمه ، وذلك فى السادس عشر لشعبان من عام خمسة وأربعين وسبعمائة اه

كتاب آخر من أحد وزراء بنى الأحمر إلى الدون الهنشُهُ [٣] ، ملك أراغون وقطلونة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

مولاى السلطان المعظم ، المؤمَّر المبرور ، الأوفى المشكور ، الكبير الشهير ، دون الهنشُهُ ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقطلونه ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظم سلطانه ، ومكرم جانبه ، الشاكر لمقاصده فى

---

(١) السلطان أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب .

(٢) نقرأ اسم عائلة كماشه فى تاريخ غرناطة لعهد بنى الأحمر وان وزير أبى عبدالله ابن الاحمر يوم تسليم هذه البلدة كان يوسف بن كماشة . وأما أبو الحسن بن كماشة المذكور هنا فلعله الوزير القائد ابو الحسن على بن يوسف الحضرمى ابن كماشة ذكره لسان الدين ابن الخطيب فى « اللمحة البدرية » فقال : ـــ المستفيض عن تصرفاته عدم النجح أمراً مطرداً . وزر للسلطان محمد بن يوسف الذى صدر عنه هذا الكتاب .

(٣) هو الفونشه ولد بتره .

الوفاء ومذاهبه ، الحافظ لعهده ، المثنى على غرضه فى صحبة مولاه وقصده ، وزير السلطان أيده الله ، رضوان بن عبد الله[١] . كتبه إليكم من الباب الكريم أسماه الله بحمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه ثم ببركة الدعاء لمولاى أيده الله

(١) هو رضوان النصرى الحاجب ترجمه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة فقال : حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها رومى الأصل اخبرنى انه من أهل القاصارة وان نسبه تتجاذبه القشتالية من طرف العمومة والبرجلونية من طرف الخؤولة وكلاهما نبيه فى قومه وأن أباه ألجاه الخوف بدم ارتكبه فى محل اصالته من داخل قشتالة إلى السكن بحيث ذكر ووقع عليه سبى فى سن طفولته ، واستقر بسببه فى الدار السلطانية ومحض احواز رقة السلطان دائل قومه أبو الوليد فاختص به ولازمه قبل تصيير الملك اليه فتدرج فى معارج حظوته واختص بتربية ولده وركن إلى فضل أمانته وخلطه فى قرب الجوار بنفسه واستجلى الأمور المشكلة بصدقه وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يده وكان يوجب حقه ويعرف فضله إلى أن هلك فتعلق بكتف ولده وحفظ شمله ودبر ملكه وكان ستراً للحرم وشجنا للعدا وعدة فى الشدة وزيناً فى الرخاء رحمة الله عليه .

ثم قال فى حاله وصفته : كان هذا الرجل مليح الشيبة والهيئة معتدل القد والسحنة ، مرهوب البدن مقبول الصورة حسن الخلق واسع الصدر أصيل الرأى رزين العقل كثير التجمل عظيم الصبر قليل الخوف فى العاهات ثابت القدم فى الأزمات ميمون النقيبة عزيز النفس عالى الهمة بادى الحشمة آية فى العفة مثلا فى النزاهة ملتزماً للسنة دوءباً على الجماعة جليس القبلة سديد الادراك مع السكون ثاقب الذهن مع اظهار الغفلة مليح الرعاية مع الوقار والسكينة مستظهراً لعيون التاريخ ذاكراً للكثير من الفقه والحديث كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد عارفاً بالسياسة مكرماً للعلماء تاركا الهوادة قليل التصنع نافراً من أهل البدع متساوى الباطن والظاهر مقتصداً فى المطعم والملبس اتفقوا على انه لم يعاقر مسكراً قط ولا زن بهناة ولا لطخ بريبة ولا وسم بخلة تقدح فى منصب ولا باشر عقاباً غير جائز ولا أظهر شفاء من غيظ ولا اكتسب من غير التجر .

ثم ذكر آثاره فقال : أحدث المدرسة بغرناطة ولم تكن بها بعد وسبب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة وانفرد بمنقبتها فجاءت نسيجة وحدها بهجة وظرفا

ونصره وأسعده وظفّره إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً وجانبكم

وفخامة وجلب الماء الموقف فائد سقيه عليها وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين فانتظم منه النجد والغور فى زمان قريب وشارف التمام إلى هذا العهد وبنى من الابراج المنيفة فى مثالم الثغور ورم فى مطالعها المنذرة ما ينيف على أربعين برجاً فهى ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقى من ثغر البيرة إلى الاحواز الغربية وأجرى الماء بجبل موورور مهتديا إلى ما خفى على من تقدمه .

وقال عن جهاده : غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة وهى ماهى من الشهرة وكرم البقعة فأخذ بمخنقها وشد حصارها عنها فتملكها عنوة وعمرها بالحماة ورتبها بالمرابطة فكان الفتح فيها عظيما ، وفى أوائل شهر المحرم من عام اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عدو المشرق وطوى المراحل مجتازاً على على بلاد قشتالة ولورقة ومرسية وأمعن فيها ونازل حصن المدور وهو حصن أمن غائلة العدو مكتنف بالبلاد موضوع على طية التجارة وناشبه القتال فاستولى عنوة عليه منتصف المحرم من العام المذكور وآب علوه الحقائب سبياً وغنما .

وغزواته كثيرة كمظاهرة الامير الشهير أبى مالك على منازلة جبل الفتح وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر وأثر عنه من المنقبة الداله على صحة اليقين وصدق الجهاد أصابه سهم فى ذراعه وهو يصلى فلم يشغله عن صلاته ولا حمله توقع الاعادة على ابطال عمله .

ثم ذكر ترتيب خدمته وما تخلل ذلك من محنته فقال : لما استوثق أمر الامير المخصوص بتربيته محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد ابن نصر وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة لم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة وبعثه ليلا إلى مرسى المنكب واعتقله فى الطبق من قصبتها بغياً عليه وارتكب فيه اشنوعة أساءت به العامة وأنذرت باختلال الحال ثم أجازه البحر فاستقر بتلمسان ولم يلبث أن قتل المذكور وبادر سلطان الموتور بقريبه عن سرته استدعاءه فلحق بمحله من هضبة الملك متملياً ما شاء من عز وعناية فصرفت اليه المقاليد ونيطت به الامور وأسلم اليه الملك وأطلقت يده فى الحال واستمرت الأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وظهر من سلطانه التنكر عليه فعاجله الحمام فخلصه الله منه وولى أخوه أبو الحجاج من

معظم مبرور ، وقصدكم فى الوفاء معروف مشكور ، وقدركم فى ملوك النصرانية معروف

بعده فوقع الاجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام اربعة وثلاثين وسبعمائة فرضى الكل به وفرحت العامة والخاصة للخطة لارتفاع المنافسات بمكانه ورضى الأضداد بتوسطه وطابت النفوس بالامن من غائلته فتولى الوزارة وسحب أذيال الملك وانفرد بالأمر واجتهد فى تنفيذ الأحكام وتقدم الولاة وجواب المخاطبات وقود الجيوش إلى ليلة الاحد الثانى والعشرين من رجب عام اربعين وسبعمائة فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة البرك هائلة الفجاة من غير زلة مأثورة ولا سقطة معروفة إلا مالا يعدم بباب الملوك من شرور المنافسات ودبيب السعايات الكاذبة وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء إثر صلاة المغرب وقد شهر الرجال سيوفهم فوق رأسه يحفون به ويقودونه إلى بعض دور الحمراء وكبس ثقات السلطان منزله فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة وضم إلى المستخلص عقاره (المستخلص هو فى الاندلس الملك الخاص بالسلطان) ثم نقل بعد أيام إلى قصبة المرية محمولا على الظهر فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه إلى أوائل ربيع الثانى من عام أحد وأربعين وسبعمائة فبدا للسلطان فى أمره واضطر إلى إعادته وفقد نصحه وأشفق لما عدم من أمانته وعرض عليه بالنوم الكف عن ضرره فعفا عنه وأعاده إلى محله من الكرامة وصرف عليه من ماله ما فقد وعرض عليه الوزارة فأباها واختار برد العافية وأنس لذة التخلى فقدم لذلك من سد الثغور فكان له اللفظ ولهذا الرجل المعنى فلم يزل مفزعا للرأى محلا للعظة كثير الأمل والغاشى إلى أن توفى السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبى عبد الله وقام خير قيام بأمره وقد تحكمت التجربة وعلت السن وزادت الخشية من لقاء الله الشفقة فلا تسأل عما أفاض من عدل وبذل من مداراة ودامت حاله متصلة على ما ذكر إلى أن لحق ربه وقد علم الله انى لم يحملنى على تقرير سيرته والاشادة بمنقبته داعية وإنما هو قول بالحق وتسليم لحجة الفضل وعدل فى الوصف والله عز وجل يقول : (واذا قلتم فاعدلوا) .

ثم قال عن وفاته : فى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل متبذل اللبسة خالص الطوية ممتطياً للأمن مستشعراً للعافية قائماً على المسلمين بالكل حاملا للعظيمة وقد بادر الغادرون بسلطانه فكسروا غلقه بعد طول معالجة ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده وذهبوا إلى الدائل برأسه وجعوا الاسلام بالسائس الخصيب المغاضى راكب متن الصبر ومطوق طوق

مشهور ، وموجبه إليكم هو أن الواصل إليكم بهذا الكتاب ، وجهه مولاى السلطان ، أيده الله برسم إيصال الأسارى المأخوذين فى الصلح الذين وقع الكلام فيهم مع رسولكم المكرم ، دون رامون بيل ، مقصد مولاى أيده الله منكم أن تتفضلوا بتسريحهم وتوجيههم معه ، يكون ذلك مما يشكره من أعمالكم ، وأنتم تفعلون فى ذلك مايقتضيه وفاؤكم المشكور ، وقصدكم المبرور . والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيراً وكتب فى اليوم الخامس عشر لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة

كتاب آخر من وزير آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم تسليما

مولاى السلطان الأجل المكرم المعظم المرفّع المبرور ، الأوفى المشكور ، الشهير الكبير الخطير ، دون الفونشُه ، ملك أراغون، وسلطان بلنسية ، وسردانية وقط برجلونة وصل الله اعزازه بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظّم جانبه ، ومجل سلطانه ، الباذل فى خدمته جهد إمكانه ، الشاكر لنعمته ، العارف بسمو مملكته ، على بن كُماشة ، كتبه إليكم من باب مولانا ، أيده الله ، بحمراء غرناطة ، حرسها الله ،

النزاهة والعفاف وآخر رجال الكمال والستر الضافى على الاندلس ولو تم من الغد بين رأسه وجسده ودفن بازاء لحود مواليه من السبيكة (مقبرة ملوك بنى الأحمر كانت بمحل يقال له السبيكة فى الحمراء) ظهرا ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس وتبرك بعد بقبره وقلت عند الصلاة أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية :

أرضوان لايوحشك فتكة ظالم   فلا مورد إلا سيتلوه مصدر
ولله سر فى العباد مغيب   يشهر خافيه القضاء المقدر
سميك مرتاح إليك مسلم   عليك ورضوان من الله أكبر
لحث المطا ليس النعيم بمنقض   ولا العيش فى دار الخلود مكدر

انتهى ببعض اختصار ومنه يفهم مكان الحاجب أبى النعيم رضوان النصرى من الدولة النصرية .

وليس بفضل الله سبحانه ، ثم بنعمة مولاى ، أدام الله أيامه ، إلا الخير الأتم ، واليسر الأعم ، وعن التعظيم لملكتكم ، والمسارعة لخدمتكم ، والشكر لنعمتكم ، و إلى هذا وصل صحبة معظم ملككم ، رسولكم وخديمكم : المكرم ريمون بيل إلى حضرة مولانا ، أيده الله ، وحضر بين يديه ، وأدى رسالته ، وأظهر من حسن آدابه ومقاصده فى خدمتكم ، ما هو اللائق بأمثاله ، ممن تربى ، فى داركم ، ونشأ فى خدامكم ، واستحسن مولاى أيده الله ، ، قصده فى ذلك ، وجدد من مودتكم وصحبتكم ماتقفون على شرحه فى كتابه إليكم ، وأما معظم جانبكم ، فعمل في خدمتكم ما يجب عليه ، وألقيت لمولانا أيده الله ، مالكم فيه من المحبة ، والمودة وشكرها لكم أتم الشكر ، وعملت أيضا فى خدمة ولدكم مولاى المعظم ، دون بطره الكبير أسعده الله بطاعته ، ما يجب ، وقد كتب له مولاى ، أيده الله ، كتاباً بالصحبة والمودة ، ومن خديمكم ريمون المذكور تتعرفون ما عملت فى ذلك كله ، ومنه تتعرفون أيضاً جميع الأخبار ، وكرامة مولاى ، أيده الله له ، وعنايته به ومما أعرف به سلطانكم أني كنت طلبت من انعامكم كسوة من لباسكم ، وأخبرنى الزعيم المكرم برناط شرمى ، أنكم أصدرتم أمركم بذلك ، وأنعمتم به ومعظم جانبكم ينتظر ذلك ، وأخبرنى أيضاً أنكم أمرتم لى ببازى ، وأنا أنتظر ذلك أيضاً ، وأذكركم (هنا كلمات لم تمكن قراءتها) و يصلكم يامولاى القوسان اللذان قلت لكم عنهما صحبة رسولكم ، ريمون بيل المذكور ، وما أنا إلا خديمكم ، ومقر بنعمتكم فما كان بجانب سلطانكم أعمل فيه ما يجب عليه ، والله سبحانه يصل أعزازكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلام مولانا كثيراً أثيراً . وكتب فى اليوم الخامس عشر لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اهـ .

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى ملك أرغون :

الحمد لله حق حمده . وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده .

وصل الله عزتكم بتقواه ، وأسعدكم بطاعته ورضاه . ألقى إلينا رسولكم .

ريمون بيل ، الشكايات التى لأهل أرضكم ، فكان من جملتها قضية الفيلوك [١] الذى أخذه أهل المرية فى العام الفارط ، وقد خلصت قضيته ، وردّ إليكم بآلاته كلها ، وكل ما كان فيه من سلع كانت قد بيعت بالمرية ، فنقد لصاحبها ثمنها ، بديوان المرية ، وتخلص منه ، وقضية ابن الحسين صاحب الشينى ، الذى ذكرتم أنه تعرّض لأرضكم فى الصلح ، قد بحث عن جميع ما أوصله ، وذلك جفنان اثنان ، كان أحدهما قد استقر بمالقة ، والآخر ببيرة ، وقد مُكن منهما أصحابهما ، الواصلون عنهما ، واستُقصى البحث عن كل ما أوصله من النصارى ، وكانوا سبعة عشر ، وُجهوا كلهم بجملتهم مع رسولكم وهم يصلونكم ، وقد كان وجّه من النصارى قبل ذلك مع القائد أبى الحسن ابن كُماشة ثمانية عشر . وأما السلع فما وجد منها قبضه أصحابه الواصلون من قبلكم ، واعلموا أن الرئيس ابن الحسن الذى صدر عنه ما ذكرتم ، كان قد كتب فى شأنه محل أبينا السلطان المعظم الأوحد ، أمير المسلمين ، أبو الحسن أيده الله ، ليوجّه إليه هو وكل ما وصل به ، وقد وجّه إليه هو والاعلاج الذين (كلمة لم تمكن قراءتها) فى حركته الاخيرة ، وجميع ما أوصله فان كان نقصكم شىء مما أخذه ، فأنتم تكتبون فى ذلك إلى المقام العلىّ ، أسماه الله ، ونظره أجمل ، وما أوجب الابطاء بتوجيه ذلك كله إلا أنه قرّر عندنا أن الاعلاج المذكورين ، والسلع من أرض الحرب فلما وصل كتابكم صدقناكم فى ذلك ، وأمرنا برد جميع ذلك كله . وتسريحه بجملته تصديقاً لقولكم ، وتوفية لقصدكم . والله يصل سعادتكم بتقواه ، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى الرابع لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اهـ .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وآله وسلم تسليما

---

(١) يظهر أن المراد به الفلك أو هو مصغره عند الاندلسيين .

السلطان الأجل الأكرم ، المرفع المبرور المشكور . الأوفى الأخلص ، دون بطرُه ملك أرغون وسلطان بلنسية وقرسقة ، وسردانية ، وقُمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، مكرم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الصحبة ومذاهبه الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين ، أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إليها ، وأمير المسلمين ، أما بعد فانا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الأكمل ، واليسر الأشمل والحمد لله كثيرا ، ونحن نعلم مالكم فى ملوك النصرانية من القدر المشهور ، والوفاء المشكور ، ونقابل جانبكم من الكرامة بالحظ الموفور ، وقد وصلنا الكتاب الذى وجهتم إلينا ، الذى يتضمن تثبيت العهد ، وتوكيد الود ، وتصحيح العقد ، و إخلاص الصفاء ، وتجديد الوفاء ، فقابلنا ذلك بشكر نجده لمملكتكم ، و إخلاص صادق فى صحبتكم ، ثم انه بلغنا أن والدكم السلطان المرفّع ، دون الفونشو ، مات ، وانكم ورثتم مملكته التى أنتم أحق بها ، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم ، نعزيكم فى الوالد ونهنيكم بالملك ، حسبما يقتضيه حق الصحبة التى بيننا ، التى تأكد رسمها ، ونعرفكم أننا ما عندنا إلا ما يرضيكم ، من الاعتقاد فيكم ، والحفظ لعهدكم ، والشكر لقصدكم فكونوا من ذلك على يقين ، ومما نعرفكم به أن خديمنا بشقلين سريجه ، كتب إلينا فى أمور مما يخص جهتكم ، وقد كتبنا اليه فى جوابها ما تتعرفونه من قبله ، فصدقوه فيما يلقيه عنا إليكم ، واعلموا أنه لما وصلنا خبر موت والدكم كتبنا إلى بلادنا الشرقية كلها ، أن لاسبيل لأن يتطرق لجهة أرضكم أحد بضرر ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم برضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى السابع والعشرين لجمادى الآخرة عام ستة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله بركته اه .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى ، دون الفونشه ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وصاحب سردانية ، وقرسقه ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، ويسّره لما يحبه الله ويرضاه ، مكرم مملكته ، وشاكر مودته ، المثنى على صحبته ، البرّ بجانبه ، العارف بمقاصده فى الملوك الأوفياء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً . وجانبكم مبرور ، ومذهبكم فى الوفاء مشكور ، ومنصبكم فى الملوك معلوم مشهور ، وإلى هذا فقد وصل كتابكم المبرور ، فى شأن الأشخاص الذين باعهم الجنويون بالمرية ، وعرّفتم أنهم من أهل أرضكم . واعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ماسُمح فى بيعهم ولوجّهناهم إليكم ، على مايوجبه الوفاء بالعهد فاننا ماعندنا إلاّ الوفاء بما عاهدناكم عليه ، ولكن عند وصول كتابكم وجّهنا التفسير بأسمائهم إلى المرية ، وأمرنا أن يُبحث عنهم ، ويُسترجعوا من أيدى من هم عنده ، ونحن نعمل فى ذلك ما يوجبه الوفاء ، وما يقتضيه اعتقادنا فى صحبتكم بحول الله ، فاعلموا ذلك ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى الموفى ثلاثين لشهر جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اهـ .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

مولاى السلطان المعظم ، الأجل المكرم ، المرّفع الأوفى الأشهر ، المبرور المشكور ، دون بطره ، سلطان أرغون ، وبلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظّم ملككم الشهير الزكى ، القائم لجانبكم المعظم ، بموصول الثناء ومستمر الشكر ، وزير السلطان رضوان بن عبدالله ،

كتبه إليكم من باب مولاه ، أيده الله ، بحمراء غرناطة حرسها الله ، ولا جديد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة هذا الأمير الكريم ، أيد الله سلطانه ، إلا الخير العميم ، والحمد لله ، وعن العلم بمالكم من الملك المرفع الجانب ، والشكر لما عندكم من الوفاء الذى حصلتم منه على أجل المواهب ، واختصصتم منه بأكرم المذاهب ، ووصل كتابكم المكرَّم ، صحبة كتابكم إلى مولاى السلطان ، أيده الله ، بتجديد الصلح الذى كان بين أسلافه وأسلافكم ، الذى عقده عليه بُشقلين سَريجة ، وقد أنعم بكتب عقد عن مقامه ، بنص العقد الذى وجّهتم ، وعلى حسب فصوله ، وما عنده ، أيده الله ، إلاَّ الحفظ لعهدكم . والارتباط لصحبتكم ، فكونوا من ذلك على يقين. واعلموا أننى لا أزال أعمل فى توفية حفظ ذلك الصلح ، وتكميل أموره ، ما هو الواجب علىّ فى خدمة مولاى ، أيده الله ، حتى تتمشى الأمور على ما يقتضيه الحق ، ويوجبه الوفاء . وأما ماذكرتم من اعتقادكم الجميل وكرامتكم ، فذلك فضل منكم أشكركم عليه غاية الشكر ، ومثلكم من الملوك الكبار من يصدر عنه قول الخير وفعله ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيراً . كتب فى اليوم الرابع لذى الحجة عام ستة وثلاثين وسبعمائة اه .

* * *

كتب إلينا الأخ الحاج محمد العربى بنونه أن خط هذا الكتاب الأخير ردىء جداً ، وقال : « لا أدرى كيف صدر من ديوان الحمراء » وقد أسفنا أن تكون أكثر الكتب السلطانية ، التى اشتملت عليها تلك المجموعة ، قد أكلتها الأرَضة ، وتنكر خطها ، وتعذر ضبطها ، وهيهات أن توجد لها مجموعة أخرى ! وعلى كل حال لو اتصلت يدنا بنسخ جليّة ، لهذه الكتب السلطانية ، البالغ عددها ستين كتاباً ، فى ما علمنا ، لبادرنا إلى استنساخها ، وإلحاقها بالطبعة الثانية من الحلة السندسية ؛ لما فى هذه المراسلات بين سلطنتى غرناطة وأراغون ، من تمثيل الحالة على ما كانت

عليه فى القرن الثامن للهجرة ، الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد ؛ وذلك بين المسلمين وجيرانهم المسيحيين من أهل أسبانية .

أما الملكان اللذان توجهت إليهما هذه الرسائل من سلطان غرناطة ووزرائه فهما الفونش الرابع ، وولده بطرُه

ولأجل أن يرتوى القارىء من تاريخ هذين الملكين ، نعيد هنا ما كنا كتبناه فى مختصر تاريخ أسبانية ، الملحق « بآخر بنى سراج » صفحة ١٧٧ من الطبعة الثانية وهو :

« ثم مملكة أراغون ، حذاء جبال البيرانه ، اعتمدت فى أوائل أمرها على لصوصية البحر ، واشتهر بين أمرائها جقّوم[١] ، وهو الذى استولى على جزائر الباليار : ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة . وقيل ان السبب فى الاستيلاء عليها تعرّض أهل ميورقة لمراكب الاسبانيول

و يفهم من قول المخزومى فى تاريخ ميورقة ، كون سبب أخذها من المسلمين أن أميرها فى ذلك الوقت محمد بن على بن موسى ، احتاج إلى الخشب ، فأنفذ طريدة بحرية ، وقطعة حربية ، إلى يابسة بأخذه . فعلم بذلك و الى طرطوشة ، فجهز إليها من أخذها ، فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها ، فأجمع الروم على قتاله فى عشرين ألفا ، وجهزوا ستة عشر ألفا فى البحر ، وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالى صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر ، فضرب أعناقهم . فاجتمعت الرعية إلى أبى حفص بن سيري ، وأخبروه بما نزل ، وعزوه فى من قتل ، وقالوا له : هذا أمر لا يطاق ! وأصبح الوالى يوم الجمعة ، منتصف شوال ، والناس من خوفه فى أهوال ، ومن أمر العدو فى إهمال ، فأمر صاحب شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة ، فأحضرهم ، و إذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالى ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع . وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر ، و إنه عد سبعين شراعاً . فصح الأمر

(١) اوجاك اوجامس وهذا الأخير هو الذى اختاره لسان الدين بن الخطيب فى لفظ هذا الاسم كما يتبين من كتابه « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية »

عند الوالى وأطلقهم واستنفرهم . ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد ، فانهم عدوا مائة وخمسين قلعاً ، فأخرج الوالى جماعة تمنعهم من النزول

وفى الثامن عشر من شوال وقع المصاف ، وانهزم المسلمون ، وارتحل النصارى إلى المدينة ، ونزلوا منها على الحربية الحزنية [١] من جهة باب الكحل . ولما رأى ابن سيرى أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية .

ولما كان يوم الجمعة الحادى عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا . ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وقُتل فيه أربعة وعشرون ألفاً ، وأُخذ الوالى وعُذب ، وعاش خمسة وأربعين يوماً تحت العذاب ومات . وأما ابن سيرى فتحصن فى الجبال ، وجمع حوله ستة عشر ألفاً ، وما زال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة . وجدُّه من آل جَبَلَة بن الأيهم الغسانى . وأما الحصون فأُخذت فى آخر رجب من تلك السنة وفى شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام . انتهى ماذكره ابن عميرة المخزومى ملخصاً [٢]

قلنا اننا كنا قد نقلنا هذا النقل عن نفح الطيب وسنعود إلى خبر ميورقة وأخواتها عند الوصول إلى الكلام على هذه الجزائر جغرافية وتاريخاً ، ونأتى إن شاء الله على الموضوع بالتفصيل ، وإنما تعرضنا لهذا النقل هنا من جهة اتصاله بتاريخ ملوك أراغون ، الذين هم أقتاط برشلونة . فأما باب الكحل الذى دخل منه النصارى إلى مدينة بالمه [٣] التى كان العرب يسمونها ميورقة ، فقد شاهدناه يوم زيارتنا لتلك

(١) هكذا كما فى نفح الطيب وهل لفظة « الحزنية » هنا هى نسبة إلى الحزن ، بالفتح ، وهو ضد السهل ؟ . أوهى مصحفة بالنسخ ، وأصلها « المخزنية » . نسبة إلى « المخزن » ، الذى يستعمله المغاربة والاندلسيون بمعنى الحكومة ؟

(٢) نقلنا ما لخصه المقرى عن ابن عميرة المخزومى . وذلك من نفح الطيب ، ولما كانت الرواية فى غاية الاختصار ، والحادثة هى فى غاية البال ، لم ينقع ذلك منا غليلا ، وتطلعنا إلى كتاب ابن عميرة نفسه ، فبحثنا عنه مااستطعنا ، ونشدناه فى خزائن الكتب المشهورة فى فاس ومكناس والرباط وغيرها وحتى اليوم لم نجده

(٣) Palma



مدينة بالما قاعدة جزيرة ميورقة



طاحون هواء في ميورقة

الجزيرة سنة ١٩٣٠ . وأما الجبال التى تحصن بها ابن سيرى فقد مررنا بحذائها ، وهى على مسافة نحو من ساعتين بالسيارة الكهربائية من المدينة ، ومن رآها علم أنها لا تؤخذ ولا يتأتى الصعود إليها ، لوعورتها ، وامتناع السلوك فيها . وما أظن المسلمين تركوا القتال ، ولحقوا ببلاد الإسلام إلا بأحد سببين : إما أن يكون قتل ابن سيرى قد فتّ فى أعضادهم ، ووقع الخلف بعده فيما بينهم ، فلم تنتظم لهم كلمة بعد ذهابه ، فطلبوا التسليم على شرط النجاة بأرواحهم ، ولحقوا ببلاد الاسلام . و إما أن يكون تعذر عليهم المقام بهذه الجبال العالية الوعرة التى ليس فيها شىء يقوم بميرتهم ، وكانوا لا يقدرون أن يهبطوا منها إلى السهول ، لكثرة جيش العدو المرابط بحذائهم . والله أعلم .

***

ثم نعود إلى خبر كتلونية وأراغون فنقول انه فى مدة جقّوم هذا ، فاتح الباليار خرجت بلنسية من أيدى المسلمين ، و بعد ذلك اجتمع بقايا المسلمين فى مملكة أراغون وثاروا ، وأثخنوا فى عدوهم إلا أن جقوم طردهم أخيراً فانحاز أكثرهم إلى مملكة ابن الأحمر ، وأجاز بعضهم إلى أفريقية .

وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا ، و بينما كان مطران جيرونه يو بخه مرة على استهتاره هذا ، استشاط غضباً ، وأمر بقطع لسانه . واغتصب مرة امرأة أحد رعيته . وكانت وفاته فى ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦

وخلفه الدون بطره ، وفى مدته انضمّت مملكة صقلية إلى مملكة أراغون ، وطرد الدون بطرُه منها شارل دانجو Danjoi أخا القديس لويس ملك فرنسة ، وذلك بالرغم من إرادة البابا ، وقصدوا استعادتها فانهزموا ، فأصدر البابا حرماً على حرم يحق بطرُه ، وأخيراً أقطع البابا مملكة أراغون شارل دوفلوا ، بن فيليب الجرىء ملك فرنسة . فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون ، وكان له من جقوم أخى بطره نفسه عضدا ، لإحنة كانت مستحكمة بين الأخوين ، فانهزم جند بطرُه . واستولى الفرنسيس على جيرونة ، إلا أن العلة تفشّت فيهم من رائحة جثث القتلى ، فهلك منهم

خلق كثير ، وأصيب الملك فيليب نفسه ، وحمل ومات فى الطريق .

و بعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونة ، وحول نظره صوب أخيه جقوم الذى ظاهر عليه الغريب ، فأرسل ولده الفونس إلى ميورقة بأسطول ليأخذها من يده ، وتوفى بطره ، وابنه الفونس يحاصرها . فلم يقلع حتى دخلت فى حوزته . وقام بأمر أراغون بعد أبيه . ومات هذا وخلفه أخوه جقوم ملك صقلية ، فترك أمور هذه الجزيرة لوالدته ، وجاء إلى أراغون متسلماً زمامها ، وأعاد ميورقة على عمه جقوم . ثم تولى صقلية أخوه فردريك ، وتزوج بابنة شارل دونابل ، وولد له منها خمسة ذكور : جقوم ، والفونس ، وجوان ، و بطره ، ورامون . وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونورة القشتالية ، و بينما كانوا يعقدون له عليها إذ عدل عن الزواج زاعماً أن أباه أجبره عليه ، وانه هو يريد الترهب والتبتل ، وأسقط حقه من وراثة الملك ، ودخل فى سلك الرهبان ، وقضى الناس من ذلك العجب ، لما كان عليه من الانغماس فى اللذات والاسترسال إلى الشهوات ، فولى العهد أخوه الفونس ، وصار جوان أخوهما مطران طليطلة ، وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعاً باسمه .

ثم مات جقوم الثانى فى برشلونة ، فى ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ ، وخلفه ولى عهده الفونش الرابع ، فتزوج هذا مرتين ، وولد له من إحدى امرأتيه الدون بطره ولى عهده فلما مات سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين ولده بطره ، و بين امرأة أبيه ، التى كانت أخت ملك قشتالة ، فادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته ، أولادها ، فكاد الخلاف بسبب ذلك يتسع بين قشتالة وأراغوان ، لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد المسلمين لعهد السلطان أبى الحسن المرينى ، صاحب المغرب .

و بعد وقعة طريف وانتقاض بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم .

قيل إن السبب فى ذلك أن الدون بطره كان متوجهاً إلى افينيون ، لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكباً بجانبه ، فلما صارا على مقربة من البلدة ، وقد حفت بهما

حاشيتهما ، رأى سائس حصان الدون جقوم ، أن سائس حصان الدون بطره ، يحث سير حصان مولاه ، فلطمه ليتئد ، و يمكنه اللحاق به ، فأبصر ذلك الملك ، واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة سائسه ، فوقرت في صدره ، وانتهز الفرصة لتجر يده من مملكته ميورقة ، فى خلف وقع بين جقوم و بين ملك فرنسة من أجل مونبليه . فزحفت عساكر فرنسة لأخذها ، فبعث جقوم إلى ابن عمه بالصريخ ، فلم يجبه . ثم نقم عليه أموراً ، منها أنه يحاول الاستقلال ، وأنه ضرب السكة باسمه . وأخيراً أعلن خلعه من ولاية الجزر ، فاستغاث جقوم بالبابا ، فأرسله البابا إلى برشلونة نزيلا عند بطره ، ومستميحاً عفوه ، فعند ما حصل عنده ضبط عليه امرأته التى هى أخت بطره ، وسرحه ، فلحق جقوم بميورقة ، وقد نادى بحرب بطره ، والانفصال عنه ، وكان اسطول بطره فى رباط المسلمين بالجزيرة الخضراء ، فاسترجعه منها ، ونزل به على ميورقة . ففر جقوم إلى فرنسة ، و بقى فى نزاع مع ابن عمه بطره إلى أن باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسة ، وجهز بثمنها ثلاثة آلاف ماش ، وثلاثمائة فارس ، وركب بها البحر ، طامعاً فى استرداد جزيرته ميورقة فقابله واليها من قبل بطره بجيوش أوفر مراراً من جيشه ، وهزمه ، فهلك فى الهزيمة .

وما انتهى بطره من خطب جقوم ابن عمه ، حتى ثارت معه مسئلة أخرى مع أخيه المسمى أيضاً بجقوم ، وذلك بسبب انتقال الملك ، فان بطره لم يكن له أولاد ذكور ، فأراد العهد لابنته ، والحال أن أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب إلى قسمين ، ونشبت الحرب بينهما ، وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي أثنائها توفي أخوه جقوم ، فاتهم بطره بكونه سمه ، فازدادت الثورة ، وزحف الملك إلى الرعية الثائرة فجرت عدة وقائع سالت فيها الدماء غزاراً ، وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا اليه ، وأرهق مدن مملكته حصراً وعسراً ، إلى أن تمت له الغلبة ، ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده ، رغم إرادة بطره ملك قشتالة ، وقعت الحرب بينهما وانضم إلى أراغون الأمراء الذين كان بطره القشتالى قد

آسفهم ، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية ، ثم الثالثة .

وهلك بطرُه الأراغونى سنة ١٣٨٧ ، بعد أن ملك نيفاً وخمسين سنة ، وكان سفاكاً للدماء ، غداراً ، غدر بأهله واخوته ، وأهرق سيولا من الدم ، حتى لقب بالخنجرى . وتزوج بأربع نساء الأولى دونه مارية ابنة ملك نباره ، ماتت سنة ١٣٤٦ والثانية دونة ليونيورة ابنة ملك البرتغال ، وماتت هذه بعد تلك بسنتين بالطاعون الذى عم جنوبى أوربة ، وشمالى افريقية ، وهو الذى يسميه ابن خلدون بالطاعون الجارف ، خرب كثيراً من ديار الشرق والغرب ، ثم اقترن الدون بطره بليونورة أخت ملك صقلية ، وماتت سنة ١٣٧٤ ، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور ، وابنة واحدة فاقترن بامرأته الرابعة ، سيبيله فورسيه ، كانت أرملة ، بارعة فى الجمال ، وكان أوانئذ قد بلغ هو الحادية والستين ، فملكت قلبه وأعطاها قياده ، وأقطعها من أملاك التاج الملكى ، فاعترضه ولى عهده جوان ، وهو ابنه من امرأته الثالثة ، ووقع النزاع ، وانتهى بتحكيم أحد القضاة .

وفى أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا أوربان السادس ، والبابا كليمان السابع ، وأخذ كل منهما يحرم الآخر ، وانقسمت ممالك أوربة فى شأنهما إلى شطرين : ففرنسة وقشتالة ونبارة ، ونابولى قامت بدعوة كليمان ، وانجلترة والبرتغال وأراغون ، قامت بدعوة أوربان ، إلا أن أراغون مالت فيما بعد إلى كليمان .

وبعد وفاة بطره قام ابنه جوان الأول . وفى الحال تقبض على سيبيليه امرأة أبيه وعلى أخيها وأعوانها ، وابتزها الأملاك التى كان أبوه وهبها إياها ، وسلمها إلى امرأته دونه « فيولنته » واعتنى بتزويج دون مارتين ابن أخيه بابنة عمه فردريك ، ملك صقلية التى كان آل إليها إرث تلك الامارة بعد وفاة والدها ، وكان جوان مولعاً بالشعر والموسيقى والصيد ، مهملا الجد من الأمور ، حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ، ومجتمع مغنين ، لا يسمع فيه إلا إيقاع أو انشاد ، فقام أعيان البلاد ، وطلبوا منه إقصاء حظيته دونه « كاروزة » لاتهامهم إياها بترغيبه فى ما هو فيه من العبث

فانقاد إلى إرادتهم ، خوف انتقاضهم ، وتوفى جوان فى الصيد بكبوة جواد تردّى به فى غابة ، وهو يطلب ذئباً ، فخلفه أخوه الدون مرتين ، لأن جوان لم يعش له غلام من صلبه . فنازعه فى الملك آل فواكس ، فغبهم عليه واستوثق له الأمر ، وتزوج بالدونة مارية . فولد له منها أربعة أولاد ، توفى منهم ثلاثة دون البلوغ ، وبقى الواحد وهو الدون مرتين متوّج صقلية ، فمات هذا فى غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ، ولم يعش له ولد ، على كونه تزوج مرتين ، نعم كان له أولاد من حظاياه ، فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور الشرعيين من البيت المالك ، وتنازع حقوق الوراثة خمسة أمراء : الدون فادويك ، ولد مارتين من إحدى حظاياه . وكونت أورجل ، ابن عم مارتين فى الدرجة الخامسة ، ودوق كالابرة ، ابن الدونة فيولنتة ، بنت جوان الأول ، ثم فرديناند القشتالى ، الملقب عندهم بالرشيد ، وهو ابن جوان الأول القشتالى ، والدونة ليونوره أخت الدون مرتين ملك صقلية ، الذى بموته انقطعت السلالة ، فهو إذاً ابن أخت الملك الشرعى ، فكان أقرب المتنازعين إلى الحق فى هذا العرش ، وكان كذلك كونت أورجل بمكانه من الكلالة لأنه من نفس بيت الملك .

وربما كان لهذا الكونت « أو الكنداو القمط » فى مملكة اراغون الشيمة الكبرى ، إلا أنه لم يحسن طلب حقه ، وجمع العساكر ، فأخذت تميث فى البلاد مما أحال عنه القلوب إلى فرديناند ، فانتخبوه ملكا فى ٣ سبتمبر سنة ١٤١٢ ، وتقبض على كونت أورجل وسجنه ، واستتب له الأمر . إلا أنه فى سنة ١٤١٦ مات ، وخلفه بكر أولاده الفونش الخامس ، فاتح نابولى . ثم مات هذا سنة ١٤٥٨ عن غير ولد ، فانتقل الملك إلى أخيه جوان ، الذى كان تزوج بابنة شارل النبيل ، وبواسطتها ملك بلاد نبارة

وولد لجوان هذا ، فرديناند الملقب بالكاثوليكى ، فملك أراغون ونبارة معاً ، وتزوج بايزابيلا ملكة قشتالة ، فصارت هذه الممالك الثلاث مملكة واحدة ، عادت فى حالة من اجتماع الكلمة ، ووفرة العديد ، وغزارة المادة ، بحيث قضت على الملك الأخير الباقى الذى كان بالاندلس للمسلمين اهـ .

علمنا من هنا أن ملك اراغون الذى كان يخاطبه يوسف بن أبي الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، هو بطره الرابع الذى تولى من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧ ، وقبله كانت المراسلة مع والده الفونش ، وهوالفونش الرابع . وأما سلطان غرناطة الذى صدرت عنه هذه الكتب ، فهو يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل ابن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصارى ، ترجمه لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » بقوله :

بدر الملوك ، وزين الأمراء ، كان أبيض أزهر ايداً ، مليح القد ، جميل الصفات براق الثنايا ، أنجل ، رجل الشعر ، أسوده ، كث اللحية ، وسيما ، عذب الكلام ، عظيم الحلاوة ، يفضل الناس بحسن المرأى ، وجمال الهيئة ، كما يفضلهم مقاما ورتبة ، وافر العقل كثير الهيبة ، إلى ثقوب الذهن ، و بعد الغور ، والتفطن للمعاريض ، والتبريز فى كثير من الصنائع العملية ، مائلا إلى الهدنة ، مزجياً للامور ، كلفاً بالمبانى والأثواب ، جماعة للحلى والذخيرة ، مستميلا لمعاصريه من الملوك

تولى الملك بعد أخيه بوادى السقائين من ظاهر الحضراء ، يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة ، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما ، وثمانية أشهر ، واستقل بعد بالملك ، واضطلع بالأعباء ، وتملأ الهدنة ماشاء ، وعظم مرانه لمباشرة الألقاب ، ومطالعة الرسوم ، فجاء نسيج وحده . ثم عانى شدائد العدو ، فكرم يوم الوقيعة العظمى بظاهر طريف موقفه ، وحُمد بعد فى منازلة الطاغية عند الجثوم على البلاد صبرُه ، وأجاز البحر فى شأنها ، فأفلت من مكيدة العدو التى تخطاها أجلُه وأوهن حبلها سعدُه .

ولما نفذ فى الجزيرة القدر ، وأسفت الاندلس ، سدّد الامور ، وامتسك الاسلام على يده ، وراخى مخنّق الشدة بسعيه ، فعرفت الملوك رجاحته ، وأثنت على قصده ، إلى حين وفاته .

كان له من الذكور ثلاثة : محمد ، ولى الأمر من بعده . واسماعيل المتوثب عليه

ومزعجه عن الاندلس ، عند التغلب عليه ، والثورة به ، من ثقاف جواره . وقيس شقيق اسماعيل منهما

تولى وزارته لأول أمره كبير الأسرة ، ونبيه المشيخة بحضرته ، ابراهيم بن عبدالبر العريض المكسب، الثمين العقار ، لخيلة طمع نشأت لمقيمى دولته ، فيما بيده . إلى ثالث شهر المحرم من العام . وانِفَ الخاصة والنبهاء رئاسته . فطلبوا من السلطان إعاضته . فعدل عنه إلى خاصة دولتهم . الحاجب أبى النعيم . مظنة التسديد . ومحط الأمانات . فاتصل نظره مستبداً عليه فى تنفيذ الامور . وتقديم الولاة والعمال . وجواب المخاطبات . وتدبير الرعايا . وقود الجيوش .

ثم قبض عليه ليلة السبت الثانى والعشرين لرجب لعام أربعين وسبعمائة ، وتولى الوزارة بعده بن عمة أبيه ، السلطان أبى الوليد ، وهو القائد أبو الحسن على بن مول بن يحيى بن مول الأتى ؛ رجل جهوري حازم ، مؤثر للغلظة لم ينشب أن كف استبداده فالتاثت حاله ولزمته شكاية استنفدته . وأقام رسم الوزارة بكاتبه شيخنا أبى الحسن ابن الجياب ؛ نسيج وحده إلى أخريات شوال من تسعة وأربعين وسبعمائة ، وهلك رحمه الله فأجرى لى الرسم [1] وعصب بى تلك المثابة ؛ مضاعف الجراية ؛ معززا بولاية القيادة ، حسبما وقع استيفاؤه فى كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا . اه

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب من كان على عهد السلطان يوسف بن الاحمر المذكور من الملوك فقال : إنه كان بفاس السلطان المتناهى الجلالة ، أبو الحسن على ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق . وبتلمسان عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيّان . وبتونس الأمير أبو يحيى بن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى اسحق ابن الأمير أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص .

ومن ملوك النصارى بقشتالة الفونش بن هراندة بن شانجُهْ بن الفونش بن هرانده وهو الذى هبت له الريح ، وعظمت به فى المسلمين النكاية ، وتملك الخضراء ، بعد

(١) يكون مبدأ وزارة لسان الدين فى زمن السلطان المذكور

أن أوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف . و ببرجلونة السلطان بطرُه ، وقال عن وفاته مايلي : وافاه أمر الله جل جلاله أتم ما كان شباباً ، واعتدالا وحسنا ، وفخامة ، وعزة ، من حيث لا يحتسب ، فهجم عليه يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة في الركعة الأخيرة ، رجل ممرور ، رمى نفسه عليه ، وطعنه بخنجر كان قد اتخذه ، وأُغرى بعلاجه ، وصاح ، وقُطعت الصلاة ، وسُلت السيوف ، وتقبض على الممرور ، واستفهم ، فتكلم بكلام مختلط ، واحتُمل إلى منزله مرفوعاً فوق رؤوسنا على الفوت ، ولم يُستَقرّ به إلا وقد قضى ، رحمه الله ، وأخرج ذلك الممرور للناس فُمزق ، ثم أحرق في النار . ودفن السلطان عشية اليوم في مقبرة قصره ، لصق أبيه ، ووُلى أمره أكبر ولده اه .

وهذا بحث حقه أن يكون في أثناء الكلام على سلاطين غرناطة ، مما سنصل إليه إن شاء الله ، و إنما قد تعجّلنا منه هذه القطعة لأجل التعريف بالسلطان الذي كانت قد صدرت عنه هذه المراسلات إلى ملوك أراغون وكتلونية . ولعل المراسلات الأخرى التي تعذرت قراءتها بتقادم عهدها ، فيها ماهو صادر عن غيره من ملوك غرناطة إلى غير الفونش و بطرُه من ملوك أراغون

تقسيمات كتلونية الادارية

تنقسم بلاد كتلونية إلى أربع مقاطعات : مقاطعة برشلونة ، ومساحتها ٧٦٩٠ كيلو متراً مربعاً ، وفيها مليون ومائة وخمسون ألفاً من السكان ، وجيرونة ، التي كان يقال لها في القديم جيرندة ، ومساحتها ٥٨٦٥ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها ثلاثمائة وعشرون ألف نسمة ، ومقاطعة لاردة ، ومساحتها ١٢١٥١ كيلو مترا مربعاً وعدد سكانها يقارب مائتين وتسعين ألفاً ، وطرّكونة ومساحتها ٦٤٩٠ كيلو مترا مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٤٠ ألفاً .

وأشهر أنهار كتلونية نهر لو بريقات Llobregat وكان يقال له عند الرومان رو بريكاتوس Rubricatus وهو الذي يسقي سهول برشلونة ، ثم نهر شيقر Segre

وكان الأقدمون يسمونه سيكوريس Sicoris وهو ينصب فى نهر ابرُه ، عند مكناسه [1] . وأما ابرُه ، فبعد أن يلتقى بنهر شيقر يخترق الجبال فى جنوبى طرّ كونة ، ويتوجه إلى البحر المتوسط ، فينصبّ فيه ، شرقى طرطوشة

وأشهر قمم جبال كتلونية قمة « مارنجس » وعلوها ٢٩١٤ متراً ، وقمة كارليت ، وعلوها ٢٩٢١ متراً ، وكانيجو ، وعلوها ٢٧٨٥ متراً ، وهى مغطاة بالثلوج . وهنالك قمم أقل ارتفاعاً ، مثل مونت شيرات الشهير Montserrat وعلوها ١٢٣٦ ، وهى قمة شهيرة فى تلك البلاد يقال لها الجبل المقدس ، منقطعة من جميع جهاتها ، ذات أسنان كاسنان المشط ، وصخور فى منتهى العظم ، كأنها قلعة عظيمة مشرفة على بسيط كتلونية ، ومونت صانت ، وعلوها ١٠٧١ متراً

وأشهر سهول كتلونية سهل أمبوردان ، وقد تقدم ذكر هذه الناحية ، وسهول جيرندة وڤيش وسهول النقيرة Noguera وفونتانا Fontanat

ومن حيث اننا تقدمنا فى ذكر هذه البقاع من جهة أراغون إلى كتلونية ، رأينا أن نبدأ بذكر الجهات الغربية المصاقبة لأراغون فنقول :

إن مدينة لاردة واقعة على وسط المسافة بين سَرَقُسطة و برشلونة ، وعدد سكانها اليوم ثلاثون ألف نسمة ، وارتفاعها عن سطح البحر ١٩١ متراً ، وهى على الضفة اليمنى من وادى سيغر ، الذى يقول له العرب وادى شيقر . ولاردة مدينة قديمة إيبيرية وكانت معروفة فى زمن الرومان ، وقد استولى عليها العرب فى القرن الثامن للمسيح ، بعد استيلائهم على سرقسطة ، وكانت من مدن الثغر الأعلى . ولما انقسمت الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، استولى على لاردة بنو هود الجذاميون ، أصحاب سرقسطة

---

(١) Mequnenza أى بالعرفى مكينسه ولكن العرب نظراً لوجود بلدة مكناسة فى بلادهم تلفظوا باسم هذه كتلك فعندهم مكناسة حصن من حصون الاندلس ذكر ياقوت فى معجم البلدان مكناسة المغرب ثم ذكر مكناسة هذه وقال : قال أبو الاصبغ سعيد الخير الاندلسى : مكناسة حصن بالاندلس من عمل لاردة

وعند وفاة المستعين بالله سليمان بن هود ، خرجت فى نصيب ولده يوسف ، ثم استولى عليها أحمد الملقب بالمقتدر .

وقد ذكر لاردة ياقوت الحموى فقال : لاردة بالراء مكسورة ، والدال مهملة : مدينة مشهورة بالأندلس ، شرق قرطبة ، تتصل أعمالها بأعمال طرّكونه ، منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف ، ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر فى مواضعها وهى بيد الافرنج الآن . ونهرها يقال له سيقر . ينسب إليها جماعة منهم أبو يحيى زكريا ابن يحيى بن سعيد اللاردى ، و يعرف بابن الندّاف ، وكان إماماً محدثا ، سُمع منه بالأندلس كثير ، ذكره القرضى ولم يذكر وفاته . اهـ .

و بقيت لاردة فى أيدى العرب من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٩٩ ، إذ استولى عليها لويس الحليم ، ملك فرنسة ، ثم استرجعها المسلمون ، و بقيت فى أيديهم إلى أن سقطت بسقوط سرقسطة ، فى أوائل القرن السادس للهجرة . وكان أول ظهور بنى هود فى لاردة ، فقد غلب عليها سليمان بن محمد بن هود ، وكان من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الشاملة ، فلما صار الأمر فوضى ، وثب سليمان المذكور على والى لاردة ، أبى المطرف التجيبى ، وقتله واستولى على لاردة ومنتشون ونواحيهما وكان فى سرقسطة أمير من التجيبيين يقال له منذر بن يحيى من قواد الدولة العامرية ، فمات فى أثناء الفتنة ، فورث الامارة ابنه يحيى بن منذر ، وسنه فيما ذكر تسع عشرة سنة . وكانت أمه أخت المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة . فاحتقره بنو عمه ، وتواطأوا على قتله مع كبير منهم اسمه عبد الله بن حكيم ؛ ثم قتلوه ولولا هذا الرجل أمرهم ، ولكنه كان عاهر الفرج ساءت ملكته فيهم فخلعوه ، و بعثوا إلى سليمان بن هود ، وهو بمدينة لاردة ، ليأتى إلى سرقسطة و يلى الأمر ، فجاء ونزل بدار الامارة . وكان استيلاء ابن هود على لاردة سنة إحدى وثلاثين وار بعمائة ، واستيلاؤه على سرقسطة سنة ثمان وثلاثين .

ولما مات سليمان بن هود كان له خمسة أولاد ذكور ، قد قسم عليهم البلاد في حياته فولى أحمد ، ولده الثانى ، مدينة سرقسطة ، وولى يوسف ولده الأكبر ، مدينة لاردة ، وولى محمداً قلعة أيوب ، وولى ولده لبًّا مدينة وشقة ، وولى المنذر تطيلة .

إلا أن احمد بن سليمان بعد وفاة أبيه صار يحتال على اخوته حتى أخرجهم من ولاياتهم ، ولم يمتنع عليه إلا يوسف أمير لاردة ، وكان هذا يلقب بحسام الدولة ، ولما رأى الاهالى أعمال احمد بن سليمان بن هود باخوته كرهوه ، ومالوا إلى أخيه يوسف وقاموا بدعوته وكان هذا بطلا شهما ، إلا أنه كان سيء البخت ، وكان أخوه أحمد خبيثاً على جانب عظيم من المكر فأرسل إلى الطاغية بن ردمير يستعينه على أخيه ، وكان يوسف قد أرسل إلى بلاد ابن ردمير ميرة كثيرة ، فسرى احمد برجاله من سرقسطة ، وأخذ قوافل أخيه ، وانهزم رجالها ، فأخذهم النصارى أسرى ، ثم جاع أهل تطيلة ، فأرسلوا إلى يوسف يستغيثون به ، فبعث إليهم بارزاق كثيرة ، فخرج احمد وأخذ قوافل أخيه وما فيها من الميرة ، وقتل رجالها ، فلما رأى المسلمون في الثغر الأعلى ما رأوا من دهاء احمد ابن سليمان بن هود ، ومن سوء بخت أخيه يوسف ، خافوا على أنفسهم من احمد ، فأطاعوه ، ولم يبق فى حوزة يوسف سوى لاردة ، وقد كانت هذه العداوة بين الاخوين هى السبب فى فاجعة بَرْبُشْتَر التى تقدم ذكرها .

وما زالت لاردة تابعة لسَرَقُسْطة إلى أن استولى الاسبانيول على سرقسطة وانطوى بساط الثغر الأعلى .

وممن انتسب إلى لاردة من أهل العلم أبو محمد عبد الله بن هارون الأصبحى ، الفقيه الشاعر ، ترجمه ابن بشكوال وقال : ذكره لى أبو الحسن على بن احمد العائذى وأنشد له أشعاراً أنشده اياها منها :

كم مِنْ أخٍ قد كنتُ أحسب شهدَهُ حتى بَلَوْتُ المرَّ من أخلاقه
كالملح يُحسبُ سُكَّرا فى لونه ومَجَسِّهِ ، ويحول عند مذاقه

وترجمه أيضاً صاحب بغية الملتمس .

وعبد الملك بن نمير الفارسى ، محدث ، من أهل لاردة ، ذكره أبو سعيد بن يونس . جاء ذكره فى بغية الملتمس . وأبو عبدالعزيز عبدالرؤوف بن عمر بن عبدالعزيز أصله سَرَقُسطى ، توفى بلاردة سنة ٣٠٨ . وعبد العزيز بن عمر بن حبنون ، من أهل مَنْتَشُون ، من عمل لاردة يكنى أبا يونس ، سمع من أبى الوليد الباجى صحيح البخارى بسرقسطة سنة ٤٦٣ ، وولى الأحكام بمنتشون . نقل ذلك ابن الأبار فى التكملة عن أبى داود المقرىء . وأبو محمد عبد الجبار بن مفرّج بن عبد الله الأنصارى من أهل لاردة ، استوطن مرسية ، سمع أبا الأصبغ عبد العزيز بن محمد البلشيدى الأموى ، وكان شيخاً صالحاً ، ولد سنة ٤٨٦ ، وتوفى حول سنة ٥٦٠ ، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عيّاد ، وأبو محمد عبد الجبار بن خلف بن لب اللاردى ، سكن بلنسية ودانية ، وقرأ جميع البخارى فى دانية على الباجى سنة ٤٥٢ ، وسمع من أبى العباس العذرى ، وأبى عمر بن عبد البر ، وغيرهما ، وأجاز له أبو عمر بن الحذّاء ، وسمع منه أبو عبد الله بن خَلَصَة المعافري . وأبو عبد الله محمد بن احمد بن عمّار بن محمد التجيبى ، من أهل لاردة ، قال ابن الأبار إنه رحل إلى بلنسية ، على أثر استرجاعها من الروم ، فى منتصف رجب سنة ٤٩٨ ، فلقى فيها أبا داود المقرىء ، وأخذ عنه القراءات السبع ، ثم انصرف إلى بلده لاردة ، فاقرأ بها القرآن ، وأخذ عنه . ورحل إلى مرسية صدر رجب سنة ٤٩٧ ، وتصدر بجامعها للاقراء ، وأُخذ عنه وسَمِع حينئذ من أبى على الصدفى الحديث ، وانتقل بعد ذلك فى آخر سنة ٥٠٣ إلى أوريوله ، وخطب بجامعها ، وتمادى اقراؤه بها إلى حين وفاته ، فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٥١٩ ، ومولده فى رمضان سنة ٤٧٧ ، فلم يطل عمره . نقل ذلك ابن الأبار من خط زياد بن الصفار ، وهو أحد تلاميذه ، أخذ عنه القراءات والعربية وقرأ عليه كتاب روضة المدارس ، وبهجة المجالس ، من تأليفه . وأبو عبد الله محمد بن يحيي بن سعيد الأنصارى اللاردى ، لقى أبا بكر الجزّار السرقسطى ، وغيره من الأدباء ، قال ابن عيّاد : كان كثير الاختلاف إلى مجلس شيخنا أبى بكر بن نمارة

وكان فكه المجالسة ، لين الجانب ، أديباً ظريفاً أنشدنا لأبي بكر الجزار :

عجبتُ لِذي وجعٍ مُؤْلم يَسومُ الطبيبَ ويُكْدِي عَلَيْه
يَضِنُّ عليه بديناره ويَجْعَلُ مُهجته في يَدَيه

وتوفي ببلنسية في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ ، وقد نيّف على الثمانين . وأبو الوليد يحيى بن سليمان بن حسين بن يوسف الأنصاري ، قاضي لاردة ، أصله من « شنّة » قرية هناك ، خرج من لاردة سنة ٥٤٥ . وأبو الحسن على بن عبد الله بن محمد التجيبي الواعظ ، من أهل لاردة ، لقي أباالقاسم عبد الرحمن بن المشّاط الطليطلي بمالقة سنة ٥٠٠ وكتب من أصله بخطه تأليفه المترجم « بكشف جمل من التعطيل ، فحجج من الأثر والنظر والتنزيل » وهو جواب لرجل ورد من المشرق ، يتكلم في خلق القرآن والنزول إلى السماء الدنيا ، وأمثال ذلك ، ذكره ابن الأبار . ويحيى بن محمد الأموي ، أبو الوليد ، المعروف بابن قبرون من أهل لاردة سكن شاطبة ، وتولى قضاءها ، وانتقل إلى بلنسية ، فشاوره قاضيها . حدث عنه ابن عياد ، وابناه محمد واحمد ، قال ابن الأبار استشهد في وقيعة البُرت سنة ٥٠٨ وأبو عبد الله محمد بن على اللاردي ، سكن قرطبة كانت له رحلة إلى الشرق حج فيها ، ثم قفل فاقرأ القرآن بمسجد أم هشام بقرطبة . ومحمد بن أسلم اللاردي يروي عن يونس بن عبد الأعلى . وأبو عبد الله مالك بن معروف قيل إنه من ماردة ، وقال الحميدي : الأرجح أنه من لاردة ، يروي عن عبد الملك بن حبيب . مات سنة ٢٦٤ . وغيرهم

وفي لاردة كنائس كثيرة من أشهرها كنيسة سان لورانسو ، بنيت بين سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٣٠٠ ، على انقاض هيكل روماني ، ولما جاء العرب جعلوا من ذلك الهيكل جامعاً ، فلما خرجوا من لاردة ، تحول هذا الجامع إلى كنيسة . ومن لاردة يذهب المسافر إلى بلدة بَلَغِيّ Balaguer والمسافة بينهما ثلاثون كيلومتراً وهي بلدة سكنها العرب ، جاء في معجم البلدان : بلغي بفتح أوله وثانيه ، وعين معجمة ، وياء مشددة ، كذا ذكر أبو بكر بن موسى : بلد بالأندلس من أعمال لاردة ، ذو حصون

عدة ، ينسب اليه جماعة ، منهم أبو محمد عبدالحيد البلغى الأموى،قال أبو طاهرالحافظ (أى السلفى) : قدم البلغى الاسكندرية ، فسألته عن مولده فقال : ولدت سنة ٤٨٧ فى مدينة بَلَغى ، بشرقى الأندلس ثم انتقلت إلى العدوة بعد استيلاء العدو على البلاد فصرت خطيب تلمسان ، وقرأت القرآن ، وسمعت الحديث ، وأعرف بابن بر بطير البلغى . ومحمد بن عيسى بن محمد بن بقاء أبو عبد الله الأنصارى الأندلسى البلغى المقرىء ، أحد حفاظ القرآن المجوّدين ، انتهى باختصار . قلت . أبو عبيد الله محمد بن بقاء هذا رحل حاجاً ، وقدم دمشق ، وأقرأ بها ، وتوفى فيها سنة ٥١٢ ، ذكره ابن عساكر ، مؤرخ دمشق ، الذى ذكر أنه شهد غسله ، وكان فى الصلاةعليه . و ينسب إلى بلغى أبو الحجاج يوسف بن ابراهيم بن عثمان العبدرى ، المعروف بالثغرى ، نزل غرناطة ، وعبد الله بن ابراهيم بن العوام البلغى الاندلسى ، استوطن مصر ، ذكره ابن بشكوال فى الصلة ، وقال ابن الأبار فى كتابه المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى ان والد أبى الحجاج يوسف العبدرى المذكور انتقل من بلغى ، ونزل غرناطة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، وان أبا الحجاج ولد بغرناطة ، فى صفر سنة ٥٠٣ ، واستقر أخيراً بقليوشة ، من أعمال مرسية وتوفى هناك سنة ٥٧٩ .

هذا ، ومن حصون لاردة التى كانت معروفة فى زمان العرب ، منت شون ، ذكره معجم البلدان فقال انه بالشين المعجمة ، وآخره نون ، حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم ، بينه و بين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جداً تملكه الافرنج سنة ٤٨٢ . انتهى . ومونشون اليوم بلدة صغيرة سكانها أربعة آلاف نسمة ، وفيها كنيسة صان جوان ، وأما الحصن القديم فهو على قمة شاهقه ، وفيها بقايا حصن رومانى على قمة أخرى . وتمريط على مسافة ١٥ كيلومترا من مونشون .

ومن لاردة تمتد طريق عربات محاذيه لوادى شقر إلى مدينة بَلَغى و إلى بلدة يقال لها ارتيزة Artesa ثم إلى « أولياته » ثم إلى كاستلنو Castellnoi ثم إلى « سولسونة » وعلى مسافة ١٨ كيلومتراً من لاردة ، بالقرب من نهر شيقر ، توجد

صخور عليها تصاوير قديمة ، منها تصاوير حيوانات ، ومنها تصاوير بشرية ، وأما سولسونة فهى قرية معلقة على صخر شاهق مشرف على وادى نيغرو Negro ومن لاردة طرق إلى جبال البرانس الشرقية ، و إلى وادى اندور [1] حيث

(١) فى جمهورية اندور المستقلة البريد والبرق تابعان للبريد والبرق فى فرنسة ، وأما السكة فهى اسبانيولية ، وأما اللغة فهى كتلونية ، ومركز الجمهورية فى قرية جميلة بحذاء جبل . وفيها كنيسة قديمة من القرن الثانى عشر ، وفيها قصر للحكومة يجلس فيه المأمورون ، ويجتمع رجال المجلس وهم أربعة وعشرون عضواً ، ينتخبون لمدة أربع سنوات عن النواحى الست التى تتألف منها الجمهورية ، ولهؤلاء الحق فى الاقامة بالقصر أيام الاجتماع وفى إيواء بغالهم فى اسطبله فهذا القصر دار حكومة ومحكمة وحبس وفندق ومدرسة وخزانة كتب معا وفى القصر خزانة تشتمل على وثائق امتيازات هذه الجمهورية ويقال انه من جملتها وثائق يرجع تاريخها إلى عهد شارلمان ولويس الحليم . وبالقرب من اندور برج عربى قديم اسمه كارول وليس فى أرض اندور طرق عربات لأن الأهالى على جانب عظيم من السذاجة وهم يعتقدون أن الطرق المعبدة تهدد استقلالهم . . . واما جبل مونت سرات أو مونت شرات فمعناه جبل المنشار وقد تقدم ذكره وهو جبل مقدس عند الكتلان وشكله فى منتهى الغرابة لأنه منقطع من جميع الجهات ومشرف على البسائط الواسعة ناتئة منه إلى الامام اسنان كأسنان المشط وعلى شفير الجبل من جهاته الأربع جنادل كبيرة أشبه بالرجال المعممين كان العرب لما ملكوا تلك الاقطار يسمونها بالحرس وقد تمكن الكتلان من بعض جهات الجبل من مد خط حديدى إلى قمته وذلك بعناء شديد ولم يكن ممكنا مدّ هذا الخط إلا من مكان واحد إذ الصعود من الجهات الاخرى غير ممكن إلا بشعاب يسلكها الناس على الاقدام وفى أعلى القمة دير شهير يزوره كل سنة عشرات الالوف من البشر وهذا الدير بنى سنة ٨٨٠ للمسيح واكثر من يزوره المتزوجون اعتقاداً منهم بأن زيارته تكون سببا للبركة فى الحياة الزوجية . وإلى الشمال الشرقى من جبل المنشار هذا يجرى نهر لوبريقات وله واد عميق فى بطنه قرية يقال لها مونيسترول Monistrol وكل تلك الناحية هى فى غاية الجمال الطبيعى ويوجد على نهر لوبريقات معامل كثيرة تتحرك آلاتها بقوة مياهه المتحدرة

ومما يناسب ذكره هنا المعابر التى بين المنحدرين الجنوبى والشمالى من جبال البرانس

حكومة اندور المستقلة ، الواقعة بين فرنسة واسبانية ، وهذا الوادى فيه عدة قرى وقاعدة الوادى يقال لها اندورا لافيجا Andorra la Vieja ومساحة هذه البقعة المستقلة ٤٥٢ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٥٢٥٠ نسمة وحكومتها تقدم كل سنة ٩٦٠ فرنكا لجمهورية فرنسة ، علامة على كونها تحت حماية هذه الدولة ، إلا أنه يشترك مع فرنسة فى حق هذه الحماية مطران أورجل Uergel وهو يأخذ من هذه الجمهورية ٤٦٠ بسيطة اسبانيولية سنويا . وهناك بلدة يقال لها سيو أورجل عدد سكانها ثلاثة آلاف ، فيها مركز أسقفية ، وهى ذات موقع حصين ، وغير بعيد عن أورجل ناحية سردانة Cerdagna ثم بلدة يقال لها بويغسردا Buigcerda

طركونة Tarragona

وأما مدينة طركونة فهى مدينة بحرية سكانها لا يزيدون اليوم على ٢٥ الفاً بعد أن كان فيها مليون نسمة فى أيام الرومان وهى مركز اسقفية . ويقال لاسقفها بريماط اسبانية ، كما يقال لأسقف طليطلة . وفى أعلا نقطة من البلدة إلى جهة الشرق ، حيث القلعة القديمة ، مركز الاسقفية وبجانبه الكنيسة الكبرى . والبلدة قسمان : قديم وحديث ، فالقديم هو القسم العالى ، وفيه بقايا كثيرة ، وكتابات من زمن الرومان وأما القسم الحديث ، ذو الشوارع المستقيمة ، فهو الذي يلى البحر .

وأسوار طركونة ماثلة من الجهات الثلاث ، وإنما قد تهدم منها الجانب الغربى ويرجع بناء طركونة إلى زمن الايبيريين ، ويقال إن أول من سكن فيها قبيلة

وهى التى يقال لها البورتات أى الابواب وأشهرها معبر سالدو Saldeu الواقع إلى الشرق والناس تعبره على الخيل مدة خمسة أو ستة أشهر من السنة ، ثم معبر فونتارجنت Fontargente وهو أسهل سلوكا من غيره وبالقرب منه بحيرة لطيفة . ثم معبر سيغوير Siguer وارتفاعه ٢٥٩٥ متر ، وهو غير مسلوك مدة ثمانية أشهر من السنة . وإلى الشمال الغربى من البرانس ثلاثة معابر وهى معبر رات Rat وعلوه ألفان وستمائة متر ومعبر أويسال ومعبر بويه Bouet وارتفاعه ٢٦٦٠ متراً .

ساحة أغسطس فى طركونة

القناة المعلقة فى طركونة

طركونة

من هؤلاء اسمها السيسيتان Cessétains وقد بقيت لهم مسكوكات ، وهم الذين بنوا أسوار المدينة سنة ٢٦٧ قبل المسيح . ولما وقعت الحرب بين القرطاجنيين جاء القواد الرومانيون سيبيون ورفاقه ، فاستولوا على طركونة ، و بنوا فيها مرسى بحرياً ، وأسواراً منيعة ، وصارت من أعظم مستعمرات الرومان فى أسبانية ، وكان ذلك من بعد سنة ٢١٨ قبل المسيح ، ثم انه فى سنة ٢٦ جاء أغسطس قيصر وسكن بطركونة ، و بنى فيها هيكلا عظيما ، ومبانى فخمة [1] ، وتتابع ولاة الرومان عليها ، وتنافسوا فى الاعتناء بها ، ولا تزال آثارهم تشهد بعظمتها لذلك العهد ، وكان استيلاء القوط عليهاسنة ٤٧٥ للمسيح ، وكان استيلاءالعرب سنة ٧١٣ .ولمااسترجع النصارى هذه البلدة أعادوا إليها مركز الأسقفية ، وذلك سنة ١١١٨ ، إلا أن أهميتها التجارية لم ترجع إليها ، بل تحولت التجارة إلى برشلونة من جهة الشمال ، و إلى بلنسية العربية من جهة الجنوب

وأما مرسى طركونة فى زمن العرب فليس هو مرساها الحالى ، بل كان فى أسفل حارة البحر من طركونة الحديثة . ثم إن السكتلان بنوا ميناء آخر فى أواخر القرن

---

(١) ان جميع مدن أسبانية لم تحفظ من أبنيتها القديمة ما حفظته طركونة والناس يقولون إنه لايقدر على بناء هذه الأبنية المتناهية فى الضخامة سوى الجن فقد يبلغ ثخن الجدار خمسة أو ستة أمتار وإن كثيراً من الحجارة يبلغ من الطول أربعة أمتار فى عرض مترين ففى طركونة يتذكر الانسان قلعة بعلبك وأهرام الجيزة

وقد اعتنى الرومان بتمكين أبنية طركونة إلى هذا الحد ليجعلوها حصنا فى غاية المنعة أمام القرطاجنيين وقد استكمل أغسطس قيصر فى طركونة جميع مايلزم من المبانى والمعاهد اللازمة لعاصمة كبيرة فكان فيها القصور والهياكل والحمامات وملاعب الخيل وملاهى التمثيل والأندية الاجتماعية . وأما فى عهد النصرانية فليس فيها شىء يذكر سوى الكنيسة الجامعة التى فيها قبر جاك الأول الأراغونى الذى فتح بلنسية وهذا القبر قد تقدم كونه نسف فى فتنة ١٨٣٥ كما أنه تهدم أبنية كثيرة فى طركونة عند ما حاصرها الفرنسيس سنة ١٨١١

برج سيبيون فى طركونة

باب كنيسة طركونة

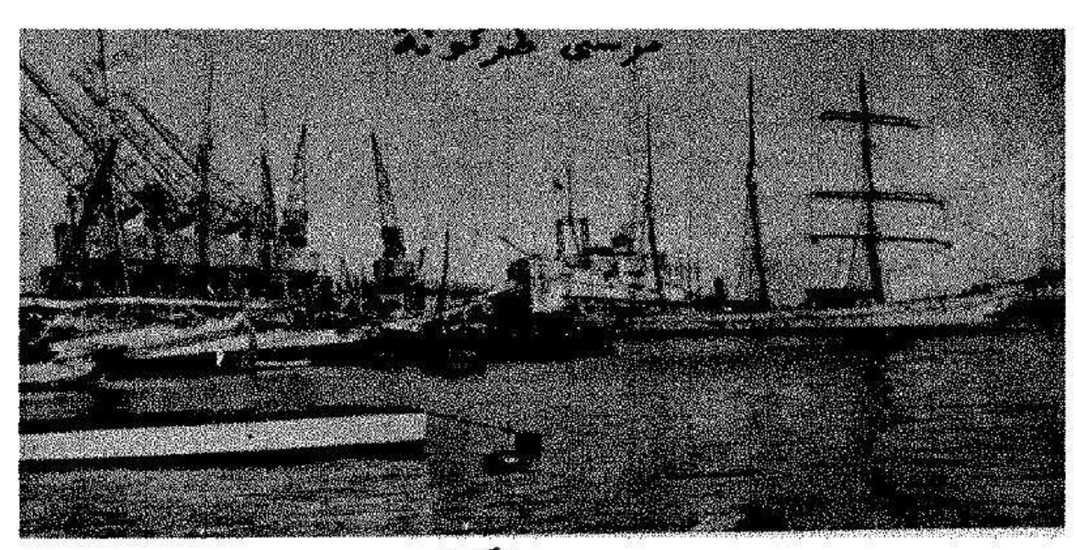
كنيسة طركونة

الخامس عشر ، ، وكان بناؤهم لهذا المرفأ من حجارة الملهى الرومانى . وأشهر شوارع طركونة هما رملة سان جوان ، ورملة سان كارلوس

وأما الكنيسة الكبرى فقد بنيت على أنقاض الهيكل الرومانى ، وأنقاض المسجد الجامع ، الذى كان فى زمان العرب . فلما أخرجوا العرب من هناك سنة ١١١٨ حتى حولوا المسجد إلى كنيسة ، وطول هذه البيعة مائة وأربعة أمتار ، ولها برج علوه ٦٥ متراً ، وفيها تصاوير لأشهر المصورين ، وتماثيل لأشهر النحاتين ، وفيها قبر جاك الأول الأراغونى ، الملقب عندهم بالفاتح ، المتوفى سنة ١٢٧٦ وفى طركونة متحف للآثار القديمة ، فيه كثير من النواويس والتماثيل ، وقطع الفسيفساء ، من أيام الرومان وغيرهم وفيه أيضاً أسلحة ، ومسكوكات إيبيرية وفينيقية ورومانية

ومن جملة مبانى طركونة المشهورة القناة الرومانية المعلقة ، أتوا فيها بالماء من وادى غَيَّه Gaya وهذه القناة طبقتان أدناها ذو ١١ قوساً وأعلاها ذو ٢٥ قوساً . وطول الطبقة الأولى ٧٣ متراً ، وطول الطبقة الثانية ٢١٧ متراً ، ومجرُ المياه من رأس نبعها طوله ٣٥ كيلو متراً

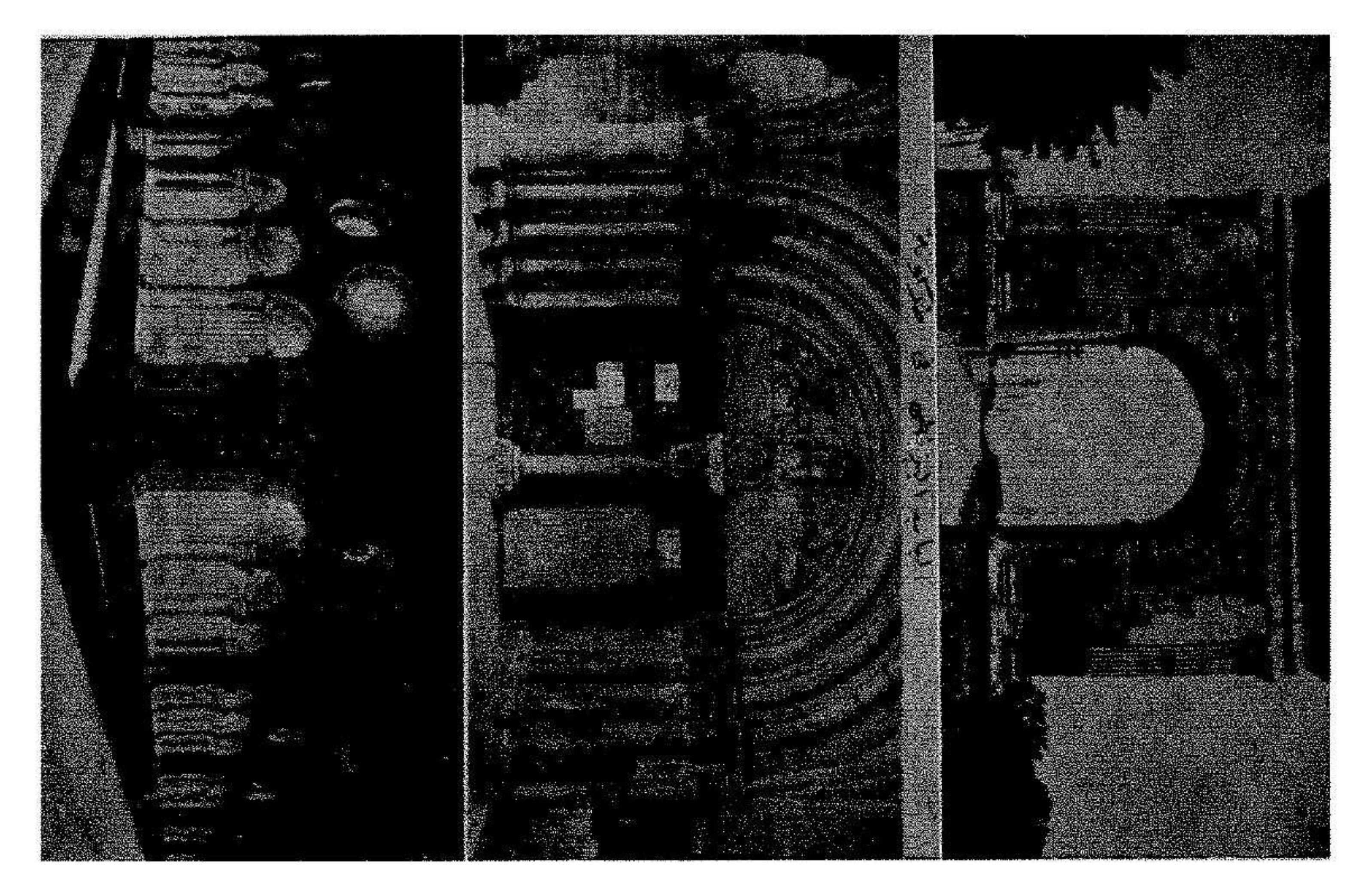
وكان يقال لطركونة فى أيام العرب مدينة اليهود ، لأنهم كانوا كثيرين فيها ، كما كانوا فى غرناطة . وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية أن العرب إنما اجتاحوا طركونة سنة ٧٢٤ ، واستولوا عليها ، وبقيت فى أيديهم إلى آخر الدولة الأموية . فبعد سقوط الخلافة فى قرطبة ، وانقسام العرب إلى ملوك الطوائف ، زحف إليها لويس صاحب أكيطانية ، فاستولى عليها ، فزحف العرب واستردوها منه . ثم أغار عليها رامون بيرانجة Ramon Béranger واستولى عليها ، فجاء العرب واستردوها منه أيضاً ولم تسقط السقوط النهائى فى أيدى المسيحيين إلا سنة ١١٢٠ . وقد جاء فى الانسيكلو بيدية المذكورة ذكر السكوة الرخامية المكتوب عليها اسم عبد الرحمن الثالث ، وهى التى فى رواق الكنيسة الكبرى ، فانه فى هذا الرواق نافذة صغيرة فى حائط عليها تاريخ بالخط الكوفى ، فيه اسم الخليفة الناصر ، والتاريخ هو فى سنة ٣٤٧ . وفى الانسيكلو بيدية الاسلامية يقول انه فى سنة ٣٤٩



مرسى طركونة

وجاء في معجم البلدان لياقوت : طركونة ، بفتح أوله وثانيه وتشديده ، وضم الكاف ، و بعد الواو الساكنة نون ، بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطىء البحر ، منها نهر علّان ، يصب مشرقا إلى نهر ابرُه ، وهو نهر طرطوشة ، وهي بين طرطوشة و برشلونة ، بينها و بين كل واحدة منها خمسة عشر فرسخاً اﻫ .

وحول طركونة سهل أفيح خصيب فيه كروم عنب و زياتين ، وكثير من الجوز واللوز ، يخترقه الخط الحديدي ماراً بقرى وقصاب كثيرة ، من جملتها « رويس » Reus و « سلبه » Selva و « مونت بلانش » Mont - Blanch على وادي « فرنكولي » ، وفيها أسوار وأبراج قديمة ، ومن هناك يذهب الناس لمشاهدة آثار دير يقال له دير « سان بو بله » St. Poblet ، نسبة إلى رجل كان يسمى بو بله ، كان العرب ألقوا إليه مقاليد الناحية المسماة هارديتا Herdeta ، وكان في ذلك الدير مقبرة لملوك أراغون . وقد تهدم هذا الدير بالفتن التي وقعت بين سنتي ١٨٢٨ و ١٨٣٥ وتهدمت القبور أيضاً ، ولكن الآثار لاتزال ماثلة .



قوس بارا فى طركونة

الباب البيزنطى فى طركونة

كنيسة طركونة أيضا

والخط الحديدى الممتد من طركونة إلى لاردة يمشى أولا مع النهر ، ثم يبتعد عنه ، فيخترق شارات برادس ، ولا يزال يصعد من شرقيها إلى أن يبلغ ارتفاعا يزيد على ألف متر ، ثم يعود فينحدر ، فيمر ببلاد منها فينكسا Vinaixa ، وفلورستا Floresta ، و بورجاس Borjas وجُنادة Gineda ، إلى أن يبلغ لاردة ، و بين المدينتين أزيد عن مائة كيلو متر ، وأما الخط الحديدى من طركونة إلى طرطوشة ، فانه يشرف على بسيط طركونة من جهة اليمين ، وعلى البحر من جهة الشمال ، و يشاهد منه رأس سالو Salou . وعند رأس سالو مرفأ يخدم مدينة رويس ، وهذا المرفأ يبعد عن طركونة ١٣ كيلو متراً ، ثم ان الخط يتقدم صوب طرطوشة ، فى ناحية يكثر فيها الخروب واللوز والنخل ، وعلى مسافة ١٩ كيلو متراً من طركونة بلدة يقال لها كامبريلس Cambreils ، وعلى مسافة ٣٣ كيلو مترا بلدة هوسبيتالة Hospitalet وكان فيها قديماً منزل للمسافرين . وتلك الناحية كاسية الأرض ، فلا ينبت فيها إلا أشجار نادرة ، وترى الجبال جرداء ، وهى مشرفة على البحر ، وفى بلدة تسمى أميتلّة Ametlle أهلها صيادو سمك ، وعلى ساحل البحر توجد بعض نواعير لسقى الأرض . وعلى مسافة ٧١ كيلو مترا بلدة يقال لها أمبولة Ampolla مشرفة على خليج يقال له خليج سان جورج ، وهذه البلدة ذات موقع بديع ، ومنها ينظر الانسان إلى وادى ابرُه ، وما تفرع منه من الأقنية الكثيرة ، و إلى الشرق من تلك القرية منارة بحرية يقال لها منارة فنغال Fangal و إلى الجنوب الشرقى منارة أخرى على رأس طرطوشة ، تقرب من بلدة صغيرة اسمها امبوسطة Amposta . و إلى الجنوب من امبوسطة توجد قناة إلى مرسى يقال له سان كارلوس الرابطة ، وهناك مصب نهر ابره الكبير ، وهو شطران ، يفصل بينهما جزيرة تسمى بودا Buda وعلى ٨٤ كيلو متراً من طركونة ، على ضفة نهر ابره ، بلدة طرطوشة ، التى سيأتى الكلام عليها .

وأما بين مدينة رويس و برشلونة ، فالمسافة تزيد على مائة كيلو متر ومدينة روس سكانها ٢٦ ألف نسمة ، وهى بلدة صناعية واقعة فى سفح جبل ، وكان فيها

حصون قديمة تهدمت وصار مكانها الآن حارة جديدة ، وفيها كنيسة سان بدرو ، لها برج ارتفاعه ٦٦ مترا ، وفى هذه البلدة أنشأ بعض تجار الانكليز ، فى أوائل القرن الماضى ، معامل للقطن ، فيها خمسة آلاف نول ، وازدادت الصناعة في هذه المدينة فأحدثت فيها معامل للحرير ، وللجلد ، وللصابون ، وللخمر والمسكرات بأنواعها ، فصارت رويس ثانى مدينة صناعية في كتلونية . وعلى الخط الحديدى بين رويس وبرشلونة توجد بلدة صناعية أخرى اسمها فالس Valls سكانها ١٣ ألفاً ، وهى ذات أسوار وأبراج قديمة ، وعلى مقربة من فالس فى وادى غاية Gaya يوجد دير بناه رامون بيرانجه الرابع سنة ١١٥٧ كان يضارع دير بوبلة المتقدم الذكر فى حسن الصنعة الكتلانية ، إلا أن هذا الدير تهدم فى فتنة سنة ١٨٣٥ وفيه قبور ملوك كثيرين منهم بترُه الثالث ، ملك أراغون ، المتوفى سنة ١٢٨٥ ، وجيمس الثانى المتوفى سنة ١٣٢٧ وامرأته الملكة بلانش دانجو Blanche d'Anjou وكذلك هناك قبر روجير لوريا Lauria الذى كان أمير الاسطول لعهد بترُه الثالث . وهو الذى كسر الاسطول الافرنسى فى واقعة نابولى . وقبور رامون وغيلرمو مونكادا Moncada اللذين قتلا فى واقعة استيلاء الاسبانيول على ميورقة سنة ١٢٢٩ عند ما طردوا منها العرب .

ومن البلاد الواقعة على الخط الحديدى بين رويس وبرشلونة : سان فنسنت كالدرس Calders . وفيها ملتقى فرعي السكة الحديدية : الذاهب إلى طركونة . والذاهب إلى برشلونة . وهنالك باب رومانى عظيم يقال له برطال باره Portal de Bara وقرية يقال لها روضة باره Roda de Bara وكذلك على هذا الخط قصبة اسمها فيلا نوفا كلترى Villa Nieva Geltri وهى بلدة سكانها ١٢ ألفاً ، وفيها تجارة ذات بال ولها متحف يشتمل على آثار قديمة ، مصرية ، ورومانية ، وعلى هذا الخط عند مايحاذى البحر قرية يقال لها سيتغس Sitges وهى قرية لطيفة ، سكانها يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة ، ولها مرفأ على البحر ، وفيها متحف يسمى بمتحف روزينيول ، توجد فيه تحف نفيسة مصنوعة على المعدن .

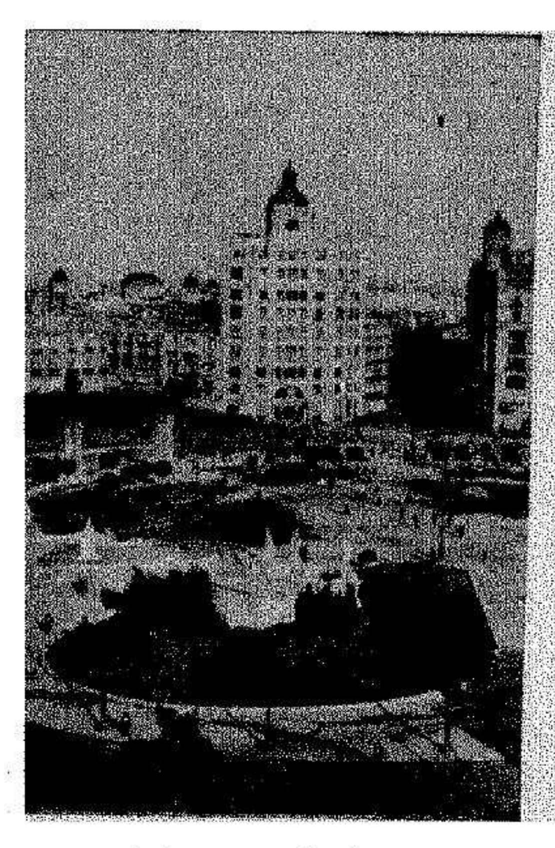
برشلونة Barcelona

هذه البلدة هى أعظم بلدة تجارية وصناعية فى الجزيرة الأيبيرية ، وعدد سكانها يزيد على سبعمائة ألف نسمة وستين ألفاً . وهى قاعدة بلاد كتلونية ، ولها مقاطعة خاصة بها ، حدودها من الشمال الشرقى مقاطعة جيرندة أو جيرونة ، ومن الغرب مقاطعة لاردة ، ومن الجنوب مقاطعة طركونه ، وفى برشلونة مركز القائد العام والوالى المدنى على جميع كتلونية ، وفيها أيضاً كرسى رئيس أساقفة ، وفيها مدرسة جامعة ، ومن جهة العرض والطول هى فى موقع رومة ، وهى تصعد بتدريج من ساحل البحر إلى مرتفع يقال له تيبيدابو Tibidabo الى الشمال الغربى منها علوه ٥٣٢ متراً ، وهذا المرتفع يتصل بجبال مالاس ، وجبال مونت جويك Montjuich و بين مالاس ومرتفع تيبيدابو وادٍ يقال له بيزوس Besos . و إلى الجنوب من مونتجويك ، يجرى نهر لو بريقات . فيتكون على ضفتيه وادٍ مَريع . كله مزارع ومباقل و بساتين ، تأخذ منه هذه المدينة العظيمة جميع ما يلزم لها من الخضرة والفواكه .

ولبرشلونة أرباض صناعية متعددة ، منها : سَنس Sans ، وغراسية Gracia ، وسان اندرى بالومار Palomar ، وسان مرتين بروفنسال Provensals ، وفى هذه الأرباض معامل القطن الكثيرة ، ومعامل أخرى للآلات الميكانيكية وللكهرباء . والمترفون من أهل برشلونة يختارون السكنى فى ضواحيها . التى أشهرها بونانوفا Bonanova وسان حرفازيو Gervasio .

و إذا نظر الانسان إلى برشلونة يجدها مجموعة من ثلاث مدن : الاولى برشلونة الاصلية وهى التى على سيف البحر . و برشلونة المحدثة فى القرون الوسطى وهى التى تتألف منها المدينة العظمى اليوم . و برشلونة الحديثة . وهى التى أحدثت فى هذا العصر واتصلت بالضواحى والقرى . وقد كان كثير من القرى منفصلا عن المدينة فاتصل بها باشتباك العمارة . وامتداد خطوط العجلات الكهربائية . وقلّ أن يوجد فى أوربة

حديقة مونتجويك ببرشلونة



بناية التليفون ببرشلونة



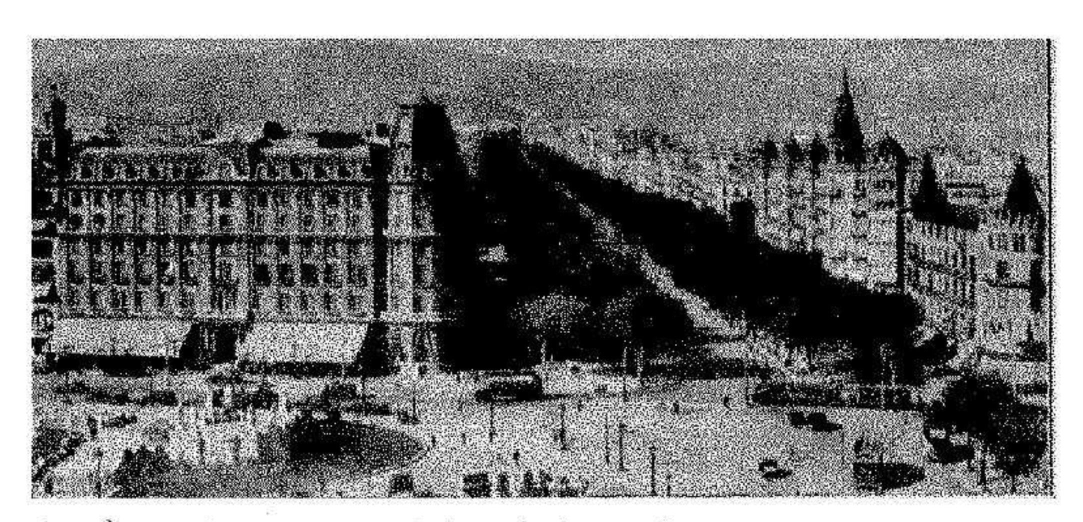
رملة كتلونية ببرشلونة

حواضر تفوق برشلونه . فى حسن فنادقها . ونظافة شوارعها . واتقان مبانيها . وقلما انشرح صدرى برؤية ساحة من سوح المدن العظام . كما انشرح عند رؤية الساحة الكبرى . التى يقال لها ساحة كتلونية . تحف بها المقاهى الواسعة التى تموج فيها المئات . وأحياناً الألوف من الخلق . لاسيا فى الليالى . ويبقى الناس فى فصل الصيف جلوساً فى تلك المقاهى إلى ما بعد الساعة الثالثة من الليل . ويقال للشارع فى برشلونة وجميع بلاد كتلونية « رملة » . ويكتبونها هكذا : Rambla وهى لفظة عربية كما ترى .

ورملات برشلونة موصوفة بسعتها وانتظامها ، وكلها تحف بها الظلال ، وتتناسق الأشجار على جانبيها . ولا يوجد شوارع يحلو السير فيها أكثر من شوارع برشلونة . وأينما توجه المسافر يجد مقاعد يستريح عليها تحت ظلال الأشجار الوارفة ، وشمس برشلونة حادة كسائر البلاد الحارة ، فبسبب حدة الشمس يجد السائر من لذة الالتذاذ بظل الدوح الفينان مالا يجده فى حواضر الأقاليم الباردة . ومما يحلو فى برشلونة للسائح الشرقى ، وللغربى أيضا ، مافيها من شجر النخل ، وأجملها النخيلات التى فى ساحة المرفأ . ويجد المسافر فى برشلونة من أنواع الفواكه مالا يجده فى غيرها ، لأنها تجمع فواكه البلادين الحارة والباردة

ومن أعظم مبانى هذه الحاضرة كنيستها الكبرى ، وقد بنيت مكان المسجد الجامع . وهذا المسجد بنى على آثار هيكل رومانى قديم . وقد بدأ الكتلان ببناء هذه البيعة سنة ١٢٩٨ ، ويقال إن فيها عظام القديسة «أولاليه» مدفونة تحت المذبح الأعظم ، تتقد فوق قبرها الشموع ليلا ونهاراً . وهذه القديسة هى شفيعة برشلونة ، ولها عندهم مزيد الحرمة [١] . وبجانب الكنيسة دير مبنى منذ القرن الخامس عشر .

(١) لقد ظهر فى الحرب الاهلية ، التى اشتعلت فى هذه المدة الاخيرة فى اسبانية ، وبدأت فى ١٧ يوليو من هذه السنة . أن برشلونة أكثر مدن اسبانية عداوة للكثلكة فان العامة ثارت على رجال الكنيسة ، وقتلوا كل من وقع فى أيديهم منهم ، وهدموا



شارع غراسيا ببرشلونة

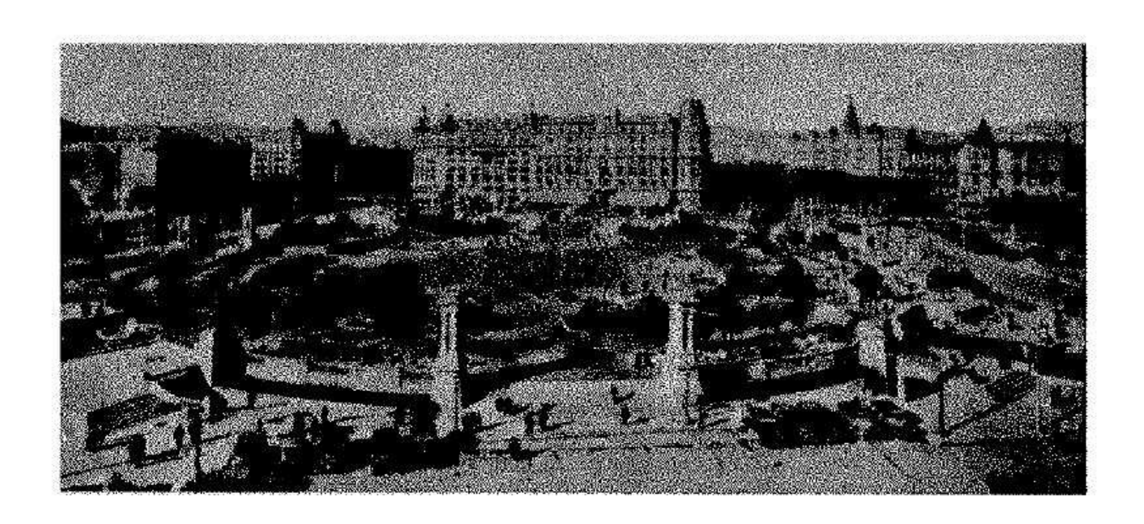


ساحة ماسيا ببرشلونة

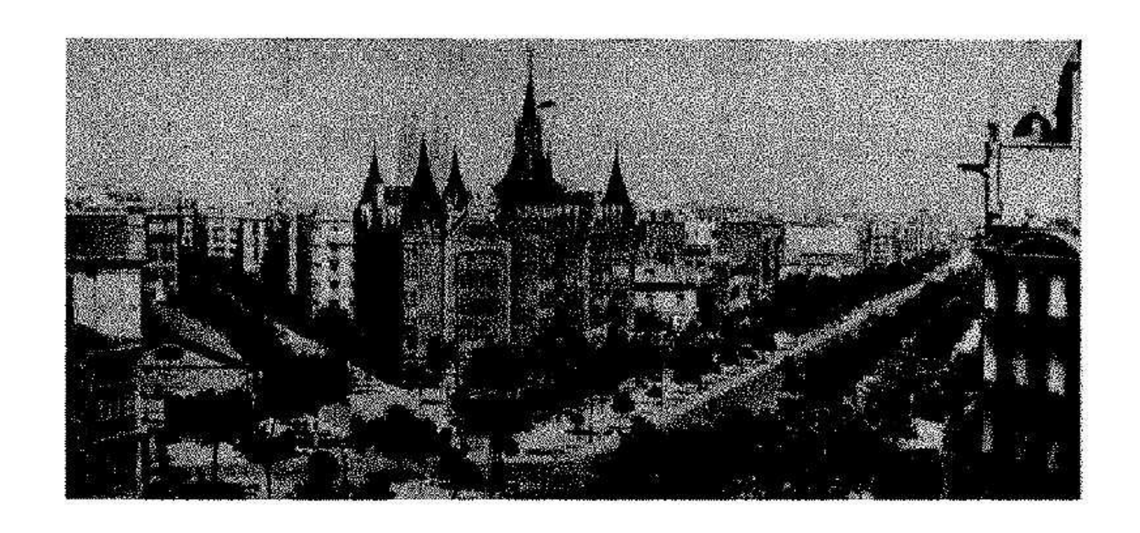
وتحيط بالكنيسة أبنية عمومية ، منها خزانة أوراق مملكة أراغون ، تشمل على أربعة ملايين قطعة من الوثائق التى أنجتها الأقدار من عوادى الحروب والفتن . وفى برشلونة خزانة أخرى لهذه البقايا القديمة ، فى متحف خاص ، جعلوه فى كنيسة سانتا أغيدا Agueda . وفى الساحة المسماة بالساحة الملوكية قصر اقاط برشلونة ، الذين فى الأصل كانوا عمالا للأمبراطور شارلمان وأولاده على برشلونة ، ثم استقلوا عنهم ، ولبثوا أكثر من قرن ونصف قرن أمراء على كتلونية ، لا يخضعون لأحد إلا الخلفاء قرطبة ، بالصورة الظاهرة ، إذا خافوا عاديتهم . وقد تقدم لنا ذكر اتحاد مملكتى كتلونية وأراغون ، بواسطة رامون بيرانجة الرابع الذى تزوج بوارثة ملك أراغون ، وصير المملكتين مملكة واحدة ، فجنتْ من هذا الاتحاد سيادة عظيمة ، لا سيما فى البحر . وفى برشلونة أبنية كثيرة موصوفة بالزخرف ، مثل كنيسة سانتا ماريه دلبينو Delpeno ، وكنيسة سانتاحنه ، التى هى من القرن الثانى عشر ، وغيرهما . وفيها بناية عظيمة للبورسة أو أو المصفق . وأما المرفأ فأول سد بُنى فيه لمصادمة الأمواج تاريخه سنة ١٤٧٤ ، وهو فى غاية السعة لا تقل مساحتهُ عن ١٢٤ هكتاراً . وعدد البواخر التى تزور هذا المرفأ فى دور السنة يزيد على أربعة آلاف وخمسمائة باخرة ، والوارد من المواد الأولية على برشلونة هو الحنطة ، والشعير ، والذرة ، والأرز ، والحديد ، والقطن ، والقهوة ، والبترول ، وغيرها . وبين برشلونة وسائر مراسى أسبانية حركة تجارية عظيمة ، ولهذا كانت لها منزلة عليا فى درجة الملاحة ، وقد عدّلوا سنة ١٩٢١ محمول سفن التجارة الأسبانية بما يقارب مليونا ومائتى ألف طن

وأهم ما تمتاز به برشلونة من العوامل الاقتصادية هو معامل القطن التى يشتغل

جميع الكنائس والاديار بدون استثناء ، ليس فى برشلونة فحسب ، بل فى جميع مقاطعة كتلونية ، ولم يعفوا إلا عن كنيسة برشلونه الكبرى ، ضناً بنفائس صنعتها ، وبعض كنائس نادرة أخرى . ولقد وقع من هدم الكنائس والاديار فى كل اسبانية مالايقع تحت حصر ، إلا أن كتلونية امتازت بذلك على غيرها .



ساحة كتلونية ببرشلونة



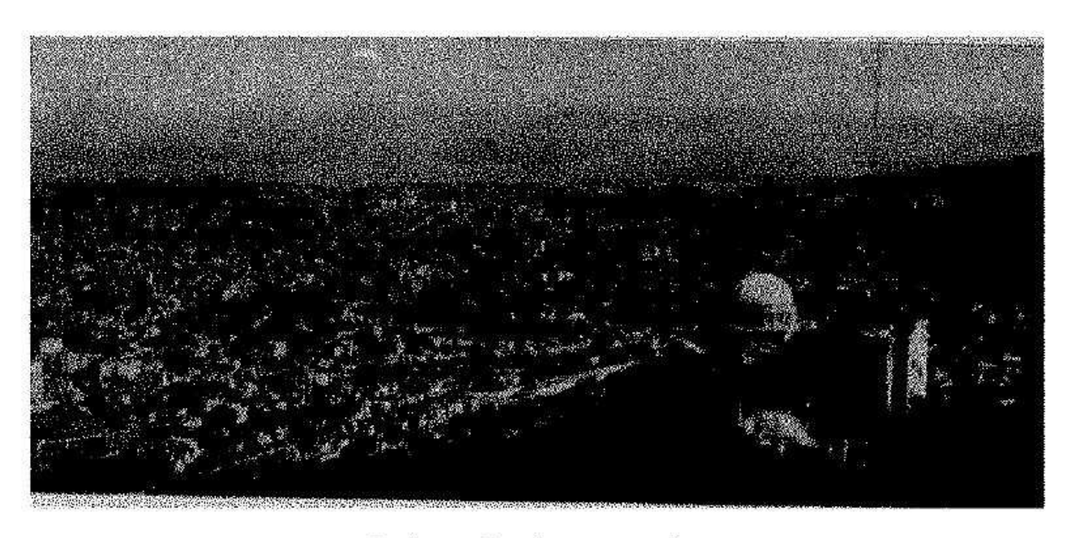
شارع ابريل ببرشلونة

بها مائة ألف عامل ، و يأتى بعد القطن صناعة الصوف ، التى أكثرها فى ساباديل Sabadel وتاراسّا Tarrassa . وفى الدرجة الثالثة صناعة الحرير التى حفظت شيئا من ازدهارها الذى كانت قد بلغته فى أيام العرب

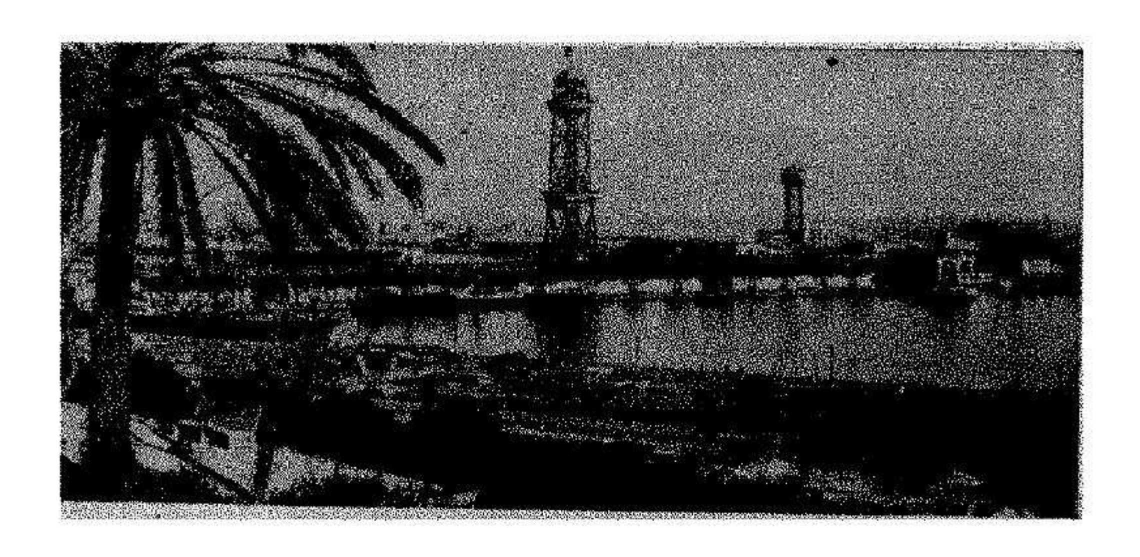
وفى برشلونة حديقة كبيرة من أبهى حدائق أوربا ، تبلغ مساحتها ٣٠ هكتاراً ، و بالقرب منها متحف عظيم فيه نماذج خاصة بالتاريخ الطبيعى ،ومتحف آخر بجانبه ، بناهما تاجر كبير اسمه « مارتوريل بينيه » Mertorell Piena و بازاء المتحف الطبيعى تمثال للشاعر الكتلانى المشهور آريبو Aribau . وهناك شلال صناعى يتصبب فى مغارة محدثة . و بالقرب منها تمثال آخر للكاتب الكتلانى فيلانوفا ، و يوجد متحف للعاديّات القديمة ، فيه خزانة كتب نفيسة ، ووثائق تاريخية ، ومصنوعات من قبل التاريخ ، فضلا عما بعده ، من أنواع الخزف ، والنسيج ، والزجاج ، والسلاح ، والمسكوكات ، وغيرها . وفى برشلونة متحف للصنائع النفيسة والتصاوير . ومن المبانى الفخمة المعدودة قصر العدلية ، إنشاؤه سنة ١٩٠٣ . ومن الكنائس القديمة كنيسة سان بترُه ، فى القسم القديم من البلدة ، تاريخ بنائها سنة ٩٤٥ . ومن التماثيل الشهيرة فى برشلونة تمثال كريستوف كولمبس ، وعلوه ستون متراً ، وقد أنشأوه فى أواخر القرن الماضى ، وهو فى فم شارع الرملة الشهير ، الذى طوله ١١٨٠ متراً

وضواحي برشلونة مثل «مونت جويك» و «ڤال فيدريروه» و « تيبيدادو » هى من أجمل مايوجد للنزهة ، ولا سيما تيبيدادو ، وقمة هذا الجبل علوها ٥٣٢ متراً ، ومنها يشرف الرائى على البلدة كلها ، وعلى جميع ضواحيها ، و يشاهد جبال البرانس ومونت شرّات ، من جهة البر ، وقنن جبال ميورقة ، من جهة البحر . و يقال إن اسم برشلونة أو برسلونة مشتق من اسم « ما ميلكار بارسا » القائد القرطاجنى ، وقيل فى الاسم خلاف ذلك . وقد أعطى أغسطس قيصر هذه البلدة لقب « مستعمرة رومانية » وقيل لها « جوليافاڤنتيا » Julia Faventia

وفى القرن الثانى قبل المسيح صارت برشلونة تناظر طرّكونة فى العظمة ، وكان



منظر عمومى لمدينة برشلونة

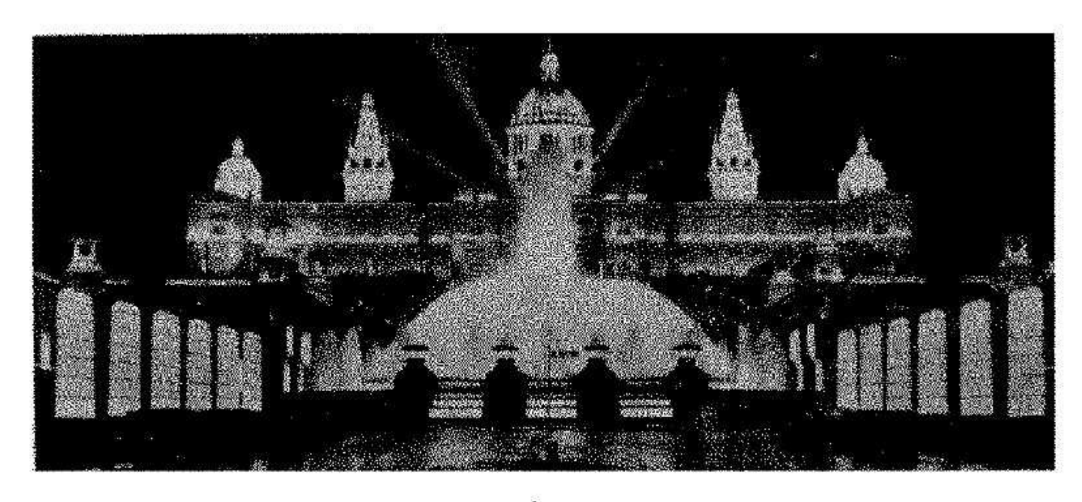


مرسى ميرامار ببرشلونة

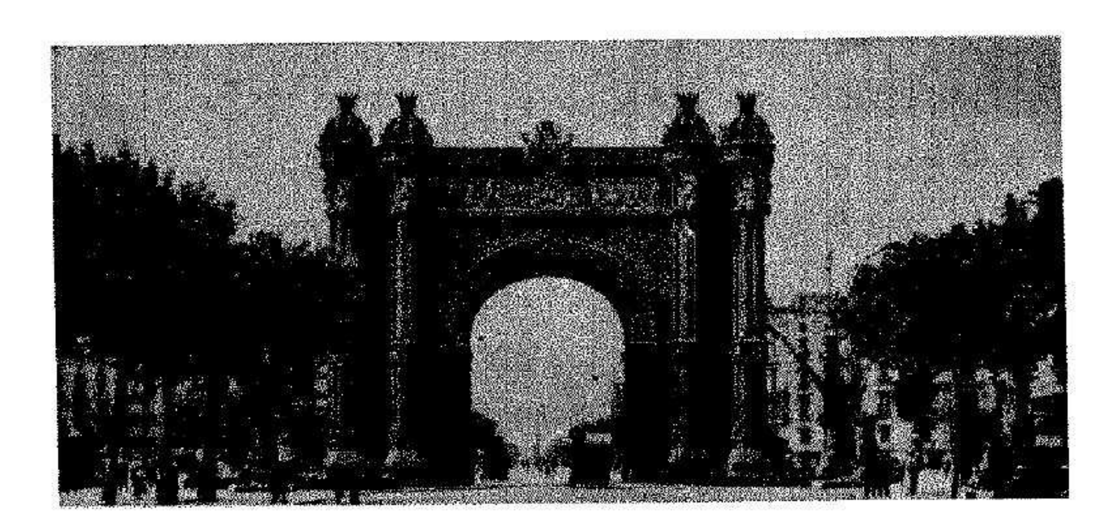
بناء المدينة القديمة على القمة التي فيها اليوم الكنيسة الكبرى . و يوجد من آثار سورها وأبوابها بين الكنيسة المذكورة وساحة « انجل » وساحة « ريغومير » وشارع « آڤينو » وكان استيلاء القوط عليها فى أوائل القرن الخامس للمسيح . واستولى عليها العرب سنة ٧١٣ . ثم استرجعها لويس الحليم ملك فرنسة سنة ٨٠١ ومع انها كانت فى زمن العرب مدينة عظيمة فلم أعثر إلى الآن على أسماء علماء ينتسبون إليها . مع اننا عثرنا على أسماء رجال من أهل العلم ينتسبون إلى مدن وقصاب . بل إلى قرى ليست شيئاً بالنسبة إلى برشلونة . أما فى دور الكتلان فقد نبغ فيها مشاهير فى كل فن .

جيرونة أو جيرُوندة Gérona

هذه هى مركز إحدى المقاطعات الأربع ، وهى اليوم مدينة صغيرة ، سكانها بضعة عشر ألف نسمة ، ولها تاريخ قديم ، وفيها أبراج قديمة ، عند ما شاهدناها تذكرنا المدن العربية . وكان العرب قد استولوا عليها سنة ٧١٣ ، وكان يقال لها يومئذ جيرُنده ، فسماها العرب بهذا الاسم . وما قيل لها جيرونة إلا فيما بعد . وفى سنة



حديقة مونتجويك ببرشلونة



قوس النصر ببرشلونة



جبل قريب من برشلونة

٧٨٥ ، أي بعد أن بقيت فى أيدى العرب اثنتين وثمانين سنة ، جاءت جيوش شارلمان واستولت عليها ، ولكن لم تبق فى يد الافرنج أكثر من عشر سنوات . إذ عاد العرب واستولوا عليها وعمروها ، و إلى الآن يوجد عرب أصلهم من أهل جيرندة - وفي فاس، حاضرة المغرب ، عائلة يقال لها بنو الجيرُندى . وقد رجعت جيرندة إلى الكتلان . بعد أن استولى عليها الفرنسيس . وكان يقال لقمط برشلونة برنس جيرندة ، نظراً لأهميتها ، وطالما ذكرت فى مغازى العرب . واشهر ما اشتهرت به المقاومة الشديدة التى أبدتها ف وجه الفرنسيس سنة ١٨٠٩ ، فان حامية قليلة العدد ، تطوع لمساعدتها بعض الانجليز ، صدّت جيشاً افرنسيا عدده ٣٥ ألفاً ، مدة سبعة أشهر ، ولم يتمكن الفرنسيس منها إلا بنفاد الذخيرة والميرة . وكان قائد الحامية « مريانو كسترو » قد مرض من شدة الاعياء ومات . وقد بلغت خسائر الفرنسيس على جيرُندة خمسة عشر ألف جندي .

وموقع جيرندة بديع ، يمر بها نهر يقال له « أونيار » Onar . وهذا النهر يجرى إلى نهر آخر اسمه « تر » Ter ومن جيرُندة إلى بار بينيان ، التى هى من ضمن فرنسة نحو من ٦٨ كيلو متراً . والحد الفاصل بين فرنسة واسبانية هو على ٤١ كيلو مترا إلى الجنوب من بار بينيان و يقال له عنق بليوشتر Belluistres وأول بلدة تستقبلك من اسبانية إذا جئتها من فرنسة تسمى بورت بو Port - Bou وهى مرسى على البحر . أهلها ثلاثة آلاف نسمة . والخط الحديدى يخترق هناك عدة انفاق . وكلما أفاض القطار من نفق انفتح أمامه ، بين الجبل من جهة والبحر من جهة أخرى ، مناظر تبقى صورتها فى الخاطر . ثم ان الشرقى يتذكر هناك أنه صار إلى بلاد الشرق . فانه يرى النواعير الدائرة على الحيوانات ، و يشاهد الأشجار والنباتات التى يعهدها فى بلاد الشرق . ومن « بورت بو » يتقدم الخط الحديدى إلى « لانسة » Llansa ، ثم يمر بحصن « كاراما نسو » Caramanso ثم بعبر « بُرتس » Portus الذى يقال إن أنيبال عبر منه فى زحفه إلى رومة سنة ٢١٨ قبل المسيح . ثم يدخل الخط الحديدى فى سهل « امبوردان »

الخصيب و يقطع وادى البريقات الأصفر . ووادى « موقة » Mugo ووادى « مانول » . ووادى « فلوڤية » . ثم يصل إلى بلدة « فيغراس » Figueras . وهى قاعدة ناحية امبوردان . وفيها حصن يقال له « سان فرنندو » ولهذه البلدة مرسى على البحر يقال له « روزاس » Rosas وهذه الناحية عمرها اليونان فى القديم ، وفيها من بقاياهم وآثارهم الشىء الكثير .

ثم من امبوردان إلى جيرندة يمر القطار فى بلدة « فيلاملاّ » Vilamalla وفيها برج قديم . و بعدها يمر ببلدة كاماليرا Camallera وهناك يقطع الخط نهر تير . و يمر ببلدة « ساريّة » Sarria حتى يصل إلى جيرندة . وفى جيرندة كنائس عظيمة كما فى سائر مدن اسبانية ، والكنيسة الجامعة مبنية فى مكان المسجد الجامع الذى كان فى الأصل كنيسة . فلما أجلوا العرب عن جيرندة سنة ١٠٣٨ أعادوا الجامع كنيسة ولكنهم لبثوا يبنون ، يزيدون و يزينون فيها مدة قرون متطاولة . وعدا هذه الكنيسة يوجد بيعة أخرى قديمة من القرن الرابع عشر يقال لها « سان فليو » Feleu وكنيسة غيرها اسمها « سان بتروه غلّيكان » Galligans لها دير فيه متحف يشتمل على بقايا فينيقية و يونانية ، و بين سان فليو وسان بتروه يوجد دير الكبوشيين فيه مسجد عربى قديم مثمن الشكل . وعلى مسافة ٥٠ كيلو متراً من جيرندة ، توجد بلدة يقال لها « اولوت » Olot و بلدة أخرى يقال لها « كستلفوليت » Castellfullit وهما مركز ناحية كلها براكين نيرانية منطفئة ، واقعة بين نهرى تر ، وفلوڤية . والذى يرجحه علماء الجيولوجية ان هذه الأطائم [1] قد انطفأت من عهد متوغل فى القدم ، غير انه لايزال فى تلك الأرض انبعاث روائح بركانية . وفى القرن الخامس عشر حصلت اضطرابات فى تلك الارض كما انه فى ٦ مايو سنة ١٩٠٢ حصلت رجفة قوية فى بلدة أولوت ، فى الوقت الذى حصل مثلها فى مدينة مُرسية .

---

(١) جمع أطيمة وهى فى اللغة موقد النار و بعض الناس يظنون أن البركان الذى فى صقلية واسمه « اتنة » Etna هو محرف عن أطيمة أو عن حطمة وهى الشديدة النيران وذلك لأن العرب سكنوا صقلية ثلاثة إلى أربعة قرون وتركوا فيها ألفاظاً كثيرة .

و يوجد فوهات يقال لها هناك بوفادورس Bufadors يضطر الأهالى إلى سدها ، لأنه فى فصل الصيف يخرج منها ريح بارد جاف مستكره جداً . ولما جرت زلزلة أولوت سنة ١٩٠٢ وجدت الفوهة التى فى « غار ينادا » بقرب أولوت مفتوحة ، لأن الحركة الداخلية كانت شديدة بحيث انها أسقطت تلك السدود . و يقال انه فى مقاطعة جيرندة مساحة الأراضى البركانية ١٩٦٨٦٠ كيلو مترا مربعاً ، وهناك عدة فوهات بركانية معروفة بأسمائها ، و بعض البراكين ، مثل بركان غار ينادا ، له وحده ثلاث فوّهات ، كما أن بركان «بيزاروكاس» Bisarocas له فوهتان ، و بركان «ادرى» Adri له أربع فوهات

ومما يذكر من آثار هذه البراكين التى فى أرض جيرنده أن رماد بعضها يمتد على مسافة ١٥ كيلو متراً من الفوهة التى قذفت به . وتكثر في تلك الأرض المياه المعدنية ، فتجد حمامات كثيرة ، منها حمام « فارنس » Farnes ومنها «بانيولاس» Banyolas وماؤه بارد ، وبالقرب منه بحيرة لطيفة ، فتقصد الناس إليه فى أيام الصيف . وهذه البحيرة طولها ألفا متر ، وعرضها سمائة ، وعمقها قد يبلغ ٥٣ متراً

ومن المدن المعروفة فى تلك المقاطعة مدينة « ڤيك » Vich وهى بلدة قديمة ، فيها متحف أثرى يستحق النظر . ثم مدينة « ريبول » Ripoll وهى بحذاء الجبال فى أعلى وادى « تر » ، كان فيها قديماً مراكز رهبانية عظيمة ، ولذلك تجد فيها آثار الأديار الكثيرة التى أخنت عليها الحروب

وأبدع شىء فى كتلونية هو الساحل ، فانه عليه قرى زاهية ، لها محارث وزرائع متقنة ، و بعضها مساكن لصيادى السمك ، وعلى سيف البحر تكثر الأبراج ، التى كانت فى القديم محارس يتقون بها غارات أهل أفريقية فمن هذه القرى الساحلية « بادالونة » Badalona وهى بلدة رومانية قديمة . و «أوكاتا» Ocata وفيها برجان قديمان، و«مطارو» Mataro وهى بلدة صناعية فيها ميناء معمور ، وكالديتاس Caldetas وفيها حمامات سخنه وآرنيس البحر Arenis ، ولها موقع بديع ، وكانيت البحر Canet

وهى بلدة صغيرة ، ذات صناعة ، وزراعة، وملاحة ، وصيد سمك ، وسان فليو Feleu ولها مرسى ، وتحيط بها بساتين البرتقال ، وفيها كثير من شجر البلوط . و بالاموس Palamos ولها فرضة بحرية لطيفة ، إلا أنها مفتوحة كثيراً للريح الشرقية . وأما روزاس Rosas ، وقد تقدم ذكرها ، فهى مرسى عظيم مستدير ، ترفأ إليه أكبر السفن ، إلا أنه مفتوح للرياح الشرقية والجنوبية وهذه البلدة قد ورثت مرسى أمبورياس الذى كان فى الأعصر الغابرة أعظم مرسى فى شرقى الجزيرة الايبيرية ، ومنه أبحر أنيبال القرطاجنى إلى إيطالية غازيا ، وكذلك أبحر سيبيون الرومانى قاصداً إلى أفريقية وكانت لأمبورياس أسوار هائلة ، تداعت كلها ، ولم يبق هناك إلا قرية حقيرة . ثم «سربيره» Cerbera ، و بنيولس Banyuls، و«بورڤندر» Port - Vendres و « كوليارا » ، وكلها محاطة بالزياتين

تابع للوثائق التاريخية

التى تقدم لنا نقلها فى أثناء البحث عن مملكة كتلونية

سبق لنا نشر عدة مراسلات سلطانية من ملوك بنى الأحمر أصحاب غرناطة ، إلى ملوك أراغون وكتلونية ، وقد أخذنا هذه الكتب السلطانية عن مجموعة وثائق تقدمت هدية من بعض الهيئات الرسمية ببرشلونة عام ١٩٢٩ ، إلى الشهم الهمام ، فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونة ، تغمده الله برحمته ، فلما علم أخوه الفاضل الحاج محمد العربى بنونة ، حفظه الله ، اشتغالنا بهذا الكتاب فى أخبار الأندلس ، استنسخ لنا من هذه المجموعة عدة كتب ، وأهدانا إياها ، وكتب إلينا فى هذا الصدد مايلى :

هذه مجموعة محتوية على تسعين ورقة فوتوغرافية سلبية ، بعضها فيه معاهدات و بعضها فيه صور الكتابة التى على ظروفها ، و بعضها فيه رسائل دارت بين ملوك بنى الأحمر وملوك أراغون ، والبعض الآخر بين هؤلاء و بين بنى مرين ملوك المغرب[1]

---

(١) لا عجب من وجود هذه الكتب الصادرة من سلاطين غرناطة إلى ملوك

وقد أكلت أصلها الأرَضة ، إلى درجة يصعب معها استخراج كل ما فيها من الكتابات ، وأنا لما كنت ألقى عليها نظرة سطحية ، كان يتراءى لى سهولة نسخها ، ولكن عند ما جئت أنفذ الفكرة ، وجدت الأمر غير ما ظننته ، و بالرغم من ذلك فقد أمكننا استنساخ بعضها ، وما زلت أقلّبها علّى أستطيع استخراج غير الصور الواصلة ولاسيا من القسم الخاص بالأندلس ، لما فيه من المعاهدات ، وأسماء السفراء ، وتسوية الحدود ، وغير ذلك مما له فائدة تاريخية .

أما قسم المغرب ، وهو أكثر المجموعة ، فغالبه رسائل ودادية ، لاتخرج عن كونها تنبئنا بأن العلاقات بين ملوك أراغون وملوك بنى مرين كانت حسنة (إلى أن قال) : ولم يقدموا المجموعة للمرحوم أخى كاملة ، لأن أرقامها غير مرتبة . ولست أدرى هل ذلك مقصود منهم ، أم من باب المصادفة ؟ أقول هذا لأنى أذكر أنى رأيت عدة ظهائر موجودة بهذه المجموعة عند المرحوم محمد بن الحسن ساسى ، أحد الغواة بجمع الآثار بمدينة سلا ، وأذكر انها كانت واضحة الكتابة أكثر من هذه ، و بها تعديد مثالب بعض الأمراء الاسبانيين رأيتها سنة ١٣٤٨ ، فى آخر مرة زرت فيها المنطقة السلطانية ، أى قبل صدور الظهير البربرى الذى منع دخولنا إلى تلك المنطقة ثم توفى ساسى إلي رحمة الله ، ولست أدرى ماصنع الله بمجموعته » اهـ .

***

كتاب من الأمير عبد الله محمد بن الأحمر ، إلى سلطان أراغون ، كُنْد برجلونة:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ليعلم كل من يقف على هذا الكتاب ، أنا الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين

أراغون أقاط برشلونة ، وذلك فى مجموعة وجدت فى إحدى خزائن الكتب فى برشلونة كما انه لا يعجب أيضا من اشتمال هذه المجموعة على كتب صادرة عن سلاطين أراغون الى سلاطين المغرب ، فقد كان بين الفريقين من علاقات الجوار ما يقتضى استمرار المراسلات .

أبى عبد الله بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، وما إليها، وأمير المسلمين. ننعّم[1]
لـكم أيها السلطان المعظم، دون جايّم، ملك أراغون و بلنسية، ومرسية، وكند[2]
بُرْجَلُونة، بأن نكون لـكم صاحباً وفياً، ويكون بيننا و بينكم صلح ثابت، وصحبة
صادقة يكون فيها أصحابكم أصحابنا، وأعداؤكم، أهل قشتالة، أعداءنا، ونرفع الضرر
والفساد عن بلادكم وأرضكم، من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلا لأحد من ناسنا،
لا فى البر ولا فى البحر عليكم، وان اتفق أن صدر لأحد أو لموضع من ناسكم و بلادكم
ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا، فنحن ننصف منه بالحق الواجب، على أن
تكونوا أنتم لنا كذلك، صاحباً وفياً، كما ذكرتم فى كتابكم، وتلتزموا لنا صحبة
صادقة، وصلحاً ثابتاً، وتصاحبوا كل صاحب لنا، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين
أو من أهل قشتالة، وترفعوا الضرر والفساد عن بلادنا كلها، وعن ناسنا فى البر
والبحر، و إن اتفق أن يرجع إلى طاعتنا بلد من بلاد العدوة، أو ناس من أهلها
فيكون حكمهم فى ذلك كحكم سائر بلادنا الاندلسية، ومتى صدر عن أحد من ناسكم
أو من أهل بلادكم، ضرر لأحد من ناسنا أو من أهل بلادنا الاندلسية، أو التى
تكون من بر العدوة، فعليكم أن تنصفوا منه فى الوقت والحين، كما ذكرتم فى كتابكم
وكذلك ننعم لـكم بأن يصل إلى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من
بلادكم، بما شاءوا من أنواع التجارات، و يسرّح لهم ما أرادوا من ذلك، و يكونوا
مؤمّنين فى نفسهم وأموالهم، على أن ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة، و ينصفوا
من حقوقهم الواجبة لهم فى الدواوين على العادة، وعلى أن يكون أيضاً كل من
يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمّنين فى نفوسهم وأموالهم، و يسرّح لهم
فى بلادكم ما شاءوا من أنواع المتاجر، و ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة، من

---

(١) نعم له: قال له: نعم

(٢) فى الكتب التى تواريخها بعد تواريخ هذا يستعمل سلاطين غرناطة لفظة «القمط» لا «الكند» وكلتاهما ترجمة Comte

غير إحداث زيادة ، وينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم ، كما ذكرتم فى كتابكم ، وكذلك ننعّم لكم أن نعينكم على أهل قشتالة فى نفاقهم معكم ، و إن اتفق أن يجىء لكم إلى مرسية صاحب قشتالة الآن ، أو مقدرنه (كذا) فنعينكم بما نقدر عليه فى ذلك الوقت ، ولا نعمل معهم صلحاً ولامهادنة ، إلا برأيكم ، وفى منفعتنا ومنفعتكم وعلى أن تلتزموا أنتم بما نلتزمه نحن من النفاق [1] عليهم وشنّ الغارات على أرضهم كلها ، ولا تعملوا معهم صلحاً ولا مهادنة إلا برأينا ، وفى منفعتكم ومنفعتنا ، حتى تكون الحال واحدة فى النفاق والاتفاق ، وعلى أن تعينونا أنتم عليهم ، متى احتجنا إلى إعانتكم بما تقدرون عليه ، كما ذكرتم فى كتابكم ، وكذلك ننعّم لكم انه إن احتجتم إلى إعانتنا فى أرض مرسية بفرسان من عندنا أن نعينكم بهم ، على أن يُضمّوا فى بلادكم (جملة أكلتها الأرضة) يعطوا المأكول والنفقة . من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها ، وتأمروا بأن تغرم لهم الدواب التى تموت لهم فى خدمتكم ، من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها ، وكذلك ننعم لكم أنه إن (جملة أكلتها الأرضة) مرسية أن نرده فى الحين لكم ، و إن كان من غيرها من بلاد قشتالة ، لا اعتراض لكم فيه . وكل موضع يرجع لكم أنتم من رئاسة قشتالة ، فلا اعتراض لنا نحن فيه ، إلا أن يكون من المواضع التى هى لنا وهى طريف (جملة ذهبت بها الأرضة) وقشتال فان اتفق أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها اليكم فعليكم أن تردوها لنا فى الحين ، من غير تطويل ولا مطلب ، و إن اتفق أيضاً أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها إلى طاعة السلطان دون الفونش وأخيه الافَنْت [2] دون فِراندَةِ ، أن تقفوا معنا فى تكميل الشروط التى بيننا و بينهما ، بشهادتكم عليهما وضمانكم فى ردها إلينا فى الحين والوقت من غير تطويل ولا مطالب ، وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا ، فى البر

(١) يستعمل النفاق بمعنى الخلاف

(٢) l'infante وهو عند الاسبان الولد الثانى من أولاد الملوك

والبحر ، و إن دخل أحد منهم إليها يكون حكمه حكم الأعداء الذين يكون معهم ، وأن يكون هذا كله ثابتاً ، وتكونوا أنتم منه على يقين . أمرنا بكتب هذا الكتاب ، وجعلنا عليه خط يدنا ، وطابعنا . فى آخر ربيع الآخر عام أحد وسبعمائة .

وكتب فى التاريخ اه .

وقد كتب إلينا الأديب الفاضل الحاج العربى بنونة فى ذيل نسخةهذا الكتاب الملاحظات الآتية :

١ — الالفاظ التى نشكلها فى هذه الرسالة هي مشكولة فى الأصل ، فأنا أنقلها لكم من غير تصرف حتى تعلموا كيف كان ينطق بها أهل ذلك العصر .

٢ — سطور هذه الرسالة أفقية تامة الاستواء .

٣ — نوع خطها من الشكل المصطلح على تسميته بالجوهر ، وهو خط مغربى مراكشي .

٤ — ينقط الكاتب الفاء بواحدة من أسفل ، والقاف بواحدة من فوق ، على القاعدة المغربية الجارية .

٥ — البياض الذى ترونه فى هذه النسخة هوالمحل الذى أتلفته الأرضة أو محاه قدم العهد وأنا أنقل إليكم الصورة من دون زيادة ولا نقص.

٦ — الكتاب من ناحية فن الخط آية فى الابداع مشكول كله ، ونجده فى المواضع التى نستعمل فيها نحن الفاصلة (،) أو علامة الانتهاء (.) يخالف قليلا البعد المناسب ، وعوضاً عن أن ينزل الكاتب إلى السطر الثانى فىابتداء الكلام ، كما هى العادة فى هذا العصر ، يكتفى بكتب الحرف الاول كبيراً يتبعه بجرة فى السطر طويلة جداً تنبيهاً للقارىء .

٧ — السلطان محمد هذا صاحب هذه المعاهدة هو محمد المخلوع بن محمد الفقيه بلا شك ولا ريب .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان المعظم الملك المرفع ، الأوفى المكرم المبرور المشكور الأخلص ، ذون[١] جاقمى ، ملك أراغون و بَلَنْسِيَة وسَرْدَانية ، وقُرْسِقَة ، وقُمط بُرجُلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاق ومذاهبه وحافظ عهده عملا بواجبه ، الامير عبد الله اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد فانّا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من هدايته أوضحها ، ومن عنايته المرشدة أسعدها وأنجحها من حمراء غرناطة ، كلأها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وعهدكم بالوفاء محفوظ ، وقصدكم فى الصحبة مشكور ، ومنصبكم فى ملوك النصرانية معلوم مشهور ، وقد وصلنا كتابكم المكرم صحبة رسولكم إلينا ، شِمُنْ دى طُوبينَة ، وصحبة راجلنا أبى على حسن الفرّان ، ووصل العقد الذى عقدتم على نفسكم وأرضكم ، بالصلح الذى يكون فيه الخير لنا ولكم إن شاء الله ، وقفنا على ذلك العقد ، وحضر رسولكم به بين يدينا وأمضينا حكم الصلح ، وكتبنا نظير ذلك العقد ، ووجهناه إليكم ، وألقى إلينا الواصلان المذكوران من قِبلكم ، ما عندكم من الاغتباط بصحبتنا ، والعزم على الوفاء بما عاهدتمونا عليه ، والمقاصد الحسنة التى تليق بمثلكم من الملوك الأوفياء ، فشكرنا ذلك لكم أكمل الشكر ، وإذا اغتبطتم بصحبتنا ، وجريتم على منهاج الوفاء فى حفظ عهدنا ، فعندنا من الاغتباط بصحبتكم والحفظ لعهدكم ، ما يقتضيه حسن قصدكم ، فثقوا منا بذلك أكمل الثقة ، وكونوا منه على يقين ، وسبيل مبين ، والله يقضى الخير

---

(١) الاصل فى الاسبانيولى هو « دون » بالدال المهملة Don وربما وضعوا لها النقطة فراراً من لفظة دون التى هى فى العربى غير جائزة هنا واليوم نجد العرب فى المغرب يكتبونها بالضاد فيقولون « ضون » فراراً من المحذور نفسه .

لنا ولكم ، وهو سبحانه يصل إعزازكم بتقواه ، ويحملكم على ما يحبه ويرضاه ، ويوالى لكم أسباب عنايته ، ويوضح لكم طريق هدايته ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الثاني عام أحد وعشرين وسبعمائة ، عرّف الله خيره وبركته بمنه وفضله . اهـ صح هذا

* * *

كتب إلينا الأخ بنونة فى ذيل نسخة هذه الرسالة ما يلى :

١ — هذه الرسالة لم تعتد عليها الأرضة فهى واضحة جداً .

٢ — خطها من النوع المسند الظاهر وكلها مشكولة .

٣ — طريقة كتابتها فنية جميلة تبين لنا أسلوب الاندلسيين فى تدبيج الرسائل فى ذلك العصر ، فترى السطر يبدأ مستوياً طويلا ، ثم ينتهى بالتواء طفيف لأعلى ويبدأ السطر الثانى أقصر من الاول ، والثالث أقصر من الثانى ، وهكذا حتى ينتهى الجميع فى زاوية مربع ، أو مستطيل الورقة السفلى . وكل سطر ينتهى بذلك الالتواء الجميل . فاذا وصل الكاتب إلى أسفل الورقة ، نكّسها وبدأ الكتابة عكسية ، من أسفل لأعلى ، على الصورة نفسها . فيبدو الكتاب آية فى الفن قد احتوى مثلثين متضادين مختلفى الاضلاع ، وبسبب ذلك يأتى إمضاء الملك عقب التاريخ فى آخر الرسالة ، ولكنه فى أعلاه بحسب الوضع ، وهى طريقة أنسب وأدق ذوقاً من جعل الامضاء قبل الرسالة ، كما ترون فى رسائل بعض الملوك .

٤ — رقم هذه الرسالة فى المجموعة الاسبانية ١٣ ، بينما ترى تاريخها مقدماً على تاريخ الرسالة رقم ١١ . وهذا لا شك آت من سوء الترتيب .

٥ — اسم الملك المرسل اليه الكتاب نراه مختلف الصورة ، ففى بعض الرسائل جايم ، وفى بعضها جقمى ، وفى أخرى جاقمى . وأنتم تكتبونه « جقوم » (يريد اننا كتبناه كذلك فى مختصر تاريخ اسبانية ذيلا على آخر بنى سراج) والمراد بالجميع الملك خايمى Jaime . وكذلك نرى مثل هذا الاختلاف فى لفظ كُنْدِى Conde

فنجده فى بعض الرسائل قطاً ، وفى بعضها كنداً ، ومثل ذلك بعض الاعلام مما سيمر بكم كبُرجُلونة ، وقُرسغة ، بالقاف والغين وغيرهما ، والكل مشكول ، ظاهر الخط ، مما يجعلنا نتعرف النطق به تماما ، خصوصاً وأن هذه الوثائق التى ننتسخها خطية مكتوبة فى ذلك العصر ، ومشكولة وصادرة عن ديوان هو أحق من يتعرف الأسماء فى عصره .

* * *

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم المعظم ، الأوفى المشكور المبرور ، الشهير الأودّ ذون جقمى ، ملك أرغون و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة وقمط برجلونة ، وصاحب هَنْجَليرة [١] ، أعزه الله بطاعته ، ويسّر له أسباب رضاه وكرامته . حافظ عهده ، وشاكر مذهبه فى الوفاء وقصده ، ومكرم جانبه ، ثقة بخلوص ودّه ، الامير عبد الله اسماعيل بن فرج بن نصر ، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الجزيل ، والصنع الجميل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مرفع مبرور ، وقصدكم فى السلاطين الجلّة الأوفياء قصد مشكور ، وقد وصلتنا كتبكم المبرورة ، على يدى النصرى الذين وجهتم ، وأنتم تقررون فيها حفظكم لعهدنا ، وثباتكم على صلحنا ، وتوفيتكم لما عقدنا معكم ، وذلك هو الذى يليق بكم ، ونحن لكم على مثل ذلك ، من الوقوف على العهد ، والحفظ للصلح ، فكونوا من ذلك على يقين ، وعرّفتم بما لكم من المطالب عندنا ، فمنها ما طلبتموه منا على وجه الكرامة لجانبكم ، وقضاء حاجتكم فنحن قد وفيناه على حسبما أردتم ، إكراماً لكم ، وتوفية لقصدكم ، على ما يقتضيه اعتقادنا فيكم ، وقصدنا فى قضاء أغراضكم ، وعند وصول كتبكم أمرنا بسراح النصرى ، الذين طلبتموهم على هذا الوجه ، وهم برتلمين مرتين ، الذى كان قديماً فى

(١) كذا ولم نعرف المراد بهذا الاسم حتى الآن .

ملكنا ، وهو يصلكم مع هذا الكتاب ، والصبى الذى أُخذ فى الأبَرْكة ، التى أقلعت من اشبيلية ، مع أن أهل اشبيلية قد كانوا طلبوه ، وزعموا أنه أُخذ فى صلحهم فما أسمعنا لهم فيه قصداً ، لأجل الشكايات التى لنا قبلهم ، ولكن لما وصل كتابكم فى شأنه ، أنعمنا بسراحه ، وهو يصلكم مع هذا الكتاب ، وأما جيله التى عرّفتم انها أُخذت بقرية البسيط ، فقد أمرنا أن يبالغ فى البحث عنها وعن ولدها ، فما وُجد لهما خبر ، ولكن البحث عنهما متصل ، وعسى أن يوجدا و يوجّها إليكم ، وكذلك كان ولدكم الافانت ألرمون برنفيل ، قد طلب أن يسرح له نصرانى قديم الأسر عندنا اسمه برنفيل أرنَوه ، فأنعمنا به ، وسرحناه ، وهو يصلكم أيضاً ، ووفينا قصدكم فى ذلك كله لمكان محبتكم لنا ، وصدق مصادقتكم ، وكذلك مَرْكَهْ من الكرمن ، لما وصل كتابكم فى شأنه أنعمنا به ، وأمرنا أن نحمله ارسالكم لكنه كان بحال مرض اشتد عليه فمات ، وأما المطالب التى طلبتموها منا على غير هذا الوجه فما أُخذ لكم فى الصلح فتعلمون أنتم أيها السلطان ان لنا بأرضكم حقوقا كثيرة ، ومطالب عدة ، وقد كتبنا بها إليكم ، ووجهنا مرة بعد مرة ، ووعدتم بخلاصها ، والانصاف منها ، فنحن ننتظر وصول المسلمين ، وخلاص الشكايات ، فاذا وصلوا ، فنحن نسرّح لكم من عندنا فى مقابلتهم ، فما عندنا إلا الحفظ لعهدكم ، وتوكيد الصحبة معكم ، وعرّفتم ان ابن جُندى أخذ ناساً من بلادكم ، و باعهم ببجاية وهذا الشخص ليس من أرضنا ، ولا خدم بالأندلس قط ، فلو انه كان من أهل الأندلس لعملنا الواجب فى أمره ، ولعاقبناه أشد العقاب حفظاً لعهدنا كما هو الواجب والله يصل عزتكم بتقواه و يحملكم على ما فيه رضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى التاسع والعشرين لذى الحجة عام أربعة وعشرين وسبعمائة . صح هذا

ثم كتب فى أسفل الورقة العنوان كما يأتى :

السلطان الأجل ، المرّفع الأوفى المشكور المبرور ، المعظم الشهير الأوّد الأخلص ملك أرغونْ ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط بُرجُلونة ، وصاحب هنجلير ،

ذون جقمي ، أعزّه الله بطاعته ، و يسّر له أسباب رضاه وكرامته ، بمنه

وفى نفس هذا العنوان يظهر أثر الطابع المستدير الذى لم يبق منه إلا علامة الاستدارة

ثم ذكر لنا الأخ بنونه أن نوع الخط فى هذه الرسالة بين المبسوط والجوهر العادى وأن الأسطر غير مستقيمة ، وغير متساوية ، ثم قال : ورد فى الرسالة لفظ الأبركة ، وهى على ما يظهر جمع « بركو » Barco ، بمعنى المركب ، مما يدلنا على أنهم كانوا يستعملون بعض الألفاظ الأسبانية فى لغتهم الكتابية . ومثلها لفظة «الإفانت» بمعنى الأمير . وتدل هذه الرسالة وغيرها على أن مسلمى الأندلس كانوا يقرأون القرآن برواية ورش كالمغاربة ، بل كانوا يكتبون حسب قواعد المصحف كثيراً من الألفاظ ، مثل النصرى فيحذفون الألف من الخط ، و يثبتونها فوق السطر ، وكذلك الآخر والأرض ، و يحذفون منهما الهمزة ، و يشكلون اللام بالفتحة ، وغير ذلك كثير

رقم الرسالة ٢٣ ، ولكن يوجد رقم آخر داخل الورقة الأصلية ٧٧ ، مما يدل على أنها كانت مدرجة فى مجموعة أولى ثم أتلفت هذه المجموعة فرتبت ثانية ، فنزل العدد إلى ٢٣ ، أو كان رقم ٧٧ راسما لها فى خزانة الملك ذون جقمى . أما ظرف الرسالة فهو منها ، إذ يظهر أثر الطى فى الصورة وفيها كتب العنوان .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ليعلم من يقف على هذا الكتاب و يسمعه ، أننا الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ورندة ، والجزيرة ، وأمير المسلمين لما وصلنا من قبلكم ، أيها السلطان المعظم ، الملك المرفع ، الأوفى المكرم ، المبرور المشكور ، الأخلص ذون جقيمى ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقُمط بُرجُلونه ، رسولكم إلينا الفارس المكرم ، شمون دى طُبنية ، بالعقد الذى عليه طابعكم ، المعهود عنكم ، الذى عقدتموه على نفسكم ، بأنكم قد ثبّتم معنا صحبة خالصة،

ومصادقة صادقة ، جددتم بها ما كان بينكم و بين أسلافنا ، رضى الله عنهم ، وعقدتم معنا صلحاً صحيحاً صريحاً ، مبنياً على الصفاء والوفاء ، أمضيتموه على نفسكم ، وعلى جميع أهل أرضكم ، من نصف شهر مايه ، الموافق للتاريخ إلى انقضاء خمسة أعوام ، وظهر لنا منكم من الاغتباط بصحبتنا ، ما أكد عندنا إجابتكم إلى هذا القصد ، أنعمنا بموافقتكم ومصالحتكم ، وأعطينا كم هذا المكتوب بأننا عقدنا معكم الصلح على نفسنا ، وعلى جميع أهل أرض المسلمين ، ببلاد الأندلس كلها ، لانقضاء خمسة الأعوام المذكورة ، صلحا ثابتا ، محفوظ العهد ، مؤكد العقد ، وأمضينا معكم هذا الصلح إمضاء صحيحاً ، لا يتعقب حكمه ، ولا يتغير رسمه ، تأمن به أرض المسلمين ببلاد الأندلس وأرضكم أماناً تاماً عاماً ، و يتكف عنها الضرر من الجانبين ، بطول مدة الصلح ، براً و بحراً ، سراً وجهراً ، فلا يلحق أرضكم ولا ناسكم ولا أجفانكم ضرر من جهتنا بوجه ، ولا على حال ، كما أنه لا يلحق ناسنا ، ولا جميع أرض المسلمين بالأندلس ، ولا أجفاننا ضرر من جهتكم ، ولا شىء يقدح فى الوفاء ، وعلى شروط تتفسّر ، فمنها أن يتردد كل من يريد التجارة من أهل بلادنا إلى بلادكم ، آمنين فى البر والبحر ، فى النفوس والأموال وجميع الأحوال ، وأن يباح لهم بيع ما يريدون بيعه ، وشراء ما يريدون شراءه ، و إخراج ما يشترونه إلى بلادنا ، وذلك على العموم فى جميع الأشياء كلها الا الخيل والسلاح ، لا يستثنى غيرهما ، لا طعام ولا بغال ، ولا سائر الدواب ، ولا غير ذلك ، ولا يزاد على أحد منهم فى سوم شىء يشترونه ، بل يباع منهم بسومه بذلك الوضع ، ولا يزاد عليهم فى مغرم مخزنى على ماجرت به العوائد بينكم و بين أسلافنا ، ومثل ذلك يكون العمل مع من يتردد . . . إلى بلادنا من أهل بلادكم . وعلينا وعليكم حفظ هؤلاء المترددين وحراستهم حيث حلّوا ، ومنها أن تعادوا من يعادينا من أهل بلاد المسلمين . . . أحداً منهم ، ولا تضمّوه ، ولا تعينوا علينا عدواً كان من كان ، وعلينا أن نعادى من يعاديكم من أهل أرضكم ، ولا نضمه ، ولا نقبله ، ولا نعين عليكم عدواً لكم ، كان من كان؛ ومنها

أن تكون أجفاننا آمنة من أجفانكم ، وناسكم لا . . . . منهم ضرر ،
سواء كان فيها أهل بلادنا أو غيرهم ، من المسلمين أو النصارى ، فلا يتعرض لهم من
جهتكم بوجه ، وكذلك جميع مراسى بلادنا وسواحلها تكون آمنة من أجفانكم وناسكم
سواء كان فى مراسينا وسواحلنا عدو لكم أو صديق ، لا يتعرض من جهتكم لمرسى
من مراسينا ، ولا لساحل من سواحلنا ، و إن استوليتم على جفن من غير أجفان أهل
بلادنا ، أو استوليتم فى البحر على طائفة من المسلمين ، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا ،
فتسرّحون من أخذتم من أهل أرض المسلمين ببلاد الأندلس بأموالهم في الحين ،
ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا . ومنها أن لا تمنعوا من أراد الخروج إلى
أرض المسلمين من المدجّنين الساكنين بأرضكم بأهلهم وأولادهم ، وأن يباح لهم
الوصول إلى أرضنا آمنين ، مرفوعاً عنهم الاعتراض ، من غير شيء يلزمهم ، إلا
المغرم المعتاد ، على ما جرت به العادة ، من غير زيادة على ذلك . انتهت الشروط ،
وعليها أعطيناكم عهداً صحيحاً ثابتا ، والتزمنا الوفاء به لكم ، ولجميع أهل أرضكم ،
فلا يزال محفوظا إلى أقصى أمده ، ماوفيتم لنا بما ذكر عنكم فى هذا المكتوب ،
ونجعل الله شاهداً بيننا و بينكم ، والله خير الشاهدين . وقد تقيد نظير هذا بالعجمى
فى المكتوب الذى استقر عندنا ، وعليه طابعكم ، ولأن يكون هذا ثابتا ، وتكونوا
منه على يقين ، أمرنا بكتبه ، وجعلنا عليه خط يدنا ، وعلقنا عليه طابعنا ، توثيقا
لحكمه ، وذلك في السابع عشر لربيع الآخر عام أحد وعشرين وسبعمائة ، و بموافقة
السادس عشر من شهر مايُه (صح هذا)

وكتب الأخ بنونه تحت هذا الكتاب الملاحظات التالية :

١ — يستعمل الكاتب لفظة مخزنى نسبة إلى المخزن ، أى الحكومة ، مما يدل
على أن هذا الاستعمال كان معروفا بالأندلس ، كما هو اليوم بالمغرب [1]

---

(١) لنا فى مجلة « المغرب الجديد » الصادرة فى تطاون بحث فى أن هذا الاصطلاح
كان معروفاً فى الاندلس

٢ — خط المعاهدة من النوع المبسوط الظاهر ، وسطورها أفقية تامة الاستواء.

٣ — تأملوا قوله « المدجنين الساكنين بأرضكم» أليس معناه الأهالى المسلمين؟ ثم مما لاشك فيه أنه مترجم عن لفظة « أندخيناس » التى يطلقها اليوم الأسبانيول على الأهالى المغاربة . وأذكر أن الأخ المكى الناصرى كتب عنها فصلا قيما فى مجلة السلام ، أعطى فيه هذه اللفظة حقها ، ولا نستطيع أن نفسّر اللفظة هنا بالمقيمين من دجن بمعنى أقام بالمكان ، لأن لفظة « الساكنين » تفيد ذلك المعنى ، فلاوجه لتفسيرها بها إلا بتكلف . اه

قلنا إن المدجنين هم المسلمون الأندلسيون الذين عند ما غلب النصارى على بلادهم لبثوا تحت حكم هؤلاء ، ولم يختاروا الرحيل إلى بلاد الاسلام ، كما رحل إخوانهم ، وقد سمّوا بالمدجنين من دجن بالمكان بمعنى ألف الاقامة به ، ومنه الحيوان الداجن ، الذى يألف البيوت ، ولا ينفر منها ، كالحيوانات الأخرى الشاردة ، وربما كان الحيوان بريّاً ، فاذا أمسكوه وعوّدوه الدجن فى البيت . انتهى بأن يستأنس ويألف . ووجه المناسبة ظاهر ، وهو أنه عند ما كان يتغلب النصارى على بلاد المسلمين من الأندلس كان أكثر أهلها يشردون نافرين ، ويهاجرون منها إلى بلاد الاسلام ، وقد كان يوجد فيهم من لايتمكن من المهاجرة ، أو من يعزّ عليه فراق وطنه ، فيبقى تحت حكم النصارى ، ويألف الخضوع لهم . فسمى هذا النوع من المسلمين مدجنين من باب التشبيه . وهكذا قرّر المؤرخون والعارفون باشتقاق الالفاظ وجه هذه التسمية

وكان هؤلاء المدجنون ، وإن سكنوا فى الأول تحت حكم النصارى يضطرون فى الآخر إلى الرحيل منها ، نظير الذين سبقوهم من إخوانهم ، وذلك بسبب تفاقم الظلم والاضطهاد عليهم . فسلاطين غرناطة كانوا يتوسطون لدى سلاطين الأسبان حتى يسمحوا للمدجنين بالخروج إلى بلاد الاسلام ، وبأخذ أموالهم معهم ، وسبب هذا التوسط هو أن سلاطين النصارى لم يكونوا يسمحون دائما بهجرة المدجنين ، وذلك لأن المدجنين كانوا يعملون فى أراضى النصارى ، وكانوا أهل جد ونشاط ،

وعلم بأصول الزراعة ، وكانوا إذا خرجوا ماتت المزارع من بعدهم ، وحرم النصارى خيراتها الدارّة . فطالما منع ملوك النصارى خروج المدجنين بهذا السبب ، وكانوا إذا أراد بعضهم الخروج لا يسمحون لهم بأخذ أموالهم معهم ، وذلك حتى يبقوا فى أرضهم فيعمروها ، ولكن بعد سقوط غرناطة ، وإكراه النصارى للمدجنين على ترك دينهم صار هؤلاء يثورون فى الأحايين ، وتقع الوقائع ، وكانوا يستصرخون إخوانهم مسلمى المغرب الأقصى والأوسط ، وأتراك الجزائر ، فكانت ترد إليهم نجدات ، و يتسرّب سلاح ، و يقاتلون و يستبسلون . فرأى ملوك النصارى أخيراً أن لانهاية لثورات هؤلاء

وفى الآخر أحسّوا بأن المدجنين صاروا يستصرخون سلاطين آل عثمان ، وكانت الدولة العثمانية حينئذ فى إبّان قوتها فخاف ملوك أسبانية من تعرّض الاسطول العثمانى لسواحل أسبانية ، و إثارة المدجنين ، و إنزال عساكر تقاتل معهم . فأجمعوا طرد جميع المدجنين من جميع أسبانية ، وأنفذوا هذا القرار بالرغم من احتجاج الكثيرين من نبلاء الأسبانيول ، وأصحاب الأملاك فيهم ، ممن كانوا يقولون إن خروج المدجنين من البلاد سيجعلها خراباً

وقد كان المدجنون عند ما استولى النصارى على شمالى الأندلس وشرقيها ينزح منهم الكثيرون إلى مملكة غرناطة ، حتى إن هذه المملكة امتلأت بالسكان ، بسبب توارد المدجنين عليها من مرسية ، و بلنسية وجيّان ، وقرطبه ، واشبيلية ، فضلا عن كان قد سبق رحيله إلى الجنوب من مسلمى سَرَقُسْطة ، ولاردة ، ووشقة وتطيلة ، وقلعة أيوب ، وطليطلة ، ووادى الحجارة ، ومدينة سالم ومجريط ، وغيرها . فسلطان غرناطة عبدالله إسماعيل بن فرج ، يرجو فى هذا الكتاب من الدون جقيمى ملك أراغون ، ألا يضيّق على المسلمين الذين فى مملكته فى منعهم من الهجرة منها

فهذا ما عندنا فى قضية تاريخ المدجنين واشتقاق اسمهم ، ولا نرى شيئا من التعارض بين قول السلطان « المدجنين » وقوله « الساكنين » لأن اسم المدجنين صار أشبه باسم علم يطلق على المسلمين الذين تحت حكم النصارى ، وصار يجوز وصفهم

بالساكنين ، ولا يحتاج ذلك إلى تأويل ، فهو صفة لاسم ، وسنأتي إن شاء الله في آخر هذا الكتاب على أخبار المدجنين في جزء خاص . وقد كان لهم عند الافرنج اسم آخر وهو « الموريسك » ، كما أن الأسبانيول حرفوا لفظة « مدجَّن » إلى « مدجَّر » ولما كان الأسبان يقلبون الجيم خاء صاروا يقولون « مدخَّر » وإلى اليوم يطلقون هذا الاسم على طرز البناء العربي فيقولون طرز قوطي ، وطرز مدخَّر ، كما يعلم كل من له ضراوة بتاريخ الاندلس

***

كتاب إلى الدون جيمى ملك اراغون من السيد عثمان بن ادريس بن عبد الله ابن عبد الحق رئيس جند غرناطة :

بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الملك المعظم الشهير ، الأرفع المشكور ، الأوفى الخطير الكبير ، الأوَدّ الأخلص ، ذون جَيْمى ، صاحب بلنسية ، واراغون ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برشلونة ، أعزه الله بتقواه ، ويسره إلى ما يحبه الرب جل جلاله ويرضاه . شاكر خلوصه وصفائه ، المثنى على ثبوت عهده وصدق وفائه ، عثمان بن ادريس بن عبد الله بن عبد الحق ، وبعد حمد الله رب العالمين ، المنزه عن الصاحبة والولد والشريك والمعين ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق ، وخاتم النبيين ، وعلى جميع أنبياء الله الكرام والمرسلين ، والرضى عن الصحابة الأكرمين ، وعن التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ، فانى كتبته لك أيها الملك المعظم ، من حضرة غرناطة ، حرسها الله ولا جديد بيمن الله إلا ما يجدد إنعامه عز وجل وإحسانه ، والحمد لله ، وجانبك مبجل على الدوام والاتصال ، وواجبك مكمل في كل الأحوال ، والثناء على جميل ولائك ، وصدق وفائك ، مردّد في كل مقام ومقال ، وإلى هذا فان كتابك المرفع وصل الىّ مع رسولك شمون دى طوبينه ، في شأن عقد الصلح بين مولانا السلطان ، أيده الله ونصره ، وبينك ، وقد تخلصت العقود على أكمل وجوه الاختيار ، وحصل

المقصود فى تأمين البلاد والعباد ، وكف الاضرار ، وأنا على شكر وُدّك ، وحفظ عهدك ، حسبما يوجبه الاعتقاد الخالص الاعلان والاسرار ، وقد بلغنى ما وجهت لى من رسولك شمون ، وجددت على ذلك شكر ودادك ، وعلمت صحة خلوصك واعتقادك ، وظنى فيك أيها الملك المعظم ، أن تفعل ذلك ، وغرضى أتحقق أنه ينقضى ما طالت حياتك هنا لك ، فوفاؤك معلوم ، وقصدك فى المودة مفهوم ، وأنت الملك الذى لايساويه أحد من ملوك النصرى شرقاً وغرباً ، ولك الوفاء الذى شُهر عند جميع الناس بعداً وقرباً ، وقد قلت لشمون فى ذلك كلاماً يقرّبه بين يديك ، ويلقيه إن شاء الله إليك ، فصدّق ما يقوله ، فمنده شرح ما عندى وتفصيله ، والله يعزك بتقواه ، وييسرك إلى مايحبه الله ويرضاه ، والسلام يراجع سلامك كثيرا أثيرا ، كتب فى الثامن عشر لشهر ربيع الآخر عام احد وعشرين وسبعمائة . اه

* * *

يقول الحاج محمد العربي بنونه ان هذا الكتاب ، ورقه فى المجموعة ١٤ ، ظاهر الخط واضحه ، وهو من نوع المسند العادى ، وان امضاء الوزير فى وسط الكتاب ، وانه بقلم غير قلم الكاتب ، وفيه لفظ عثمان بدون الف بعد الميم ، وكذلك لفظ النصارى بدون الف بعد الصاد ، وهو يخاطب ملك اراغون بكاف الخطاب المفردة ، بخلاف سلطان غرناطة فانه يخاطبه بالجمع . انتهى

ونحن نقول ان الذى صدر عنه هذا الكتاب هو رئيس الجند المغربى فى سلطنة غرناطة ، وهو الذى قال عنه لسان الدين بن الخطيب فى اللمحة البدرية : الشيخ الهمة[1] ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبوسعيد عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبدالله ابن يعقوب بن عبد الحق ، كان رئيس الجند فى زمن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل ابن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى أمير المسلمين بالاندلس ، المكنى بأبى الوليد

(١) الفارس الذى لايدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه

وانظر إلى ما سبق لنا من الكتابة فى شأن المرابطة بالاندلس ، وذلك فى خلاصة تاريخ الاندلس التى علقناها على رواية « آخر بنى سراج » وهو ما يلى :

الفصل الخامس

فى ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة ، ومواقف الأقران من حماة الأقوام المتبارزة ، وكماة الشعوب المتحاجزة ، ومقامات صدق المجاهدين ، ومظان النخوة الجائشة بالرءوس ، للذب عن العرض والدين . ومنذ ظهرت دولة الاسلام ، بما شرع فيها من الجهاد ، لم تبرح مرابطة الثغور ، ومحافظة الدروب ، و بعوث الصوائف ، من أركان الملة ، وقواعد الدولة ، وأعمدة سرادق الخلافة ، يتنافس فى الوفاء بها ، والقيام عليها ، الأطول يدا ، والأبعد هماً ، والأشد عزمة ، والأنأى فى المجد غاية ، من خلائف الاسلام وسلاطينه ، وأمراء التوحيد وأساطينه ، ممن رفعوا فى تعزيز الملة ، و إجابة داعى الجنة ، شأن الجهاد ، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد ، فان كان للاسلام لواء خافق فوق رءوس بنيه ، فهو بقية ما عقد بأيدى الغزاة والمجاهدين ، و إن كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع ، فهى نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين .

ولما كانت الجزيرة الاندلسية بموقعها من الاتصال ببر العدوة الاوربية . والموازاة لبر العدوة المغربية غير منفصلة عنه إلا ببحر الزقاق ، الذى يتراءى الساحل من ورائه تعد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين وموطن الرباط ، ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين استمر الجهاد فيها نيفاً وثمانمائة سنة ، بين حماة الحنيفية والنصرانية منازعة الارض بالشبر ، فلما كان الاسلام هناك فى عنجهيته ، والعرب تترامى إلى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار ، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج ، واجفلت هذه بين أيديهم ، وانهزمت من أوجههم ، وانتظمت فى أثناء ذلك دولة بنى أمية فى ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة ، وأكمل عزاً ، وأبعد فى العدو مغاراً ، مضت على

الاسلام فى الأندلس ثلاثة قرون ، كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد ، وقامت وحدها فى وجه العدو الذى كان قد انضم بعد التخاذل ، واستمسك بعد الاسترسال ، إلى أن انقرض حبل الخلافة المروانية ، وتشعبت الكلمة ، وصار الأمر إلى ملوك الطوائف فاستأسد الفرنج ، واقتحموا ثغور المسلمين ، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحى فاستصرخ هؤلاء إخوانهم من وراء البحر ، بحسب الانقطاع فى تلك الجزيرة ، فوافاهم مدد المرابطين من بنى لمتونة ، واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب ، فرمى إليه بأفلاذ أكباده من زناتة وصنهاجة وغيرهما ، وأجاز الى الاندلس بجحافله ، فرد عادية النصارى ، واسترجع كثيراً من القواعد ولم يلبث أن تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة ، وقيام دولة الموحدين بنى عبدالمؤمن ، فاقتدوا بسلفهم فى الجهاد ، وأجازوا إلى الأندلس على ظمأ من أهلها لنجدتهم ، فصدموا تقدم العدو ، وفلوا غربه ، ولم يسعد الاسلام الحظ بطول انتظامهم ، وامتداد التئامهم ، فخامر دولتهم الضعف ، واستولى عليها الانقسام ، وظهر فى عقبها الفشل ، وجاءت وقعة العقاب ، لعهد الناصر من أمرائهم ، الطامة الكبرى على الاسلام . فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر ، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم إلى سيف البحر . وحشروا فى مملكة ابن نصر الذى ضم شملهم فى غرناطة وجوارها . ورأى المسلمون أن الأمر كاد يفلت من أيديهم ، وان منزلهم هناك أصبح قُلْعة [1] ، وأن زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الأجل كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم ، كقول أبى البقاء الرندى :

قواعدُ كنّ أركانَ البلادِ فما   عسى البقاء إذا لم تَبق أركانُ

وكقول غيره من قبله :

حثّوا رواحِلَكم يا أهل أندلس   فما المقامُ بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير ، من جملة نصيحته لأولاده:

(١) منزل قلعة بضم أوله أى لابد من الرحيل عنه

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه اجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه ، إن تغلب العدو على بلده ، فى الافتضاح والاحتقار ، ومعوقاً عن الانتقال أمام النوب الثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بنى عبدالمؤمن ، وضاقت مسالك المسلمين فى الجزيرة ، وتسامع بذلك أهل المغرب ، نفروا للجهاد ، وسابق إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبى حفص ، صاحب افريقية (أى مملكة تونس) فأمدّهم بالمال والرجال ، وأعطوه بيعتهم . ولما قامت دولة بنى مرين ، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق ، واستبد بسلطنة المغرب ، وكان عظيم الاستعداد فى نفسه لاحراز تلك المثوبة ، و بلوغ هاتيك الرتبة ، وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق ، لما وقع بينهما من من المنافسة ، واستأذنه عامر بن ادريس فى الجهاد ، اغتنم هذه الفرصة ، وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة ، وأجاز معه رحو ابن عمه ابن عبد الله بن عبد الحق . فكان لهم فى الاندلس مقام كريم فى الجهاد. ثم صارت الاجازة والجهاد شأن ذوى القرابة من ملوك المغرب المنافسين فى الملك . والمزاحمين فى الدولة . اغتناماً للأجر والذكر . وتوسلا إلى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع . وهؤلاء مثل أبناء أعمام الملوك من بنى مرين . الملقبين بالأعياص . ومثل عبدالملك يغمراسن ابن زيّان . وعامر بن منديل بن عبدالرحمن . وزيان محمد بن عبد القوى . فامتلأت الاندلس بأقيال زناتة . وأعياصهم (إلى أن أقول) :

ولما انتزى أبو الوليد ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة ، كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبى العلاء إدريس من آل عبد الحق ، فانتصر به أبو الوليد على ابن عمه ، ولما استتب له الأمر عقد له على الغزاة من زناتة ، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان ، فلحق بوادى آش مع السلطان أبى الجيوش ، وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من جملة عثمان ابن أبى العلاء إدريس ، بعد أن كانت الرئاسة له . و بعد صيت ابن أبى العلاء ،

واستفحل أمره ، وعلت رايته ، وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ، مالم يتوقعوه ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة ، و بويع ابنه صبيا ، لنظر الوزير ابن المحروق ، استبد عليه ابن أبى العلاء شيخ الغزاة ، فوقعت الفتنة بينه و بين الوزير ، ونصب الوزير له كفوءاً من ذوى قرباه ، يحيى بن عمر بن رحوم ، وارتحل عثمان ، و بقى إلى أن استبد بالأمر السلطان محمد بن الأحمر ، ونكب ابن المحروق ، فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ، ومات لسبع وثلاثين سنة من إمارته عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا : « هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال والكماة ، واحد الجلالة ، ليث الاقدام والبسالة ، علم الأعلام ، حامى ذمار الاسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المسطورة ، إمام الصفوف ، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف ، سيف الجهاد ، قاصم الاعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهمم ، الثابت القدم ، الهمام المجاهد الأرضى ، البطل الباسل الأمضى ، المقدس المرحوم ، أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل ، الهمام الكبير الأصيل ، الشهير المقدس المرحوم ، أبى العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق . كان عمره ثمانياً وثمانين سنة ، أنفقه مابين روحة فى سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة » . اه

فأنت ترى لماذا يخاطب هذا الرجل ملك أراغون بالكاف بينما يكون سلطان غرناطة نفسه مخاطبا له بالجمع ، فان أباسعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس بن عبد الله ابن عبد الحق هو من بنى مرين ، ملوك المغرب ، وهو شيخ الغزاة بالأندلس ، وقد عمّر ثمانياً وثمانين سنة ، وغزا سبعمائة وثلاثين غزوة ، و بهذا كفاية ليخاطب الملوك بكاف المفرد

* * *

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى نائب ملك أراغون بأرْيُولة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الأمير عبدالله اسماعيل بن فرج بن نصر ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، إلى

النائب عن السلطان ملك أراغون بأرْيُولَة ، الأجل المكرم ، المبرور المشكور الاخلص ، بيره جيل قَرَالط ، وصل الله عزه بتقواه ، ويسّره لما يحبه الله ويرضاه ، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيرا ، والبر بكم وال . . . . . والشكر لمقاصدكم ، فى الوفاء ومذاهبكم ، وإلى هذا فانه بلغنا . . . . ضررٌ من جهة المسلمين . . . . أمر لا تعتقدوه فينا بوجه ، فاننا لا نبدأ بنقض ماعاهدنا ، ولا بحل ماعقدنا ، وكونوا من ذلك على يقين ، وما عهد السلطان ذُونْ جَقْمِي عندنا إلا أثبت العهود وأحكمها ، وقد عرفتم . . . . . أننا لم نطلق الغارة على أرض ولد مَنْوَل إلا عن نكايات كثيرة صدرت لنا منها ، وبقينا نطلب منه الانصاف من أزيد من عام ، ووجهنا إليه رسولاً إلى قشْتالّة ، فما أنصفنا أحد ، ولارأينا خلاصاً ، فحينئذ انتصرنا لناسنا ، حسبما هو الواجب علينا . وأما السلطان ذون جقمى فما صدر لنا منه إلا الوفاء ، ولا يصدر له منا إلا ما صدرلنا منه من الوفاء بعهده والحفظ لبلاده ، فلا تشكّوا فى ذلك ، فاعلموه والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، وييسركم لما يحبه ويرضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وكتب فى يوم الاثنين الرابع عشر لشهر ربيع الآخر من عام أربعة وعشرين وسبعمائة (صح هذا)

***

وقد كتب إلينا الأخ بنونة تحت نسخة هذا المكتوب ما يلى :

١ — فى نفس الصحيفة مكتوبة ترجمة هذا الكتاب بالأسبانية بخط جميل جداً والأسطر مستقيمة الأفق أكثر من أسطر الكتاب العربى

٢ — الترجمة الأسبانية مؤرخة فى ١٤ ربيع الثانى عام ٧٢٤ مثل الأصل ولكن فيها زيادة على الأصل هذه الجملة « الموافق من الشهر العجمى وهو ١٢ مارس ١٣٢٤ »

٣ — امضاء الملك فى هذه الرسالة « صح هذا » وهو مكتوب بنفس القلم الذى

كتب به الكاتب الرسالة السلطانية ، بينما الامضاء فى كتب أخرى غيرها مكتوب بقلم آخر غليظ .

٤ — البياض الذى ترونه فى هذه الرسالة هو أثر المحو أو العثّة

٥ — نوع الخط فى هذه الرسالة بين النوع المبسوط والنوع المجوهر ، أما نقط الفاء والقاف فهو دائما على الطريقة المغربية

٦ — الخطوط الأفقية التى ترونها تحت بعض الأعلام قد وضعتها بقصد تنبيهكم إلى أنها فى الأصل مشكولة كذلك . أما اسم نائب ملك أراغون وهو الذى خوطب بهذه الرسالة فلم أستطع قراءته فصورته كما هو فيها

٧ — لفظة دون Don التى معناها السيد كتبت فى الرسالة رقم ٣ بالدال المهملة وهى فى هذه بالذال المعجمة ، ولعلهم جعلوا الذال مكان الدال لأن « الدون » فى العربى معناه الخسيس ، وأما « الذون » فلا يدل فى العربى على شىء . ومثل هذا حصل فى أيامنا فقد تبدلنا الضاد بالدال المهملة فصرنا نكتب فى الرسائل وغيرها « ضون » بدلا عن دون ، تفاديا من جرح العواطف

* * *

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، ذون جَقْمى ، سلطان بلنسية ، وقُمط بُرْجَلُونة ، وصاحب قرسقة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرم مملكته ، وشاكر ما أظهر من مودته ، المحافظ على عهده ، ورعى صحبته ، الأمير عبدالله محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج ابن نصر ، أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وقصدكم فى الصحبة معلوم مشكور ، ومحلكم فى ملوك النصرانية المحل المعروف

المشهور ، و إلى هذا فقد وصل كتابكم المكرم ، على يدى رسولكم إلينا ، جوان أنريق ، وقد حضر بين يدينا هو ورفيقه جقمى ، من قلمة أيوب ، وقررا عندنا من محبتكم فى صحبتنا ، وقصدكم الجيل فى حفظ عهد مولانا الوالد ، قدّس الله روحه ، ما شكرناه لكم ، وعلمنا أنه الذى يليق بمثلكم من الملوك الأوفياء ، ووصلنا المكتوب الذى وجهتم بتجديد الصلح الذى كان بين والدنا و بينكم لخمسة أعوام من الآن ، وقد جددناه نحن على حسب ما اقتضاه مكتوبكم ، والعقد بذلك يصلكم صحبة هذا ، ونحن على أوّلنا فى حفظ عهدكم ، والاغتباط بصحبتكم ، والوفاء بما عقدناه معكم ، وقد وجهنا إليكم صحبة رسوليكم أربعة من النصارى من أرضكم ، فقصدنا منكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم فى سلوة [1] ، ثم بيعوا بميورقة ، وتعملوا فى ذلك مايقتضيه وفاؤكم الصادق : ونحن قد أمرنا أن يبحث عما أُخذ من أرضكم من النصارى فى الصلح ، و يعمل فى ذلك ماهو الواجب ، ومما نعرفكم به أنه فى هذه الأشهر السالفة أخذ عمر بطرُه أغرد (كذا) من سكان أريوله شَبطيا [2] فى المدور ، وأخذ بطرف الغيطة اثنى عشر شخصاً من أهل المرية ، فنريد منكم أيها السلطان أن يعز عليكم هذا الحال ، وتعملوا فيه ما يعمله سلطان مثلكم ، وتوجهوا إلينا هؤلاء المسلمين ، وتأمروا رجالكم بكف الضرر عن أرضنا ،

---

(١) هنا كلمة غير مفهومة

(٢) الشبطى : يرجح أنها تعريب لفظة Sabotar وهو رئيس العصابه ، أو الغازى على رأس جماعة من الشجعان ، كما علمنا ذلك ممن يحسنون اللغة الكتلونية ، وكما هو رأى اللغوى العلامة الأب انسطاس الكرملى ، الذى له من التدقيق الفائق ما يقر له به كل منصف . وهو يظن أن هذه اللفظة مشتقة من فعل Sabo باللهجة البروفنسية ، ومعناها « سبى » ويرجح أنها مأخوذة فى الأصل من العربية . ولا يخفى أن اللغتين البروفنسية والكتلونية متداخلتان جدا ، كما قد رايت فى كلامنا على بلاد الكاتالان فلا مراء فى أن هذه اللفظة أخذها عرب الاندلس عن جيرانهم هؤلاء . والسين فى كلام الإسبان تصير شيناً عند العرب إلا ما ندر

على المعلوم من وفائكم ، وحفظكم للعهد ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و ييسركم لما يرضاه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وكتب فى الحادى عشر لجمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (صح هذا)

وكتب هنا ما يأتى :

جواب السلطان — ثم كتب فى الورقة نفسها ما يأتى :

السلطان الأجل ، المرفع المكرم . المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، ذون جقمى سلطان بلنسية ، وقمط برجلونة ، وصاحب قرسقة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه (رقم هذا الكتاب فى المجموعة ٢٦)

كتاب آخر رقمه فى المجموعة ٢٧ :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليما .

ليعلم من يقف على هذا الكتاب و يسمعه اننا الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ورندة ، والجزيرة الخضراء ووادى آش ، وأمير المسلمين ، لما وصلنا من قبلكم أيها السلطان المعظم ، الملك المبرور . الوفى المشكور ، المرفع الأخلص ، دون جقمى ، ملك اراغون و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونة ، رسولكم المكرم جوان انريق ، الذى وجهتموه إلينا بكتابكم ، و بالعقد الذى عقدتموه على نفسكم ، وجعلتم عليه طابعكم المعهود عنكم بأنكم قد جددتم معنا الصحبة التى كانت بين والدنا رحمه الله و بينكم ، وعقدتم معنا صلحاً مبنياً على الصفاء والوفاء لخمسة أعوام أولها نصف شهر مايه . الموافق للتاريخ أدناه . أن جددنا معكم الصلح والصحبة ، على الفصول التى انعقدت بين والدنا و بينكم ، وأمضينا حكمه على نفسنا ، وجميع أهل بلادنا ، امضاء صحيحا لا ينقض له حكم ، ولا يغير له رسم ، إلى انقضاء أمده المحدود ، يشمل حكمه البر والبحر على شروط تتفسر : فمنها أن تتردد أجفاننا إلى سواحلكم ، وأجفانكم

إلى سواحلنا ، وناسنا إلى أرضكم ، وناسكم الى أرضنا ، آمنين براً و بحراً ، فى نفوسهم وأموالهم ، وجميع أحوالهم ، محفوظين محروسين حيثما حلوا ، وأينما ساروا ، لا يلحقهم ضرر بوجه من الوجوه ، فى بر ولا بحر ، فى سر ولا جهر ، ويباح لهم البيع والشراء ، فى جميع الاشياء ، بسوقها المعتاد هنالك ، و إخراج ما يشترونه من إحدى الجهتين إلى أخرى ، من غير شىء يلزمهم فى ذلك ، إلا ما جرت به العادة ، فى الحقوق المخزنية ، على العادة فى الصلح المتقدم ، من غير زيادة . ماعدا الأمور التى جرت العادة أن يمنع خروجها من إحدى الجهتين إلى أخرى . ومنها أن لا تتطرق أجفاننا لاجفانكم ، ولا أجفانكم لأجفاننا ، فى بحر ولا مرسى ، كان فيها من كان من عدو أو صديق ، و إن استوليتم على جفن من أجفان[1] المسلمين أو النصارى من غير أجفاننا ، وكان فى ذلك الجفن أحد من أهل أرضنا ، أو استوليتم على طائفة من المسلمين ، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا ، فتسرّحون (كذا) من أخذتم من أهل أرضنا بأموالهم فى الحين ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أن لا تتعرضوا لمرسى من مراسينا كان فيها من كان من عدو أو صديق ، ولا تتطرقوا بضرر لما فى مراسينا ، وسواحل بلادنا ، و بحارها من الأجفان ، كانت لمن كانت من المسلمين أو النصارى ، ومن أى جهة كانت لاسبيل لأجفانكم عليها بوجه ، ولا على حال ، مدة هذا الصلح ، إلى انقضائها ، وأن لا تعينوا علينا عدواً من المسلمين ولا النصارى فى بر ولا بحر ، بوجه من وجوه الاعانة ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أنه إن هرب من أرضنا أحد خرج عن طاعتنا فلا تضموه ، ولا تسرّحوا له قوتاً ولاشيئاً من الاشياء ولا تعينوا علينا أحداً على خالص الأحوال ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أن لا تمنعوا المسلمين المدجنين الساكنين بأرضكم من الخروج بأموالهم وعيالهم وأولادهم ، من غير أن يُتعسّف عليهم فى شىء ولا أن يُطلب منهم مغرم إلا

(١) الجفن غطاء العين ، والجمع أجفان ، ويأتى بمعنى غمد السيف . ولم نجده فى اللغة بمعنى السفينة كما يراد به هنا ، وإنما استعمله العامة بهذا المعنى على تشبيه السفينة بجفن العين فى شكلها ، أو لأن الجفن يتضمن معنى الوعاء والله اعلم

ما جرت به العوائد فى مثله ، من غير زيادة . وعلى هذه الشروط أعطينا كم عهدنا ثابتاً صحيحاً ، والتزمنا الوفاء به إلى أقصى أمده ، ما وفيتم لنا بما اقتضاه هذا المكتوب من الفصول وجعلنا الله شاهداً بيننا و بينكم ، والله خير الشاهدين ، ولأن تكونوا منه على صحة و يقين ، أمرنا بكتب هذا الكتاب ، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا ، شاهداً علينا ، فى أواسط شهر جمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (جملة لم تمكن قراءتها) إلى انقضائها صح فى تاريخه المؤرخ به . (صح هذا)

***

ثم علّق على هذا الكتاب الأخ بنونة بما يلى :

ان فصول المعاهدة متبادلة بين الملكين إلا الفصل الأخير فانه لا مقابل له ، فهل مملكة الأمير محمد بن الاحمر هذا لم يكن بها أناس من النصارى ؟ أو هل كانوا بها ولكنهم كانوا راضين عن حكم المسلمين لا يطلبون السكنى بأرض ملوك ملتهم ؟ وهل وقع هذا النقص فى المعاهدة عن سهو من الكاتب ، أو عن عمد من الملك ؟ هذه أسئلة ترد ولكنى لم أستطع الجواب عنها فأريد رأيكم ، والله يطيل عمركم . ثم لا يعزب عنكم أن هذه المعاهدة على ما يظهر من صدرها ، ومن الكتاب المرفق بها ، هى ترجمة للعقد الذى أتى به جوان انريق ، فهل جقمى نفسه يتبرع بتسريح المسلمين المدجنين من غير أن يحتفظ للنصارى المدجنين بمثل هذا التصريح من قبل محمد بن اسماعيل ؟ لعل فى الأمر سرا لم أفهمه اه .

ونحن نجيب على هذا السؤال جواباً بغاية البساطة وهو :

ان المسلمين المدجنين فى ممالك النصارى لم يكونوا خرجوا من بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها كما خرج اخوانهم إلا بسبب العجز عن السفر ، ولم يلبثوا فى تلك الأرض إلا انتظاراً لأول فرصة يتمكنون فيها من الخروج منها ، إلا أن النصارى كانوا يمنعونهم من الخروج استغلالا لهم ، واستفادة من عملهم ونشاطهم ، فكانوا معهم فى حكم الأرقاء ، فلم يكن من مصلحة النصارى أن يخلوا منهم الديار والأراضى . وكان يوجد

فى اسبانية مثل سائر : حيث لايوجد مدجنون لايوجد غلة . فلا عجب بعد ذلك من أن نرى النصارى مانعين للمسلمين الباقين بين أظهرهم من أن يتركوا مزارعهم ، و يخرجوا إلى بلاد الاسلام . فكان المسلمون المدجنون يئنون من هذا الضغط الواقع عليهم ، ومن حالة الرق التى كانوا فيها ، وكانوا يشتكون من وقت إلى آخر إلى ملوك الاسلام ، طالبين إليهم أن يتوسطوا لدى ملوك النصارى فى تركهم يخرجون إلى بلاد الاسلام ، وما سمح فيليب الثانى ملك اسبانية ، ولا هنرى الرابع ملك فرنسة ، بخروج المدجنين من بلدانهم إلا بعد إنذار السلطان احمد العثمانى ، فلا عجب اذاً فى توسط سلطان غرناطة لدى سلطان أراغون فى قضية الاذن للمدجنين بالخروج إلى بلاد الاسلام بأموالهم متى أرادوا

فتقولون لماذا لم يطلب سلطان أراغون إلى سلطان غرناطة الاذن للنصارى بالخروج من بلاده ؟ فالجواب على ذلك أن النصارى الذين كانوا فى غرناطة وملحقاتها لم يكونوا تحت الضغط ، ولا كانوا متعبدين ، حتى يطلبوا الخروج منها ، بل كانوا يؤثرون بلاد الاسلام على بلاد النصارى ، و بالاجمال اذا استقرى الانسان التاريخ يجد النصارى مؤثرين العيش فى بلاد المسلمين ، لا يحبون تركها ، إلا فيما ندر لأسباب خاصة ، وان المسلمين الذين استولى النصارى على بلادهم كانوا يخرجون منها بأجمعهم ولم يكن يبقى فيها إلا من لا يستطيع إلى الخروج سبيلا . نعم فى هذين القرنين الاخيرين عند ما استولت أوربة على كثير من ممالك الاسلام التى أهلوها يحصون بعشرات الملايين ، لم يكن لهم سبيل إلى الخروج منها ، لانه لايوجد بلدان تسعهم فيرحلوا إليها . ولأنهم لم يقطعوا الأمل من أن يرحل الاجنبى عنها .

***

كتاب آخر

من سلطان غرناطة إلى سلطان أراغون

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المصطفى الكريم وعلى (بياض المحو)

ليعلم من يقف على هذا الكتاب و يسمعه اننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما اليها ، وأمير المسلمين ، لما وقفنا على عقد الصلح الذى أمضاه علينا محل والدنا السلطان الاوحد المعظم ، أبو الحسن أمير المسلمين[1] ، ملك الغرب ، أيده الله ، مع السلطان المرفع ، ملك قشتالة ، ذون الهُنشه[2]، ومن مضمنه أنكم أيها السلطان المعظم ، المرفع المبرور المشكور ، الأوفى الاخاص ، ذون الهنشُ ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وسردانية ، وقط برجلونة ، ان أردتم امضاء .... والدخول فيه ، فانه يمضى حكمه معكم ، كما أمضى مع ملك قشتالة ، وأردنا نحن أن نثبت هذا الصلح معكم ، خصوصاً بما عندنا من الاعتقاد فى وفائكم ، والقصد الجميل فى تجديد الصحبة التى كانت بين أسلافنا وأسلافكم ، ودار بيننا و بينكم المكاتبة فى ذلك ، اقتضى نظرنا أن وجهنا رسولنا الحظى لدينا . القائد الأجل الاعز ، الارفع الامجد ، أبا الحسن ابن كماشة . أعزه الله ، نائباً عنا فى تثبيت ذلك الصلح معكم . وتوكيد حكمه . على حسب شروطه ور بوطه المذكورة . التى انعقد عليها الصلح بحضرة فاس . حرسها الله . فى عقده المؤرخ فى شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . المتضمن امضاء . . . لاربعة أعوام ، أولها شهر مارس القريب لتاريخه ، فوصلنا رسولنا منكم بمكتوب عنكم ، عليه طابعكم المعهود منكم ، مضمنه أنكم قد رضيتم بالدخول فى الصلح المذكور معنا على شروطه المذكورة فى عقده ، لانقضاء أمده وارتبطتم إليه، والتزمتم حكمه عنكم وعن أولادكم واخوتكم وزعمائكم ، وفرسانكم ورعيتكم، فى البر والبحر ، بالوفاء الخالص فى السر والجهر ، وأنكم قد جددتم مع رسولينا (كذا) المذكور . . . . . و بما أعطيناهما (كذا) من المقر أمرنا نحن بكتب هذا

---

(١) السلطان أبو الحسن المرينى المجاهد الشهير

(٢) المغاربة والاندلسيون يقولون لالفونس « اذفنش » وأحياناً « الفنش » وأحياناً يجعلون الفاء هاء فيقولون « لالفونسه » « الهنشه » ولفردينانده « هرانده »

المكتوب بأننا قد التزمنا لكم الوفاء بذلك الصلح ، على حسب فصوله ، و إلى آخر أمده ، بنية صادقة ،وصفاء طوية فى السر والجهر ، وأعطيناكم عهد الله وميثاقه ، على الوفاء به ، إلى أقصى أمده براً و بحراً عن نفسنا وعن قوادنا وخدامنا ، وجميع أهل مملكتنا ، لا ننقض له حكما ، ولا نغير له رسما ، ولأن يكون هذا ثابتا ، وتكونوا منه على صحة و يقين ، جعلنا عليه خط يدنا وعلقنا عليه طابعنا ، شاهداً علينا . والله خير الشاهدين ، وكتب فى أواخر شهر ذى القعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله تعالى خيره و بركته،بمنه وجوده ، وطوله فيه (على بشر[1] التى انعقد عليها الصلح بحضرة فاس حرسها الله صحيح منه وفى تاريخه) (صح هذا)

* * *

وقد كتب تحت هذا المكتوب الحاج محمد العربى بنونه مايلى :

الذى وضعناه بين هلالين لم نفهم معناه تماماً ، وهو بالأصل ظاهر مشكول تام الحروف . ثم يقول لنا : هذه الرسالة من روائع ما كتبته يد خطاط . قد بلغت الغاية فى حسن الخط ، ونوع خطها هو المسمى عندنا بالمغرب المبسوط ، وهو يشبه النسخى عندكم بالمشرق . ثم يقول لنا : الهنشه هذا هو الفونس الحادى عشر Alfonso XI ملك قشتالة وليون ، تولى من سنة ١٣١٢ ، وقتل بجبل طارق سنة ١٣٥٠ ، وهو الذى تعاهد مع ملك البرتغال ، وحارب معه جيوش الأندلس والمغرب ، وهزمهم قرب مدينة طريف ، وقد شرحتم ذلك فى كتابكم خلاصة تاريخ الأندلس صفحة ١٤٢ ، وشرحه أيضاً الناصرى فى كتاب الاستقصاء صفحة ٦٦ من الجزء الثانى اهـ .

قلت : أما الذى كتبته فى خلاصة تاريخ الأندلس حسبما قال الفاضل الحاج محمد العربى بنونة فهو هذا : وفى سنة ٧٣١ توفى أبو سعيد المرينى ، وقام بالأمر بعده ولى عهده الامير أبو الحسن ، وكان من أجلّ سلاطين الاسلام ، فاشتغل مدة باطفاء فتن

(١) لم نفهم المراد بهذه الكلمة هنا ولعلها تحريف ولكن الحاج محمد بنونة يقول إنها تامة الحروف واضحة الخط

مملكته ، ولما خاص له المغرب وجه عنايته إلى الجهاد ، وسمت نفسه إلى حال جده أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وكان الاسبانيول ، بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين ، دون التوافق لنصرة بعضهم بعضاً ، قد تغلبوا على كثير من حصونهم . ونازلوهم فى عقر دارهم غرناطة ، وضربوا الجزية على أبى الوليد ، فأدّاها عن يد الذل ، فاعتزم أبو الحسن الجهاد ، وجهز الأساطيل ، وسرّح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك ، فغزا أرض العدو ، وأثخن وغنم ، وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاماً ، فأبى إباؤه ، وأقام بأرضه ، فأدركوا عسكره وهم فى مضاجعهم ، وقُتل أبو مالك قبل أن يستوى على جواده ، وتسلم الاسبانيول أكثر قومه ، وغنموا ما معهم . ووصل النعى أبا الحسن والده ، ففت فى عضده ، وتفجع ، وأعمل فى النفير للجهاد ، والأخذ بالثار ، واستدعى الأساطيل من مراسى العدوة ، وأنجده الموحدون من تونس باسطول بجاية ، عليه زيد بن فرحون . قائد البحر . ووافاه اسطول طرابلس وقابس وجربة . واجتمعت كلها بسبتة . معقوداً عليها لمحمد ابن العزفى . وزحفت إلى أساطيل الافرنج . فتحاجزت وتناجزت . وأهبّ الله ريح النصر من جهة بنى مرين . فخالطوا سفن الافرنج . واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم الملند ، وعادوا بالسفن مجنوبة إلى مرفأ سبتة . وطيف بالرؤس ، وجلس السلطان للتهنئة . وكان يوماً مشهوداً

ثم أخذ يجيز العساكر إلى الأندلس ، وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ ، وخيّم بساحة طريف ، ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة ، وجنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف ، وجاء الاسبانيول بأسطول عظيم ، حالوا به بين العدوتين ، وامتنع البلد ففنيت الأقوات ، واختلت أحوال المعسكر ، وتكاثرت جموع الاسبانيول ، وأصرخهم صاحب اشبونة البرتغال ، فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلا على حين غفلة ، وكمنوا فى مكان وفى الغد تزاحف الجمعان فبرز الجيش الكمين من البلد ، وخالفوا إلى معسكر السلطان وعمدوا إلى فسطاطه ، فدافعهم الحراس ، فقتلوهم ، وفتكوا بحظايا السلطان ، عائشة

بنت عمه ، وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية ، وغيرهما وسلبوا الفسطاط وأحرقوا المعسكر فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم ، وأُخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو فى تقدمه ، وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجا ووصل الطاغية إلى محلة السلطان ، فأنكر على قومه قتل النساء والاولاد . وانهزم ابن الاحمر إلى حمرائه ، وخلص أبو الحسن الى الجزيرة ، فجبل طارق ، ومنها إلى سبتة ، وكانت وقعة مشؤومة على المسلمين ، عظم فيها البلاء ، وفدحت الرزيئة ، وجل الخطب .

وقد بالغ بعض مؤرخى الافرنج فى تقدير خسائر المسلمين ، فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف . وأن خسائر الاسبانيول كانت نحواً من عشرين قتيلا فقط ، وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام إن خسائر الافرنج فى وقعة الدون بتره بلغت خمسين ألفاً ، ولم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً ، وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد فى تلك الاعصار ، وقبول الاخبار على علاتها بدون عرضها على العقل ، ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر ، على ان هاتين الوقعتين تتشابهان فى قضية أسر نساء الملوك ، ففى الاولى أسرت امرأة الطاغية حسب قول العرب ، وفى الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبى الحسن ، عدا من قتل منهن .

و بعد هذه الوقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا فى التهام بقية الاندلس ، ونازلوا قلعة بنى سعيد ، وأخذوها بعد حصار شديد ، فأعاد أبو الحسن بن مرين الكرّة ، وجهز الاساطيل ، وسرّب البعوث الى الجزيرة الخضراء ، وتلاقت الاساطيل الاسلامية بالاساطيل النصرانية ، فقضى بهزيمة المسلمين ، وملك اسطول الطاغية بحر الزقاق ، وسما له شوق إلى استخلاص الاندلس ، فبعث بالنفير ، ووافته النجدات وحضرت الأوامر من البابا بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمى الأندلس وانضم إلى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ، ووافاه من أنسباء ملك انكلترة ، الكونت دربى ، والكونت سالسبرى ، وغاسطون ، وكونت دفوا ، وكونت

دو بيارن ، وغيرهم ، وزحف الجميع ، ونازلوا الجزيرة الخضراء . ليلحقوها بطريف ، ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين ، وحشروا إليها الفعلة والصناع ، للنقب والحفر ، وأطالوا حصارها ، واتخذوا للعسكر بيوتاً من الخشب ، بقصد المطاولة ، كما اتخذوا لمعسكرهم فى القرن التالى بيوتاً من الحجر ، وهم على غرناطة . وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة ، فنزل بظاهر جبل طارق . وطال الحصر ، وأصاب أهل الجزيرة الجهد ، فسألوا الأمان . فبذلوه لهم . وخرجوا إلى المغرب . وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن المرينى خير نزل اه .

استوفينا ذكر هذه الواقعة لانها كانت من مقدمات سقوط الاسلام فى الاندلس فان الاسبانيول من بعدها أحاطوا بالجزيرة الاندلسية من جهة المغرب . وصارت مملكة غرناطة فى حكم المحصور . وآل أمرها إلى التلاشى . بحيث لم تمض مائة وخمسون سنة بعد ذلك . حتى صارت أثراً بعد عين .

ولننظر ما قاله فى شأن هذه الوقائع صاحب كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى . العلامة الشيخ احمد بن خالد الناصرى السلاوى رحمه الله . قال :

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه . وعلت على الأيدى يده . وانفسح نطاق ملكه . دعته همته إلى الجهاد . وكان كلفاً به . فأوعز إلى ابنه الأميرابى مالك أمير الثغور الاندلسية . سنة ٧٤٠ . بالدخول الى دار الحرب . وجهز اليه العساكر من حضرته . وأنفذ اليه الوزراء . فشخص أبو مالك غازيا وتوغل فى بلاد النصرانية واكتسحها ، وخرج بالسبى والغنائم . فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له . وأنهم أغذّوا السير فى اتباعه . فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم . وعبور الوادى الذى كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب . وأن يتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها . فلجّ فى إبايته . وصمم على التعريس . وكان قرماً ثبتاً . إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه . فصبّحتهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم . قبل أن يركبوا . وخالطوهم فى بياتهم . وأدركوا الامير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوى على فرسه . فجدّلوه .

واستلحموا الكثير من قومه . واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم . واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن . فتفجع لهلاك ابنه . واسترحم له ، واحتسب عند الله أجره ، ثم انفذ وزراءه إلى سواحل المغرب ، لتجهيز الأساطيل ، وفتح ديوان العطاء ، وعرض الجنود ، وازاح عللهم ، واستنفر أهل المغرب كافة ، ثم ارتحل إلى سبتة ، ليباشر أحوال الجهاد ، وتسامعت به أمم النصرانية ، فاستعدوا للدفاع ، وأخرج الطاغية اسطوله إلى الزقاق ، ليمنع السلطان من الاجازة ، واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسى المغرب ، و بعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز اسطولهم اليه ، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون ، قائد اسطول بجاية ، ووافى سبتة فى ستة عشر اسطولا من اساطيل افريقية ، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس و بونة و بجاية ، وتوافت اساطيل المغربين بمرسى سبتة ، تناهز المائة ، وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفى ، الذى كان صاحب سبتة ، يوم فتحها أيام السلطان أبى سعيد ، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق ، وقد تكامل عديدهم وعدتهم فاستلأموا وتظاهروا فى السلاح ، وزحفوا إلى اسطول النصارى ، وتواقفوا ملياً ، ثم قربوا الاساطيل بعضها من بعض ، وقرنوها للمصاف ، فلم يمض إلا كلا ولا ، حتى هبّت ريح النصر ، وأظفر الله المسلمين بعدوهم ، وخالطوهم فى أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، وقتلوا قائدهم الملند ، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة ، فبرز الناس لمشاهدتها ، وطيف بكثير من رؤوسهم فى جوانب البلد ، ونظمت اصفاد الأسرى بدار الانشاء ، وعظم الفتح ، وجلس السلطان للتهنئة ، وأنشد الشعراء بين يديه ، وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة ٧٤٠ ، فكان من أعز أيام الاسلام

ثم شرع السلطان أبو الحسن فى اجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة ، من العدوة إلى العدوة ، ولما تكاملت العساكر بالعبور ، و كانت نحو ستين الفاً ، أجاز هو فى اسطوله مع خاصته وحشمه ، آخر سنة ٧٤٠ ،

ونزل بساحة طريف ، وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع فى منازلتها ، ووافاه سلطان الاندلس أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن الأحمر . فى عسكر الاندلس من غزاة بنى مرين . وحامية الثغور . ورجّالة البدو . فعسكروا حذاء معسكره . وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً . وأنزلوا بها أنواع القتال . ونصبوا عليها الآلات ، وجهّز الطاغية اسطولا آخر . اعترض به الزقاق . لقطع المرافق عن المعسكر . وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت ازوادهم . وقلّت العلوفات . فوهن الظهر . واختلت أحوالهم . ثم احتشد الطاغية امم النصرانية . وظاهره البرتقال ، صاحب اشبونة . وغرب الاندلس . وزحفوا إلى المسلمين . لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين . سرّب إلى طريف جيشاً من النصارى . أ كمنه بها إلى وقت الحاجة . فدخلوها ليلا . على حين غفلة من العسس . الذين أرصدوا لهم ، وأحسوا بهم آخر الليل ، فثاروا بهم من مراصدهم ، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ، وقد نجا أ كثرهم ، فلبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم ، حذراً من سطوته ، ثم زحف الطاغية من الغد فى جموعه إلى المسلمين ، وعبّى السلطان مواكبه صفوفاً ، وتزاحفوا ، ولما نشبت الحرب برز الجيش الـكمين من البلد ، وهو الذى دخل ليلا . وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم . وعمدوا إلى فسطاط السلطان . فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته . فاستلحموهم لقتالهم . ثم دافعهم النساء عن أنفسهن . فقتلوهن كذلك . وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبى بكر بن يعقوب بن عبد الحق . وفاطمة بنت السلطان أبى بكر أبى زكريا الحفصى . وغيرهما من حظاياه . فقتلوهن . واستلبوهن . ومثّلوا بهن . وانتهبوا سائر الفسطاط . وأضرموا المعسكر ناراً . ثم أحس المسلمون بما وراءهم فى معسكرهم . فاختل مصافهم . وارتدوا على أعقابهم . بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبى الحسن صمم فى طائفة من قومه وحاشيته . حتى خالطهم فى صفوفهم . فأحاطوا به وتقبضوا عليه . وعظم المصاب بأسره . وكان الخطب على الاسلام قلّما فجع بمثله

وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة احدى وأربعين وسبعمائة . وولى السلطان أبو الحسن متحيزاً إلى فئة المسلمين . واستشهد كثيرمن الغزاة . وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السطان من المحلة ، فأنكر قتل النساء والولدان ، وكان ذلك منتهى أثره . ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده . ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء . ثم منها إلى جبل الفتح . ثم ركب الاسطول إلى سبتة ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم

ولما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس ، وطمع فى التهامهم وجمع عساكر النصرانية ، ونازل أولا قلعة بنى سعيد ، ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها ، وجمع الآلات والأيدى على حصارها ، وأخذ بمخنقها ، فأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة ٧٤٢ ، وأدال الله الطيب منها بالخبيث ، وانصرف الطاغية إلى بلاده ، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد ، لرجع الكرة ، فأرسل فى المدائن حاشرين ، وأرسل قواده إلى سواحل المغرب ، لتجهيز الأساطيل ، فتكامل له منها عدد معتبر ، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس ، وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر ابن تاحضريت ، وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد ابن العباس بن تاحضريت ، من قرابة الوزير ، و بعث إليها مدداً من العسكر مع موسى ابن ابراهيم اليرينانى من المرشحين للوزارة نيابة ، و بلغ الطاغية خبره ، فجهز اسطوله ، وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته ، وتلاقت الاساطيل ، ومحص الله المسلمين ، واستشهد منهم أعداد ، وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين ، وأقبل الطاغية من اشبيلية فى عساكر النصرانية ، حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء ، مرفأ أساطيل المسلين ، وفرضة المجاز ، ورجا أن ينظمها فى مملكته مع جارتها طريف ، وحشر الفعلة والصناع للآلات ، وجمع الأيدى عليها وطاولها الحصار ، واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة ، وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الاندلس ، فنزل قبالة الطاغية ، بظاهر جبل الفتح ، فى سبيل

المانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرّب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت ، فى أوقات الغفلة من أساطيل العدو ، وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين فى ذلك ، ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيئاً ، واشتد عليهم الحصار ، وأصابهم الجهد ، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبى الحسن يفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له فى الاجازة مكرا به ، وأرصد له بعض الاساطيل فى طريقه فصدقهم المسلمون القتال ، وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق . وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان ، فسألوا الطاغية الأمان ، على أن ينزلوا له عن البلد ، فبذله لهم ، وخرجوا فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ٧٤٣ ، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ، ولقاهم من المبرّة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم ، وخلع عليهم ، وحملهم ، ووصلهم بما تحدث الناس به ، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت ، عقوبة له على تقصيره فى المدافعة ، مع تمكنه منها ، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله ، و إنجاز وعده ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . اه

* * *

وهذا كتاب آخر وجد تحت رقم ٢٨ من المجموعة البرشلونية :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان الأجل المرفع ، المكرم المبرور ، الأوفى المشكور ، الأخلص دون الفنشُه ، سلطان أراغون و بلنسية وقرسقة وقط برجلونة وصاحب سردانية ، وصل الله كرامته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه . حافظ عهده ، وشاكر مذهبه فى المصادقة وقصده . مكرم مملكته . وشاكر قصده . فى خلوص مودته . الحافظ لعهده وصحبته الامير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر . أيده الله ونصره . أما بعد . فانا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة . حرسها الله . عن الخير الأكمل واليسر الاشمل . والحمد لله كثيرا . وجانبكم مبرور . وقصدكم فى الصحبة مشكور ،

ومحلكم فى سلاطين النصرانية معروف مشهور . و إلى هذا فانه توجه فى هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم . وركوناً إلى صحبتنا معكم . فتعرفنا أن النائب عنكم فى قر بليان ثقفهم ، وثقف أموالهم . فخاطبناكم فى شأنهم . وقصدنا منكم تسريحهم وتسريح أموالهم . وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم تحفظوا بذلك عهدنا ، وتقضوا لنا فى ذلك . . . نشكركم عليها وهذا قصدنا منكم فسى أن تعملوا فيه ما هو المعلوم منكم ، والمضمون عنكم ، والله يصل كرامتكم بتقواه و يسعدكم بطاعته ورضاه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيرا ، كتب فى الموفى ثلاثين لجمادى الأولى من عام ثمانية وعشرين وسبعمائة . (صح هذا) .

هذا الملك المكتوب إليه هنا هو الفونس الرابع الأراغونى ، تولى أراغون وملحقاتها بعد جقمى الثانى من سنة ١٣٢٧ إلى سنة ١٣٣٦ .

وتحت رقم ٣٢ من هذه المجموعة كتاب من أبي النعيم رضوان وزير ابن الاحمر إلى هذا الملك نفسه وهو ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

مولاى السلطان الأجل الأكرم ، الأوفى المعظم ، المشكور الأخلص ، ذون الفنشة ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونه . وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، خديمه موفى واجب البر بجانبه ، ومكمل الثناء على مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، رضوان بن عبد الله ، و زير السلطان ، ملك غرناطة ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إلى ذلك . كتبه إليكم من باب مولاه ، أيده الله ونصره ، بحمراء غرناطة حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه ، ثم بنعمة مولاى أبقى الله إحسانه ، إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن العلم بمحلكم فى السلاطين الأوفياء ، والشكر لما لكم فى الوفاء من المقاصد

والأنحاء ، و إلى هذا فموجبه اليكم ، هو أن الزعيم المكرم ، جقمى شارقة ، قريبكم ، اجتمع فى محلة جبل الفتح ببعض ناس هذه الدار النصرية ، وعرفهم بما عندكم من القصد الجيل فى الصلح معها ، وانه لو خاطبكم مولاى فى ذلك لعملتم فيه ما يعود بتجديد الصحبة والمدة ، وتوكيد العهد ، وقد كتب اليكم فى ذلك مولاى الكتاب الذى يصلكم ، ووجّهه مع خديمه التاجر المكرم بَشْقَلِين سريجة ، وهو يصلكم بكتابه ، وإن كان لكم غرض فى هذه الحال فعرفونى ، وأعمل فيها ما يكون فيه الخير للفريقين إن شاء الله ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا ، وكتب فى اليوم الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام اربعة وثلاثين وسبعمائة اهـ .

وهذا كتاب آخر تحت رقم ٣٣ من المجموعة البرشلونية من الوزير أبى النعيم رضوان نفسه إلى الملك الفونس نفسه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

مولاى السلطان الأجل ، المعظم المرفع الموقر ، المبرور المشكور الشهير الأوفى ، ذون الفنشة ، ملك أراغون . و بلنسية وسردانية . وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، معظم سلطانه ، وموقر مكانه ، وزير السلطان أيده الله ونصره ، رضوان بن عبد الله . كتبه إليكم من باب مولاه بحمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زائد بفضل الله ، ثم ببركة أيام مولانا أدام الله إحسانه ، إلا الخير الأكمل واليسر الأشمل ، والحمد لله . وعن التعظيم لسلطانكم ، والتوقير لملكتكم ومكانتكم . و إلى هذا فقد وصلنى كتابكم المعظم صحبة رسول مولانا أيده الله إليكم القائد الأجل . أبى الحسن بن كُماشة . أعزه الله ، تقررون معتقدكم الجيل . وقد شكرت ذلك أبلغ الشكر . وعرفت ما عندكم من القبول والعناية والكرامة . وقابلت ذلك بما يجب من الثناء عليكم . واعلموا أننى لا أزال أؤكد العهد بين مولاى وبينكم وأثبت الود وأعمل فى ذلك ما أوفى به حق خدمته وكرامتكم حسب الواجب على .

وقد ألقى إليّ القائد أبو الحسن أعزه الله فى ذلك ما وافق مقتضى كتابكم ووصل صحبته رسولكم الحظى لديكم . المكرم المبرور المشكور رَمُون بيل . وحضر بين يدى مولاى . أيده الله . وأوصل هديتكم إلى مولاى . ووقف عليها واستحسنها . ووقعت عنده أحسن موقع ، وشكر قصدكم فى ذلك ، وكذلك وصل ما تفضلتم الى معظم مجدكم ، فقابلت سلطانكم بالشكر الجزيل ، والثناء الجميل ، وسرتنى عنايتكم ، وحسن اعتقادكم، وما مُعَظِّمكم الا على مايرضيكم ، من الاعتقاد فيكم ، فكونوا من ذلك على يقين . وقد ألقيت فى ذلك الى رسولكم المذكور ، ما يلقيه اليكم فى هذا المعنى ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، ويسعد سلطانكم بطاعته ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى السابع والعشرين لذى قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرفنا الله بركة اختتامه بمنه وكرمه . اه

وتحت رقم المجموعة ٣٤ الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

مولاى الأفَنْت الكبير ، الأعز المرفع ، المبرور المشكور ، ذُنْ بِذْرُه ، ادام الله لنا أيامكم ، ووصل هدايتكم واكرامكم ، يسلم عليكم مقبل يديكم وخديمكم ، على بن كاشه ، من باب مولانا ، أيده الله ونصره ، وليس بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة ايام مولانا ، ادامها الله ، الا الخير واليسر ، والحمد لله كثيراً . والذى وجب به تعريفكم انه وصل خديمكم رَمُون بُويل ، وقضى رسالته كما يجب ، وعمل اعمال الفرنسان الجياد، وادخلنى فى محبتكم وخدمتكم ، وانا يامولاى عملت فى خدمتكم مايعرفكم به خديمكم رمون بويل ، وتكلم أيضاً رمون بويل مع مولانا ، نصره الله ، وفى حق ان تلك لدار ، وهذه الدار واحدة ، فترى يصلكم كتاب مولانا السلطان ، وهو كتاب محبة وصحبة ، وترى يصلكم يامولاى قوس افرنجي ، وكذلك يامولاى تقبّل بيد مولاى الإفَنْت أخيكم ، ذن جيميه ، وكذلك يصل له قوس افرنجى ، وذلك يا مولاي فى حقكم . ومعاد السلام عليكم ورحمة الله وهدايته ، وكتب بتاريخ الخامس عشر لشهر ذي حجة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اه

* * *

وأردف ذلك الحاج محمد بنونه بقوله : ابن كُماشة[1] هذا اظن انى رأيت الكلام عليه فى أحد كتب ابن الخطيب ، إما فى اللمحة البدرية ، و إما فى الاحاطة . اما بِذْرُه (أو بترُه كما ترى اسمه مكتوباً فى رسائل أخرى ستصلكم بعده) فهو الذى توج ملكا على أراغون باسم بترُه الرابع من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧

* * *

كتاب آخر من سلطان غرناطة الى ملك أراغون تحت رقم ٣٣ فى المجموعة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل الأكرم ، الأوفى المعظم ، المبرور المشكور ، الأخلص دون الفُنْشُه ، ملك أراغون و بلنسية وسردانية وقرسقة ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، شاكر البر بجانبه ، المثنى على مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وقصدكم فى الصحبة مشكور ، ومنصبكم فى بيت الملكة معلوم مشهور ، و إلى هذا فموجبه إليكم ، هو أنه مازالت الصحبة من دار غرناطة تتجدد بين أسلافنا ، وانّا وقفنا الآن فى العقد الذى كان قد أخذ فيه مع ملك قَشتلّة على إشارة إلى صلحكم ، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم ، فى شأن هذه القضية ، فان كان لكم فى الصحبة والمصادقة غرض ، فنحن نغتبط بذلك ، وعندنا من المساعدة لكم عليه كل مايرضيكم ، فعرفونا بما عندكم فى ذلك ، و يصلكم بكتابنا هذا التاجر المكرم بُشْقَلِين شِيريجه خديمنا أكرمه الله بتقواه ، وقد ألقينا إليه في توكيد المودة مايلقيه إليكم ، و ينصه عليكم . فاعلموا ذلك

---

(١) نعم ورد فى كتابنا هذا ذكر ابن كماشة وذكر آل كماشة وقد كان وزير السلطان أبى عبد الله بن الأحمر آخر ملوك الاسلام بالاندلس من هذا البيت .

والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى يوم الأربعاء الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، عرف الله تعالى خيره و بركته (صح هذا)

* * *

لابأس بأن نترجم هنا سلاطين غرناطة الذين صدرت عنهم هـذه المكاتيب إلى ملوك أراغون ، وقد اخترنا لهذه التراجم لسان الدين بن الخطيب ، أعلم الناس بهم ، وأقربهم إليهم . قال فى اللمحة البدرية :

اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بن خميس ، ابن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أمير المسلمين بالأندلس ، يكنى أبا الوليد .

كان رحمه الله كريم الخلق ، حسن الرواء ، رجل جسد ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقد ، ثبتاً فى المواقف ، عفيف الإزار ، ناشئاً فى حجر الطهارة ، بعيداً من الصبوة ، بريئاً من المعاقرة ، نشأ مشتغلا بشأنه ، متبنكا بنعمة أبيه ، مختصاً بايثار السلطان ، جده أبى أمه ، وابن عم والده ، منقطعا إلى الصيد ، مصروف اللذة إلى استجادة سلاحه ، وانتقاء مراكبه ، واستفراه جوارحه ، إلى أن قضى إليه الأمر وساعدته الايام ، وخدمه الجد ، وانتقل به إلى بيت الملك ، وثوى فى عقبه الذكر ؛ فبذل العدل فى رعيته ؛ واقتصد فى جبايته ؛ واجتهد فى مدافعة عـدو الله وعدوه ، وسد ثلم ثغره ، وكان غرة في قومه ، ودرة فى بيته ، وحسنة من حسنات دهره .

تخلف من الولد أربعة : أكبرهم محمد ولي عهده ، والأمير من بعـده . وفرج شقيقه التالى له ، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه ، المتقلب أخيراً فى الايالات المتوفى معتقلا بالمرية ، عام أحدوخمسين وسبعمائة ، مظنونا به الاغتيال . ثم أمير المسلمين أخوه أبو الحجاج ، تغمده الله برحمته ، أقعد القوم فى الملك ، وأبعدهم أمداً فى السعادة ثم اسماعيل أصغرهم ، المبتلى زمن شبيبته بالاعتقال المخيف مدة أخيه المستقر بالمغرب .

وزراؤه :

وزيره أول أمره القائد أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح ، نُصير بن ابراهيم بن محمد

ابن نصير بن أبي الفتح الفهرى ، و بيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة ، ثم أشرك معه فى الوزارة الوزير أبا الحسن على بن مسعود بن على ابن مسعود المحاربى ، من أعيان الحضرة ، وذوى النباهة ؛ فجاذب رفيقه حبل الحظة ونازعه لباس الحظوة ؛ حتى ذهب باسمها ومسماها ؛ وهلك القائد أبو عبد الله ابن أبي الفتح فخلص إليه شربها .

كتابه :

كتب عنه لأول أمره بمالقة ، ثم بطريقه إلى غرناطة ، وأياماً يسيرة بها ، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صفوان المالقى . ثم ألقى القيادة إلى كاتب الدولة قبل شيخنا أبي الحسن بن جيّاب فاضل الحطة ، و بارى القوس ، واقتصر عليه إلى آخر أيامه .

قضاته :

استقضى أخا و زيره الشيخ الفقيه أبا بكر يحيى بن مسعود بن على ، رجل الجزالة وفيصل الحكم . فاشتد في إقامة الحق ، وغلظ بالشرع ، واستهان بالجاه ، فخيفت سطوته ، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه .

رئيس جنده المغربى :

ومن أول هذه الدولة نبهت هذه الرتبة ، واستحقت أفرادنا إياها .

الشيخ البهمة ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ادريس ابن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ، مشاركا له فى النعمة ، ضارباً بسهم في المنحة كثير التجنى والدالة ، إلى أن هلك المخلوع ، وخلا الجو ، فكان منه بعض الاقصار .

الملوك على عهده :

وأولا بالمغرب ثم بفاس : السلطان الشهير ، جواد الملوك ، الرحب الجناب ، الكثير الأمل ، خِدن العافية ، ومحالف الترفيه ، ومتبحبح النعيم ، السعيد على خاصته وعامته أبو سعيد عثمان ابن السلطان الكبير ، المجاهد الصالح ، المرابط أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . وجرت بينهما المراسلات ، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه

وصدراً من أيام ولده الأمير أبي عبد الله ، حسب ما يمر عند ذكره

و بتلمسان : الأمير أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ثم توفى قتيلا بأمر ولده على عهده سادس عشر جمادى الثانية من عام ثمانية عشر وسبعمائة

وولّى الأمر مغتاله ولده المذكور أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى ، واستمرت أيامه بعد مهلك السلطان المذكور ، واستغرقت أيام ولده الوالى بعده ، إلى أن هلك فى صدر أيام السلطان أبى الحجاج ، وجرت بينه و بين السلطان أبى الوليد مراسلات ومهاداة

و بمدينة تونس : الشيخ الملقب بامرة المؤمنين ، أبو يحيى زكريا ابن أبى العباس ابن أبى حفص ، المدعو باللحيانى ، المتوثب بها على الأمير أبى البقاء خالد بن ابى زكرياء ابن أبى اسحق بن أبى حفص ، وهو كبير آل حفص سناً وقدراً . تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام أحد عشر وسبعمائة وتم له الأمر

واعتقل أبا البقاء بعد خلعه ، ثم اغتاله ، فى شهر شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة . ثم رحل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجه إلى أطرابلس فى وسط عام خمسة عشر وسبعمائة ، واستناب صهره الشيخ أبا عبد الله بن أبى عمران ، ولم يعد إليها بعد ذلك

ثم اضطرب أمر أفريقية ، وتناوبه عدة من الملوك الحفصيين ، منهم الأمير أبو عبد الله ابن أبى عمران المذكور ، وأبو عبد الله اللحيانى ، والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى اسحق ، لَبِنَة تمامهم ، وآخر رجالهم . واستمرّت أيامه إلى مدة ولده الأمير بالأندلس ، ثم معظم أيام ولديه . رحم الله الجميع .

ومن ملوك الروم أولا بقشتالة : كان كل عهده ، و بالزمن القريب من ولايته وفاة الطاغية هرانده بن شانجه بن الفونش بن هرانده (المجتمع له ملك ليون وقشتاله وهو المتغلب على قرطبة واشبيلية ومرسية وجيان) ابن الهونش (الجارية له وعليه وقعتا الأرك والعُقاب) ابن شانجه (المسمى انبرذور وهو الذى أفرد صهره زوج بنته بملك برتقال) إلى أجداد يخرجنا تقصّى ذكرهم عن الغرض

ومن ملوك رغون بشرق الأندلس : الطاغية جايمش ابن بيطره بن جايمش (الذى تغلب على بلنسية) ابن بيطره بن الهونش ، إلى أجداد عدة كذلك . ثم هلك فى أخريات أيامه ، فولى ملك رغون بعده الهونش بن جايمش إلى آخر أيامه

و ببرتقال : الهونش بن ذونيش بن الهونش بن شانجه بن الهونش بن شانجه بن الهونش ، وتسمى أولا دوقا

بعض الأحداث و بداية أمره :

ولما تصير الأمر إلى السلطان نصر ، مدبّر الوثوب بأخيه ، تنازعت بطانته ، وساءت سيرة ملكه ، فأغرى بالرئيس الكبير صاحب مالقة ، و بيده الجزيرة وسبتة ويعقّب عليه كثير من التصرف فيما بيده ، ثم لما وصل إلى الحضرة مبايعاً ، داخله بعضهم محذرا ومشيراً بالامتناع . فاستعجل الانصراف . وأظهر الاستبداد فى رمضان سابع عشر منه . وأقام رسم الملك بولده السلطان أبى الوليد هذا . وتحرك فنازل الحصون المجاورة لمالقة واستولى عليها

وفى أول شهر محرم من عام اثنى عشر وسبعمائة تحرك فنزل بقرية العطشاء من مرجها . و برز السلطان نصر إليه ، فى جيش اخشن . مستجاد العدة وافر الرّجْل فكان اللقاء ثالث عشر الشهر . فأظهر الله أقل الطائفتين . وانجرت على الجيش الغرناطى الهزيمة . وكبا بالسلطان نصر فرسه فى مجرى سقى لبعض الفدن . فنجا بعد لأى ودخل البلد مفلولا . وانصرف الجيش المالقى ظاهراً إلى بلده ثم وقعت المهادنة فى ربيع الاول من هذا العام . وعادت الفتنة جذعة [1] فى العام بعده

وكانت فى رمضان منه ثورة الأشياخ بغرناطة ، ودعاؤهم بخلعان السلطان ، ودعوة مخلوعه المعتقل ، طالبين منه اسلام وزيره خِدْن الروم ، المتهم على الاسلام ، محمد بن الحاج . ثم لحق الاشياخ المذكورون فارين بمالقة ، عند اختلال ما أبرموه .

وكانت الحركة الثانية الى غرناطة ، بعد أمور اختصرتها من استبداد السلطان

(١) أى تجددت

أبى الوليد بنفسه ، والانحطاط فى القبض على أبيه الى هوى جنده ، والتصميم فى طلب حقه ، فاتصل سيره ، واحتل ببلدنا لوشة سرار شوال فتملكها . ثم قصد غرناطة ، و برز إليه جيشها ، وابلى فى الدفاع ، فكادت تقع به الدبرة ، لولا ثبوت السلطان واسلفهم الحملة ، فولوا منهزمين ، وتبعهم الى سور المدينة . وقد خف اللفيف والغوغاء ، والناعقون بالخلعان ، الشرهون الى تبديل الدعوات ، الى تسنم المآذن والمناره والربى. و برز أهل ربض البيازين الهافون الى مثل هذه البوارق ، الى شُرُف بيوتهم كلٌّ يشير مستدعياً مستقدماً ، اعلاناً بسوء الجوار ، وملال الايالات ، والانحطاط فى وهد التقلب والتلوّن ، وسآمة العافية : شنشنة معروفة ، وخليقة فى الخليقه مألوفة . و بودر غلق باب البيرة فنقض قفله ، ودُخلت المدينة ، ولجأ السلطان الى معقل الحمراء ، ودخله بأهله وذخيرته وخاصته ، ونزل الدائل بالقصبة القُدمى تجاهها ، ينفذ الصكوك ، و يتألف الشارد ، و يذيع العفو ، وضعفت بصائر المحصورين وفشلوا - على وجود الطعمة ، وتمكن المنعة ، ووفور المال - فالتمسوا لأنفسهم ولسلطانهم عهداً و نزلوا منتقلين الى مدينة وادى آش ، فى سبيل العوض بمال معروف ، وذخيرة ، فتم ذلك ، وخرج السلطان نابياً به قرار جده وأبيه ، جانياً على ملكه الاخابثُ الاغمار ، ليلة الثامن والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، الى ان هلك حسب ما تقدم ذكره ، وخلا للسلطان أبى الوليد الجوّ ، وضربت اليه المقادة ، وأطاعه القاصى والدان ، ولم يختلف عليه اثنان

مناقبه :

اشتد على أهل البدع ، وقصر الخوض على ما تضطر اليه الملّة . ولقد تذوكر يوماً بين يديه أصول الدين فقال : أصول الدين عندى : (قل هو الله أحد) (السورة) وهذا (وأشاز الى سيفه)

واعتنى بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبذل فى فداء بعض أعلامهم

ما يعز بذله ، ونقل منهم بعضا من حرف خبيثة ، فزعموا انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكر له ذلك

واشتد فى اقامة الحدود ، واراقة المسكرات

وأخذ يهود الذمة بالتزام سِمة تشهرهم ، وشارة تميزهم ، ليوفوا حقهم ، من المعاملة التى أمر بها الشارع فى الطرق والخطاب

جهاده و بعض الاحداث فى مدته :

التاثت أموره لأول مدته ، فجرت عليه الهزيمة الشنيعة بوادى فرتونة . أوقع بجيشه الطاغية بمظاهرة السلطان المخلوع ، ففشا فى الاعلام يومئذ القتل فى صفر من عام ستة عشر وسبعمائة ، وظهر العدو بعدها على حصن قنبل ، وحصن متمانس ، وحصن نجيح وحصن تشْكر ، وحصن رُوط ، ثم صرفت المطامع عزمه إلى الحضرة ، فقصد مرجها وكف الله عاديته ، وقمه ، ونصر الاسلام عليه ، ودالت للدين الهزيمة العظمى بالمرج على بريد منها . واستولى على محلاته النهب ، وعلى فرسانه ورجاله القتل والإسار ، وعظم الفتح ، وبهر الصنع ، وطار الذكر ، وثاب السعد ، واستقامت الأيام . وهلك المخلوع ، فصفا الجو ، واتحدت الكلمة ، وأمكن الجهاد ، فتحرك فى رجب من عام أربعة وعشرين وسبعماية ، وأعمل الحركة إلى بلاد العدو ، ونازل اشكر الشجىَ المتعرض فى حلق مدينة بسطة — فأخذ بمخنقها ، ونشر الحرب عليها ورمى بالآلة العظمى ، المتخذة بالنفط ، كرة محماة ، طاقة البرج المنيع من ممقله ، فعاثت عياث الصواعق السماوية ، فنزل أهلها قسراً على حكمه للرابع والعشرين من الشهر ، وفى ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكرياء بن هذيل رحمه الله من قصيدة أولها :

بحيث البنود الحمرُ والأسد الوردُ كتائب سكان السماء لها جندُ

وفى وصف آلة النفط :

وظنوا بأن الرعدَ والصعقَ فى السما فحاق بهم من دونها الصعقُ والرعدُ

غرائبُ أشكال سَما هُرمِسٌ بها مُهَنْدَمَةٌ تأتى الجبالَ فتنهدُ

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً وما فى القوَى منها فلا بد أن يبدو

وأقام رحمه الله بظاهرها قصيرها دار جهاده ، وعمل فى خندقها بيده ، وفى ذلك يقول شيخنا كاتب سره ، نسيج وحده أبو الحسن بن الجياب ، رحمه الله ، من قصيدة أولها :

أمّا مَداكَ فغايةٌ لم تُسبقِ أعيتْ على غُرّ الجياد السبّقِ
فاشرح بسعدك كلّ معنّى مشكلٍ وافتح بسيفك كلّ باب مغلق

فى وصف عمله فى خندق الحصن :

لله منك مَشاهِدٌ مشكورة عند الاله بمثلها لم تُسبقِ
مثل الحفير بها الذى باشرته فعلَ الرسولِ وصحبِه فى الخندق

وفى العاشر لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة تحرك إلى الغزو ، وأخذ الأهبة ، واستكثر من الآلة ، واحتشاد المطوعة ، وقصد مدينة مُرْتُش العظيمة الساحة الطيبة البقعة ، فأضرب بها المحلات ، وكان قصده إجمام الناس إلى الغد ، فصرفت الحشود وجوهها إلى ما بها من شجر الكروم الملتفات ، وأدواح الاشجار ، فأمعنوا فى افسادها ، و برز حاميتها ، فناشبت الناس القتال لحميت النفوس ، وأريد منع الناس فأعيا أمرهم ، وسال منهم البحر ، فتعلقوا بالاسوار ، وقيل للسلطان : بادر الركوب ، فقد دُخِل البلد ، فركب ووقف بأزائه ، فدخل الحصن عنوة ، واعتصم أهله بالقصبة فدُخلت أيضا عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من ذكر وأنثى ، صغير أو كبير ، فساءت القتلة ، وقبحت الاحدوثة ، ورفعت من الغدآ كام من الجثث ، صعدت ذراها المؤذنون ، وقفل إلى غرناطة بنصر لا كفاء له . وكان دخوله من هذه الغزاة فى الرابع والعشرين لرجب المذكور .

وفاته :

ولما فصل من مَرْتُش ، نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد بن اسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً فقرّعه عليه ، و بالغ فى تأنيبه ، وتوعّده بما

أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء ، التى ارتكبها منه بباب قصره ، بين عبيده آمَنَ ما كان سِرْباً ، وأعز نفراً ، وأمكن امتناعاً ، غدوة يوم الاثنين الثالث من يوم دخوله ، بعد أن عاهد فى الأمر جملة من القرابة والخدام ، ووثب به وهو مجتاز بين السماطين من ناسه ، إلى مجلس المقود الخاص ، فاعتنقه ، وسل خنجراً ملصقاً بذراعه فأصابه بجراحات ثلاث : إحداهن بأعلى ترقوته ، فَرَتْ وَدَجَه ، فخرّ صريعاً وصاح فكرّ الوزير ، فعمّمته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرجة ، وسُلت السيوف ، وتشاغل كلٌّ بمن يليه ، وأُسْتُخلص السلطان من بين يديه ، وحِيلَ بينه و بينه ، فرُفع وظنت نجاته ، فوقع البهت ، و بادر الفرار ، وقد سدّت المذاهب فقُتلوا حيث وجدوا .

وأخذت الظِنّةُ قوماً من أبريائهم ، فاستُحلفوا ونهبت الغوغاء دورهم وعلقت بالجدران أشلاؤهم ، واحتمل السلطان إلى بعض دوره و به رمق ، للزوق العمامة بفوهة وَدَجه المبتور ، ففاض لحينه رحمه الله . ودفن غلس ليلة يوم الثلثاء ثانى يوم وفاته ، بروضة الجنان من قصر إلى جانب جده ، وتنوهىَ فى احتفال قبره نقشاً وتنجيداً واحكاماً وحلياً وتمويهاً ، بما يشذ عن الوصف ، وكتب على قبره نقشاً فى الرخام :

« هذا قبر السلطان الشهيد ، فتّاح الأمصار ، وناصر ملة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الامام العادل ، الهمام الباسل ، صاحب الحرب والمحراب ، الطاهر الأنساب والأثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم فى ذات الله صولة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، الحسام المسلول فى نصرة الايمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد فى سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن الهمام الأعلى ، الطاهر الذات والنجار ، الكريم المآثر والآثار ، كبير الامامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن علم الاعلام ، وحامى حمى الاسلام ، صنو الامام الغالب ، وظهيره العلىّ المراتب ، المقدس المرحوم أبى الوليد اسماعيل بن نصر ، قدس الله روحه الطيّب ، وأفاض عليه غيث رحمته الصيّب ،

ونفعه بالجهاد والشهادة ، وحباه بالحسنى والزيادة ، وصنع له فى فتح البلاد ، وقتل كبار ملوك الأعاد ، مايجده مذخوراً يوم التناد ، إلى أن قضى الله بحضور أجله ، فختم عمره بخير عمله ، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه ، وغبار الجهاد طى أثوابه * استُشهد رحمه الله غدرة أثبتت له فى الشهداء من الملوك قدما ، ورفعت له فى أعلام السعادة علما * ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدى الصبح من يوم الجمعة ، سابع عشر شهر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة ، و بويع يوم الخميس السابع وعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، واستُشهد فى يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة * فسبحان الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق » .

و بعده من جهة أخرى :

تخصُّ قبركَ يا خيرَ السلاطين	تحية كالصَّبا مرَّت بدارين
قبرٌ به من بنى نصرٍ إمامُ هدًى	عالى المراتب فى الدنيا وفى الدينِ
أبو الوليد ! وما أدراكَ من ملكٍ !	مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمونِ
سلطانِ عدلٍ و بأسٍ غالبٍ وندًى	وفضلِ تقوًى وأخلاقٍ ميامينِ
لله ماقد طواهُ الموتُ من شرَفٍ	وسِرُّ مجدٍ بهذا اللَّحدِ مدفونِ
ومن لسانٍ بذكر الله منطلقٍ	ومن فؤادٍ بحبِّ الله مَشْكون
أمَّا الجهادُ فقد أحيى معالِمَهُ	وقام منه بمفروضٍ ومَسْنون
فكم فتوحٍ له تُزهَى المنابرُ من	عُجْبٍ بهنَّ وأوراقُ الدواوين
مجاهدٌ نال من فضلِ الشهادة ما	يُجَبَى عليه بأجْرٍ غيرِ ممنون
قضى كعثمانَ في الشهرالحرامِ ضُحىً	وفاةَ مستشهدٍ في الدارِ مطعون
فى عارضَيْهِ غبارُ الغزْوِ تَمسَحُهُ	في جنة الخلدِ أيدى حُورِها العِين
يُسقَى بها عينَ تَنْسيمٍ وقاتِلُهُ	مُرَدَّدٌ بينَ زَقُّومٍ وغِسْلين

تبكى البلادُ عليه والعبادُ معاً ... فالخلقُ ما بين إخوانٍ أفانين

لكنه حكمُ ربٍ لامردَّ له ... فأمرُه الجزمُ بينَ الكاف والنون

فرحمة الله ربِ العالمين على ... سلطانِ عدلٍ بهذا القبر مدفون

وعظمت فيه فجيعة المسلمين ، لما ثكلوا من جهاده وعزمه ، و بلَوْه من سعده وعزة نصره . فكثرت فيه المراثى ، وتراهقت فى شجوه القرائح ، و بكاه الغادى والرائح . فمن المراثى التى أنشدت على قبره قول كاتبه شيخنا أبى الحسن ابن الجياب:

أيا عَبرةَ العينِ امزجى الدمعَ بالدم ... و يا زفرةَ الحزْن احكمى وتحكّمى

و ياقلبُ ذب وجداً وغماً ولَوْعةً ... فان الأسى فرضٌ على كل مسلم

وقول كاتبه الوزير الأديب أبى عبد الله بن اللوشىّ :

برّدْ بنار الشوق منك غليلا ... فالمجد أضحى شاكياً وعليلا

منها — وهو غرض حسن — :

قلّدْتُ سيف الوجد فارسَ لوعتى ... أسفاً وأجريتُ الدموع خيولا

و بنيتُ أبيات الرثاء وقد رأت ... عينى بيوتَ المكرُمات طلولا

وقول كاتبه الفقيه القاضى أبى بكر بن شيرين :

عزّ العزاء فما الذى نبديه ... فى الحزن الا بعض ما نخفيه

يا أيها الغادى يَحُثّ قَلوصه ... إيهٍ عن الخبرَ المرَجّم إيه

أودى أميرُ المسلمين فكيف لا ... نأسى عليه ، وكيف لا نبكيه ؟!

قد كان للاسلام عينَ بصيرةٍ ... فأصابت الاسلامَ عينٌ فيه

السلطان

محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه ـ يكنى أبا عبد الله

حاله :

كان معدوداً من نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة ، وعزة ، وشهامة ، وجمالا ، وخَصْلا ، عذب الشمائل ، حلواً ، لبقاً ، لوذعياً هشا ، سخيا . المثل المضروب في الشجاعة المقتحمة حدّ التهوُّر ، حِلسَ ظهور الخيل ، افرس من جال على صهوة ، لاتقع العين - وان غصت الميادين - على أدرب بركض الجياد منه ، مغرماً بالصيد ، عارفاً بسمات الشفار ، وشيات الخيل ، يحب الأدب ، و يرتاح الى الشعر ، و ينبّه على العيون ، ويلمّ بالنادرة الحارة

أخذت له البيعة يوم مهلك أبيه ، يوم الثلثاء السابع والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وناله الحَجْبُ ، واشتملت عليه الكفالة إلى أن شدا وظهر ، وشب عن الطوق . وفتك بوزيره المتغلب على ملكه وهو غلام ، لم يُبقل خده ، فهيب شباه ، ورهبت سطوته ، و برز لمباشرة الميادين ، وارتياد المطارد ، واجتلاء الوجوه ، فكان ملء العيون والصدور .

ذكاؤه :

حدثني ابن وزير جده ، القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال : تذوكر يوما بحضرته تباين قول المتنبي :

أيا خدّدَ اللهُ وردَ الخدود وقدّ قدودَ الحسان القدود

وقول امرئ القيس :

و إن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول ابراهيم بن سهل :

إني له عن دمي المسفوك معتذر أقول حمّلتُه من سفكه تعبا

فقال رحمه الله بديها — على حداثته — : « بينهم ما بين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي ، ونفس يهودي تحت الذمة ، و إنما تتنفس النفوس بقدر هممها » ، أو ما معناه هذا .

همته : —

لما نازل مدينة قبره ، ودخلها عنوة ، وهى ماهى عند المسلمين والنصارى من الشهرة والجلالة ، بادرنا نهنئه بما تسنّى له . فزوى عنا وجهه قائلا : « وماذا تهنونى به كأنكم رأيتم تلك الخرقة الكذا — يعنى العلم الكبير — فى منار إشبيلية ! » فعجبنا من بعد همته . ومرمى أمله .

الشجاعة :

أقسم أن يغير على باب مدينة بيانه فى عدة يسيرة من الفرسان . عينتها اليمين فوقع البهت ، وتُوقعت الفاقرة . لقرب الصريخ ومنعة الحوزة . وكثرة الحامية . ووفور الفرسان ، وتنخل أهل الحفاظ ، وهجم عليها فانتهى إلى بابها وحمل على أضعافه من الحامية فألجأهم إلى المدينة ، ورمى يومئذ أحد النصارى بزراق محلى السنان ، رفيع القيمة فأثبته ، وتحامل الطعين يريد الباب ، فمنع من الاجهاز عليه ، وانتزاع الرمح الذى كان يجره خلفه وقال : « اتركوه يعالج به جرحه ، إن أخطأته المنية » فكان كما قال الشاعر فى مثله — أنشدناه أبو عبد الله بن الكاتب : —

ومن جودِه يرمى العداةَ بأسهمٍ من الذهب الابريز صيغت نصولُها
يداوى بها المجروحُ منها جراحَه ويتخذ الأكفانَ منها قتيلُها

جهاده ومناقبه :

نازل حصن قشرة لأول أمره ، وهد سوره ، وكاد يتغلب عليه ، لولا مدد دخله فارتحل وقد دوّخ الصقع

ونازل قبره وافتتحها ، وهزم جيش العدو الذى بيّت محلته بظاهرها . وتخلص جبل الفتح . وهى أعظم مناقبه ، وقد نازله الطاغية ، وأناخ عليه بكلكله . وهدّ بالمجانيق أسواره ، فدارى الطاغية ، واستنزل عزمه ، وتاحفه ، إلى أن صرفه عنه ، ففازت به قداح الاسلام .

بعض الاحداث :

وفى شهر محرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة نشأت الوحشة بين وزيره المتغلّب على أمره محمد بن احمد المحروق ، و بين شيخ الغزاة عثمان بن أبى العُلى ، فصبّت على المسلمين شؤبوب فتنة ، عظم فيهم أثرها ، فخرج مغاضباً ، وهمّ للانصراف عن الاندلس ، ولحق بساحل المرية ، ثم داخل أهل حصن اندرش ، فدخل فى طاعته ، واستضاف إليه ما يجاوره ، فأعضل الداء ، وغامت سماء المحنة ، واستلحق المذكور عم السلطان من تلمسان محمد بن فرج بن اسماعيل ، فلحق به ، وقام بدعوته فى أخريات صفر من عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، وكانت بينهم و بين جيش الحضرة وقعات تناصفوا فيها الظفر . واغتنم الطاغية فتنة المسلمين ، فخرج غرة شعبان من العام ونازل ثغر و برة ركاب الجهاد ، فتغلب عليه ، واستولى على جملة من الحصون التى تجاوره فاتسع نطاق الضّر ، وأعيا داء الشر ، وصرفت إلى نظر السلطان ملك الغرب فى أخريات العام رُندة ، ومربلّة ، وما إليهما ، وأجلت الحال عن مهادنة عثمان بن أبى العُلى . وصرف المستدعى لدعوته إلى العدوة ، وعبر هذا الأمير رحمه الله البحر بنفسه مستصرخاً ومستدعياً للجهاد ، فى الرابع والعشرين من شهر ذى حجة عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووفد على ملكه السلطان الشهير أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق مستصرخا إياه ، فأعظم وفادته ، وأكرم نزله ، وأصحبه إلى الاندلس ولده ، وحباه بما لم يحب به ملك تقدّمه ، من مقربات الخيل ، وخطير الذخيرة ، ومستجاد العدة ، ونازل على أثره جبل الفتح ، وهيأ الله فتحه ، ثم استنقاذه بلحاق السلطان ، ومحاولة أمره ، فتم ذلك فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من شهر ذى حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

وزراء دولته :

وزر له وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود . وأخذ له البيعة . وهو مثخن بما أصابه

من الجراحات يوم الفتك بأبيه . ولم ينشب أن أجهزت عليه عدواها .

وتولى له الوزارة بعده وكيل أبيه محمد بن احمد بن محمد بن المحروق . من أهل غرناطة . يوم الاثنين غرة شهر رمضان عام خمسة وعشرين وسبعمائة . ثم قتل بأمره ثانى يوم من محرم فاتح عام تسعة وعشرين وسبعمائة .

ثم وزر له القائد محمد بن أبى بكر بن يحيى بن مول ، المعروف بالقيجاطى ، من وجوه الدولة ، إلى سابع عشر من شهر رجب من العام . ثم صُرف الى العدوة .

وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة مولى أبيه القائد أبو النعيم رضوان الشهير الديانة والسعادة إلى آخر مدته بعد أن التاث أمره لديه . وزاحمه بأحد المماليك يسمى عصاماً أياماً يسيرة بين يدى وفاته .

كتّابه :

كتب عنه كاتب أبيه وأخيه شيخنا الامام العلامة الصالح أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله إلى آخر مدته

قضاته :

استمرت الاحكام لقاضى أبيه وأخى وزيره الشيخ الفقيه أبى بكر يحيى ابن مسعود المحاربى . رحمه الله . إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة . فتوجه رسولا إلى ملك المغرب . وأدركته الوفاة بمدينة سلا . فدفن بها بمقبرة شالّة .

وتخلّف ولده أبا يحيى مسعوداً . نائباً عنه . فاستمرت له الاحكام ، واستقل بعده إلى أن صُرف عن القضاء يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعمائة .

وتولى الاحكام الشرعية شيخنا الامام العَلَم الأوحد . خاتمة الفقهاء . وصدر القضاة العلماء . أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الاشعرى المالقى . فاستمر له الحكم إلى تمام مدته . وصدراً من أيام أخيه بعده .

من كان على عهده من الملوك :

وأولاً بالمغرب : السلطان الشهير الكبير الجواد . ولى العافية . وحيلف السعادة

أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى قعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة

ثم صار الأمر إلى ولده السلطان المقتفى سننه فى المجد والفضل وضخامة السلطان مبرزًا عليه بالبأس المرهوب ، والعزم الغالب ، والجد الذى لا يشوبه هذل ، والاجتهاد الذى لاتتخلله راحة أبو الحسن ، إلى آخر مدته ، ثم مدة أيام أخيه بعده

و بتلمسان : الأمير عبد الرحمن بن موسى أبو تاشفين ، مشيّد القصور ، ومروّض الفروس ، ومتبنّك الترف ، إلى تمام مدته ، وصدراً من مدة أخيه بعده

و بتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر ابن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى اسحق ، لبنة تمام القوم ، وصقرجوارح متأخريهم ، إلى تمام مدته ، وصدراً كبيراً من دولة أخيه

ومن ملوك النصارى * وأولا بقشتالة : الفونش بن هرانده بن شانجة ابن الفونش ابن هرانده ، الذى ملك على عهده الجفرتين القنيطيّة والتاكرونية واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه

و برغون : الفونش بن جايمش بن الفونش بن بيطره ابن الفونش بن بيطره بن جايمش ، المستولى على بلنسية إلى آخر مدته ، وصدراً من مدة أخيه

وفاته :

وتوغّرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة ، إذ كان شرهاً ، لسانه غير جزوع ولا هيابة ، فربما تكلم بملء فيه من الوعيد الذى لا يخفى عن المعتمد به . وفى ثانى يوم من اقلاع الطاغية عن جبل الفتح بسعيه وحسن محاولته — وهو يوم الأربعاء ثالث عشر من شهر ذى الحجة ، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل منزله ، بموقع وادى السقايين — تماروا فى ظاهر الجبل تخفيفا للمؤنة ، واستعجالا للصدر ، وقد أخذت على حركته المراصد . فلما توسط كمينَ القوم ثاروا إليه وهو راكب بغلا ، أثابه به ملك الروم ، فشرعوا فى عتبه بكلام غليظ ، وتأنيب قبيح ، وبدأوا بوكيله فقتلوه ، وعجل بعضهم فطعنه ، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه زنمة من أخابث

المعلوجاء [١] ، اسمه زيان ، صونع على مباشرة الاجهاز عليه ، فقضى لحينه ، فى سفح الربوة المائلة ، يسرة العابر للوادى ، ممن يقصد الجبل ، وتركوه بالعراء مسلوب الساتر ، سيء المصرع ، قد عدَت عليه نعمه ، وأوبقه سلاحه ، وأسلمه أنصاره وحماته

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان يوسف ، صُرفت الوجوه إلى دار الملك ونقل القتيل إلى مالقة ، فدفن على حاله تلك ، برياض تجاور منية السيد فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . وأُقيمت عليه بُعيد زمان قبّة ، ونوّه بقبره ، وهو الآن ماثل بها رهن وحدة ، ومستدعى عبرة ، وعليه مكتوب :

هذا قبر السلطان الأجل ، الملك الهمام ، الأمضى الباسل ، الجواد ، ذى المجد الأثيل ، والملك الأصيل ، المقدس المرحوم ، أبى عبد الله ، محمد ابن السلطان الجليل الكبير الرفيع ، الأوحد المجاهد الهمام ، صاحب الفتوح المستورة ، والمغازى المشهورة ، سلالة أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، أمير المسلمين ، وناصر الدين الشهيد المقدس ، المرحوم أبى الوليد بن فرج بن نصر ، قدس الله روحه ، و برّد ضريحه . كان مولده فى الثامن لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة ، و بويع فى اليوم الذى استشهد فيه والده ، رضى الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وتوفى فى الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، فسبحان من لا يموت

يا قبرَ سلطانِ الشجاعة والنَّدَى ... فرع الملوكِ الصِّيدِ أعلام الهُدَى
وسُلالة السَّلَفِ الذى آثارُه ... وَضاحةٌ لمن اقتدَى ومَن اهتدَى
سلف الأنصار النّبىِّ نجارُه ... قد حلّ منه فى المكارمِ مَحْتِدا
متوسط البيت الذى قد أسستـــــه سادة الأملاك أوحدَ أوحدا
بيت بنوه محمّدون ثلاثة ... من آل نصر أورثوه محمّدا

(١) العلج بكسر فسكون القوى الضخم من العجم وجمعه علوج وأعلاج وعلجة واسم الجمع معلوجاء .

أودعتَ وجهاً قد تهلّل حسنُه بدراً بآفاق الجلالة قد بدا
وندًى يسحّ على العفاة مواهباً مثنى الأيادي السابغات وموحدا
يبكيك مذعورٌ، بك استعدى على أعدائه فسقيتهم كأس الرّدى
يبكيك محتاج أتاك مؤملا فغدا وقد شفعت يداك له اليدا
أمّا سماحك فهو أهمى دِيمة أمّا جلالك فهو أسمى مصعدا
جادت ثراك من الاله سحائب لرضاه عنك تجود هذا المعهدا

وتبعت هذا السلطان نفوس أولى الحرية ، ممن له طبع رقيق ، وحس لطيف ووفاء كريم ، فصدر فيه من التأبين أقاويل للشجون مهيجة . فمن ذلك ما نظمه الشيخ القاضى أبو بكر بن شيرين ، وكان على ظرفه وحسن روائه غراب ندبة ، ونائحة مأتم ، يرثيه ، و يعرّض ببعض من حمل عليه من خدّامه :

استقلاً ودَعانى طائفاً بين المغانى
وانعما بالصبر إنى لا أرى ما تريان
قُضى الأمر الذى فى شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إلهٍ ما له فى الملك ثان
مات يوم السلم قعصاً مِدْرَهُ الحرب العوان
واستُبيح المَلِكُ ابن الملكِ الحرّ الهِجان
يا خليلىّ أعينا نى على شجو عنانى
واذكرا سابغة النعمة فيما تذكران
وإذا صلّيتما يوماً عليه أذّنان
ما علمنا غير خيرٍ فاقضيا ما تقضيان
لا نبالى ما سمعنا من فلان وفلان
غيرَ ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان
وغداً يجمعنا المو قف من قاص ودان

ورضَى الله هو المطـــلوب فى كل أوان
وأخو الصدق لَعَمْرى ذو مقاماتٍ حِسان
وهوى النفس عناء حائل دون المعانى
وعلى البغضاء يُطْوَى وُدّ إخوان الخوان
بابى والله أشـلا ء على الرمل حَوان
بفتى ما كان بالوا نى ولا بالمتوانى
يمزج المـاء نجيعاً وينادى : علّلانى !
ليس بالهيّابة النكـــس ولا الغمْر الهدان
أبيض الوجه تراه والرَّدَى أحمرُ قان
أىُّ سيف لِضراب أى رمح لطعان
ذو نِجار خزرجىّ الـــمنتمى سامى المكان
ذكره قد شاع فى الأر ض إلى أقصى عُمان
لا تراه الدهرَ إلا حِلف سَرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يُلـــهيه تعزاف القيان
إن ألمّت هيعةٌ طا رَ اليها غير وان
بصدعُ الليلَ بقلبٍ ليـــس بالقلب الجبان
يا لها من نصـبة لو لا نحوس فى القران
وشـباب عاجلوه بالردى فى العنفوان
لم يجاوز من سنيه الـــعشرَ إلا بثمان
دوّخ الاقطار غزواً من هضاب ومحان
حكّموا فيه الظُّبى أسـرع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه فى الثرى ملقى الجِران
تشرب الارض دماً منـــه تهاداه الغوانى

وتحيّيه بتسليم ثغور الأقحوان
فالمعالى أودعته بين سَحر ولَبان
وغوادى المزن يرضعن ثراه بلبان
ضاع صرح الثغر لما أغمد السيف اليمانى
وأعير الأسَدُ الوَرْدُ القميصَ الأرجوانى
عاطيانى أكؤس الحزن عليه عاطيانى
حمله دون صلاة للثرى مما شجانى
أوَ ما كانوا له يدْعُون أعقابَ الأذان
لاتهينوه فما كان بأهل للهوان
عجبى والله من إبطان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسالى فؤاداً ما أرانى
وبحسبى دعوات أنا فيها ذو افتتان
بتّ أهديها اليه بعد ترتيل المثانى
ذاك جُهدى ، إنّ إحسان أبيه قد غذانى
فأنا الشيعة حقاً بفؤادى ولسانى
أفأنسى ذلك العهدَ وليس الغدرُ شانى
ويقال الرشح موجود قديماً فى الاوانى
وعهود الناس شتى من عجاف وسمان
وهى النعمة حقاً شكرها فى كل آن
اتئد يا فارس الخيل فغيرُ الله فان
والمعالى تطلب الثأر وتأتى بالأمانى
وهى الأرحام لا تنسى ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفار الخطايا فى ضمان

وهو يوفى الخصم إن شا ء وزاناً بوزان
والذى أفشى قبيحاً حظه عضُّ البنان
سلّم الله على من فيه ذو جهل لحانى
وجزاه بجهاد جاه منه ببيان
ربنا أنت خبير بخفيات الجَنان
ويداك الدهرَ فينا بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحْبٌ والرضى غضٌّ الجانى
فتغمّدنا برحمى وقبول وأمان
واجمع الشمل على أفضل حال فى الجِنان

واقتضت آراء القوم القائلة استرعاء عقد يتضمن ألفاظاً كانت تصدر عن السلطان قادحة فى العقد جاؤا بها إفكا وزورا ، ستُكتب شهادتهم و يُسألون .

ومن المعانى البديعة فى عكس الاغراض قوله :

عينُ بكى لميّت غادروه فى ثراه ملقًى وقد غدروه
دفنوه ولم يصلّ عليه أحد منهم ولا غسلوه
انما مات حين مات شهيدا فأقاموا رسما ولم يقصدوه

وسنترجم إن شاء الله هؤلاء الملوك ووزراءهم بأوسع من هذا عند الوصول إلى الكلام على غرناطة .

﴿ تم الجزء الثانى والحمد لله ﴾

فهرس مواضيع الجزء الثانى
من كتاب
الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

تم فهرس مواضيع الجزء الثانى

فهرس الاعلام

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية

رتبها الفقير اليه تعالى عثمان خليل

(خ)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

بنو

(أبو)

﴿ تم فهرس الأعلام ﴾

فهرس الاماكن والبلاد

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(ا)

(ح)

(ش)

(ظ)

. . . . . .

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(تم والحمد لله فهرس الأماكن والبلاد)

جدول إصلاح خطأ

الجزء الثانى من الحلل السندسية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٥	المقرىء	المقرئ : وقد تكرر هذا كثيرا وصوابه وضع الهمزة فوق الألف المقصورة لا بجانبها
٤٨	٩	وهى جنينة	وهى مبنية
٤٨	١٠	عليها حسن	عليها حصن
٥٤	١٧	ثم قلت	قلت
٥٩	١١	Corigia	Corogia
٦٣	٨	وجهزه	جهزه
٦٨	٤	كورد	كاردل Cardel
٧١	٥	إل	الى
٧١	٢١	أبسن	آسِن
٧٩	٢٢	جَلَّة	جِلَّة
٨٠	٦	سيفوانه	سيغوزه
٨٠	١٤	Tarrlb	Torralbo
٨٠	١٤	Alamazun	Almazan
٨١	٣	كالهوة	كالاهرَّة
٨١	٤	خرسونه	طرسونه
٨١	٨	من من القرن	من القرن
٨٦		أديزه	أريزه
٨٧	٢٢	صدى	صدًا
٨٩	١٥	ووثوبه	وثوبه
٩٠	٨	وابو القلعى	وابن القلعى
٩٣	١	بيدره	بيبره
٩٣	١	خلالا	شلالا
٩٤	٢	يرول	ترول

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٤	١٧	يعلو على ستة أمطار	يعلو ستة أمتار
١٠٩	٣	Maidits	Maudits
١٠٩	٦	Perdiu	Perdu
١٣٤	٦	واستمرت	استمرت
١٣٦	١٥	العجم .	المعجم
١٥٣	١٨	مُقدّمة	مقَدّمه
١٦٩	٢٣	بالميرته	بالمريه
١٧١	١١	فاجرة	ناجره
١٧٢	٢٣	الكتيب	المكتّب
١٨٠	٩	حيات	حياة
١٢٢	٢٢	ترجمت	ترجمة
١٩٢	٢٣	ملسكوا	ملكوا
١٩٧	١١	عُذملية	عُذمُلّية
١٩٧	١٤	شرف الاندلس	شرق الأندلس
١٩٧	٢٤	ابو عميره	ابو عمر
١٩٩	٦	الاسبانيول	الاسبانيولى
٢٠٧	١١	سيمونت	بيمونث
٢٠٧	٢١	الذين	اللذين
٢١٧	١٨	ڤيش	ڤيك
٢٢٤	٤	(٢)	(١)
٢٣٦	٩	احواز رقة	احراز رقه
٢٣٦	١٢	بكتف	بكنف
٢٤٩	٢٠	انتقاض	انتفاض
٢٥٥	٦	المرور	الممرور
٢٦٧	٢٢	نافذة صغيرة	كوة صغيرة
٣٠٠	١٨	الهمة	البهمة
٣١٨	١٧	لقتلهم	لقلتهم

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

ابن خلدون : هو حجة التاريخ العربي ، وإمام فلسفته ، وواضع علم الاجتماع الانساني والعمران على غير مثال . أطلعته سماء تونس الخضراء سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة كوكباً متألق النور في العالم العربي كله ، تفرد بعقليته ، وتوحد بعبقريته فطبع التاريخ العربي بطابع ثابت من عقله الحكيم ، وذوقه السليم ، فلم يكن في شيمة من سبقه أو لحقه من المؤرخين في سرد التاريخ وقائع ، وروايته أعلاما ودولا وسنين ومواقع ؛ بل أرسل عليه من هديه ودقة خبرته وقوة تفكيره وسعة اطلاعه ، أشعة ساطعة تكشف عن دقائقه في ثنايا المبالغة والابهام ، وتبين عن حقائقه في أثناء الحوادث الجسام ، وتجرد هذه الحقائق من غواشيها ، ثم تجلوها ناصعة كأنه رآها وسايرها ، بل كأنه دارجها وعاصرها

مزية تلك ، بل مزايا مجتمعة ، بنى عليها ابن خلدون مقدمته ، ثم كتابه « العبر » فجاء مصدراً للتحقيقات العلمية للتاريخ ومرآة صافية تلوح فيها دول الاسلام كل دولة في زمانها ، وكل أمة بأخيلة أعيانها ، وسياسة كل عصر بفنونها وأفنانها ، وتقلبها ودورانها

وقد كان كتاب « العبر » في كل زمن حجة المؤرخين وبخاصة من الأوربيين الذين آمنوا بأنهم من المؤلف بازاء عقل جبار دقيق الوزن للحوادث ، دقيق التقدير للأقدار ، مستندا في إثبات ما يثبت ونفي ما ينفي وتضعيف ما يضعف على أقيسة من التاريخ نفسه . فهم إليه يرجعون في تحقيق بحوثهم العمرانية والاجتماعية والتاريخية ، وعليه يعولون في تحقيق جغرافية الممالك والأقاليم ، وصغار المدن وكبارها .

طبعة ابن خلدون الجديدة : وقد كانت طبعته القديمة كما تشهد على نفسها بنفسها فائضة بصنوف من الهنات والهفوات ، مردها إلى عبث النساخ وجهالاتهم . ولكنا لحسن الحظ حصلنا

على صورة مضبوطة من نسخة بخط المؤلف نفسه وقد كان أهداها إلى سلطان المغرب في عصره موقع الاهداء بإمضائه ، وبقيت منذ ذلك العهد مصونة في خزانة الكتب القروية بفاس ؛ حتى أذنت لنا وزارة مولاى السلطان سيدى محمد ملك المغرب أعزه الله بالمراجعة عليها لطبعها وتعميم نفعها : ما عدا المجلد الأول فقد أخذنا نسخته عن مخطوطة الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ومما يجدر ذكره أننا عثرنا فيها على زيادة تبلغ نحو ٦٠ صفحة موقعها من الطبعة القديمة صفحة ٢٢ من المجلد الثالث .

فكان من هذا المجهود الشاق صورة كاملة نادرة المثال ، كما راجعناه على الأجزاء الموجودة من نسخة المرحوم أحمد تيمور باشا والمرحوم أحمد زكى باشا بدار الكتب

ولم نشأ أن تطبع الطبعة الجديدة مكتفين بدقة التصحيح على نسخة المؤلف كما قدمنا ، بل أردنا أن يكون لهذه الطبعة مزايا على الطبعة القديمة أيسرها الدقة والتصحيح ، فوكلنا ذلك إلى لجنة علمية من الأستاذين الكبيرين السيدين محمد علال الفاسى ، وعبدالعزيز بن إدريس بالمغرب ، فعنيا بتصحيح الأصول وضبط الأعلام والتعليق عليها ، وتعمير مواضع البياض الموجودة بالأصل ، والاعتماد على مختلف المراجع العلمية فى التصحيح والتنقيح . و إلى أمير البيان ، وفخر كتاب العربية فى هذا الزمان ، الأمير شكيب أرسلان فعلق عليها أو فى تعليق خرجت به النسخة أصح صحة وأجل جمالا ، وأتم تماما . وبخاصة فى الجزء الشامل لمبدأ تاريخ الدولة العثمانية فقد أتى فى تعليقاته على هذا الجزء بمعلومات دقيقة كان صدره خزانتها ، وعلمه الواسع جعبتها .

وقد تفضل حضرة الأستاذ الكبير أحمد أمين بك بكتابة مقدمة هذه الطبعة .

وقد امتازت هذه الطبعة بوضع عدة فهارس لها مرتبة على حروف الهجاء ، عنى بترتيبها وتنسيقها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى افندى الموظف بدار الكتب المصرية

وستخرج هذه المجموعة من الكنوز التاريخية فى أربعة عشر جزءاً تباعاً كل جزء منها يقع فى قرابة ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط والورق المصقول .

الاشتراك قبل الطبع وبعده : وقد جعلنا قيمة الاشتراك فى كل جزء أثناء الطبع ، ولمدة وجيزة ١٥ قرشاً صاغا و ٤ قروش أجرة البريد ، وأن يدفع المشترك ثمن الجزء التالى أيضا مقدما وكلما انتهى جزء يرسل ثمنه : وهكذا إلى آخر الكتاب يكون تحت يدنا ثمن جزء مقدما يرسل باسمنا بالمطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر تليفون ٥١٥٢٢

وقد باشرنا طبع «تعليقات» الأمير شكيب أرسلان على الجزء الأول فى مجلد مستقل فى نحو ٥٠٠ صفحة ، وكذلك باشرنا طبع الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون وسيصدران بعد شهر واحد إن شاء الله وسيكون ثمن كل جزء بعد الطبع عشرين قرشاً صاغاً وقد تم طبع الأول وهو الآن تحت طلب من يبتغيه تحريراً فى أول أكتوبر سنة ١٩٣٦ محمد المهدى الحبابى بوستة الغورية